أيَّامٌ برائحةِ عِطْرِكِ

أيَّامٌ برائحةِ عِطْركِ

آية عبد الرحمن

تصميم الغلاف:

رقم الإيداع: 26512 /2017

I.S.B.N:978- 977-6640-18-4

الطبعة الأولى 2018م



الإدارة: 17 ش عزت باشا المطرية، القاهرة.

المدير العام: آية سعد الدين

مدير النشر : د. رامي عبد الباقي

نائب المدير : رامي غزالة

شؤون إدارية : رقية عبد الله

هاتف: 01099387500 - 01147633268

E – mail:zeinpublish2017@gmail.com
Facebook: Zein Publish

آية عبد الرحمن

أيَّامٌ برائحةِ عِطْرِكِ

رواية



إهداء

إلى ضحى صلاح

لعطرك الذي أكسب ذكرياتي عبقًا خاصًّا..

ولأيامنا الملونة، التي كانت والتي ستكون..

- فجر -

مرحبًا، ندى..

لا أدري من أين أبدأ رسالتي، أسبوع مرَّ وأنا مترددة، ومسحت كل ما أردت كتابته على مدار أيام، وأتمنى لو أستطيع أن أصف لك مقدار الارتباك الذي أشعر به الآن، لتلك الرسالة غير المتوقعة، والسبب الذي يدعوني لكتابتها.

قبل أسبوع تقريبًا التقيت مروان، ولم يكن هذا لقائي الأول به، إذ إنني أعاني مطارداته السخيفة منذ فترة، لكنه في آخر مرة استطاع أن يتغلب عليّ ويثير البلبلة في عقلي، وكل هذا بسببك، أو لأجلك.

أنا هبة، لعلك مازلت تذكرينني، لعلك مازلت تهتمين بي، لعلك تسعدين برؤية اسمي في تلك الرسالة. أنا هبة يا ندى، أخبرني مروان كم بحثتِ عني بعد اختفائي، أخبرني كم تألمتِ لرحيلي دون كلمة تفسير أو وداع، أخبرني أنك كنت ممتلئة بغضبٍ سرعان ما استحال يأسًا وألمًا، ظلا يسيطران عليك كلما ذُكر اسمي، حتى اختفيتِ بدوركِ ولم يُعثر لكِ على أثر.

تُرى من الأحق بالغضب يا ندى؟ أنت أم أنا؟ أيحق لك أن تغضبي لكوني رحلتُ دون إنذار، وتواريتُ عن كل من لم يكترث لأمري؟ أم يحق لي أنا الغضب، لأنني بعد هذه السنوات، أكتشف أن ثمة شخص تركته خلفي يعاني دون أن أعلم، لأنه لم يخبرني قط أنني مهمة بالنسبة إليه؟

كلمات مروان تؤلمني، تثير داخلي شعورًا ثقيلًا بالخزي والألم؛ ما تخيلت يومًا أنني قد أشعر باحتقار نفسي، لكنني حقًّا أشعر بهذا، ولا أطيق فكرة أن أحتل في عالمك الموضع الكريه الذي يحتله مروان وسمير في عالمي. أريدك أن تفهمي جيدًا أنني ما فعلت ما فعلت، إلا لأنني لم أعرف أني سأوذيك، وأنني ما رحلت تاركة وعدَكِ الرقيق خلفي إلا لأحفظ صورتك الجميلة كما هي بأعماقي، إلى الأبد، ولأتركك عند تلك المسافة التي تجعلنا نرى من نراه في أبهى صورة. خشيتُ أن أختصر تلك المسافة بيننا فنصطدم، ويغدو كل جميل جمع بيننا – على قلته- شيئًا مؤلمًا مؤذيًا كالذي يربطني بالآخرين.

ولكن، هل ستصدقينني لو قلت لكِ إنني حقًّا لم أنسكِ؟ من الغريب أن أنتبه لهذا الأمر الآن فقط وأنا أكتبه. حقًّا يا ندى لم أنسكِ، لقد كنت تطلين من نوافذ ذاكرتي في لحظاتٍ كثيرةٍ جميلة، بعضها يتشابه مع لحظاتنا القديمة القليلة. وفي لحظاتٍ أخرى، كنتُ أتمنى وجودَكِ، لحظات كان يملؤني فيها شعور

غامض بأنها كانت لتصبح ذكرى حُلوة تنضم لدفترنا المشترك، لو أننا حظينا معًا بوقتٍ أطول.

نحن لم نحظ بهذا الوقت الأطول قط لأنني كنت أتألم حد الموت يا ندى، كنتُ أشبه بطائرٍ مجروحٍ يكاد يهوى من علٍ، ولم يجد سبيلًا لاستنقاذ نفسه سوى العودة إلى عُشِّه، وقد عدتُ إلى عُشٍ صنعته بنفسي لنفسي، تواريتُ فيه حتى شفيتْ جروحي، وأصبحتُ قادرةً مجددًا على الطيران، لكنني لم أفكر في التحليق مرة أخرى في مرمى الألم، لهذا لم نلتق، لهذا عشت آمنة، لائذة بأحضان السلوى والنأي، حتى التقيت مروان.. مروان، مثار الألم، وعصف الأوجاع.

لن أستطيع أبدًا إخبارك كيف شعرتُ وهو يعنفني لأجلك، الشعور المؤلم بالخزي جعلني حقًّا أكرهه، لكن كراهيته لم تعفني من كراهيةِ نفسي، ولم تعفني من الغضبِ عليكِ. لو أنك كنتِ أخبرتني! لو أنك عبَّرتِ قليلًا عن مشاعرك وبُحْتِ لي بأنك تعتبرينني صديقة! لو أنكِ فعلتِ هذا ما أقدمتُ على فعل ما فعلت يا ندى، وأنا لا أقول هذا لأتهرب من مسؤولية ما فعلت، أنا أُقرُّ بخطأي وأعترفُ به، وسأتحمل تبعاته، لكني أود أن أوضح لك أنكِ كنتِ – أيضًا- مخطئة.

حاولي أن تفكري بعقلي وستدركين شعوري. ندى، الفتاة الجريئة الأنيقة التي تتطلع إليها كل الأعين، التي يحيط بها مئات المعارف وعشرات الأصدقاء، التي يهواها شخص عزيزٌ عليّ إلى درجة التقديس، ولا يكف عن تمجيدها أمامي بصفاتٍ باهرة. ندى التي جمعتني بها لقاءات قليلة، ونزهات قصيرة تعد على أصابع اليد، ومحادثات عبر الإنترنت نناقش فيها أمورًا عامة أكثر مما نتحدث عن أنفسنا، ندى تلك تعتبرني أنا صديقة! أنا المنطوية غريبة الأطوار، التي لا يفضل شخص الاقتراب منها لأنها تبدو متكبرة متعجرفة نائية عن الجميع، أنا التي لم تحظ بمديحٍ يزيد على "فتاة مثقفة ولطيفة"، ولم أنل قط صديقة واحدة مخلصة حق الإخلاص، أنا التي تُلاقى دومًا بكراهية لا مبرر لها، حتى في لحظات التعارف الأولى. أنا، هبة، كيف لي أن أصدق أن واحدة مثلك تعتبرني أنا صديقة حقيقية، صديقة تتألم لرحيلها!؟

لو لم يقسم مروان بالله ما صدقته!

بداخلي شعور أدنى إلى الغضب منك يا ندى، ولو رأيتك فلربما صرخت في وجهك غيظًا، وفي الوقت نفسه يتنازعني شعور آخر هو مزيج من أسى وندم،

لأنني لو أدركت ما قاله مروان مبكرًا، أو لو أنك أخبرتني بما أخبرني به مبكرًا، ما كنت رحلت، وما كنت لأمر بأوقات مريرة أليمة قضيتها وحدي، في عُشي النائي، أُضَمِّدُ جراحي.

لكنني نضجت إلى درجة تجعلني أقدر أن ما فعلته يجعلك أكثر غضبًا مني، لهذا أنا مدينة لك، لست مدينة باعتذار بقدر ما أنا مدينة بتفسير، تفسير طويل ودقيق وصادق عن السبب الذي دعاني لفعل ما فعلت، وسأمنحك هذا التفسير الذي لم أمنحه لسواك، لعله يجعلك قادرة على التفكيرِ برويةٍ، لعله يجعلكِ تقدرين موقفي ومشاعري، كما أقدر موقفك ومشاعرك.

أكره التبريرات يا ندى، فمهما كان الشخص الذي نقدمها إليه مقرَّبًا إلينا لدرجة توجب عليه أن يفهم مشاعرنا، مهما كان عاقلًا ناضجًا قادرًا على تقدير مشاعر الغير، فهو -في الغالب- لا يستطيع أن يقدرنا نحن. تغمرني المرارة وأنا أكتب هذه الكلمات، إذ ينتابني شعور مُعَذِّب بأن مبرراتي مهما كانت صادقة وصريحة، ربما لا تثير فيك شعورًا بخلاف الغضب والكراهية.

لكنني سأكون صادقة، أعدك بهذا، حتى ولو شعرت بأن صدقي قد يؤلمك، سأخبرك بكل شيء، كل شيء عن هبة المنطوية، المعزولة والمنعزلة، المكروهة والمُطاردة بشائعات لا أول لها ولا آخر؛ فقد فات الزمن الذي كنت أصمت فيه كي لا أجرع شقائي مرتين، أو كي لا أحصد شفقة من أحب أو سخريتهم. لم يعد لديّ مبرر لمزيد من الصمت يا ندى، على الأقل أمامك.

لعل هذا يداوي بعض ألمك مما فعلت، إن لم يكن بالتفهم، فعلى الأقل سأمنحك كراهيةً صريحةً صادقة تُمكّنك من إلقاء ذكرياتك عني خلف ظهرك إلى الأبد، والكراهية كثيرًا ما تُريح وتُشفي يا ندى، بعكس ما يعتقد الأغبياء.

ولكن، قبل أي شيء دعيني أدعوك بلقب (صديقتي العزيزة)، كما كنت أفعل في رسائل تعارفنا الأولى، دعينا نتظاهر ولو قليلًا بأن شيئًا لم يكن، وبأننا في نقطة التعارف الأولى اللطيفة المهيبة، التي يبدو كل شيء فيها جميلًا، يغرينا بتقبل أي شيء من الطرف الآخر.

أتمنى أن تطالعي هذه الرسالة في أسرع وقت. أعرف أن عنوان بريدك الإليكتروني هذا شديد السرية، لا يملكه مروان الأحمق الذي أكد لي انقطاع أخبارك تمامًا هاتفيًّا وعبر الإنترنت، لهذا يملؤني الأمل في اتصال سريع بيننا،

ولكن حتى لو لم يأت هذا الاتصال سريعًا فسأظل أراسلك دائمًا يا ندى، حتى تقبلي اعتذاري أو ترفضيه.

وإلى هذا الحين، استعدي لكثير من الثرثرة، والذكريات، فمنذ التقيت مروان وأنا أسبح في نهرٍ منها، حتى بت لا أستطيع تحملها وحدي.

سأشاركك إياها اعتبارًا من رسالتي القادمة.

هبة

6 يونيو 2011

اليوم الأول

ثُمالـــــة

صديقتي العزيزة ندى

لم أتلق ردًّا منك بعد، لكني لن أتعجلك، أعرف أنك بحاجة لكثيرٍ من الوقت كي تستوعبي وجودي من جديد، وتستوعبي فكرة الإنصات لي، ثم الرد عليّ.

في رسالتي الأولى لم أخبرك أنني الآن في الإسكندرية، أتذكرين الإسكندرية؟ لقد زرتها وأنا في الخامسة أو السادسة من عمري تقريبًا، ثم زرتها مرة أخرى بعد زيارتي الأولى بخمس سنوات أو ست. لم أحمل ذكرى خاصة لها، إذ إن مشكلات أبي وأمي، وشجارهما المستمر، تكفلا بجعل ذكرياتي عن تلك الرحلة ككل ذكريات حياتي المشوشة، المتشابهة في تشوهها. إلا أنني أحببت الإسكندرية من حديثك معي عنها، أحببتُ ذكرياتكِ أنتِ فيها.. بيت أهلك عندما يمتلئ بنساء العائلة (المسخرة) اللائي لا يتوقفن عن الضحك والتدخين، وقضاء الأوقات المرحة بعيدًا عن (الحلاليف) كما تسمينهم، ومشاويرك مع أصحابك في فترة الصيف هناك، والتحدي الذي تباهيت به مع صديقنا محمد حسين، عندما مشيتما من ستانلي حتى قلعة قايتباي. صحيح أنني لم أدرك المسافة، لكنني اتفقت معكما بأننا سنمشيها معًا في أول رحلة نقوم بها معًا إلى هناك، ولم تأت تلك الرحلة قط.

اليوم أنا في الإسكندرية، أقف في شرفة شقة صغيرة في عمارة بعيدة بمنطقة منعزلة في أبي قير، أستنشق رائحة الجو العذبة، ورائحة البحر الذي أراه ممتدًا أمامي تثير فيَّ حنينًا رهيبًا إليكِ. أفتقدك كثيرًا يا ندى، طالما افتقدتك، ويزداد شعوري بافتقادك كلما شممت رائحة بحر الإسكندرية، فهي واحدة من الروائح التي اقترنت في عقلي بكِ، هناك آلاف الروائح التي تعيد إليَّ ذكراك، وتلك أقواها.

معي في الغرفة الآن إيتشيرو، حبيبي.. لم أخبرك بعد أنني وقعت في الحب كما تمنيت دائمًا مع شخص أجنبي. طالما رفضت الارتباط، وعندما كنت أتقبل قليلًا فكرة الحب والزواج، أو أشعر بالحنين لعائلة دافئة تتناقض وعائلتي، كنت أتمنى الزواج بأجنبي. لم أتمن قط مصريًّا لأنني أكرههم جميعًا؛ مغرورين غيورين متحكمين متسلطين، عميان وأغبياء في التعبير عن مشاعرهم، والأسوأ

من كل هذا أنهم مملون، يحفظون أسطوانة واحدة لا تتغير، يديرونها عندما يغضبون، وعندما يتملقون أنفسهم، وعندما يكذبون، وعندما يحبون. لن أتحدث عن إهمالهم وفوضويتهم وقذارتهم لأنها صفة يشترك فيها نصف رجال العالم، ولكن نصف هذا النصف يوجد هنا في مصر، يا الله! لا أعلم كيف تحملت سخافاتهم طوال سنوات حياتي، التي تجاوزت قبل شهور –كما تذكرين قطعًا- حاجز الرابعة والعشرين.

عواطفي الغارقة في الرومانسية، والتي تشبعت بالأحلام التي أهوى ترجمتها إلى قصصٍ تُخرجني من حياتي التعسة، لم تؤهلني قط لتحمل سخافات الرجال المصريين، والتي تتراوح بين التضييق عليَّ في بيتي، والضغط على أعصابي بحجة "لا تناقشي أباك"، أو "يجب أن تتحملي أخاك"، أو مضايقتي في الشارع بالتحرشات المنحطة، والتي يرونها ترجمةً لرجولتهم الزائفة. أما على الصعيد العاطفي، فإذا أعجب بي أحدهم أو رغب في الارتباط بي، كان ثمن ارتباطنا أن أقيد نفسي بأصفادٍ حديديةٍ، كي أثبت له حبي، وأنني فتاةٌ موثوق فيها، وأن أستسلم له تمامًا، ليُخرِّب حياتي ومستقبلي كما شاء، ويتحكم فيهما كما شاء، لمجرد أنه يحبني.

لم يكن هذا رومانسيًّا بالمرة.. وكم كان الأمر يبدو سخيفًا كلما عرض أحدهم حبه، مقرنًا عرضه بحتمية تنازلي عن جزء من أحلامي لأجله! بخلاف استسخافي أنانيته كنت أحتقر غباءه؛ هل يتوقع أن أضحي لأجله دون حتى أن أعرفه أو أتعلق به؟ ألم يكن من الذكاء أن يحاول إغرائي بمعسول الكلام، أو رقة المعاملة، أو أي شيء من تلك الأشياء الغبية التي يتقنونها كي أحبه، وبعدها يحاول التحكم فيَّ؟

كان هذا قاسيًا، ويجرحني أيما جرح. لشد ما أزعجني تصورهم إياي مجرد دمية يبتغون تحريكها بأصابعهم لا أكثر، ولشد ما أزعجني استهانتهم بعقلي، وكم أثار اشمئزازي أن اهتمام بعضهم كان منصبًّا فقط على جسدي. تذكرين كم كنت أميل دائمًا إلى الإهمال في مظهري، ولم تعرفي أن هذا لاشمئزازي منهم، وكراهية مني لأن أترك لخيالهم المريض العنان كلما أبصروني.

لكنني لن أبالغ كثيرًا يا ندى، لم يكونوا جميعًا حيوانات وأغبياء، فقد تودد إليَّ أيضًا الطموحون وذوو العقول "المتحضرة"، وعرفت أكثر من شخص يتباهى بأنه "لا يمانع" تركي أغدو كاتبةً عظيمة كما تمنيت منذ الطفولة.. ولكن هؤلاء انقسموا لنوعين، أحدهما عاملني بـ"استخسار" يتلخص في "بنت محترمة ومؤدبة وخام زيك، ومتعلمة تعليم عالي ومعاها كذا لغة، هي أحسن أمّ ممكن

أختارها لأولادي، ومش هسيبها لحد تاني أبدًا". ونوع آخر عاملني كصفقة لا يجب أن تفلت من يده على طريقة: "معنديش مانع تشتغلي وتحققي نفسك، لأن نجاحك هيثبت نجاحي. بس لازم تعرفي إن مرتبك اللي بتصرفيه على نفسك وبتساعدي بيه أهلك، دلوقتي ملكك، لكن بعدين هيكون ملك جوزك وبيتك". ولم يكلف نفسه عناء مجاملتي بإضافة "ملكك" قبل "جوزك وبيتك".

بل إنني حتى التقيت النوع العملي الحاسم، والذي خطط لحياتنا في أول تعارفنا بقوله: "أنا قارنت بينك وبين ريهام، ولقيت إنك الإنسانة اللي هتقدر تستحملني، على الأقل أنتِ بنت بلد وتقدري تتحملي مسؤولية. ريهام رغم إنها جميلة وماتتعيبش في حاجة، بس متدلعة وهتتعبني. تخيلي إن أقل بلوزة بتشتريها تمنها لا يقل عن 250 جنيه!"

ولا أنسى أبدًا الأحمق الذي جادلني في فكرة عملي من الأساس، وعندما ضاق عليه خناق الردود المنطقية قال: "مستحيل أسيب مراتي تشتغل، أنا مش عايز زوجة تنجح وتشتهر، وتكبر وتساوي رأسها برأسي".

كنت أعرف عن أنانيتهم الكثير، لكن هذه الفجاجة أذهلتني، ولم أجد ما أقول إلا: "يا نهار أسود!"

فلما رأى وجومي أسبل جفنيه متظاهرًا بالرومانسية، وسألني: "وهتحتاجي النجاح ليه يا حبيبتي؟ حبي هيكفيكي عن الدنيا كلها. ومش هتعرفي تعيشي من غيري".

وكأنني سأتزوج أسطوانة أكسجين!

هكذا وصلت إلى قناعة تنطبق على 90% منهم، إنهم ليسوا حلاليفًا فحسب، بل أغبى الأغبياء كذلك، وقد كرهت غباءهم هذا كما لم أكره شيئًا قط. وصرت أدعو الله أن لا أقع في حب حلوفٍ منهم.. ينظرون إليَّ كتحفةٍ يجب أن تقتنى، أو مشروعٍ استثماريٍّ، أو خادمةٍ اقتصادية برتبة زوجة يستمتعون بها. لم يحبني أحدهم حقًّا، ولم أجد أي فتاة حولي نالت هذا الحب الحقيقي المنشود، لم أر إلا تعاسة لا سبب لها ولا مبرر تعانيها زميلاتي المرتبطات، فأيقنت أن الرجال في هذا البلد عاجزون عن الحب. وهكذا انعزلتُ في قوقعتي، واكتفيتُ برفضهم واحدًا تلو الآخر، ومع بداية العام الثاني في الجامعة نلت اللقب الميمون (مغرورة ومعقدة وأنفها في السماء)، وما أحلاه من لقب أبعد أكثرهم عني، وإن لم يبعد قلة من السخفاء يفوقون الذباب لزوجة.

كنت سعيدة بوحدتي تلك يا ندى، لم أكن قد عرفتك في ذلك الوقت، وكان أصدقائي هم أبطال القصص الخيالية التي أقرؤها، وأبطال آخرون أنسج معاناتهم وسعادتهم في خيالي، وألقي بتلك الخيالات على أوراق تكاثرت حتى أصبحت دفاتر تملأ درجين من مكتبي. لم تعد العلاقات الرومانسية الحقيقية تمثل لي أكثر من الالتزامات المملة، والتحكم غير المبرر، والسطو على أحلامي وتقييدها باسم الحب، وقد أحببتُ أحلامي أكثر مما أحببت العثور على رفيق دربٍ وحياة، فنذرت لها ما في نفسي مُحررًا.

وعندما كنت أفكر في المستقبل، لم تخطر فكرة الأسرة ببالي إلا للحظات معدودة، وفي مشاهد يكتنفها السواد. كنت أتخيل أسرة أرتبط بها كأن أصفادًا من الحديد تشدني إليها، وأهجر حياتي ونفسي وكل ما أحب لأجلها. أرى أطفالًا مزعجين يصيبونني بالضغط والسكري، وأسرف عليهم شبابي وجمالي، حتى يكبروا ويتزوجوا ويهجرونني، ويتركونني أموت وحدي، ولا يعرفون بموتي إلا حين يكسر الجيران باب بيتي ليستطلعوا أمر الرائحة الكريهة التي تقض مضاجعهم.

كنت أرى زوجًا يفرض عليَّ حظر تجوال في خروجي ودخولي، ويمارس دور سي السيد كلما ضاق خلقه لأي سبب، ويعاني أمراض "الزوج المصري" التي طالما أثارت غيظنا، أمراض مثل الالتصاق بالمنزل بنوع من الغراء يتحدى أي حديث عن الرغبة في التغيير أو السفر، فإذا أراد تغييرًا غاب لساعاتٍ في المقهى، أو شد الرحال مع مجموعة من أصدقاء السوء إلى مدينة أخرى ليفسقوا فيها. وأمراض مثل "نفّذي اللي بقوله من غير تفكير"، وكأن الله منحني عقلي لأضعه في خزانة ثيابي! و"مش عايز مناقشة"، وكأنه وحده من منحه الله العقل واللسان! ثم الأمراض التي لا تهاون فيها مثل المرض الشهير "ماتفكريش في الدراسة، ولا الشغل، ولا في أي حاجة غيري"، وهو مرض يظن الأغبياء أن ظاهره الغيرة وباطنه الحب، والحقيقة أن ظاهره وباطنه واحد: افتقاد الثقة، والخوف من تفوقك.

لماذا أعرقل شخصًا عن حلمه ما لم أكن حمقاء فاقدة الثقة في نفسي؟ لماذا أخشى تفوق شخص آخر ما لم أكن فاشلة تمقت نجاح الآخرين؟

لكن هذه الأشياء لا تقال يا ندى، حتى النساء اللائي يصطلين بهذا الجنون لا ينطقن بكلمة اعتراض، بل يطوّرن قهرهن لسلاحٍ يحاولن به إحباط همَّة أي فتاةٍ تحاول النجاة مما سقطن فيه.

كم صديقة قديمة قابلتها وحين عرفت أنني لم أتزوج أو أخطب سخرت مني؟ كثيرات، لكن سخريتهن كانت مثيرة للسخرية؛ فخلف نبراتهن المستهينة كنت ألتقط رعشة في أصواتهن، رعشة ترجمتها بعد مرات لا حصر لها إلى كلمة رأيتها في أعينهن ولم يتجرأن على البوح بها، ربما حتى لأنفسهن: "لا تفكري في التفوق يا غبية، من أنتِ كي تخرجي عن الخط الذي رسم لنا جميعًا ومشينا عليه؟ أتظنين أنك ستثبتين لنا أننا كنا قادرات على فعل الكثير، لكننا استسلمنا واخترنا ألّا نفعل؟"

كنت أصمت، وأبتسم، وأتجاهلهن، وأمضي في طريقي واثقة من نجاح عظيم بانتظاري، نجاح لن أضيعه بالالتفات لأمور لا قيمة لها. ما قيمة الزواج بشخص لا تربطني به مشاعر حقيقية متبادلة؟ وما الجدوى من التحول إلى نصف خادمة في كنف أحمق لا يرى إلا نفسه، وتقتصر حياتي بعدها على السعي والتنظيف خلف أوغاد لا يبالون بي؟ ألمجرد أن الجميع يفعل؟ ألمجرد أن لا أتعرض لسخرية الجيران وشماتة الأقارب؟ أي تفاهة هذه! أي غباء!! فليذهبوا جميعًا إلى الجحيم.. من قال إني أبالي بهم؟!!

لم يكن في تلك الجحيم ما يغريني بالإقدام على اقتحامها، كل ما كنت أحلم به هو التفوق في دراستي، وبلوغ مكانة علمية شديدة الرقي، ثم كتابة روايات عظيمة تؤهلني للشهرة، لأصير نجمةً يهتدي بها المتخبطون في دروب الحياة. كنت أضع نصب عينيَّ آلاف العظماء الذين كافحوا ليبلغوا النجاح، أغلبهم كان فقيرًا أو ضعيفًا في طفولته، لكنه صقل موهبته ليصبح شخصًا يحبه الآلاف، ويحترمه الملايين، ويقتدي به عدد لا يحصى من محبيه. أردت من كل قلبي أن أصبح كذلك يا ندى، ولم أتمن شيئًا قط، قدر ما تمنيت أن يتحقق هذا الحلم.

ولكن، عندما كانت الدنيا تضيق بي، أو تمر بي لحظة رومانسية عابرة، كنت أنظر لفراغ حياتي، وأحاول أن أملأه بحلمٍ جميل عن شخص سأحبه وحده إلى الأبد. لم أكن أتقبل فكرة الوقوع في الحب مرارًا، وكنت مؤمنة أن الشخص الأول الذي سأحبه سيكون هو الأخير، وكنت أكثر إيمانًا بأني سأعرفه من النظرة الأولى. أردت أن أجده وأحبُّه حبًّا يتفوق على كل خيالاتي، وكانت أجمل متع حياتي أن أغمض عينيَّ وأتخيل كيف سأتفنن في إسعاده، وكيف سيرى كل ما يحب أينما نظر حوله، لم أكن أتخيل ما سيفعله لأجلي بقدر ما كنت أتخيل ما أريد فعله لأجله. كيف أستقبله حين يعود من عمله، كيف أفاجئه بطبقٍ جديد اخترعته لأجله، كيف أخرجه من حزنه إن كان حزينًا، وكيف أتحمل غضبه حتى

يهدأ، بل كيف سأفاجئه بأن أطلب منه الذهاب مع أصدقائه في رحلة، أو أدعوه للخروج معهم في نهاية الأسبوع ليتخلص من ملل الحياة الذي لا بُد أن يخنقنا، مهما كانت تلك الحياة سعيدة.

حتى الأطفال، رغم كراهيتي لهذه الكائنات القذرة المزعجة، إلا أنني كنت أتقبل فكرة وجودهم عندما أختزل هذا الوجود في عبارة "إنهم أبناء الرجل الذي أحب"، مجرد أن يقبع في أحضاني طفل صغير ورث نصف صفات الرجل الذي أحب، كانت فكرة يخفق لها قلبي.

أردت زوجًا يحبني حقًّا ويكون صديقي، ثم يصير إلى الأبد عشيقي المجنون، لم أرد أن يتحول الشخص الذي سيشاركني حياتي إلى كائن يعيش بروتينية تدفننا أحياء، ويعتبر شبابه قد انتهى بمجرد زواجه، وأن إنجاب طفلين أو ثلاثة يجعلنا نشيخ، وتصبح أكبر متعة في حياتنا سهرة أمام التلفزيون مع بعض اللب والسوداني. أردت حياة طويلة، ممتعة وسعيدة، ومليئة بالحب مع شخص يجيد الاستمتاع بحياته، حياة يبعد عنها الملل بعدنا عن نجوم السماء، وتكون المفاجآت فيها أكثر من رمال البحر. كل هذا كنت أريده بقوة، وكبرت ونضجت وأدركت -أيضًا بقوة- أنه مستحيل تمامًا، فألقيت الأمر خلف ظهري وكففت عن التفكير فيه، لأن فكرة الحياة السعيدة التي تمنيتها وأدركت استحالتها كانت تعذبني كلما أمعنت التفكير فيها، وكلما سألت نفسي: لماذا لا يكون من حقي أن أختار شيئًا بنفسي لنفسي؟ لماذا لا يكون من حقي أن أعيش حياة عادية وسعيدة مثل الجميع؟ وفيما بعد، عرفت أن هؤلاء (الجميع) الذين يعيشون حياة سعيدة لا وجود لهم تقريبًا، لا وجود لهم يا ندى.

بدأت أتهيأ لحياة طويلة من الكفاح والنجاح برفقة الخواء العاطفي، اللهم إلا هوس رومانسيّ كل حين وآخر بشخصيةٍ روائية، أو شخصية في مسلسل أنيميه[1]، أو شخصية أكتب عنها وأنسج كل خيوطها بنفسي حتى أقع في حبها. كان القرار في البداية غريبًا، ويبدو مستحيل التنفيذ لأن كل البشر يولدون بلعنةٍ فطرية هي البحث عن نصفهم الآخر، لكنني قررت المقاومة لآخر مدى، وبمرور الوقت أصبح قراري مريحًا ومقبولًا، بل صار أي تصور عن أي حياةٍ أخرى مختلفة يثير هلعي، ويدفعني للهرب في الاتجاه المعاكس دون تفكير. دفنت مشاعري في صندوقٍ أسود، غاص في أعماقي حيث لن يصل إليه أحد، وأيقنت

[1] مسلسلات الرسوم المتحركة الناطقة باللغة اليابانية.

أنني سأظل في أمان طوال عمري، لكن كل هذا التفكير اختفى بغتة، ودون شعور مني، في المرة الأولى التي التقيت فيها إيتشيرو.

تأتيني ذكرى لحظتنا الأولى ضبابية، كأنها حلم. كنت يومها في السفارة اليابانية أستعلم عن مجلةٍ أتابعها، وحين استدرت التقت أعيننا للحظة عابرة، ثم واصلت طريقي إلى المكتبة. وبعد خروجي رأيته ثانية على بعد أمتار من السفارة، ينظر حوله بوجه حاد وجاد يحاول التذكر، للحظة رغبت في عرض مساعدتي عليه، ثم قررت تجاهل تلك الأفكار الطيبة التي تنتهي باعتبار صاحبها متطفلًا سخيفًا، وفي لحظة النزاع هذه، جاء يسألني عن الطريق إلى (فاميلي سينما).

للحظة توقف عقلي مع أسوأ لغة عربية سمعتها في حياتي، نظرت لوجهه أحاول استجماع تركيزي فأعاد سؤاله بالإنجليزية، وكانت إنجليزية –أيضًا- من أسوأ ما يمكن، حتى أنني كتمت بقوة غير طبيعية رغبتي في الضحك، واجتهدت لأروض تلك الرغبة وأختزلها في ابتسامة ودود، ثم وصفت له الطريق باليابانية. لن أنس قط نظرة الدهشة السعيدة التي ملأت وجهه عندما سمع لغتي المتماسكة، وعندما انتهيت امتدحني بالكلمة التي يرددها اليابانيون كثيرًا: "مدهش!"

وانحنى قليلًا للأمام فكادت قامته الفارعة تقاربني طولًا، نطق عبارة طويلة فاتتني بعض كلماتها، لكنها لم تشوه تعبيره عن سعادته للقائي، وشكره على المساعدة، ودعوتي للاستمتاع بدراسة لغته أكثر. وكان ردي أن أحنيت رأسي كما فعل واستأذنت للمغادرة، سرت خطوات في الاتجاه المعاكس لاتجاهه، وقبل أن يأخذني الطريق بعيدًا عنه، أدرت رأسي جانبًا، ونظرت بطرف عيني إلى حيث تركته، فلم أجده.

صوته الدافئ وحديثه المهذب أثرا في قلبي وعلقا بسمعي طويلًا، رغم أن لقاءنا كان قصيرًا جدًّا، لا يتجاوز الدقيقة في أفضل الأحوال، رحت أتذكر تلك الابتسامة ألف مرة، والانحناءة المهذبة، والنظرة اللطيفة، أتذكر كل بادرة منه وأبتسم، مرت ليلة كاملة وأنا أبتسم، بعدها وضعت تلك الابتسامة برفق في صندوق مشاعري المغلق، لأحتفظ بها كشيء من أجمل الأشياء التي حظيت بها في حياتي، وبعد يومين أفلحت جهودي في نسيان كل شيء عنه.

وجاء أكتوبر أخيرًا، ومر ثلثاه ليبدأ "مهرجان هيروشيما للأفلام اليابانية" الذي انتظرته طوال الشهر. حضرت الحفل الافتتاحي بساقية الصاوي في اليوم

الأول، وفي اليوم التالي انتقلت الفعاليات إلى مركز الإبداع الفني بدار الأوبرا المصرية. لم يستطع أستاذي في اللغة ولا زميلاي الحضور فذهبت وحدي، وطفقت أنتظر بداية العرض مستعينة على مللي بمجلة مصورة استعرتها من مؤسسة اليابان، وعندما بدأت القراءة تستغرقني، استأذنني شخص ما بعبارة مهذبة ليلفت انتباهي، رفعت وجهي لمحدثي، ولم أصدق أنه هو حتى قال بابتسامة لطيفة: "عفوًا، لكننا التقينا من قبل، أليس كذلك؟"

أجفلت بذعر أجهل حتى اليوم سببه، وكادت المجلة تسقط مني لولا أنه أسندها بطرف سبابته، حركة لطيفة وخفيفة جدًّا أخذت عقلي لثوان، ثم قال بابتسامة ألطف: "آسف جدًّا لإزعاجك".

في هذا الوقت لم أكن تعاملت مع الكثير من اليابانيين، وكان لدي انطباع أنهم يفتقرون لجرأة تقديم أنفسهم لشخص ربما نسيهم، وجعلتني الدهشة – دهشة لقاءه ودهشة جرأته- في مزاج رائع، في الواقع كنت أوشك على الضحك وأنا ألوح بيدي بسرعة وأقول: "لا، لا، أنا فقط أكون في حالة غريبة عندما أفيق من القراءة، آسفة. أتمنى أن تكون قد وصلت إلى السينما بسلام، في ذلك اليوم".

أمال رأسه لليمين لحظة ممعنًا النظر إليَّ، لحظة واحدة من التأمل كانت كافية لجعل قلبي يخفق، بعدها رفع رأسه وعادت ابتسامته تشرق بشكل باهر، قال: "نعم، شكرًا لك، كنت سأقع في مشكلة كبيرة لو تأخرت. أقدر مساعدتك كثيرًا ولن أنساها أبدًا".

للحظة حسدت المحظوظة التي واعدها عند السينما، وكان مهتمًا جدًّا بالوصول إليها بسرعة، ثم تجاهلت أفكاري الشريرة وابتسمت، وقبل أن أفكر فيما يجب عليَّ قوله انحنى وقدم نفسه ببساطة: "أنا تاكاهاشي إيتشيرو".

هززت رأسي مرحبة وأنا أبتسم، وتساءلت: هل قدم نفسه على الطريقة اليابانية أم الغربية؟

أجاب تساؤلاتي الخفية: "إيتشيرو هو اسمي، لا داعي للقب العائلة[1]".

"هل يقرأ أفكاري؟!".. هكذا تذمر جزءٌ مني رغم سعادتي.

-"إيتشيرو سان، إذن. إنه اسم جميل".

[1] في اليابان يُذكر اسم العائلة أولًا، يليه اسم الشخص.

وكررت الاسم مرتين، ثم قلت متأملة: "إنه اسم جميل جدًّا، حقًّا".

إيتشيرو.. جذبني المقطع الأول من الاسم، إيتشي تعني الرقم واحد، وهو جدير بالاسم، لا أعلم السبب، لكنه جدير به، يبدو مستحقًّا المركز الأول في أي شيء، ربما يعني الاسم أنه الشخص الأول أو الشخص المتفوق أو...

للمرة الثانية قرأ أفكاري، وأجاب: "الابن الأول".

لم أفهم ما يقصده لأول وهلة، وكانت نظرتي المستغربة خير سؤال يعبر عن حيرتي، فكرر ببساطة: "اسمي.. إنه يعني الابن الأول".

حدقت إليه بنظرة لا معنى لها فأجابني بابتسامة، كدت أسأله كيف عرف ما أفكر فيه مرتين، لكن المسؤولين عن تنظيم الدخول فتحوا قاعة العرض أمام الجمهور أخيرًا، تنحى إيتشيرو من أمامي وأشار بيده يقول: "هل تسمحين؟"

أحنيت رأسي شاكرة، وعبرت أمامه، وعندما سار بمحاذاتي سألني: "عذرًا ولكن، ما اسمك؟"

-"هبة الله مصطفى".

قطب جبينه من صعوبة الاسم، لم أرغب بتخيل كيف سينطق كلمة الله بلسانه الياباني الذي لا يقيم لحرف اللام وزنًا، فقلت بسرعة قبل أن يشوه نطق اسمي: "هبة فقط، الجميع ينادونني كذا".

ردد الاسم وابتسم، قال بلطف: "هبة سان؟ جميل، إنه اسم جميل".

وفي أثناء انتظارنا الكلمة التي ستلقى قبل بدء العرض، نظرت بطرف عينيَّ إليه، ولأول مرة في حياتي انتبهتُ لما تسبغه بذلات السهرة على الرجال من سحر. كان يرتدي سترة تنساب على كتفيه بنعومة وتماسك، وقماشها المشدود في بعض المواضع يبدو أكثر لمعانًا، أمّا انسيابية الكم على ذراعه المسترخية، وإحكام القميص على صدره، والتجعيدات الخفيفة في القميص، وانحناءات ربطة عنقه، فكلها كانت تلقي ظلالًا محدودة لا يمكن وصف مدى تأثيرها. نظرت لأعلى قليلًا فرأيت رأسه ملقيًا للخلف، وهو ينظر للسقف وعلى شفتيه ابتسامة، شعره كان مصففًا ثلاثة أرباع إلى اليمين، وتنسدل بعض خصلاته الأمامية على عينه اليمنى، وربع إلى اليسار تراجعت خصلاته إلى ما خلف أذنه اليسرى، وعلى كتفي البذلة كانت خصلات شعره الخلفية الطويلة، تلتوي في عقد ناعمة منثورة هنا وهناك.

"إنه جميل".. كذا فكرت، وخطفت الفكرة أنفاسي.

كنت جالسة إلى يساره، والإضاءة تأتي من يمينه، فبدا نصف وجهه الذي أراه غارقًا في ظلال تحمل ألف معنى.. رحت أنظر بدقة لتوزيع الضوء على جبينه، وانحناءة أنفه الحادة مرتفعة النهاية، وشفتيه إذ انفرجتا قليلًا، وذقنه المرتفعة، وعنقه المكشوف نصفه، وحنجرته البارزة.. تتبعت تفاصيله بدقة حتى أصابع يده، بدت طويلة ونحيلة بشكل ساحر، خلبت لبي وأخذت بعقلي، فتنهدت وتراجعت في مقعدي، فقط لأجده أمال رأسه نحوي، واستغرق في تأملي بدوره في غفلةٍ مني، وعندما انتبهت له سطعت ابتسامته في وجهي وسألني: "لماذا تدرس هبة سان اللغة اليابانية؟"

آه! السؤال الممل اللعين الذي لا يكف الجميع عن مطاردتي به! لماذا لا يدرك البشر أن من يدرسون اللغات غير الشائعة موجودون في كل مكان؟ لماذا يعاملونني وكأنني أحاول الاتصال بسكان أورانوس؟ لو قلت إنني أدرس الأوردية أو البولندية لسألوني السؤال نفسه، لماذا لا يخرسون ويتركونني أفعل ما أريد؟ تبًا للجميع!

لم أجبه إجابة مستفزة كالتي ألقيها بوجوه الآخرين، همهمت قليلًا قلت: "أبحثُ عن تعويذة سحرية".

اعتدل بتقطيبة استغراب لم تخفف ابتسامته، فأبعدت وجهي كي لا يسأل عن هذا الأمر، وقد التقط الإشارة واحترمها، لكنه سأل سؤالًا أغرب: "ومنذ متى ترسمين؟"

-"أرسم؟!!"

ولم أمنع نفسي من الدهشة العارمة وأنا أحدق إليه، لكنه ضحك بخفة: "هذه نظرات رسَّام، وأنا... أعرف الرسامين جيدًا".

وفي لحظة الصمت التي شطرت عبارته، اختلطت سعادته بتعبير غريب، بدا إلى الأسى أقرب، طاف بملامحه لحظة ثم توارى. قال: "أَوَدُّ أن أرى ما ترسمين يومًا".

بدأت الندوة الافتتاحية فلذنا بالصمت، لم يكن هناك مترجم، وبدا واضحًا أنه يجد عسرًا في فهم ما يقال، لكنه كان يبتسم وهو يصغي السمع، بدا كقطٍ

صغير يستمتع بالشمس، وجعلني هذا الخاطر الطريف أبتسم حتى بدأ عرض الفيلم.

سأحرص مدى الحياة على تجنب أي حدث له علاقة بالتفجير الذري الذي وضع نهاية مأساوية للحرب العالمية الثانية. فقبل يوم شاهدت فيلم الأنيميه (غِن حافي القدمين)، وشاب شعري لهول تجسيد لحظة سقوط القنبلة وتأثيرها. وفي يوم لقائي بإيتشيرو، ومع فيلم (مدينة هدوء المساء، بلد أزهار الكرز)، ذرفت كل الدموع التي خلقت بها، وكأنني لن أبكي مجددًا. المثير للغيظ أنني -ومنذ انتصف الفيلم- أذكر نفسي في كل لحظة أنني لا أبكي أبدًا، لا يجب أن أبكي أبدًا، لا يجب أن يراني أحد وأنا أبكي، ولكنني لم أستطع منع نفسي، ولبثت في مقعدي صامتة متصلبة كالتمثال، تتقاذفني أفكار فلسفية كئيبة، حتى أضيئت الأنوار وأنا متورطة في فوضى من الدموع تستلزم شاحنة مناديل لتنقذني.

بشكل أخرق مسحت وجهي وأنا أنظر بعيدًا، وأسب وألعن هذا الكوكب المحمل بمخلوقات غبية تستأهل الحرق. "مهرجان هيروشيما للأفلام اليابانية".. فيم كنت أفكر وأنا قادمة لمشاهدة هذه الكآبة؟

ناداني إيتشيرو بلطف: "هبة سان؟"

-"مممممم؟!"

-"هل نذهب؟ القاعة خالية".

غادرنا مركز الإبداع الفني، أنا أدمدم حانقة، وإيتشيرو يبتسم، وضايقني هذا أيما ضيق، أردت أن أقول: لا تتصرف وكأنني طفلة حمقاء باكية، لكنني قررت التأدب والسيطرة على حصان لساني الجموح، سأكون مهذبة اليوم فقط.

جلست عند أول حوض للأشجار صادفني، وعندها سألني: "هل سمعت المثل الذي يقول: اثن حظك السيئ وحوله إلى حظٍ حسن؟"

-"لا".

-"إذن لا تحزني بسبب المآسي، أحيانًا تكون المعاناة مفتاح كل الأشياء الرائعة".

سألته بقنوط: "أحقًّا؟"

-"حقًّا، المآسي تكشف حقيقة البشر، تعلمهم، وتجعلهم مدركين مدى قوتهم، وهذا أعظم ما يكتسبه الإنسان في حياته".

بالرغم مني فكرت في ذكريات لا تبعد عني أكثر من عام، وابتسمت. آه لو عرف! سيدرك أنني اجتزت امتحاني الخاص في هذا الصدد، ونجحت فيه بتفوق لا تشوهه الخسائر الفادحة. تلك الخسائر التي لا أريد تجاوزها كي لا أنسى، أو أغفر، أو أقترف ما قادني إليها مجددًا.

نظرت له وابتسمت، فغمز بعينه وقال: "هيروشيما اليوم مدهشة".

-"أنا أفهمك، لكنني لا أطيق الاستهانة بأرواح البشر، وعندما أتخيل مخلوقًا مثلي يمنح نفسه الحق في إيذائي، لمجرد اختلافي عنه، أو امتلاكه القوة، أشعر بدمي يغلي. وعندما أتخيل أنه آذاني بالفعل، فأنا... لا أستطيع وصف شعوري بالظلم الفادح، هذا يجعلني...".

وقررت الصمت قبل أن أنطلق في السباب؛ سأكون مهذبة اليوم.

ابتسم، في الواقع كان يكبح ضحكاته كما بدا من لمعة عينيه، قال: "لا تأخذي الأمر بشكل شخصي إذن".

هبت نسمة باردة من نسمات أكتوبر الليلية، وتطاير شعره أمام وجهه فأغمض عينيه وأشاح به بعيدًا، عندها نسيت ما كنت فيه من هم، بدت الحياة ثمينة ومحسوسة كما لم تكن من قبل، تنفست بعمق غسل صدري وابتسمت، وراقبته حتى مرت النسمة الطويلة، وقد بعثرت شعره تمامًا، وطوحت بخصلاته في كل الاتجاهات بشكل مضحك، ضحكت من قلبي، لكنه مرر أصابعه في شعره بخفة، فعاد كما كان.. يا للجمال!

"إنه جميل".. كرر قلبي همسته الشغوف فوافقته دون تحفظ.

قال لي: "لغتك اليابانية جميلة، هبة سان، أتمنى لو أتحدث العربية بمثل الطلاقة التي تتحدثين بها اليابانية".

-"ليس إلى هذا الحد، أنا في المستوى الأول".

-"أحقًّا؟ لكنك تجدين حلولًا ذكية للالتفاف حول الكلمات التي لا تعرفينها، لا يستطيع الجميع أن يفعل هذا".

ضحكت وقلت: "ليس إلى هذا الحد، إنه تلاعب بسيط".

-"هبة سان".

-"نعم؟"

-"لا يستطيع الجميع أن يفعل ما تفعلين، أنا مترجم وأعرف ما أقول، فلا تقللي من رأيي من فضلك".

للحظة بدا مرعبًا رغم لطفه، فحاذرت إغضابه: "لم أقصد استهانة. على كلٍ، شكرًا".

ونهضت قائلة: "يجب أن أذهب، لقد تأخر الوقت كثيرًا. أراك غدًا".

-"حسنًا، انتبهي لنفسك في طريق العودة".

وسار جواري فنظرت إليه مستغربة، ففسر: "هذا طريق الخروج من الأوبرا، هل يضايقك سيري معك؟"

-"لا، بالطبع لا، هل ستعود إلى بيتك بالمترو؟"

-"ليس اليوم، هذا الليل البارد مغري بالمشي".

للحظة حسدته، أو حسدت الليل البارد، لا أدري، وعندما افترق طريقانا شعرت بوخز ما في صدري؛ لم أكن أريد تركه سريعًا، في الواقع لم أكن أريد تركه أبدًا.

في أثناء رحلة العودة، قاومت التفكير في لقطات الفيلم التي تطاردني؛ لم أرغب في الوقوع في هاوية الاكتئاب، لكنني غصت فيها حتى الأعماق حين دخلت بيتي، كان مظلمًا خاليًا، فأدركت أن ضيوف الشرف الذين يعيشون معي سيمضون ليلتهم في منزلهم الآخر الحقيقيّ، وسأواجه ليلةً طويلةً أخرى وحدي.

دخلت غرفتي، وأخفيت المنشور الدعائي الخاص بالمهرجان بعيدًا، وأوصلت هاتفي بالسماعة العملاقة، وسرعان ما انبعث صوت ميانو ما مورو يغني Wonder Love، التي تطيح بعقلي بهجة وحبورًا، وعندما سمعت الافتتاحية "أحب ابتسامتك السعيدة، إنها تجعلني أشعر أنني في أفضل حال، إنها روعة الحب"، رفرف قلبي، ثم حلَّق عاليًا، ورأيت أمامي بوضوح ابتسامة إيتشيرو، بل ابتسامات إيتشيرو.

يا الله!

أنا لم أر قط، في حياتي كلها، رجلًا يبتسم بهذا الشكل.

بدا كل شيء كحلم وأنا أنعس، وصَفَّت أحلامي ذكريات الأمس كلها، فأخذت ما أزعجني، وأبقت لي سعادةً نقية جامحة. جعلتني أطير فلا ألمس الأرض، وأضحك لأتفه الأسباب، وأُقبل على العمل الذي أواجه فيه متاعب الدنيا وكأني مقبلة على باب الجنة. إلا أن سعادتي كلها تبددت وذهبت أدراج الرياح، عندما تشاجر معي مديري بسبب تغيب مساعدي في سفرٍ مفاجئ، واستقرت مشاجرتنا الكبيرة على أن أتولى العمل في الفترة المسائية.

لا تكفي كلمة "اكتئاب" لوصف حالي يومها. بقيت ساعات طويلة معقودة اللسان، أتساءل عن السبب الذي يجعل القدر يعرقل أي أمر يسعدني. اهتمامي بالمهرجان، ورغبتي في رؤية إيتشيرو، وابتسامته، كلها أمور بسيطة لا تعني شيئًا لشخص سواي، لكنها ستجعلني سعيدة، فلماذا تعاندني دومًا أقداري بهذا الإصرار؟

قضيت فترة العمل المسائية واجمة، وتاه عقلي بين آلاف الأوراق، ما بين كتابة، ومراجعة لغوية، وتصويب، وتدقيق، وطباعة. تحركت كإنسان آلي، وأتممت عملي دون تفكير ولا شعور، حتى التعاسة والألم اختفيا خلف شعور ثلجيّ بالتبلد، وبعد عودتي إلى المنزل ألقيت دفتر رسوماتي بعيدًا، وارتميت فوق الفراش، وحالما أغمضت عيني ومضت أمامي ابتسامة إيتشيرو، واضحة وساطعة كالشمس، فبادلته إياها بأخرى شاحبة ميتة، واستسلمت للنوم.

في الصباح شعرت أن اليومين الماضيين كانا حلمًا قصيًّا، اختلطت فيه السعادة بالتعاسة فأصبحتا شيئًا خانقًا يثير الدوار، وبخلاف الأمس، كنت أشبه بالموتى، أسير متثاقلة، ولا أطيق الابتسام، وأقبلت على العمل كما لو كنت أصعد سلالم المشنقة. ولتزداد الأمور سوءًا طاردني صوت خافت يهمس بأنني لن أرى إيتشيرو مرة أخرى، صوت مشئوم ما انفك يطاردني حتى وجدت نفسي عند الظهر أبكي، ولم يرحني البكاء بل زاد من شعوري بالاختناق.

وجاء الغروب، وحان موعد استراحة الغداء، فوقفت خلف باب المكتب الزجاجي أراقب النيل، وانكسارات أشعة الشمس الغاربة على سطحه، لكن المشهد البديع لم يفلح في إزالة انقباض صدري. أخرجت مفكرتي وبدأت الخربشة على صفحاتها بخطوط متعرجة، تفتقر للتركيز والانضباط، ثم تشوهت بخط كبير قطع الصفحة إلى نصفين، عندما دفع شخص ما باب المكتب فصدم يدي.. كان مساعدي، حضر على غير توقع معتذرًا عن الغياب، طالبًا مني أن أنصرف لو أردت.

ابتسمت بسخرية ولم أكلف نفسي عناء الرد، أخذتُ مفكرتي وحملتُ حقيبتي، وانصرفتُ لا أطلب في الدنيا شيئًا إلا أن أختلي بأوراقي وأقلامي. كان العرض الأخير للأفلام قد بدأ في الرابعة، وسينتهي في السادسة ليبدأ الفيلم الثاني في جدول اليوم، والأخير في جدول المهرجان، والساعة الآن تقترب من الخامسة والنصف، مما يستحيل معه الوصول في وقت مناسب، كانت فرصتي الأخيرة لرؤية إيتشيرو قد ذهبت إلى غير رجعة.

أفكاري اليائسة جرفتني، وأضاعت عقلي في عوالم لا أدركها، فلم أشعر بنفسي إلا بعد فترة طويلة، ونظرت حولي لأجدني أغادر المترو في محطة الأوبرا. ما الذي جاء بي إلى هنا؟ لم أجد إجابة. سخرت من نفسي، وكدت أعود أدراجي، لكنني كرهت إضاعة وقتي سدى، فقررت الذهاب على أي حال، وهكذا فعلت.

كان قلبي يدق بقوة وأنا أدخل قاعة العرض، لبثت لحظات أعتاد الظلام ثم تحركت، وقبل أن أهبط درجة السلم الأولى، شعرت بمن يشد حقيبتي برفق، ودق قلبي دقة قوية تحولت لسلسلة من الدقات المتلاحقة عندما سمعت صوته هامسًا: "هبة سان؟"

سطعت الأضواء من شاشة العرض، فرأيت وجهه الغارق في الظلال تبدو منه نصف ابتسامة دافئة فككت أطرافي، وجعلتني أدرك عمق التعاسة التي كانت ستعذبني لو لم أره مجددًا، وطفا على السطح فجأة كل ألم الأمس، واختلط بسعادة رؤيته الآن. حييته: "إيتشيرو سان".

أفسح لي الطريق بطريقته اللطيفة، وعندما جلست همس: "تأخرتِ".

-"آسفة".

كنت متأثرة حد الوجع، ولدرجة غير مفهومة.. حاولت أن أفهم مشاعري هذه، أو أفكاري المختلطة، لكني فشلت. استسلمتُ وحاولت أن أفهم شيئًا من الفيلم، وأيضًا فشلت.. اختلست النظر إليه حيث جلس جواري، يسند ذقنه لذراعه المنثنية، شعر بي فأمال رأسه قليلًا لليمين، ونظر نحوي مباشرة، ثم نطق اسمي بصوت هادئ، كأنه يستوثق أنني هنا حقًّا. رافقت صوته السعيد ابتسامة حنون، ثم مال برأسه عائدًا للوضع الأول، في هذه المرة لم أكف عن تأمله صراحة في الضوء الخافت، وكان كل ما فيه يقول إنه ينظر إلى الشاشة دون أن يراها، تمامًا مثلي.

أخيرًا أضيئت القاعة فالتفت إليه، وكان لا يزال مستندًا إلى ذراعه بالوضع نفسه، وإن أدار عينيه نحوي، لاحت على وجهه ابتسامة مداعبة وقال:"ألديك فكرة كم كنت خائفًا؟"

اكتفيت بالابتسام، لكنني كنت أفهم ما يريد قوله، بكل عمق.

-"... برغم قلقي، كنت واثقاً أننا سنلتقي مجددًا".

-"الحمد لله، لقد كان الله كريمًا جدًّا معي".

انطفأت كل سعادة في وجهه، وارتفعت أنامله تلامس منتصف صدره بخفة، وابتسم ابتسامة غريبة، سألني: "أحقًّا؟"

بدا مختلفًا تمامًا، وكأنه شخص آخر، وقبل أن أجيبه قال: "آسف، لقد كنت وقحًا".

متفهمةً أجبته: "لا بأس، كلنا نضل الطريق أحيانًا".

كرر الاعتذار واجمًا، ثم نهض، وأفسح لي الطريق لنغادر.

كالعادة، كانت دار الأوبرا حلمًا، الأضواء الهادئة البعيدة، وصوت الموسيقى القادم من القاعة الرئيسية، هواء الليل البارد، والقمر المكتمل في السماء، ورائحة الجو التي ذكرتني بالأيام الممطرة. لا بُد أن شخصًا ما روى الأشجار مؤخرًا، فعلقت تلك الرائحة العطرة بالجو، كان الشعور بهذا الجمال بعد يوم أمس أمرًا رائعًا لأبعد الحدود.

الشيء الأروع أن إيتشيرو هنا، معي، يملأ الزمان والمكان..

مددت له يدي بمفكرتي الصغيرة وقلت: "جلبت لك شيئًا بسيطًا مما أرسم".

انتبه لي، وابتسم ابتسامة حقيقية رائعة، قلب صفحات المفكرة، وقال بإعجاب: "مانغا؟[1]"

-"نعم، أنا مغرمة بهذا الفن حد الهوس".

قلب الصفحات بفضول، وفي النهاية قال بحماس: "مدهش، بعض الدراسة ستجعلك رسامة عظيمة. منذ متى ترسمين؟"

---

[1] الرسوم المصورة على الطريقة اليابانية.

-"منذ عام تقريبًا".

-"فقط؟ لا بد أن أستاذك عبقري".

ضحكت وأعلنت بثقة: "أنا أتمرن وحدي".

-"آآآه، هذا مدهش هبة سان، أنت عبقرية".

ابتسمت وأومأت برأسي، ثم سألته: "عفوًا إيتشيرو سان، ولكن لماذا تدرس اللغة العربية؟"

أجاب بمرح: "لديَّ بعض المشكلات العائلية في اليابان، لهذا جئت هاربًا إلى مصر، وسأبقى فترة طويلة، والتعامل بالإنجليزية مرهق للغاية؛ لا أحد يفهم لغتي السيئة".

قال هذا بالإنجليزية فضحكت، لغته كانت سيئة حقًّا من ناحية النطق، لكنه ممتازة من حيث البناء. قلت بالمرح نفسه: "لكن العربية ليست سهلة، وهي أصعب من الإنجليزية بمراحل".

-"نعم، عرفت هذا في محاضرتي الأولى، لكنني أود تعلم ما يسهل حياتي اليومية وحسب".

ثم نظر لي واقترح بمرح: "ربما أطلب منك أن تكوني مدربتي على التحدث بالعربية، أنا أتعلم بسرعة عندما أتكلم".

ضحكت، لم أخبره أنني سأمضي بالتأكيد نصف الوقت أقهقه، لكنه عرف ما أفكر فيه، واعترض بصوت لعوب: "لكنتي لن تكون مضحكة إلى هذا الحد".

انقطعت أنفاسي ضحكًا، فجلست عند أقرب حوض للأشجار وقلت: "حسنًا، فلنتدرب معًا".

-"هل نبدأ الآن إذن؟"

رفعت يدي ضاحكة وقلت: "لا، انتظر أرجوك، أخبرني أولًا عن عملك. قلت من قبل إنك مترجم، ألم تقل؟"

-"نعم، في اللغة الكورية".

-"ماذا؟"

-"اللغة الكورية، لقد درست الترجمة في جامعة طوكيو، وتخصصت في اللغة الكورية، ولو التزمت بجدولي الدراسي، سأحصل على درجة الدكتوراه بعد عام تقريبًا".

-"واااه!!! هذا مدهش".

-"شكرًا".

-"واللغة الكورية، أهي ممتعة؟"

-"جدًّا، أشك في وجود لغة أجمل من اليابانية ومنها".

-"يوجد، اللغة العربية".

ضحك: "لن أعترض، لأنني لست على علم بالأمر".

بادلته الضحكة: "وسأفعل مثلك، ربما أتعلم الكورية ذات يوم لأحكم أي اللغات الأجنبية أجمل".

-"دعيني أعلمك إذا أردتِ".

وأخذنا الحديث لأمور أخرى، حديث طويل وسلس عن أشياء متفرقة لا أذكرها كلها، لكنني أحببتها، تحدثنا عن الطقس في القاهرة وطوكيو في هذا الوقت من العام، وتحدثنا عن السينما اليابانية، وحدثني هو عن الدراما الكورية وموجة "الهاليو" التي أثرت في العالم كله، وحدثني عن هوكّايدو المسربلة بأجمل رداء ثلجي في الشتاء، وأوكيناوا أبدية الربيع كالجنة. كنت سعيدة بالاستماع لصوته الدافئ، بلغته التي أعشقها، سعيدة لأنني أجلس جواره في هذا الهدوء، وفي الجو البارد عذب الرائحة أنظر إلى القمر.

سألني في إحدى لحظات الصمت: "تحبين القمر؟"

-"جدًّا، إنه الرفيق الوحيد الذي لم يتركني قط".

-"آه، إنه كذلك بالنسبة للجميع".

تكلمت بشرود وأنا أبحر في ذكريات عام مضى: "في أصعب فترات حياتي، كنت أبكي كثيرًا، وأنظر إليه وأسأله: لماذا يحدث لي ما يحدث؟ وقتها لم يمنحني إجابة، لكنه أخبرني أن ألمي سيتلاشى، وأن حياتي ستكون أفضل لو أنني تحملت مرور الوقت، وها قد مر الوقت، وأصبحت أقوى، لكنني لا أستطيع التوقف عن التساؤل: هل أصبحت أفضل؟"

-"أنت بالتأكيد أفضل".

صوته المفعم بالعاطفة أربكني، نظرت له فقال بتأكيد: "يبدو أنكِ خضتِ قتالًا صعبًا، والمقاتلون دائمًا في حال أفضل ممن يستسلمون. أنا على يقين أنكِ الآن أفضل".

لم أمنع نفسي من شكره بتأثر: "شكرًا لك".

دقت ساعة ما بالقرب منا فرفعت رأسي، ونظرت لساعتي فقال بلطف: "يجب أن نذهب كما أعتقد".

-"أرجوك".

نهض واقفًا وفرد قامته الفارعة، مرر يديه معًا في شعره فنثره بشكلٍ فوضوي، ازداد فوضى عندما هب الهواء قويًّا في اللحظة نفسها. كان ينظر إليَّ حيث وقف أمامي وأنا بعد جالسة وسألني: "متى سنلتقي؟"

في تلك اللحظة، راودني يقين مطلق بأنني لن أنسى هذه الليلة أبدًا، لن أنسى ما حييت وجهه وهو ينظر إليَّ بهاتين العينين الدافئتين، والابتسامة المترقبة اللطيفة، وشعره يتطاير يسارًا بنعومة، وهو يسألني عن لقاءنا القادم بصيغة (متى) وليس (هل)، فلو لم يكن يتحدث اليابانية لظننته أخطأ التعبير، وبرغم هذا شككت في نفسي لثوان أعاد عليَّ خلالها السؤال بالعربية، وعندها دق قلبي دقة قوية، هززت رأسي قليلًا فسألني: "أتمانعين لقائنا مجددًا؟"

هالني أن ابتسامته انطفأت، فقلت بسرعة: "أرجوك لا تسئ الفهم، أريد هذا طبعًا، ولكن...".

لم أعرف هل يجب أن أقول ما أفكر به أم لا، لكن صمتي دفعه لأفكار أخرى: "ولكن الأمر لا يبدو جيدًا هنا في مصر؟".

-"هذا غير صحيح".

احمر وجهي خجلًا لمقاطعته، لكن وجهه المهتم جعلني أتجاوز هذا الإحراج لإحراج أعظم، أجبته: "لقد أسعدني سؤالك جدًّا، فلم أجد كلمات أجيب بها".

أتعرفين يا ندى، لم أندم على شيء في حياتي، قدر ندمي على أنني لم أكن أنظر لوجهه في تلك اللحظة، لأرى وقع كلماتي عليه، كنت محرجة لدرجة أنني رحت أنظر لشجرة قريبة مزينة بالأضواء، حتى سمعته يقول: "هيا بنا".

لشد ما كان صوته رائعًا، لا تنافسه سوى الابتسامة التي انغرست في قلبي كالسهم عندما نظرت إليه، وجهه كان مضيئًا بكل معنى الكلمة، نقيًّا، ملائكيًّا، لا يمكن للكلمات أن تصفه حق الوصف.

مشينا إلى محطة المترو، لم نتكلم لكننا كنا سعيدين، وكان بإمكاني الشعور بسعادته كشعوري بسعادتي أنا. ما أجمل تلك السعادة التي تولد في لحظات معينة يملؤها جموح عاطفي غير مفهوم، وتبقى بداخلنا كذكريات ثمينة لا تنسى! لا يهم إن كانت ستبقى أم لا، لا يهم كيف ستكون نهاية الاستسلام لها، المهم هو أنها تمدنا بالحياة، وتبقى إلى الأبد شيئًا غاليًا لا ينسى.

وقف أمامي عند مدخل المحطة، كدت أسأله "ألن تأتي؟"، لكني أحجمت؛ شعرت أن بقاءه معي أكثر سيفقدني عقلي، وأني بحاجة للبقاء وحدي لأتحكم بجنون سعادتي الذي يكاد يرفعني إلى سابع سماء ويلقيني من أعلى عليين.

مد يده في جيبه وأخرج بطاقة صغيرة، وقال: "أنا آسف لأنني نسيت منحك إياه في المرة الأولى، لا أعرف كيف نسيت".

-"لا بأس".

كانت بطاقة أعمال من التي يشيع استخدامها بين اليابانيين، ويتبادلونها عند التعارف، لكنها كانت مطبوعة بالإنجليزية، أحنيت رأسي شاكرة، فقال لي: "أتمنى أن أكون صديقًا لهبة سان، أنا حقًّا... مهتم بهذا".

لحظة تردده في إكمال عبارته جعلتني أحني رأسي خجلًا، إذ أن خيالاتي قفزت لأحلام مستحيلة جعلتني غير قادرة على البقاء أكثر، قلت بصوت خافت: "شكرًا، إيتشيرو سان، أنا حقًّا سعيدة لأننا التقينا".

حياني بلطف: "اهتمي بنفسك".

-"وأنت أيضًا، إيتشيرو سان".

وابتعدت، لكنني لم ألتفت خلفي هذه المرة لأراه، كان شعوري بأنه لا يزال واقفًا ينظر إليّ وأنا أبتعد قويًا حتى أنني خشيت أن أغامر بالالتفات.

هذه الثمالة!

منذ متى لم أشعر بهذا الشعور المثير للدوار؟.. لم أستطع التذكر، كما لم أتذكر كل ما كان من قرارات الابتعاد عن المشاعر، كل ما كان في عقلي في تلك

الأيام هو ذكرى الوقت الذي أمضيته معه، وقت قصير دافئ يستحيل أن يمحى من الذاكرة. حاولت أن أرسم صورته حيث جلس جواري، والظل يحيل ملامحه للوحة حية تنتظر من يقتنصها، إلا أن أصابعي لم تقدر على نقل شيء؛ أعاقتني رهبة جمال اللحظة، حتى شعرت أن الرسم سيبدد ما شيدت عليه من عظمة في خيالي.

في اليوم الثالث وفي أثناء استراحة الغداء، أخرجت البطاقة واتصلت به، ولم أنتبه لما أفعل إلا حين سمعت صوته يقول بلغة عربية مرعبة: "السلام عليكم".

كدت أقذف الهاتف بعيدًا، أو أغلق الاتصال، لكنني تجمدت، وكلما كرر التحية ازددت جمودًا وخرسًا، ماذا أفعل الآن؟!

ثم صمت إيتشيرو، ظننته سيغلق الاتصال، لكنه قال باليابانية بابتهاج: "هبة سان، أليس كذلك؟"

فوجئت بالسعادة التي أشرق بها قلبي، وتحرر لساني واندفعت: "كيف عرفت؟"

-"كنت أنتظر".

لم يسألني عن سبب صمتي في البداية، بل تحدث ليشكرني على حضور يوم المهرجان الأخير، واعتذر عن نسيان تقديم بطاقته في المرة الأولى، قال بحرارة: "لن تتخيلي مقدار رعبي من عدم حضورك في اليوم الأخير، كنت أخشى أن أفقد فرصة لقاءك إلى الأبد".

-"الحمد لله أن هذا لم يحدث".

ساد صمت غير مبرر، فتذكرت ملامحه عندما سمع كلمة "الحمد لله" من قبل، ثم ضحك ضحكة صغيرة، وتحدث عن المهرجان مجددًا، طالت المكالمة دون شعور مني، وفي المساء اتصل هو بي، في اليوم التالي تحدثنا أيضًا، حديثنا كان طويلًا وممتعًا، رغم أنني لم أكن قادرة على تذكره بعد إنهاءه، كنت سعيدة وكفى.

مضى أسبوع من الثرثرة الممتعة، والضحك المستمر، والمعنويات التي تحلق في سماوات علا من السعادة والبهجة، وفي النهاية اتفقنا على لقاء، كنت أود لو كانت لديَّ الشجاعة لأطلبه بنفسي.

وجاء يوم اللقاء، وانطلقت به إلى شارع المعز وهو يضحكني بمحاولات جادة لنطق حرف العين، ثم أخذه الانبهار حال دخولنا وانتقالنا من مسجد أثري إلى آخر، دون أن يتوقف عن التصوير لحظة، وبقيت أراقبه، أتشرب كل لفتة منه وسكنة والسعادة آخذة بناصيتي، ترسم في عينيَّ لوحة بديعة الجمال تأسرني تفاصيلها.

بعدما غربت الشمس استمتعنا بإضاءة الشارع التي تزداد جمالًا كلما هبط الظلام، وفي نهاية جولتنا الطويلة جلسنا على أحد المقاعد الرخامية نتحدث، ثم نعجز عن إيجاد موضوع جديد للثرثرة فيأخذنا صمت سعيد مريح. فتح إيتشيرو حقيبته وناولني علبة من عصير الكوكتيل، فلم أتردد في قبولها رغم عدم حبي له؛ أردت طعمًا مميَّزًا لهذا اليوم، شيئًا جربته للمرة الأولى معه. وبينما أنا شاردة في أفكاري، وجدته ينظر لملامحي بإمعان ويبتسم، وقال مشاغبًا: "لديك أمنية، تمنيها".

قطبت ثم فهمت، إنها لعبة الرموش الطفولية السخيفة، لكنني أخذت الأمر بجدية، وضحكت: "تمنيتُ، والآن ماذا؟"

-"في أي عين؟"

وضعت إصبعي على خدي الأيسر، فمد يده نحو خدي الأيمن، ارتبكت حال تخيلي أن أنامله ستلمسني، لكنه فقط أشار له، ثم أشار بشكل مفاجئ لخدي الأيسر، ضحك وقال: "أمنيتك ستتحقق إذن".

وفرد ظهره ثم مال للخلف مستندًا على كفيه ينظر للسماء، قال بلهجة مرتاحة: "القمر ليس هنا اليوم، كنت أود إخباره كم أنا سعيد".

وأغمض عينيه، نسمة باردة هبت علينا فاستنشق الهواء بعمق وهو يبتسم، فمددت أناملي ألتقط الرمش الراقد على خدي، وتمنيت أن يحقق الله أمنيتي كما لم أتمن شيئًا من قبل.

في ذلك اليوم تمنيت حبه يا ندى، وأن أقضي حياتي أشعر بتلك الإثارة التي تغمرنا عندما نتعامل مع شخص آخر مختلف كل الاختلاف عما عهدنا، ليس فقط اختلافه في اللغة والدين والوطن والتفكير والعادات والتقاليد والأفكار، بل الاختلاف في ممارسة الحياة، وما يحمله البقاء معه من أمور غير متوقعة ولا مألوفة. الاختلاف، المفاجأة، المغامرة، كل هذا كان مثيرًا جدًّا، ومطلوبًا جدًّا

بالنسبة إليّ، تمنيت أن أحوز إيتشيرو إلى الأبد ليكون ملكي وحدي، ليكون عالمي الصغير المختلف تمامًا عن العالم الكبير المزعج المحيط بي.

امتدت علاقتنا لأسابيع، تحدثنا كثيرًا، وسهرنا معًا على الإنترنت، تبادلنا المعلومات والصور والمواضيع عن اليابان وعن مصر، وفي كل عطلة أسبوعية كنا نخرج معًا، ضحكنا وغامرنا ولعبنا معًا كطفلين يكتشفان لذاذة اللعب للمرة الأولى. نقلت له عدوى إدمان الشطرنج، أما هو فعلمني لعبة الإيغو التي لم أتقنها حتى اليوم بما يكفي لأهزمه. كانت أوقاتًا سعيدة، تُعَوَّضُ ولا تنسى، وأجمل ما فيها ابتسامته بعد كل لعبة منها وعبارته المعهودة: "لا تحاولي، هبة تشان، لن تستطيعي هزيمتي مهما فعلت".

لم أحب في حياتي لقبًا ولا اسمًا بقدر ما أحببت لقب (تشان) الذي يدللني به.

منذ رحلتُ عنكِ أصبحت وحدي تمامًا يا ندى، حتى اقتحم إيتشيرو هذه الوحدة وأجبرني على الخروج للحياة. سحبني من قوقعتي، وأخذني إلى كل مكان شعرت بالزهد فيه أو الملل منه، كل متاحف القاهرة زرناها، وحفظنا آثار القلعة عن ظهر قلب، وأصبح شارع المعز مألوفًا وكأننا عشنا فيه حياتنا كلها، رأيت كل هذه الأماكن مختلفة تمامًا، كأني أراها بأعين جديدة، ربما كنت أراها بعينيه.

وبعد كل لقاء أعود لبيتي ثملة بالسعادة، وألوذ بالنوم قبل أن تتبدد أحلام يقظتي، وأنتقل من حلمٍ ملموسٍ عشته معه، إلى آخر في نومي يدور حوله. لم أكن أحبه بقدر ما كنت مغرمة بفكرة الوقوع في الحب معه، كنت مجنونة، وثملة تمامًا بشعور لا أستطيع وصفه، لكن تذكره يجعل غلالة جميلة من الدفء تلف قلبي، وتأخذني إلى عالم من الأحلام. تلك الفترة كانت أجمل فترات حياتي يا ندى، سأذكرها إلى الأبد باعتبارها حلمًا حقيقيًّا عشته في يقظتي.

وجاء ديسمبر الجميل..

وفي ديسمبر هذا حققت واحدًا من أحلامي، وسافرت إلى الواحات البحرية، ومنها إلى الصحراء البيضاء، رأيت أخيرًا الجبال التي تبدو ككتل عملاقة من الكريستال اللامع تحت السماء الرمادية، يومها تذكرتك؛ كنا نحلم بهذه الرحلة معًا يا ندى، لكنني قمت بها مع إيتشيرو، وسبعة من زملاء دراسة اللغة اليابانية، وثلاثة أصدقاء يابانيين يدرسون العربية معه.

كان وقتًا مرحًا، ورفاق الرحلة جميعًا في حالة هوس جعلتهم يرقصون نصف الوقت، فتسائلت عن مشاعر اليابانيين الذي يرون هذا، ثم اكتشفت أن المرح الأبله لغة عالمية. أمضيتُ الرحلة صامتةً أبتسم، وأراقبُ الصحراء بالخارج، أما إيتشيرو فشارك الآخرين مرحهم فترةً طويلة، ثم جاء يسألني عن سبب انعزالي.

-"أنا سعيدة لدرجة أنني لا أستطيع الكلام".

كانت الرحلة حلمًا أصررت على الاستمتاع به لآخر لحظة على طريقتي، وضعت قائمة طويلة من الأغاني التي أحب لأسمعها، وأمضيت الوقت شاردة غارقة في مشاعر وذكريات بلا حصر. احترم إيتشيرو طريقتي في الاستمتاع، فأمضى الوقت مع الآخرين، وإن كان يرمقني كل حين وآخر بنظرات تطمئن إليَّ، ثم يعود للغناء معهم.

زرنا كل ما أمكننا زيارته، ونصبنا معسكرًا في الصحراء لنمضي ليلتنا، وبعكس الحرارة المعتدلة التي تعجبت لها في الصباح، أصبح الجو باردًا جدًّا بمجرد غروب الشمس، ثم انقشعت السحب الخفيفة كاشفة عن رداء النجوم الفضّيّ البهيج، فانطلقت روحي من عقالها.

استعنت على البرد بسترتين فوق عدد لا بأس به من الملابس السميكة، وابتعدت لأجلس على مقدمة إحدى السيارات، وأسندت ظهري إلى الزجاج، أنظر للسماء والنجوم اللامعة، والجبال البعيدة، المسربلة بسواد انسكبت عليه شلالات القمر الفضية. غرقت في أفكاري قرونًا، وانتبهت بانتفاضة ذعر عندما رأيت وجه إيتشيرو يقتحم مجال رؤيتي، اعتدلت أنتزع السماعات عن أذنيَّ، وهتفت والغضب يعميني: "لقد أفزعتني.. ماذا تريد؟"

كان الغضب في وجهه أشد من غضبي، وأجابني: "أين كنت؟ أنا أبحث عنك منذ عشر دقائق".

-"لماذا؟"

ثم انكمشت عندما تنفس بعمق، كانت نظراته باردة لدرجة مرعبة: "قبل أن تقرري الاختفاء في الصحراء أخبريني، وفري عليَّ الخوف المؤلم والقلق".

واستدار، فوثبت أمسك بمعصمه وهتفت: "انتظر، لقد طلبت من أمل أن تخبرك".

توقف واستدار يمسك بيدي، قبض عليها بيديه بحرص أطلق فيَّ نوبة مفاجئة من الدفء التام، ثم قال: "أنت تتجمدين! تعالي لتجلسي قرب النار".

بحركة تلقائية قبضت أصابعي حول يديه مدهشتيّ الدفء: "إن أطرافي باردة دائمًا، لا تقلق".

ظللنا صمت عجيب، ثم قال: "هل تسافرين مع أصدقائك لتكوني وحدك هكذا؟"

-"الوحدة لا تضايقني، كما أنني تمنيت منذ طفولتي أن أقضي ليلة شتوية في الصحراء وأنظر إلى القمر والنجوم. أترى كيف تبدو السماء؟ وذراع المجرة؟ أترى مدى جمالها؟.. أنا لم أر من قبل نجومًا بهذا الوضوح واللمعان، ولن أضحي بهذا المشهد لأغني مع الآخرين".

تنهد ثم عاد ينظر لي بعينين داكنتين ما أجملهما، وابتسامة ما أرقها، وقال: "لديك دائمًا إجابة لا يمكنني دحضها".

ابتسمت، وقفزت مجددًا على مقدمة السيارة، فسألني: "أي أغنية تسمعين بهذا الاستغراق؟"

-"أغنية قديمة، تتحدث عن شخص ذهب إلى عرافة، تنبأت له بالكثير عن حبه".

-"بأي شيء تنبأت؟"

ترجمت له مقطعًا من (قارئة الفنجان) وتنهدت، فقال: "إنها جميلة".

-"نعم، وهي أجمل بالعربية، سوف ستحبها".

-"ليس أكثر مما أحبك وأنت تتكلمين بهذه الطريقة".

مست الكلمة قلبي، تمنيت أن أسمعها ألف مرة، بل مليون مرة، ولن أملها أبدًا.

سألته وكأنني أحلم: "أي طريقة؟"

لم يجب، نظر إليَّ طويلًا بصمت، ثم تقدم وانحنى يأخذ يدي اليسرى، أمسك بنصري وسألني: "قولي لي، لماذا تربطين هذا الخيط؟"

نظرتُ للخيط الأحمر المربوط حول إصبعي بإحكام خانق، ووخزني وجع الذكرى بقوةٍ لم أتحملها، طال صمتي بحثًا عن إجابة، وعندها سألني: "أهو ارتباط برجل آخر؟"

-"لا".

-"أله علاقة بالحب إذن؟"

-"بل بالكراهية".

-"عفوًا؟"

سحبت يدي، وقبضت على إصبعي أحمي الخيط، وقلت: "لقد سمعتني بطريقة صحيحة، إيتشيرو. لقد وضعته لأجل الكراهية لا الحب، الشخص الوحيد الذي يستحق الحب في هذا العالم بالنسبة إليَّ، هو نفسي فقط".

كنت أعرف إلى أي درجة تؤلم هذه الكلمات، لكنني ما كنت قادرة على الكذب، عليه هو بالذات. وما كنت قادرة على الكذب، في هذا الأمر بالذات. للحظة شعرت بالغضب منه لأنه أطلق سراح وجعي عن غير قصد.

بعد فترة قلت: "أنا آسفة، لكنني لا أكذب، إيتشيرو".

هز رأسه، ثم حل ذراعيه، رأيت في عينيه ومضة من التردد، سرعان ما استحالت لنظرة تصميم، ثم قال بطريقة قاطعة: "امنحيني شيئًا من هذا الحب إذن".

لم يكن ثمة شعور في قلبي يؤهلني للإجابة، فسكتُ، لكنه كرر: "امنحيني شيئًا من الحب الذي تحتفظين به لنفسك، ولن أخذلك أبدًا".

أكسبني وجعي جفاءً لم أصدقه: "أنت الصديق الوحيد الذي أملك في حياتي الآن، أرجوك لا تفسد الأمور، إيتشيرو".

-"لن أفسد شيئًا".

وأمال رأسه كعادته ممعنًا النظر إليّ وسألني: "لو قلت لك إني أحبك، فهل تصدقين؟"

برغم ما كان من أمنياتي، ومشاعري، ورغباتي، إلا أن الإجابة التي تداعت فورًا إلى عقلي كانت أكثر ما أخشاه، وأكثر ما يعذبني. كلمة (لا) بحجم الكون نبتت في قلبي، تتبعها شذرات من ذكريات عدة، مرقت كسهام مسمومة، واستقرت في أعماق صدري. تنفست بعمق، وأقسمت أنني لن أبكي، فكرت في أشياء مضحكة لم تبهجني، لكنها جعلت الوجع قصيًّا، بما يُمَكّنني من إطلاق ابتسامة خادعة في وجهه.

واجهته وأنا أكاد أضحك: "أوه! أنت تستغل ضعفي في اللغة اليابانية لتمزح. دعنا نعود إلى المعسكر".

ووثبت عن السيارة وتأهبت للفرار، لكنه أمسك معصمي واستوقفني وأنا أمر جواره، وقال بصوت ثابت ومُصر: "أريد البقاء معك إلى الأبد".

أخرجتني الكلمة عن صوابي غضبًا، وتجنبت النظر إليه: "لا أحد يبقى إلى الأبد".

-"لو سمحتِ لي بالبقاء سأبقى".

-"ولو لم أسمح؟"

نطقت الكلمة بتلقائية، ثم انكمش جزء ما مني مذعورًا، عرفت أنني سأندم، وأن ندمي سيكون عميقًا، لهذا شهقت خائفة عندما شدني إيتشيرو للخلف خطوة، وحدق إلى عينيَّ وأجاب: "سأبقى أيضًا".

اتسعت عيناي عن آخرهما، وتوقفت حواسي تمامًا، خلا عقلي من الأفكار، وبردت مشاعر كأنما هو الموت. لم أعرف ماذا يجب أن أفعل، ولا إن كان هناك شيئًا يتوجب عليَّ أن أفعله. جزء مني أراد الفرار بعيدًا عنه، لكن جزءًا آخر أراد البقاء هكذا إلى الأبد، معه تحت السماء الساطع فيها القمر، بعيدًا عن البشر، وحدنا تمامًا، لا أفعل شيئًا سوى أن أنظر في عينيه، وأركز مشاعري تمامًا لأستوعب ما قال، واستوعب شعوري بيده المحكمة حول معصمي، وتلك الرجفة في أصابعه.

"إنه يمزح".. هكذا حاول عقلي إفاقتي من شللي الأحمق، وقد أتت محاولته أُكُلها، فأصبحت فجأة أدنى إلى الغضب والضيق. حاولت سحب معصمي لكنه لم يفلتني، ولم يبعد عينيه عني. قال: "لن تذهبي".

رغم نبرته الآمرة، إلا أن عبارته كانت أقرب إلى المناشدة، أشعرتني بألم لم أفهمه، شيء حنون وجميل ودافئ لدرجة مُعذبة تململ داخلي، وفي تلك اللحظة أدركت أني أحبه، حقًّا أحبه، وأنني أحتاجه كثيرًا. تساءلت بيني وبين نفسي: متى تحول شعوري بالانجذاب لمدى اختلافه عني، إلى شعور بعشقه هو ذاته؟ فلم أجد إجابة، أنا لا أعرف، لا أعرف إلا أنني لا أملك أي قدرة على تصور فراقه، ولا أملك أي قوة تؤهلني للابتعاد عنه.

دار العالم بي، وانقلبت الجبال لتمد جذورها في السماء، وارتجت الصحراء إثر توقف الكوكب عن الدوران. تنفست بعمق محاولة التماسك وسألته: "أتعلم أسوأ ما يحدث لهؤلاء الذين يتعاهدون على البقاء معًا إلى الأبد؟"

-"ماذا؟"

-"إنهم يقدمون على الفراق بإرادة تفوق تلك التي قطعوا بها الوعود، ويفعلون هذا بكل برود ولا مبالاة، وربما يحتفلون بالأمر أيضًا".

-"هذا لن يحدث".

-"كلهم قالوا هذا أيضًا".

-"هبة...".

-"إيتشيرو".

قاطعته بصياحٍ صارم، فقطب حاجبيه وانطفأ، وعندها أزحت يده..

-"لا تفسد الأمور، أليس ما أقول واضحًا؟"

-"كما تحبين".

آلمني رده، لكنه أسكت الوهن الغبي الذي سرى في صدري، وتمكن من قلبي، أسكته وأخبره أني محقة، أنا دائمًا محقة. بنصف ابتسامة غير ذات معنى، ونظرة ظافرة قلت: "إذن، اسمح لي...".

تركته، وبعد خطوات بطيئة أسرعت، ركضت، ثم هرولت، حتى بلغت حلقة الأصدقاء الملتفين حول النار، وارتميت بين أمل وأحمد صارخة من البرد. لكزتني أمل غاضبة من انفصالي عنهم طوال الوقت، لكني ضحكت، ضحكت كثيرًا مع الجميع، ولم يبلغ صدى الضحكات قلبي. هناك، بعيدًا، وفي ركن مظلم مني، كان ألم سخيف يقاتل ليتملكني، لكني قاومته بضراوة.

قاومت الألم حتى اختنق.

لم أر إيتشيرو، ولم أحاول حتى البحث عنه بعيني. قضيت الوقت أمازح زملائي، وأضحك على ترجمتهم الحرفية للأمثال الشعبية إلى اليابانية، وصدمة الأصدقاء اليابانيين مما يسمعون. كانت سهرة جميلة، انتهت قرب الفجر وأنا في مزاج يقارب مزاج السكارى، لكنني بعد دخول الحافلة، والارتماء على الأريكة الخلفية، حدقت إلى السماء، فرأيت كل شيء أضخم وأكثر وضوحًا في ظلمة الصحراء، النجوم اللامعة، والقمر الفضي، والجبال البعيدة، والألم الكامن في صدري، في عزلتي عن الجميع طفا أخيرًا وجرفني، كطوفان لا سبيل للسيطرة عليه أو إيقافه.

"هذا أفضل".. همس عقلي بالكلمة مواسيًا.

"هذا أفضل، صدقيني، هذا أكثر أمنًا".. كرر بإصرار محاولًا انتشالي من وجعي.

أجبته هامسة: "أعرف".

لكن صوتًا آخر همس: "أنتِ حمقاء".

قال عقلي: "أحب نفسي فقط، وأقاتل لنفسي فقط. لقد كان هذا عهدًا، والعهود لا يجب أن تنكسر".

أجبته ثانية: "أعرف".

ورفعت يدي اليسرى، بيني وبين السماء، تأملتها وقد أحاطها ضوء القمر بهالة شاحبة، هالة لم تكف لإضاءة حواف الخيط الأحمر الملتف حول بنصري، فبدا أسود اللون، داكنًا، كأنه جزء من الظلمة المحيطة بي، أو لعله جزء من الظلمة التي تسكنني.

همس الصوت الآخر: "لماذا تمنيت حبه إذا كنت ستفرين بعيدًا هكذا؟"

لم أجد إجابة..

همس مجددًا: "أنت حمقاء، ما كان يجب أن تفعلي ما فعلتِ".

همستُ: "ما كان يجب أن أكون موجودة من الأساس".

همس: "أنتِ حمقاء يا هبة، إن الظلمة التي تعتقدين أنها تسكنك، لم تعد فقط داخل قلبك، إنها خارجك الآن، إنها تكبلك، كيف لا ترين هذا؟"

خفضت يدي وتركت عينيّ تبحران في السماء.

تذكرت ضيوف الشرف في حياتي، ومروان، وسمير، وشلتنا القديمة كلها يا ندى.

تذكرت كل شيء مر بي قبل عام واحد، وابتسمت، ولم تبلغ الابتسامة قلبي.

همستُ: "هذا لن يكون مجددًا، لن يكون".

هبة

8 يونيو 2011

اليوم الثاني

تلابيب الذكرى

صديقتي العزيزة ندى

بعدما أنهيت رسالتي السابقة شعرت بالدهشة للثرثرة التي اندفعت إليها معك! لم أشعر قط أني أريد البوح إلى هذا الحد! لقد اختزنت الكثير خلال تلك السنوات القليلة التي أمضيتها دون صديقة مقربة! دونك!

كانت حياتي بعد مفارقتك كما كانت قبلها، بلا أصدقاء، ولا أدري إن كان هذا بسبب الخيط الأحمر الملتف حول بنصري، أم بسبب أنني لم أستطع تجاوز ما حدث مع شلتنا القديمة.

ماذا حدث وجعلكِ ترحلين أنتِ الأخرى؟ كنتِ محبوبةً دائمًا يا ندى، ولا أتخيل شيئًا قد يدفعك للابتعاد عنهم لدرجة الاختفاء التام كما أخبرني مروان، كنتِ تعتبرينهم عائلتك، تمامًا كما فعلت أنا يومًا، واعتبرتهم أغلى من أملك.

آه! يا له من زمن طويل! تبدو تلك الأيام بعيدة وكأن قرونًا قد مرت.

لا أفتقد منهم سواك ومحمد حسين، وأتمنى لو حققنا أمنيتنا يومًا، فنقضي صيفًا طويلًا في الإسكندرية، ونسير من قلعة قايتباي حتى ستانلي، نلتهم الآيس كريم ونشرب البيبسي. أمازلت تحبين البيبسي يا ندى؟ أمازلت تقولين"لو كان البيبسي رجلًا لتزوجته"؟ أمازلت كما أنت؟

أنا لم أعد كما أنا، تغيرت إلى الأحسن كما أعتقد، وأتمنى أن تكوني أفضل مني، فالأحسن الذي تغيرت إليه لا يناسب أحدًا سواي، ولا أظنه يستحق لفظ الأحسن إلا في عقل مختل كعقلي.

ولا تقولي إن عقلي ليس مختلًا، فقد عولجت لفترة عند طبيب نفسي لم يستطع أن يقوم اعوجاج أفكاري، لكنه نجح فيما هو أكثر أهمية: جعلني أدرك أنني فعلًا مختلة، وجعلني أعترف أمام نفسي أنني لست على صواب دائمًا كما اعتدت أن أرى نفسي. كان هذا الاعتراف بداية إلقاء كل الأمور عن عقلي، كل الذكريات، كل المبالاة بالآخرين. وقد ألقيتهم لا لشيء إلا لرغبتي الخاصة.

وبرغم هذا، كنت كثيرًا ما أسرح في ذكريات شلتنا القديمة، وأحاول اكتشاف ما ارتكبته ليفعلوا بي ما فعلوا، وأفشل، ثم ألقيهم في سلة مهملات ذكرياتي باستهانة، مؤكدة أنهم لا يستحقون مني إلا كل احتقار وازدراء. لكن، أتريدين الحق يا ندى؟ لولا ما فعلوه لم أكن لأصبح ما أنا عليه، يمكنك أن تعتبري هذا اعترافًا، ويمكنك أن تعتبريه محاولة لمواساة الذات، ويمكنك أن تعتبريه محاولة لاستغلال كل شيء مر بي لصالحي.

الآن وأنا أكتب أسمع مقطوعة موسيقية بديعة، كنت أسمعها معهم، لكن ما أشد الاختلاف بين أمس واليوم!

كم أنا آسفة يا ندى، آسفة جدًّا لمفارقتك وتركك دون تفسير بسبب هؤلاء الأغبياء، أتمنى لو تمتلكين الشجاعة الكافية لمسامحتي، وأعدك بأنني لن أسامح نفسي أبدًا، وسأظل مخلصة لك إلى الأبد.

أتعرفين، عام 2009 كان كارثة بالنسبة إليّ، عانيت فيه مشكلات كثيرة انتهت بصعوبة، لكن أسوأ ما عانيته ومازلت أعانيه هو النسيان، لقد نسيت الكثير جدًّا جدًّا من ذكرياتي مع الشلة، والأسوأ أنني لم أسجل الكثير في دفتر مذكراتي، أحيانًا أشعر بالأسف لهذا، وأحيانًا أخرى أشكر الله، ربما النسيان في حالتي هذه بالذات نعمة.

الموسيقى الجميلة تأخذني أربع سنوات إلى الوراء، إلى البداية.. لا أعرف إن كنت أخبرتك يومًا عن بدايتي معكم أم لا.

بدأ كل شيء في يومٍ دافئٍ في فبراير 2007، في مكتبة مبارك العامة. وقتها كنت مولعةً بالسياسة، وتستغرقني قراءة أهم مؤلفاتها، فأنهيت في ذلك اليوم بعض الكتب وأعدتها، وعزمت على استعارة مجموعة أخرى، إلا أن المجموعة التي رغبت في استعارتها لم تكن متوافرة. ولشدة ضيقي دخلت القسم المخصص لكتب الأطفال بحثًا عن بعض السلوى، وكانت سلواي هي سلسلة هاري بوتر.

أخذت الأجزاء الأربعة الأولى، وحاولت تذكر لماذا لم أقتنها وأنا صغيرة؟ لقد أعجبتني وقتها، ثم اعتبرتها تفاهات تكتب للصغار حين كبرت، فلم أهتم بها. والآن سأواسي نفسي بقراءة هذا الهراء المفتعل عن مكانس تطير وسحرة يلوحون بعصيهم ليحققوا أحلامهم.

كان هذا انطباعي الأول عن عوالم بوتر، واليوم أغرق في الضحك كلما طالعت مذكراتي ورأيت كمية الغضب والازدراء الذين تعاملت بهما مع هذا

السحر الذي بدل حياتي أيما تبديل، وأتساءل لماذا لم يخطر ببالي وقتها أن هذا السحر الخيالي قد ينقلب لسحر حقيقي يصيبني في مقتل؟

حسنًا، لقد أصابني بعد الفصل الأول من الرواية الأولى.

لقد جننت، أصابني هوس لا يوصف بهذا العالم السحري، وصرت آتي إلى المكتبة كي أجدد استعارة الروايات نفسها، أو أستعير جزءًا آخر منها، وذات يوم قررت أن أغامر وأدخل على الانترنت. وقتها كل فكرتي عن الإنترنت كانت أنه وسيلة شيطانية لتبديد الوقت ودخول المواقع الإباحية، وتخيلت أن جوجل سيسخر مني عندما يجدني أبحث عن شيء هزلي كهاري بوتر، لكنني صعقت بكثرة نتائج البحث التي حصلت عليها، ولم يمض وقت كثير حتى عثرت على منتدانا يا ندى.

وبدأ كل شيء جميلاً، في حياتي الأولى، في تلك اللحظة.

صرت عضوة في هذا المنتدى السحري، الذي حاكى قلعة هوجوورتس الأسطورية أبدع المحاكاة وأدقَّها، وصارت هوجوورتس، التي لم أتمن في حياتي بيتًا أجمل منها، واقعًا افتراضيًا محسوسًا، وملموسًا، ومن يومها بدأت مغامرتي السحرية الطويلة، تلك التي انتهت بنهاية علاقتي بشلتنا، أو لعلها لم تنته ولن تنته مادمت أنتِ في حياتي، ولو كذكرى.

لم أخبرك عن حياتي من قبل يا ندى، لم أخبركِ عن أبٍ غير موجود دائمًا، وأمّ مشغولة دائمًا، وأخٍ لا يأبه بوجودي إلا إذا احتاج شيئًا. عن طلاقٍ صوريٍّ لم ينه حدةَ المشكلاتِ بين والدين لا يكفان عن التناحر، حتى لم تسلم أحلامي من صدى مشاجراتهما. لم أخبرك عن منزل بسيط سكنَّاه مؤقتًا بعد منزل جميلٍ وفخم لم أشعر بقيمته إلا بعد مفارقته، وقطعًا لم أخبرك عن مال شحيح، وأب لا يرغب في الإنفاق علينا، ولا يتحمل أي مسؤولية تخصنا مهما صغرت.

لم أخبرك عن أعوام الثانوية العامة، وسنوات المراهقة الخطرة التي تشوهت بمشكلات يثيرها أب لا ضمير له، وعن خطوات الانفصال التي حاولت بها أمي حمايتنا، إلا أن الظروف وقفت لي بالمرصاد، وجعلني استرخاء أعصابي المفاجئ بعد التوتر الذي لم أعرف سواه طوال حياتي أتراخى، وأنام شهورًا طويلة، حتى فجعت بمجموع رديء لا يصدق في الثانوية العامة، وراقبت حلمي الجميل في كليةٍ مرموقة أتفوق فيها، وأحظى بعدها بالمرتبة العلمية الراقية التي أنشد، وهو يبتعد، حتى ليوشك على التحول إلى خيط دخان تبدده نسمة.

لم أخبرك عن الأزمة النفسية التي مررت بها بسبب هذا، وكيف كرهت نفسي وغضبت منها، وكيف ألقيت عليّ وحدي باللوم. لم أؤنب إلا نفسي؛ لماذا لم أكن قوية بما يكفي كي أستوعب فكرة انفصال أبويّ؟ لماذا لم أتغلب على حدة مشاجراتهما التي وصلت لمعدل خيالي؟ لماذا لم أفصل عقلي عن كل ما حولي وأتحلى ببعض الأنانية من أجل مصلحتي الخاصة؟

لكن الأسئلة لم تغير شيئًا، لقد فات الوقت.

تعلقت فقط بأمل واهٍ في الالتحاق بكلية الحقوق؛ كان إحساسي بالعدالة طوال عمري قويًّا، وأردتُ أن أنجز كثيرًا من الأشياء التي ستسهل عليَّ سطوة القانون إنجازها. ماذا عن تأسيس نقابات مهنية للبوابين والحرفيين والمهمشين؟ ماذا عن تأسيس مؤسسات لرعاية أطفال الشوارع؟ ماذا عن مؤسسات رعاية كبار السن الذين لا يملكون من ينفق عليهم فيضطرون لشحذ الملاليم؟ ماذا عن صياغة قوانين لا تجبر الأطفال على العمل؟ وصيانة حقوق العمال الذين يُسرّحون كل عام من مؤسسات يرعاها مالكو السلطة والمال، حتى صاروا وحوشًا لا سبيل لدحرها؟ ماذا عن صياغة قوانين عليا تحكم هذا البلد الذي يسير بفوضى كونية لا تصدق؟ قوانين تنظم الحكم، وتضبط أداء المسؤولين عن البؤساء الذين لا يختارون رئيسًا، ولا يد لهم في مجلس شعب ولا شورى، ولا دستور ولا سواه؟ هؤلاء الذين صيَّرهم بؤس العيش متاعًا يوَّرَثُ من أبٍ لابن؟

يجب أن أغير هذا البلد، وستكون فرصتي عبر دراسة القانون.

كانت لديّ آلاف الطموحات التي تبدو الآن شديدة السذاجة والمثالية يا ندى، وتعلقت كلها بانتظار نتيجة تنسيق الثانوية، حتى ظهرت لتكسر ظهري انكسارًا لم أتحمله؛ لقد ألحقوني بكلية الخدمة الاجتماعية!

خدمة اجتماعية؟ أنا!!!

في بلاد العالم المحترمة تكون هذه كلية محترمة، ولكن في بلدنا المصون هذا تعد من أحط الكليات وأقلها قدرًا، ويلاقي طلابها أصنافًا من الاستهانة الممزوجة بشماتة كفيلة بحرق الدم، لأننا –في بلدنا المصون- لا نفهم معنى خدمة المجتمع، في الواقع نحن لا نفهم معنى (خدمة) من الأساس، وكل ما نفهمه أننا عباقرة. المصريون العباقرة أصحاب الحضارة التي بلغت آلاف السنوات، الذين يملكون النيل، والأهرامات وأبا الهول، ومعابد الأقصر وشواطئ شرم الشيخ، وشُعب الغردقة المرجانية، ورمال سيناء الفيروزية، وقلعة قايتباي السكندرية.

لنا من العظمة ما يفوق كل شعوب الأرض، فمن نحن كي نخدم أحدًا؟ حتى ولو كان هذا الأحد شخصاً منا؟ شخصاً عاجزاً أو ضعيفاً أو مريضاً أو غير قادر على مواجهة أقداره، وبحاجة للمعونة، من نحن كي نساعده ونخدمه؟ فليحترق في الجحيم، وليحترق من يدرسون سبل العناية به في الجحيم، إنهم حفنة من الأغبياء الذين لم يحوزوا بضع درجات في الثانوية العامة. إن المجد كل المجد لأصحاب الكليات اللامعة، الطب والهندسة، وهؤلاء الذين أحرزوا 120% في الامتحان، لهم كل المجد وكل السؤدد، وللآخرين اللعنة والهوان.

هكذا صار عليّ مواجهة الأعين المستهينة، الأعين التي تقول: "آدي العبقرية اللي صدعونا بالكلام عن مستقبلها اللامع. خدمة اجتماعية؟ هأو!"

لكنني صمدت بكبريائي المتعجرفة التي صادقتها وصادقتني منذ الطفولة، اتفقت معها ألا ننصاع للمبادئ الغبية لهذا المجتمع الخرب. كلية خدمة اجتماعية؟ ثم ماذا؟ أنا عبقرية، وسأحرز النجاح في أي مكان.

ووقفت أمام كليتي في اليوم الأول بنظرة تحدٍ، ولسان حالي يقول: "انتظريني، لا تتخيلي أنني سأستسلم، ستكونين لي خلال سنوات، سأكون الأعلى درجة فيكِ خلال سنوات".

لكن هذا لم يحدث يا ندى، لم أتمسك بما قلت لأكثر من أيام قليلة؛ كان شعوري باللا جدوى يقتلني.. ماذا أفعل هنا؟ هذا ليس مكاني، هذه ليست أرضي، ليس هذا الملعب الذي أريد الفوز فيه، لن أستطيع، لأنني –فعلًا- لا أريد. هل سأُسجن في هذا القاع لمجرد أنني لم أحصد درجتين ونصف زائدتين، بما يمكنني من دخول كلية الحقوق؟ درجتين ونصف؟ هل تتعلق أقدارنا بأشياء على هذا القدر من السخافة؟ أخسر طموحاتي لأجل درجتين ونصف؟

كنت أتنقل من قاعة إلى قاعة في الكلية وأنا أوشك على قتل نفسي تأنيبًا.

كل شيء بدا سخيفًا، بسيطًا لدرجة مملة، أي دراسة هذه؟ لو أنني جلبت قطة وصفعت مؤخرتها فستتفوق في هذه الكلية. إذن، ما المتعة التي سأحصل عليها -كشخص عبقري- من التفوق في هذا الهراء عديم الجدوى؟

هذا مستحيل، لن أدرس هذا الهراء أبدًا، مهما كان الثمن.

وهكذا هجرت كليتي، وطفقت أمضي كل أوقاتي في كلية الحقوق، اعتاد أساتذة الكلية رؤيتي في المقعد الأول، وإجاباتي الدقيقة وأسئلتي الشائكة،

وأمضيت أوقات الفراغ في القاعة رقم 5 في المكتبة المركزية لجامعة حلوان، وهناك قرأت كل ما وقع تحت يدي، حتى الكتب التي أهلكتها قراءة منذ الطفولة، كل مؤلفات نجيب محفوظ، ويوسف السباعي، وإحسان عبد القدوس، ومحمد عبد الحليم عبد الله، وطه حسين، والعقاد، وأنيس منصور.. كل أدباء مصر قرأت كل أعمالهم. قرأت في الجغرافيا حتى ظننت أن بوسعي وضع خريطة شاملة لكوكب الأرض، وقرأت تاريخ مصر حتى الثمالة، وتاريخ إنجلترا، ودول أمريكا اللاتينية، وتاريخ إسبانيا، قرأت كل ما أستطيع قراءته بالعربية والإنجليزية، وقرأت القليل بالفرنسية.

كنت أنتظر يا ندى، أنتظر النجاة من تلك الفجوة التي علقت فيها، بين الماضي التعس في كنف أبٍ لا يطاق، كاد يُهلك حياتي وحياة أمي وأخي، وبين المستقبل اللامع الذي أثق أنه ينتظرني، لكن دربي إليه تلبد بضبابٍ كثيفٍ مفاجئ، رحت أبحث عن أفضل طريقة للتخلص منه.

بحثتُ في دليل المعاهد الخاصة، وانتقيت عدة معاهد منخفضة المصاريف، وذات شهادة معترف بها، قررت أن أدرس اللغات، وكانت هي الحلم الثاني بعد حلم دراسة القانون. ولكن، كما قلت لكِ: كان المال قليلًا جدًّا، وكان أخي يستعد للالتحاق بالمدرسة الثانوية بعد إعادة السنة الإعدادية مرتين، حصل في آخرهما على مجموع تزيد فيه درجات النجاح على النهاية الصغرى بخمس درجات. ولم تكن أمي تعترف بالمدارس الثانوية الصناعية أو التجارية؛ اتقاءً لسخرية الساخرين وشماتة الشامتين، فألحقته بالثانوية العامة، في مدرسة خاصة فلكيةٌ مصاريفُها، دون أن تصغي لنصائحي.

كنت أعرف أنه سيفشل؛ لم يكن قط محبًا للدراسة، ولم أستطع فهم المعجزة التي مكنته من النجاح حتى وصل إلى الثانوية. وحدي رأيت مصيره واضحًا أمامي: رسوب متكرر، ثم خروج من الدراسة، ثم عمل طويل وشاق، وبعدها سيقابل فتاة يرغب في الزواج بها، فترفضه لمستواه التعليمي، وهنا إما أن يجتهد لدخول الجامعة ضاربًا نفسه بألف حذاء عقابًا على كسله، وإما أن يبحث عمن هي أقل منه، ليستكمل معها مسيرة أبيه في المعاملة الخشنة، وانعدام المسؤولية.

لكن أمي لم تر هذا، ولم أرغب في إخبارها بما أراه بوضوح، بل ربما خشيت ترديد هذه الخواطر جهرًا؛ خشيت أن تكون مجرد وسوسة أمَّارة بالسوء تغريني بسرقة حق أخي، فلم أتكلم، صمتُّ وقررت الصبر، وأن أتنازل لصالحه، وأن لا

أسرق فرصته بعدما أهدرت فرصتي الخاصة. من يدري، لعل معجزة تحدث، لعله ينتبه فجأة لأهمية حياته ويبدأ في الاهتمام بمستقبله. ماذا سيحدث لو وقعت هذه المعجزة بعدما سرقت فرصته، وألحقته بتعليم تجاري أو صناعي؟ سيمضي حياته يكرهني، وسأمضي حياتي أنظر في المرآة أعاتب نفسي وأقول: "يا لك من منحطة! ليتك تصرفت كما يجدر بأختٍ كبرى".

لكن تنبؤاتي صدقت، فبعد تلك السنوات التي درست خلالها عشرات الأشياء، وأتقنت خلالها لغتين، وبدأت دراسة جامعية حقيقية، لا يزال أخي في الصف الثاني الثانوي، للسنة الخامسة أو السادسة على التوالي. ستكون امتحاناته بعد أيام، وقد قررت أمي أن هذه المرة ستكون الأخيرة، لكني موقنة أنه لن ينجح، وإن كنت أرجو أن يخيب ظني، كي لا أموت ندمًا. لقد قررت قبل سنوات أكون أختًا كبرى تضحي دون تردد، لكنني اليوم أقول إنه لو عاد الزمن للوراء، ما ترددت في سرقة أي شيء من أجل نفسي.

تالله كم كنت غبية!

لم أجرؤ على طلب الفرصة يا ندى، قررت الانتظار عامًا ثم تحويل أوراقي لكلية الحقوق، لأن التنسيق القادم سيقتضي درجاتٍ أقل.

أمضيت عامي أقرأ، وأُتقن الإنجليزية، وأعمل لأجني المال متأهبة لمصروفات أوقن أن أمي لن تستطيع دفعها، لأن مصروفات أخي ومدرسته تلتهم دخلنا كله تقريبًا. وبقيت أسبح في مدار كلية الحقوق، أذاكر القانون في صحوي ونومي وذهابي وإيابي، وارتضيت أن أهجر الدنيا لأجله. وجاء الصيف التالي، وأعلنت نتيجة تنسيق الثانوية العامة، ورقصت فرحًا إذ كان بإمكاني الالتحاق بها، ولكن عندما ذهبت أخبروني أنني مقيدةٌ بتنسيق عام تخرجي في الثانوية. قلت لهم إن موظف بالكلية أخبرني أن تحويل أوراقي ممكن، لكنهم أخبروني أنه مخطئ، وإذ عدت إليه لأخبره بما قيل، تذكر لقائي به العام الماضي وضحك: "آه، معلش بقى، تلاقيني ماكنتش مركّز".

أضاع من عمري عامًا للا شيء، ولم يكن أمامي من سبيل للفكاك من وضعي المثير للشفقة، حاصرتني الدرجتان ونصف الملعونتان لتطيحا بحلمي الأغلى إلى غير رجعة.

هكذا لذت بغرفتي لمدة أسابيع يا ندى، أشحن جسدي بكميات هائلة من الشاي، وأطيل النظر للسماء ليلًا، باحثة عن حل غير موجود. كنت في صراع لا

يوصف: لن أقبل أبدًا بدراسة لا تستهويني، وفي الوقت نفسه لن أستطيع الظفر بسواها. لن يقبلوا تحويلي للكلية التي أحلم بها، ولا أملك المال الكافي للحصول على التعليم الذي أقبل به، حتى الدراسة بنظام التعليم المفتوح غير متاحة؛ يجب أن أنتظر خمس سنوات على صدور شهادة الثانوية العامة كي أستطيع الالتحاق به. ماذا أفعل؟

ماذا أفعل؟ سألتُ نفسي ملايين المرات. وبعد أسابيع لم يعد أمامي إلا الانصياع للمنطق، والعودة لكليتي والاستسلام، ماذا كان بإمكاني فعله على كل حال؟

وهكذا عدت يا ندى، منكسرة القلب، أختبر شعوري القهر والنقمة على المال لأول مرة. رحت أتنقل بين قاعات الكلية شاعرة بجدرانها تطبق على أنفاسي، وكأن سجنًا ينهار فوقي ويسجنني في جوف الأرض، ثم يسحقني بجدرانه الهائلة، غير عازم على ترك أي مساحة لي لأتنفس، لأحلم، لآمل الأفضل.

وأمام كلية الحقوق اعتدت الجلوس ومراقبة المحظوظين الآخرين، عندها أدركت أني لا أحيا، أنا فقط أحلم بالحياة، ولا يمكنني الحصول عليها، مجبرة على الخضوع للمسار الذي يخضع له الجميع، لأني فقيرة، ولأنني في مجتمع غبي، بل لأنني في وطن غبي يجعل مجرد الحلم كفاحًا مؤلمًا.

رحت أكافح شهورًا قليلة، خلالها تعلمت أن الدراسة مهما كانت سهلة فأنت لن تتفوق فيها ما لم تحبها، كانت المواد تثير أعصابي رغم سهولتها، ولم أستطع الجلوس أمام كتاب ساعة واحدة، وبرغم هذا كان المركز الأول على الدفعة بانتظاري بشهادة أساتذتي. حتى جاء يوم جلست فيه أمام كلية الحقوق ونظرت إليها مطولًا، إلى الحلم المحرم عليَّ بلوغه بأمر درجتين ونصف، وبأمر أقداري التي ألقتني في تيار حياة أخرى سيسحبني بعيدًا.

لا أنسى ذلك اليوم أبدًا يا ندى، إذ تولاني فيه خوف هائل. كنت عازمة على التخرج في كليتي، ثم العودة لدراسة القانون، لكنني تساءلت عن الضمان الذي يجعلني واثقة من قدرتي على تحقيق هذا؟ من أدراني أنني سأحتفظ بإصراري هذا بعد التخرج؟ وأن الانخراط في العمل والدراسة الغبية لن ترهقني وتستنزفني، وتعيقني عن ملاحقة حُلْمي، حتى إذا حان وقت الحصول عليه فقدت رغبتي فيه؟ من أدراني أنني سأظل راغبة في دراسة القانون خلال الأربع سنوات القادمة؟

كانت الكلية عالمًا آخر، وتيارًا يشدني لمنطقة عميقة في بحر لا أرغب في خوض أمواجه، فمن أدراني أنني –إذا ما غرقت في تلك الأمواج- سأظل متشبثة بنفسي القديمة؟ وأنني لن أستبدل بأحلامي أحلامًا أُخر؟ وأستبدل بنفسي نفسًا أخرى قد لا تبالي بما أريد الآن؟

سأموت في هذه الكلية، ستموت نفسي التي أعرفها وأحبها، وتموت معها أحلامي، ستسحبني تلك الدراسة البلهاء وتغسل مخي، وتقتصر معارفي على هذا المجال، وسأتطبع بطباع أغلب المحيطات بي في الكلية، واللائي لا يفكرن إلا في الحصول على زوج، أو المتزوجات اللائي لا يفكرن إلا في أحدث ملابس النوم المغرية، والطريقة المثلى لصينية البطاطس.. سأكون مثلهن، وحين أتخرج سأتزوج رجلًا مصريًّا لعينًا، وأنا أظن نفسي أنتقل للجنان العلا، وسينتهي كل شيء في حياتي بعدها، إن لم تنتهِ حياتي نفسها لا طموحاتي فقط.

لا، هذا لن يحدث أبدًا، لن أسمح لهذا بالحدوث.

بقيت أيامًا أصارع تلك الأفكار، وأحاول التشبث بنفسي، ثم عزفت عن محاضراتي وعدت أسكن القاعة رقم 5 بالمكتبة المركزية. وفي إحدى لحظات فوران عقلي بالأفكار أمسكت ورقةً، وكتبت فيها كل أحلامي، وكل ما أتمناه، وكل ما أحلم به خلال عشر سنوات قادمة، ولم أجد شيئًا واحدًا أفعله الآن قادراً على مساعدتي في تحقيق أي من هذه الأحلام.

وضعت الورقة وأنا مصدومة، ثم استغثت هامسة: "ماذا أفعل؟ ما الذي يجب عليّ أن أفعله؟"

أجابني عقلي: "البقاء هنا سيكون جهدًا ضائعًا، مجرد وقت ومال وجهد بلا نتيجة، والأسوأ أن احتمال تنازلك عن أحلامك قائم كأقوى ما يكون".

دافعت عن نفسي: "لن أتنازل عنها أبدًا".

قال بلهجة العارف: "أنتِ تقولين هذا الآن فقط، ولكن تخيلي نفسك بعد أربع سنوات وأنتِ تمسكين بشهادة يمكنك العمل بها في تخصصك، هل ستلقينها في القمامة بعد كل هذا التعب؟ هل ستسعين خلف دراسة أخرى، وتعب آخر، لأربع سنوات أخرى؟ أنتِ لن تفعلي، لن تلقي جهدك، وستسيرين في المسار المفترض، ولن تخرجي منه أبدًا إلا وقت موتك، وحينها ستتساءلين: كيف مر بي كل هذا الوقت دون أن أفعل شيئًا؟ كيف مضت تلك الحياة دون أن أحقق ما أردت؟ هل ستتحملين هذا؟"

فُزِعتُ: "مستحيل".

شجعني قائلًا: "إذن، اتركي كل شيء واذهبي".

سألته: "إلى أين؟"

أجاب: "لا يهم المكان، ما دام هذا ليس مكانك، فلا يهم إلى أي مكان آخر تذهبين".

انقبض قلبي، أفاق من غفوة عميقة واعترض: "لا".

واعتصرني الوجع، فاعتصرت ورقة أحلامي بدوري..

قال عقلي: "اذهبي، لو كنت جادَّةً حقًّا في ملاحقة أحلامك فلن يهمك شيء، لا الانتظار، ولا الوجع الذي ستتحملين لسنوات، ستقدرين على تجاوز كل هذا".

اعترض قلبي: "لا، تحملي مؤقتًا، لا تضيعي الوقت هدرًا".

قال عقلي: "الإهدار الحقيقي هو أن نُدفن هنا، سنضيع، ولن نعود أبدًا".

بتلهف قال قلبي: "لا، انتظري، أنتِ تعرفينني، ألا تثقين بي؟ أنا قوي بما فيه الكفاية لأصمد معك، أعدك أنني لن أتنازل عن أحلامنا أبدًا، صدقيني".

أغمضت عيني، وواصل الوجع اعتصاري، لكنني احتكمت إلى ضميري، وقد أخبرني كيف سأتصرف بعد سنوات لو استمررت في الاستسلام لهذا التيار، كنت نزيهة بما فيه الكفاية لأصارح نفسي بحقيقة نفسي.

همس عقلي: "اتركي كل شيء واذهبي، ستكونين على ما يرام، ثقي بي، بعد سنوات ستكونين ممتنة لما أقوله الآن".

همست راجية: "صمتًا".

وأسندت رأسي للمنضدة، أغرقت حواسي في الشعور بتفاصيل المكان، برودة المنضدة السوداء التي تلامس جبيني، الاعوجاج الخفيف في ظهر مقعدي، الهواء المكيف البارد، رائحة الكتب، رائحة الأوراق التي أكتب فيها، ورائحة الحبر. ثم رفعت رأسي ونظرت حولي، للأرفف التي أحفظ كل ما عليها، وللمشهد الذي تطل عليه النوافذ الهائلة، حَفَرتُ كل التفاصيل في قلبي بدقة، ثم نهضت.

أخذت ورقة أحلامي المهشَّمة في يدي، وبيدي الأخرى حملت كتبَ الكليةِ كما أحمل طفلًا صغيرًا، بحرصٍ واهتمام، ولكن بمجرد خروجي مررتُ بكليةِ الحقوق، ورأيت أفواجَ المتدافعين إلى المدرج يتقاتلون على الدخول أولًا. توقفت طويلًا أراقبهم، تأملتهم، تأملت المهتمين منهم، والتافهين، وهؤلاء الذين التحقوا بالجامعة فقط كي يظفروا بحبيبة، وهؤلاء اللائي التحقن بالجامعة كي يستعرضن أناقتهن، أو يصطدن عريسًا. لم أشعر بشيء، كنت فقط واقفة كعمود نور أجوف، فارقه الضياء قبل سنوات، وقد استمر واقفًا فقط بفعل الكرامة، حتى وهو واثق أن الضياء لن يعود إليه مجددًا.

عندما دخل المتدافعون مدرجهم تحركت، ببطء شديد نقلت خطاي، وانخفضت يدي اليسرى بالكتب، راحت تتأرجح جواري كبندول ثقيل، سرت مئات الخطوات بخواء عمود النور الأجوف، ثم سقط مني أحد كتبي، عندها توقفت، أبقيت نظري معلقًا ببوابة الجامعة البعيدة، وبالأعلام التي ترفرف عليها، وبشعار الجامعة المنحوت فوق عمود هائل، والذي يخطف قلبي من على بعد أميال، ثم تحركت مجددًا، كانت خطواتي أسرع قليلًا، وإن ظلت يدي تتأرجح، وأفلتت كتابًا ثانيًا، لكنني لم أتوقف، أسرعت أكثر، وأفلتت يدي كتابًا ثالثًا، وعندما بلغت بوابة الجامعة كنت ألهث بعد طول ركضي، وكانت يدي اليسرى خالية، لكن اليمنى ظلت متشبثة بورقة أحلامي.

وقفتُ ونظرت إلى أعلى، كنت أسفل شعار الجامعة، وعلا صدري وهبط بأنفاس ثقيلة، نصفها متألم، ونصفها حر، تعلقت عيناي بالشعار حتى آلمني عنقي، ثم خطوت مغادرة، خرجت من الجامعة، ولم أنظر للخلف قط يا ندى، ولم أعد ثانية، حتى اليوم.

أنت لم تعرفي شيئًا من هذا قبلًا يا ندى، لأنني حين قابلت شلتنا كنت سعيدة جدًّا، ولم أخبرهم بشيء عن نفسي؛ وددت إلقاء حياتي كلها خلف ظهري عندما أكون معهم، ولم أكن لأتذكر ألمًا وأنا أقضي أسعد أوقاتي مع أصدقاء صاروا عائلة أحبها حبًّا يفوق حبي لعائلتي الحقيقية. كنت سعيدة جدًّا، وبرغم أنني الآن سعيدة، وقابلت بعد فراقهم أشياءً جعلتني أسعد بكثير، فأنا أشعر دائمًا بأنني لن أسترد تلك السعادة الخاصة التي جربتها معهم مرة أخرى.

جزء كبير من سعادتي تلك كان عائدًا إلى البراءة، والسذاجة والتلقائية والبساطة البلهاء التي كنت عليها، وأنا الآن لم أعد بسيطة ولا تلقائية يا ندى، وفقدت –إلى الأبد- براءتي الساذجة القديمة.

قبلهم لم أعرف أصدقاء بمعنى الكلمة. طوال حياتي كنت منطوية تمامًا، حتى بلغت المرحلة الثانوية، وعرفت حمقاء واحدة استهواها الفضول نحو جلستي المنعزلة في ركن الفصل وأنا أقرأ، وطالت علاقتنا حتى نهاية السنة الأولى من الجامعة، ثم جاء الفراق عندما قابلتني يومًا ببعض أقاربها، لتكتشف بعدها أن صداقتنا تفتقر للتكافؤ، لأنها تفوقني أناقة وانفتاحًا ومرحًا، وأنا لا أرى في الحياة سوى الكتب والمكتبات والمتاحف. تلقيت كلماتها ببرود، ثم تملكني وجوم مرير؛ علمت أن المال لن يحرمني التعليم فقط، بل سيحرمني الأصدقاء أيضًا.

وقال لي عقلي: "إذا كان هذا معيارهم لصداقتك، فأنتِ لستِ بحاجة لأحد". وقد كان، تعلمت كيف أتجنب الإيذاء بتجنب الناس، وبدأت أتنزه وحدي، وأستمتع بوحدتي، وأفعل كل ما أريد بصحبة نفسي، وما عدت بحاجة لوجود شخص معي لأستمتع بحياتي.

خسرت صديقة المراهقة، ثم غادرت كليتي بعد أشهر غير عازمة على العودة، وانهمكت في العمل، وأغرقت نفسي في القراءة، ودرست الإنجليزية بجدٍ، ثم عملت في مجال السياحة بلغتي الممتازة، وعملت بدوامٍ جزئيٍّ في عدة أماكن لادخار مصروفات الدراسة التي أنوي الالتحاق بها بعد سنوات. عقدت العزم على الالتحاق بكلية الحقوق في التعليم المفتوح بعد ثلاثة أعوام، ثلاثة أعوام يجب أن تمر وقد ساعدت أمي في تسديد مصروفات دراسة أخي، وفي ادخار المال اللازم لدراستي.

عزمت على الاستثمار في عقلي دون حد أقصى للنفقات.

في هذه الفترة قررت البقاء وحدي إلى الأبد، لكن شلتنا ظهرت يا ندى، وتغيرت حياتي.. وعندما اقتربت ولمست منهم ذلك القبول الذي يدعوني للاقتراب، أقسمت أني لن أفرط فيهم ما حييت، ليس فقط لأنني أحببتهم بصدق، ولكن لأنني أحببت أيضًا طابع الحياة السحرية الذي أسبغناه على علاقاتنا ببعضنا. أردت أن يكونوا أصدقائي، وأردت أكثر أن أحيا حياة جميلة وسعيدة ولو لوقت قصير، قبل أن أعود لحياتي الأخرى المختفية خلف غلاف سميك وأسود من الذكريات التعسة والمعاناة.

مر أول لقاء مع شلتنا كأجمل ما يكون، ولا أستطيع أن أتذكر يومًا كنت فيه أكثر سعادة من ذلك اليوم، وزادت سعادتي عندما وصلتك أخباري وتحدثتِ إليَّ.

ما أطول الحوار الذي دار بيننا! وما أشد الدهشة التي شعرت بها وأنا أستمع لسيل الأسرار الذي صببته على رأسي دون سابق معرفة! تساءلت عن السبب الذي يدعوك للثقة بي، ولم أجد إجابة إلا فيض من الحب شعرت به نحوك قبل رؤيتك، تمنيت صداقتك من كل قلبي، وملأني شعور دافئ الآن فقط أفهمه.. لقد وثقت بك بعمق منذ البداية يا ندى.

ثم التقينا أخيرًا، أتذكر هذا اليوم الكوميدي بكثير من السعادة، وأضحك وأنا أتذكر نكاتك القاتلة، كم كانت أفكارك مجنونة يا ندى! ألا تزال أفكارك كما هي يا صديقتي؟ أم منحك الزمن هدية النضج التي نطلبها صغارًا ونزهدها كبارًا؟

كان لقاؤنا الأول رائعًا، وما يؤرقني حين تذكره هو سؤال وحيد: أي عطر كنت تضعين يومها يا ندى؟ أنا لا أستطيع التذكر، فهل تستطيعي أنت؟

أنتظر ردك بفارغ الصبر.

هبة

9 يونيو 2011

اليوم الثالث

أيام رمادية

صديقتي العزيزة ندى

في أوقات كثيرة أكتشف أنكِ كنتِ تفوقينني نضجًا في أمور العواطف، وربما لا تزالين. أتذكرين اشمئزازي كلما رأيت قبلة في فيلم أو مسلسل؟ أتذكرين كلمة "يع" التي طالما أجبتها بقولك: "يع في عينك"؟ كنت أحدثك عن البكتريا والفيروسات التي تنتقل بالقبلات، فتنظرين إليّ نظرتك إلى مختل، وتوبّخيني: "ماتحكميش قبل ما تجربي"، فيحمرُّ وجهي حرجًا. ها أنا قد جربت يا ندى.

قبلاتي وإيتشيرو في فراشنا كل صباح تنسيني العالم بأسره، أحب قبلاتنا الصباحية أكثر من أي شيء، وأحب أن أستيقظ لأجده سبقني ولبث صامتًا يتأملني.

ذات يوم استيقظت وهو، شعرت به يلعب بشعري، فاعتذر لي، لكنني أخبرته أنني لا أمانع في الاستيقاظ على جنونه المبهج، وإذا بي في اليوم التالي أستيقظ على قبلات متتابعة مشتاقة غمرت جسدي، وأخذتني لدوامة من الحب سحبتني إلى أعماق لم أكن لأتصورها. كم أنت مجنون يا إيتشيرو! وكم أحب جنونك!

اليوم استيقظت قبله، وبقيت أتأمل وجهه النائم بهدوء، وابتسامة خافتة تظلل ثغره فأشعر بالرضا لكوني رسمتها على وجهه قبل أن ينام. تأملت بحبٍّ شعرَه الأسود الكثيف، وعينيه المسحوبتين بميل ساحر، وأنفه الحاد، وحنجرته البارزة كرأسِ سهم، وذقنه ذات طابع الحسن. كم هو جميل! أحب التباين البديع بين نحول خصره وعرض كتفيه وصدره، وعضلاته المحددة وكأنها مرسومة، أحب ملمس ظهره، وانحناءة عنقه، أحب كل ما فيه وأجده مثاليًّا مئة بالمئة دون خطأ واحد.. إنه يملك كل ما تمنيته في رجل أحلامي، كأنه اطلع على تلك الأحلام وقرر أن يحققها لي.

فتح عينيه فأشرقت الشمس، وبادرته: "أحبك، إيتشيرو".

قلتها بكل اللغات التي أعرفها، واستسلمت لذراعه التي جذبتني إلى حضنه. يعرف إيتشيرو كم أكون آمنة وسعيدة في هذا الحضن، لهذا لا يبخل عليَّ به

أبدًا، شددت ذراعيَّ حوله وسكنت كي لا أزعجه، لكنه كان مستيقظًا، وصوته كان صافيًا وهو يحدثني بلهجة نائمة حالمة: "يوم رمادي".

كانت الشمس محتجبة خلف سحب كثيفة، وأسعدني هذا المشهد الغائم وأبهجني، فهمست بسعادة: "أحب الأيام الرمادية".

-"وأنا أحب كل ما تحبين".

وقبلني، قبلني كثيرًا حتى وددت لو يتوقف الزمن إلى الأبد، ثم نهض فتبعته. وقفنا نغسل أسناننا ووجهينا في صمتٍ حنون، وخرجت من الحمام أتمطى، وسألته: "هل سنفطر هنا أم نخرج؟"

سحب المنشفة عن كتفي وألقاها، وشدَّني إلى منتصف الغرفة، وقال كأنه يغني: "تعالي نرقص".

ضحكت للمفاجأة، وقفزت بعيدًا عنه: "سأرتدي فستانًا".

شدَّني مجددًا وأسرني بين ذراعيه، أزاح شعري بعيدًا وقبل عنقي وضحك: "أنت مناسبة أكثر هكذا".

-"الرقص دون فستان تطير تنورته حولي ليس برقصٍ".

وارتديت فستانًا أبيض، قصيرًا وشفافًا، لمع إعجابه به في نظرةٍ طويلةٍ شغوف، ثم ارتفعت الموسيقى بإحدى مقطوعات التانجو التي نحبها. قلت: "لا أعرف رقص التانجو".

-"ولا أنا".

وأطلق سراحي بحركة رشيقة فدرت حول نفسي، ثم سرت بخطوات متمايلة تتعمد الإغراء مقتربة منه، ثم توقفت شاعرة بسخافتي، فشجعني بصوتٍ لعوب: "لا ترددي، إنه ليس أول شيء نتعلمه معًا".

لم أتخيل من قبل أن يبدأ يومي مع الرجل الذي أحب بالرقص، تغلب إيتشيرو على كل جموح أحلامي بتلك الفكرة البسيطة المبهجة. رقصنا مرة ومرتين وثلاث، وعند الرقصة الخامسة كنا أفضل بكثير وخطواتنا أسرع وأكثر رشاقة، أمام عيني كنت أرى رقصات التانجو الكثيرة التي رأيتها من قبل، وأشعر أنني أقرب إلى محاكاتها، وكذلك إيتشيرو. رقته الجميلة استحالت لجرأة مثيرة زادتني به تعلقًا، نظرات عينيه أعجزتني عن النظر بعيدًا، وصوت أنفاسه كان

أجمل من صوت الموسيقى، الطريقة التي يشدني بها ويخضع بها جسدي لحركاته جعلتني أفهم لماذا يقولون أن التانجو يشبه ممارسة الحب.

حركتنا الأخيرة أطلق فيها سراحي من بين ذراعيه وهو يرفع يدي عاليًا، فدرت حول نفسي مستمتعة بتطاير فستاني وشعري من حولي، وبالهواء الذي يهب علينا فيجعلني أشعر أننا نطير، أو أننا نرقص فوق السحاب، ثم توقفت، وعندها شدني إيتشيرو إلى حضنه، احتضنني بقوة جعلتني أسمع نبض قلبه بوضوح كأنه يدق بين ضلوعي أنا، ولبثنا صامتين نستعيد أنفاسنا، ثم أبعد شعري عن عنقي كعادته وقبلني أسفل أذني، فأمسكت بيديه أبثه شيئًا مما يجري في عروقي بعد تلك الرقصة المثيرة. أي سعادة تلك التي أشعر بها معه، يحبني كما أحبه، ويريدني كما أريده، ونحن وحدنا في غرفة كل ما فيها أبيض، نقف مواجهين الشرفة التي نرى من خلالها البحر، والسحب الكثيفة التي تنحني لتعانق صفحته عند نهاية خط الأفق.

تذكرت أول يوم رمادي عشته معك يا ندى.

في معرض القاهرة الدولي للكتاب 2008 ، كانت عائلتنا الأولى هناك، ولا بُد أنك تذكرين كل شيء، فهذا اليوم لا ينسى، بالنسبة إليك وبالنسبة إليّ.

لم تكن علاقتنا عميقة بما فيه الكفاية بعد، على الأقل من ناحيتي، مرض الشك والوسواس وفقدان الثقة بالناس جعلني لا أخبرك شيئًا عني، وبعد الثقة التي شعرت بها نحوك عدت أتردد رغم حبي لك.

سعدت بلقائك يومها، وبحديثنا السريع المرح، ولكن سرعان ما تركتني واختفيت، فتنقلت من مكان إلى آخر دون رفيق معين. هطل المطر كالسيل، وأغرقنا غرقًا تامًا جعلنا نتندر بالنحس الذي يطارد شلتنا. أنت تذكرين سمعتنا الشهيرة كمنحوسين من طراز خاص لا يقهر، وقد كان هذا اليوم تجسيدًا كاملًا وصادقًا لنحسنا الخام، القادر على إصابة كواكب كاملة بسوء الحظ، ويا لها من صحبة!

ثم جاء مروان متأخرًا، أو إنني قابلته في آخر اليوم، بعد صولات وجولات في أجنحة المعرض، انتهت بحقيبة هائلة على ظهري، وأخرين في يديّ، وبدوت أشبه بالحمَّالين المحترفين في محطات القطار. عندما رآني لوَّح لي بمرح فرددت التحية، وجمعنا حديث عن رواية هاري بوتر الأخيرة التي اشتريناها توًا والتقطنا

معها ألف صورة وصورة. وفي نهاية اليوم ظهرتِ، ورحت أستمع إليك، وأخزن حديثنا معًا ومع الباقين في أعماق ذاكرتي، كي لا أنسى شيئًا.

لكني نسيت يا ندى، نسيت الأحاديث، والأفكار، والكلمات، ولم يبق من الذكرى إلا رائحة الجو، رائحة الأيام الرمادية التي تعبق بالأحلام. رائحة البرد، رائحة الهواء النقي، رائحة التراب المبتل بالمطر، رائحة الأشجار المغسولة بالمطر، رائحة المطر نفسه، رائحة الشتاء، رائحة يناير الجميل.

وابتسامة مروان..

في ذلك اليوم ألقيت بذرة ما اسمها مروان في روحي، بذرة شيطانية لا أفهم من ألقاها، ولماذا ألقاها، لكنها كانت تكبر يومًا بعد يوم، وتمتد جذورها في كل ركن مني، وتستولي عليَّ بإحكام. لعنت ابتسامته التي ودعني بها وجعلت أفكاري تتوقف للحظات. ترى هل كان يعرف أنني قلما رأيت أبي يبتسم، فصار أكثر الرجال تأثيرًا فيَّ أكثرهم ابتسامًا؟ لا بُد أنه قرأ أفكاري وعرف نقطة ضعفي هذه فاستطاع أن يصوب سهمًا قاتلًا إليها.

كان انجذابي المفاجئ له عجيبًا، فلم يكن أحدنا يستلطف الآخر من قبل، لكنه صوَّب إليَّ ابتسامة وقعت موقع السحر في روحي، ولأيام عجزت عن إخراجها من عقلي، وعندما مللت المقاومة استسلمت لأحلامي به. كنت غارقة في مشكلات عائلية لا حصر لها، وأبي يعاملني أسوأ المعاملة رافضًا أي نوع من التواصل معي، فسقطت في صراع بين تأنيب ضميري الذي يثرثر عن صلة الرحم، وبين كرامتي التي يجرحها توددي لجلّادي الأول. لم يكن لي مهرب من هذه التعاسة إلا الحلم، فاستسلمت للحلم بمروان، وقررت أن أمضي أيامًا أفكر في شيء يسعد قلبي، ثم أترك ذكراه ترحل إلى الأبد، وأكسب ذكرى تؤنس وحشة أيامي، وتجعلني يومًا أقول "لقد ذقت يومًا شيئًا من الحب".

لكنني أدمنت الحلم بمروان، صار مخدِّرًا يُلهيني عن تعاسة حياتي، وصارت أحلامي به سحرًا يمحو همي، وأتى فبراير لأجدني شبه غارقة في حبه دون أن أعرف كيف.

أتذكرين أول لقاء جمعنا وحدنا يا ندى؟ لا أزال أذكر تفاصيله ، ليس لأنه كان أول حديث من القلب إلى القلب بيننا، بل لأنك يومها منحتني أجمل هدية تلقيتها في حياتي. في ذلك اليوم كان أسبوعان قد انقضيا على عيد ميلادك، وأربعة أيام على عيد ميلادي، وكنت راغبة في شراء هدية قيمة لك تعبيرًا عن

حبي، لكن المال لم يسعفني، فعزيت نفسي بأن الأمر لا يهم، لأن علاقتنا ليست قوية لدرجة تبادل الهدايا. لكنك فاجئتني إذ منحتني تلك الهدية الصغيرة العزيزة، والتي هي أغلى ما أملك، الميدالية المعلقة بها زجاجة فيها أوراق صغيرة ملفوفة على شكل رسائل، كم كانت لطيفة، وكم أسعدتني وأحرجتني. كانت بها رائحة عطرة لم تفارقها حتى اليوم، رائحة أذكرها بوضوح، وأعود لأملأ بها صدري كلما استبد بي حنيني لأيامي القليلة معك.

كان ذلك أول يوم أنتبه فيه لرائحة عطرك يا ندى، أحببت تلك الرائحة كثيرًا، ولم أرغب في إخبارك بهذا لئلا تظني أني أغار منك، كما تفعل الفتيات الأخريات، لم أعرف وقتها إلى أي حد أنت مميزة ولا مثيل لك.

تحدثنا كثيرًا يا ندى، وكنت متشوقة للبوح عن أحلامي بمروان، لكني أتمالك نفسي بكبرياء؛ لم أكن أثق بك تمامًا، ويجرحني هذا الاعتراف الآن. لم أكن أثق بأحد في الواقع، لكنني قررت منحك القليل من ثقتي في مقابل ما منحتني إياه من ثقة، وتمنيت أن أجد لديك من التكتم ما يقارب ما أملك، فأخبرتك أنني معجبة بشخص من الشلة. هل تلاحظين كلمة (معجبة) هذه يا ندى؟ لو قرأت ما كتبته في مذكراتي في ذلك الوقت ستعرفين كم أنا متكبرة لأختزل شعوري الجارف في كلمة (معجبة) فحسب.

ثم داهمني الرعب عندما أخبرتني بدورك أنكِ معجبة بواحد منهم، وكنت كمن ينتظر حكمًا بالإعدام وأنا أترقب نطقكِ باسم الشخص الذي تحبين، ثم تنفست الصعداء. كنت قد هيأت نفسي لأخبرك باسم شخص مختلف لو اتضح أننا نحب الشخص ذاته، والآن أتساءل: لماذا قررتُ هذا يا ندى؟ هل لأنني أحبك أكثر؟ هل لأنني مكابرة ولا أتحمل فكرة أن أبدو خاسرة أمام أحد حتى صديقتي؟ هل لأنني أرى المنافسة تنتقص من قدري؟ أم لأن دور الضحية يبدو مغريًا لكل البشر؟ أم أنني كنت أرى في قرارة نفسي أنه لا يستحق؟

لا أملك إجابة، ولا أهتم.

كل ما كان يعنيني يومها هو تشجيعك لي، ووعدك بدعمي، وكم أسعدني كلامك يا ندى. اختزنتُ كلماتكِ عنه بشوقٍ، ومزجت صورته بما تقصينه عن حبيبك، وصنعت قصة حب خيالية انتظرت تحققها في القريب العاجل. كنت متفائلة بجنون، عاشقة بجنون، مندفعة إلى ما لا نهاية.

لم تكن أي منا تدري ما سيحدث، كنا عند بداية طريق اخترنا خوضه بكامل إرادتنا، دون أن نعرف ما سنلاقيه فيه.

لو كنا علمنا، أترانا كنا نتخذ المسار نفسه يا ندى؟!

ارجو منك ردًّا واحدًا، واحدًا فقط يا صديقتي.

هبة

11 يونيو 2011

اليوم الرابع

أواخر الشتاء

صديقتي العزيزة ندى

إنه اليوم الرابع منذ بدأت مراسلتك دون رد بعد، أتمنى أن يكون السبب هو انشغالك، أو أنك رأيت رسائلي وتملكك الغضب فلم تفتحيها، أتمنى ألا يكون سبب تأخرك هو أنك قد غيَّرتِ بريدك الإليكتروني، وصار الوصول إليك مستحيلًا.

فكرة جميلة طرأت على عقلي اليوم وأنا أسير على البحر مع إيتشيرو، فكرت أنك قد تكونين هنا الآن وربما تجمعنا مصادفة حلوة في أي لحظة. ترى لو التقينا هل ستعرف إحدانا الأخرى؟ أتساءل كيف أصبح شكلك الآن؟ كنت تبدين مختلفة في كل مرة أراك فيها عن المرة السابقة لها، فإلى حد ستختلفين الآن بعد فراق عامين؟

كنتِ الأكثر أناقة بين بنات الشلة يا ندى، وعندما أخبرتك بأمر مروان وقررتِ أن تساعديني، نصحتني بأن أحرق ملابسي كلها! يومها ضحكت من قلبي، ولم تفهمي سبب سعادتي، ولم أشرح لك؛ كنتِ أول من يتحدث إليَّ بتلك الصراحة. في فترة ما كان أسلوب ملابسي يستحق هذا الوصف، لكنه لم يعد مقبولًا لديَّ بعدما جنحت إلى التقرب من الله حد التشدد والغُلو في سنوات المراهقة، وبعد فترة أخرى عندما صار أسلوب ملابسي بشعًا فعلًا، لم تخبرني أي من زميلاتي بذلك، اعتقدت وقتها أنهن لا يردن إيذاء مشاعري، ولكن عندما كبرت وتخليت عن براءتي الغبية، فهمت أنهن لم يكن راغبات في إضافة منافسة لهن.

يا للبلهاوات!

أنا سعيدة جدًّا يا ندى لأنك كنت صديقتي الأولى، لقد أرشدتني لأشياء لم تخطر لي ببال، وكنتِ صادقة معي، وأحببت دومًا الاستماع لك عوضًا عن الكلام، وكنت مستمتعة بحديثك عن كل شيء بدهشة من يكتشف الحياة.. عن عقول الرجال الفارغة التي لا يروقها إلا ما هو لامع حتى وإن كان متعفنًا من الداخل، وأعينهم التي تنجذب لأشياء لم تكن ضمن نطاق تفكيري بتاتًا.. أحببت

تلقائيتك وصراحتك، وجرأتك الغريبة وكأننا نعرف بعضنا منذ سنوات. أحببت كل حركة متهورة تقومين بها، حتى الإحراج الذي شعرتُ به وأنتِ تتأملين الثياب الداخلية المعروضة بأحد أكبر محلات، وتعليقك عندما طلبت منك الرحيل لأن وقفتنا تجذب انتباه الناس، فأجبتني بعجرفة: "يولعوا".

كنا نمضي عبر شوارع وسط البلد وأنا أتأبط ذراعك، وأشم رائحة عطرك أقرب من أي وقت مضى، لقد وقعت في غرام تلك الرائحة الجذابة التي اقترنت في عقلي بك، وللمرة الثانية لم أرغب في سؤالك عنها؛ لم أرغب في أن تغريني روعتها بشرائها، لم أرغب في أن تظني أنني أسعى لتقليدك، أو أن يظن الآخرون هذا، أنت لا تعرفين كبريائي القاتلة، وأول مظاهرها أنني لا أحب أن أشبه أي شخص، ولا أن يشبهني أي شخص.

عندما أخبرتك بأمر مروان قلت لي إن علينا وضع خطة تؤهلني للقائه بشكل مستمر لأتقرب منه، ولم أتوقع أن ترتبي رحلة صغيرة إلى حديقة نقضي فيها يومًا مفتوحًا. وعلى الحشائش الخضراء، وتحت السماء الشتوية الرمادية، كانت رائحة عطرك حاضرة بقوة، وكنت أنا تائهة مع مروان، وضحكته التي تملأ الدنيا سرورًا وبهجة، لتطربني أكثر مما تفعل الموسيقى التي يعزفها بجيتاره.

بقينا في الحديقة حتى المساء، وعندما خرجنا تلكأتِ في المسير مع أيمن تتحدثان عن موسيقى الميتال، تاركين إيانا نسير أمامكما، والواقع أنني كنت أرغب في الاستحواذ عليه، فرحت أجد السير معه كي ننفصل عنكما إلى حد يسمح لنا بالحديث الحر، وفي النهاية وجدنا نفسينا على جسر قصر النيل دون أي أثر لكما حولنا.

قال لي بمرحه الجذاب: "سيبهم يحصلونا، أكيد هييجوا من نفس الطريق".

ورحنا نتحدث عن دراستنا، وهواياتنا، وعما نحب ونكره في الموسيقى والأفلام. لم أجد جهله الفظيع بعوالم الأدب والثقافة شيئًا مؤسفًا كالعادة، بالعكس وجدت أن اختلاف اهتماماتنا سيمنحنا أرضًا خصبة من التنوع، لتكون علاقتنا في المستقبل متجددة ورائعة لا يشوبها الملل، لكن مروان كان يرى شيئًا لم أره في نفسي.

قال لي بابتسامة من لا يعرف كيف يعبر: "طموحك مرعب جدًّا، حاسس إنك عايزة تملكي الدنيا كلها".

-"وإيه العيب في الطموح؟ شيء جميل إنك تكافح من تحت الصفر، تصفي أي ديون عليك وتنطلق، وتبني حياتك بشكل تاني خالص. تفتكر مين الأحق بالفخر.. المولود وفي فمه معلقة دهب، وكل فخره إنه ابن فلان وعلان؟ ولا شخص بدأ من اللا شيء وأصبح نجاحه مثل أعلى للكل؟"

نظر لي نظرة مستغربة وضاحكة، كان قلبي يخفق وأنا أتخيلها نظرة إعجاب أو تقدير، لكنه قال لي بمرح غلبت عليه السخرية: "مش فاهم كلامك عن الصفر وتحت الصفر، لكن برضو أنا عند رأيي.. طموحك مرعب قوي، وبصراحة بقى ده بيخوفني".

أجبته بابتسامة..

لم تكن هناك مدينة في الدنيا تعادل القاهرة جمالًا في تلك الليلة، الهواء البارد ورائحة الشتاء، أضواء العمارات العالية وصخب الطريق، وأضواء المراكب والعوامات المتراقصة على سطح النيل.. أغمضت عيني وشعرت أنني أحلق، سمعته يدندن بخفوت مع أغنية آتية من مركب عابر، ثم فتحت عينيّ أنظر للحياة الجميلة المحيطة بي، وأنظر له حيث وقف شاردًا، وقد أحنى طوله الفارع حتى استند إلى سور الجسر. قلت لنفسي إنني لن أشعر أبدًا بسعادة تفوق تلك التي أشعر بها الآن، أبدًا لن تفوق أي سعادة في أيامي القادمة سعادة تلك اللحظة.

وقد بر قلبي بهذا الوعد زمنًا طويلًا يا ندى.

نعمت بتلك السعادة خلال الأيام التالية، وهو لا يكف عن الاتصال بي لأسباب مفتعلة، ظننته أعجب بي، وغسل هذا الظن قلبي من ألم افتقاد الدراسة، والكدح في عمل مرهق مهلك، وللحظة فكرت في أني أريد أن أكون معه، ولم تبد لي كليتي ولا طموحاتي كلها أكثر أهمية من حبي له، وكانت تلك أول وآخر مرة أشعر فيها أن شخصًا أهم عندي من نفسي، ومن أحلامي ومستقبلي.

كان مروان هذا الشخص، هو الأول والأخير.

الآن أدرك أن شيئًا ما كان ليجرى بيني وبين مروان، ولو امتدت تلك اللقاءات الصافية بيننا دهرًا، لكننا على الأقل كنا لننهي صداقتنا بشكل ألطف، لولا وجود سمير.

سمير.. قائد الشلة وصديق الجميع المقرب، صديقي المقرب.. يدهشني إلى أي درجة كان موهوبًا في جذب الاهتمام واكتساب صداقة الجميع وثقتهم، في البداية لم ألحظ وجوده، كان شخصًا عاديًّا وظريفًا، ولا شيء يربطني به إلا أحاديث عابرة، لكنه استطاع أن يجعلني صديقته، وأسبغ عليَّ اهتمامًا لطيفًا، وسَفَّه كثيرًا من خجلي الذي لا داعي له، لن أنس قط تلك الأيام التي ما انفك يردد فيها أننا جميعًا عائلة، ولا ينبغي لشخص منا أن ينفصل عن الآخرين ويخجل منهم لأي سبب.

تجعلني ذكرياتي معه أغلي بمزيج من الألم والبغض

آه، سمير!

لك معه قصة طويلة أنت الأخرى يا ندى، أعرف أنه كان الأقرب إليك، ولم يخطر ببالنا ما ستغدو عليه علاقتنا به يومًا. كنا متقاربين، وبيننا صداقة جميلة لم تعكرها المشاجرات، ثم خطر لي أن أختبر ما إذا كان جديرًا بالثقة أم لا، حتى جاء يومًا وأخبرني بخبث أنه يلاحظ اختلافًا فيَّ، واستمتعت باستدراجه المفضوح لي ثم أخبرته أنني معجبة بمحمود، صديقنا الرسام.

كانت طلقة اختبار، لأرى إن كنت أستطيع الاعتماد عليه في التقرب من مروان أم لا، تمامًا كما فعلت معك، لكنه رسب في الاختبار بجدارة، وبعد أيام تحدث معي صديقنا يحيى مُرحِّبًا بي في نوادي العاشقين.. ضحكت كثيرًا، ولكن بداخلي شعرت بالبهجة التي تمليها علينا قسوتنا البشرية إذ تسقط فريسة ما في فخ نصبناه لها، ومع تلك البهجة الكريهة انتابني شعور ساخر بالأسف، تحول ببطء إلى أسف حقيقي؛ لم أتمن قط اكتشاف عدم أمانة سمير بهذا الشكل المخزي.

قلت قيمته في نظري كثيرًا، لكني بقيت أحبه كصديق ظريف، وبهدوء لملم الشتاء برده وأمطاره ولياليه الطويلة ليرحل، وأتى مايو جميلًا لطيفًا، لتصنع رائحتك عبق الربيع يا ندى.. في كل مرة دبرت فيها خروجنا مع مروان وأيمن، كان عطرك يمتزج برائحة الحشائش المقصوصة، ورائحة الشمس الحارة والنسيم البارد، رائحة الحب والسعادة والصداقة يا ندى الغالية، أنت لا تملكين فكرة عن مدى افتقادي لك كلما استدعيت هذه الذكريات.

ثم جاء معاذ، وانتزع من سمير لقب الصديق الأفضل، وربما لو لم يكن مروان موجودًا فما كنت لأجرحه كما كُتب لي أن أفعل. لقد أحببت هذا الفتى

حبًّا خاصًّا، لكنه بادلني حبًّا أكثر اختلافًا وعمقًا، لم أكن قادرة على رده، أو الشعور بمثله، وعندما صارحني بهذا كانت صدمتي مصحوبة بشعور رهيب بالغباء؛ لقد كنت دائمًا محبوبة ومرغوبة، واعتدت الفخر بأنني قادرة على الشعور بإعجاب أي رجل من على بعد كيلومتر، لكن تلك القدرة تعطلت فجأة وفي وقت حساس بحيث فقدت إلى الأبد فرصة إيقاف معاذ قبل أن يتكلم، وقبل أن يأخذ الخطوة التي لا تعود الأمور بعدها إلى ما كانت عليه قبلها، ومن هنا كانت النهاية.

لم أود المجازفة بصداقته، وكنت حذرة وأنا أخبره أنني لا أهتم بالعواطف في تلك المرحلة من حياتي، وقد تفهم الأمر بذوق. كان سمير يتابعني في تلك اللحظات الحساسة، ولا ريب أن معاذ كان يحدثه في ذات الوقت، لن أُدهش لو كان على علم بنيته في مصارحتي منذ البداية. كم كان سمير محظوظًا، وكم كان غبيًّا، كم أحببته، كم كرهته، كم أحقد عليه من كل قلبي!

لم أفهم قط السبب الذي يدعو شخصًا فاز بكل هذا الحب، وكل هذه الثقة، لخيانة أصدقائه، معاذ منحه ثقته وهو خان معاذ بقسوة، وأنا منحته ثقتي، وأخبرته بأمر معاذ وأنني أريد الحفاظ عليه كصديق رغم أنني رفضت حبه، وأنا أيضًا نلت منه طعنة قاتلة.

لن أنسه، ولن أكف عن احتقاره حتى أموت، وسأذكره أبدًا كأحقر من عرفت.

هبة

12 يونيو 2011

اليوم الخامس

وجع جميل

صديقتي العزيزة ندى

خمسة أيام مرت منذ أرسلت رسالتي الأخيرة ولا رد منك بعد، رغم قراري بألا أتعجل ردك، إلا أنني أشعر بقلق كبير من احتمال أن أفقد فرصة الاتصال بك إلى الأبد، ولا أعرف كيف أتحمل هذا لو حدث، بالله عليكِ لو رأيت تلك الرسالة أخبريني حتى لو كان غضبك يمنعك من الرد المفصل، أرجوكِ.

اليوم أشعر بالوحدة بعدما عاد إيتشيرو إلى القاهرة وتركني وحدي، لا أعرف من المزعج الذي اتصل به في التاسعة صباحًا لينتزعه مني بدعوى أن هناك مشكلة (عاجلة جدًّا) في السفارة، لكنني حقدت عليه بما يكفي لجعل إيتشيرو يغرق في الضحك، ودعني بقبلة حارة قائلًا: "لا داعي لهذه النظرة المرعبة، سأعود في السادسة مساءً على الأكثر".

-"أتمنى هذا!"

حال مغادرته شعرت باكتئاب شديد لم يبدده منظر البحر من الشرفة، ولا الهواء البارد الرائع المحمل برائحة الملح وطعم الإسكندرية. بعد 2009 لم يعد هناك ما يمكنه تنغيص سعادتي أو تعكير مزاجي، لكن الآن لديَّ إيتشيرو الذي يورثني ابتعاده عني كل الضيق والألم، لهذا لم أصدق نفسي عندما وضعت رأسي في الوسائد الناعمة وغرقت في البكاء كطفلة بلهاء.

لسبب ما تذكرت ليلتنا الأولى، عندما فزعت من نومي قرب الفجر وهو يغادر الفراش، فتعلقت به خائفة، وأمسكت به وكأنه سيتلاشى.. كررت مرارًا: "لا تذهب".

ومنذ تلك الليلة وإيتشيرو معي، إذا كنا نفترق بالنهار فالليل يجمعنا، نسهر طويلًا وننام فجرًا، مهما كنا مضطرين للاستيقاظ مبكرًا، ولم أستيقظ قط يومًا إلا ووجدته جواري، وتدريجيًّا راحت مخاوفي تتلاشى، وبدأت أشعر أنني قد أمتلك يومًا حياة طبيعية تختلف عن حياتي القديمة في كل شيء.

لهذا كان شعوري بالوحدة شديدًا اليوم، لأنه أول يوم أمضيه وحدي منذ قررنا أن نبقى معًا، الغرفة بدت لي خالية، والفراش واسع وبارد، والإسكندرية

بكل مباهجها كالصحراء. خرجت أسير على الشاطئ على غير هدى يحدوني أمل ضئيل في أن ألقاك فجأة، لكن أملي خاب. مر النهار دون أن تدخل لقمة فمي من فرط اكتئابي وشعوري بالفراغ، فعدت إلى الشقة وجلست على مقعد في الشرفة أنظر للبحر نظرة شرود بلا نهاية.

غربت الشمس وحل الظلام حثيثًا، وأشارت الساعة إلى السابعة والنصف مساءً دون أن يعود إيتشيرو. صوت ميانو مامورو كان يعلو ممتزجًا بصوت الموج الواضح وسط السكون التام، فبدد هذا الصوت الرقيق القليل من وحدتي، وأعادني للتفكير في آلاف الذكريات.

ميانو مامورو، الرجل الأول بحياتي سابقًا!

صديقي العزيز معاذ كان أول من سخر مني عندما وقعت في حب مامورو، وحدث هذا في ديسمبر 2007، وشلتنا القديمة بعد عائلة متماسكة. وقتها أغراني الجميع بمشاهدة مسلسل أنيميه لأفهم سر هوسهم باليابان، وبدأت بمسلسل (مفكرة الموت). تذكرين يا ندى حالة الهوس التي عشتها خلال فترة مشاهدتي لهذا المسلسل، وجنوني بصوت (كيرا) المخيف المغري الذي روعني وتلاعب بمشاعري أيما تلاعب، وقسوته المذهلة التي ألهمتني! كم كنت مغرمة بالقسوة في تلك الفترة يا ندى! كيف لم أنتبه للأمر إلا الآن؟ كيف لم أنتبه لمقدار هوسي بالقسوة، في الوقت الذي كنت فيه ضعيفة هشة معتمدة على الآخرين؟! وكيف لا أطيقها الآن في حين أنني أتسم بها كما لم يتسم بها أحد؟!

تلك الحياة تراقبني من بعيد يا ندى، وتطلق ضحكة ساخرة كبيرة وهي تراني أتقلب بين أطوار وأطوار، احتقرت بعضها يومًا وكرهت البعض الآخر، وفي النهاية انتهى بي المطاف وأنا غارقة فيها –كلها- دون وعي.

آه، لا أريد التفكير في تلك الأشجان! دعيني الآن لمفكرة الموت، المسلسل الذي لو لم أره لربما ما كنت التقيت إيتشيرو قط. كلما أمعنت التفكير في تلك الأمور الصغيرة التي تتوقف عليها حياتنا أحيانًا، أو تتغير جذريًّا بسببها، أشعر بأنني سأجن، وبشكل ما أشعر أيضًا بالألم، لا أعرف لماذا، ربما لأن تخيل حياتي دون إيتشيرو يبدو مؤلمًا لدرجة الموت، وربما لأنني –كما كنت تقولين دائمًا - مغرمة بالتفكير في نتائج لم تقع مقدماتها بعد، وربما لن تقع أبدًا.

مسلسل واحد أخذني إلى عالم كامل من المعرفة، ولولا مفكرة الموت ما تعلقت بفن الأنيميه، وما عدت لأهتم بموهبتي في الرسم، وما درست اللغة

اليابانية، وما التقيت إيتشيرو، وما أصبحت أنا يا ندى. كلما فكرت في هذا سبح قلبي في دوامة من السعادة والمرح، والشجن، وربما شيء من المرارة كذلك. السعادة لأن حياتي كلها تغيرت بسبب شيء صغير كهذا وضعه الله في طريقي، والمرح لتذكري الجنون الذي كنت عليه وقتها، وجوار هذا يغمرني الشجن إذ أتذكر معاذ، معاذ الرقيق، صديقي الأعز والأفضل الذي كان. ترى، هل يذكرني؟ كيف يذكرني إذن؟ هل يشعر بنفس ألمي وشجني؟ أم يلعن أيام معرفتنا التي لم ينل منها سوى الألم؟

كم أنا آسفة يا معاذ!

أتمنى لو أراه لدقائق خارج هذا الزمن يا ندى، في لحظة لا تتصل بالحاضر ولا بالماضي، فأخبره بما حدث، وبأسباب ما بدر مني من قسوة، دقائق لا تجعله يغير ما فعله في الماضي، ولا تجعله يبحث عني في المستقبل، فقط يكتفي بالتفسير ليهدأ بالًا، وتنتهي تساؤلاته، ولا يبقى في قلبه بعدها إلا كل اعتزاز، كالذي أحمله له.

لماذا تعلق قلبي بمروان إلى هذا الحد رغم لا مبالاته بي؟ ولماذا لم يمل لمعاذ الذي أغدق عليّ بالحب؟ لماذا يحدث هذا لكل البشر دون استثناء؟ أإلى هذه الدرجة نحن حمقى لا عقول لنا؟ أم أن أنفسنا تعشق تعذيبنا؟

سألتك يومًا هذا السؤال يا ندى، عندما جئت لتخبريني أن مروان لا يفكر فيَّ نهائيًا، وأن في حياته فتاة أخرى، لا ريب أنك تذكرين ابتسامتي الساخرة وضحكتي وأنا أخبرك بأنني توقعت ما تقولين، لكنني لم أكن أتوقع ذلك يا ندى؛ كنت أعتقد أن أخلاقي، وتديني، ومهاراتي في كل شيء، وثقافتي، والتزامي، ومواهبي الكثيرة، واحتشامي واحترامي لنفسي، وذوقي وأدبي واحترامي للآخرين، كنت أعتقد أن كل هذا جدير بأن يجعلني أكتسب حب الجميع، بل كنت واثقة أنني الفتاة المثالية لأي رجل.

مغرورة كنت، أليس كذلك؟ مازلت أتسم بغرور مزعج حتى اليوم، إلا أنني أصبحت عقلانية، لا أقيم الأمور مهما كانت بأكثر من قدرها، ولا أبالغ في تقدير نفسي، أما في ذلك الوقت فقد كنت متواضعة للغاية، إلى الدرجة التي تثير استهزاء الذين ظننتهم أصدقائي، متواضعة في التعامل مع الناس، لكنني مغرورة جدًّا في تقدير نفسي.

بعد كل شيء فعلته لأجله لم يشعر بي مروان نهائيًّا، ويا لها من ضربة سحقت مشاعري وكبريائي!

عندما سألتك هذا السؤال، قلت لي بلهجة هجومية: "عادي يا بنتي كبَّري دماغك، يروح حلوف ييجي ستين حلوف، هو اللي خسران أصلًا".

ووقتها ضحكت وقلت لك: "على رأيك، أنتِ كمان كبَّري دماغك".

لكنني لم (أكبّر دماغي) يا ندى؛ كنت أحبه، الآن وأنا أكتب الكلمة أشعر حقًّا كم كنت أحبه، كم كنت مغرمة بأغانيه، كم كنت أعشق صوته، وجيتاره، والطريقة التي يلمس بها الأوتار كأنه يلمس قلبي أنا. كم عشقت ابتسامته، وتعبيراته المستنكرة عند تصحيحي أي خطأ يفعله، واستنكاره هوسي باللغات، والتعاسة الكوميدية التي تبدو على وجهه عندما أذكر له معلومة لم يسمع عنها قط، كم أدمنت المرح الذي يشيعه في نزهاتنا، والطريقة التي يناديني بها لو احتاج شيئًا.

الكل كان يناديني باسمي المستعار في المنتدى، لكنه كان الوحيد الذي يناديني باسمي الحقيقي، وقد أحببت سماعه من شفتيه، رغم أني لم أكن أطيق سماع هذا الاسم في عالمي الخيالي معكم.

لكن كل هذا الحب لم يشعر به قط، لم ينتبه له قط، أو لعله انتبه مبكرًا ولم يشأ أن يستجيب يا ندى، من يدري؟ أنا لا أعرف حتى الآن، ولن أعرف أبدًا، تمامًا كما لم يعلم أحد ولم تعلمي أنت أنني برغم الجرح لم أكن راغبة في التخلي عن حبه، قررت الاحتفاظ به لنفسي، وأن أرعاه وأجعله أقوى في كل لحظة، لا لشيء إلا لرغبتي في أن أكون صادقة ومخلصة حتى النهاية، حتى موتي، لم أتخيل قط أن حب مروان قد يذوي في قلبي. هذا الألم الذي كنت أشعر به بشكل مستمر ومروان جواري، في حين أعلم أن حبه شيء مستحيل، كان يجعلني أشد ألمًا لما أسببه لمعاذ، وكنت أتخيل لو صارحت مروان بحبي فرفضه، لكنه طلب مني أن نظل أصدقاءً، أي ألم وحشي كنت سأشعر به وهو يحدثني عن عدم اكتراثه بالحب كل لحظة وأخرى؟ يملؤني التخيل ألمًا.

كان متمسكًا بي، لا أعرف لم أحبني كل هذا الحب، وبشكل ما لم أكن أصدق حقًّا أنه يحبني إلى هذا الحد. في قرارة نفسي، وفي جزء مظلم من أعماقي، لديّ يقين راسخ بأنني مخلوق لا يستحق حب الآخرين؛ أبي لم يحبني قط، وأمي فضلت أخي عليّ دائمًا، وأخي لا يعتبرني موجودة إلا إذا احتاج شيئًا،

لم أحظ بصديقات، وحتى اللائي حظيت بهن أحيانًا لم أكن المفضلة بالنسبة إلى أي واحدة منهن، أنا لم أكن الأولى قط بالنسبة إلى شخص، ربما بسبب خطأ ما فيَّ أو لأنني لا أستحق.

انهيار قصة حبي التي تمنيتها كسر في قلبي الكثير، وفقدت الثقة في نفسي فترة طويلة بعدها، وعندما كان معاذ يكرر أنه يحبني لم أصدقه، لم أظنه كاذبًا وإنما مبالغاً؛ ماذا بي يستحق أن يتشبث به إلى هذا الحد؟ وإذا كان أهلي أنفسهم لم يستطيعوا أن يحبوني بما يكفي، فهل سيقدر الشخص الغريب على هذا؟

استمررت في رفض حب معاذ، وأخبرته أنني لا أفكر في الأمر؛ واستمرت عيناي عمياوان بمروان، فطلبت منه أن نبقى أصدقاء. اعتقدت أن هذا هو الأفضل بالنسبة إليه، لكنه في الواقع كان الأفضل بالنسبة إليّ؛ كنت أحب معاذ ولا أتخيل حياتي دونه، وحتى اليوم أفتقده كثيرًا يا ندى، ولا أعرف كيف استمرت حياتي من دونه كل هذا الوقت، ربما لو قرأ هذا فسيتأكد مما أخبرته به سابقًا: "لا شخص صعب الاستغناء عنه، لا شخص تتعطل الحياة بوجوده أو غيابه".

ثم لعب سمير لعبته الكبرى..

عندما أخبرني أنه يحبني، ويرغب في التقرب مني تمهيدًا لارتباطنا، كان الأمر جنونيًّا ومذهلًا إلى حدٍ مضحك ومرعب.. لم أكن أحمل له مشاعر معينة، وثقتي المنعدمة فيه كانت حاجزًا ينفرني منه، لكن هشاشتي النفسية أضعفتني أمام معاملته اللطيفة، وطلبت منه أن نتحدث لنتفق أولًا. وهكذا خرجنا في يوم مشمس بديع من أيام يوليو، لأسمع ما يريد قوله، وبين جنباتي قلب يتوق لشيء من الدفء.. ما أغرب ما تدفعنا إليه الوحدة يا ندى!

التقينا، وكان حديثه رقيقًا لم يعكره إلا تعليقه القاسي عن مشاعر معاذ، عندما سألته كيف سيشعر لو ارتبط أعز صديقين له، والمفترض أنه يحبني؟ فقال إن عليه تقبل الأمر وحسب، وإذا لم يفعل فهو لن يتردد في أن يخسره لأجلي.

سهولة نطقه للكلمة أرجفتني، ولم أشعر بسعادة التافهات اللائي يفتخرن بأن فلانًا خسر صديق عمره من أجلهن.. هذه حقارة، الصداقة أقوى وأدوم من

تفاهات المشاعر الغبية، فكيف نضحي بشيء احتمالات بقاءه أبدية لأجل ما لا يدوم؟!

قلت لنفسي إنه يحاول أن يطمئنني فقط، أو يغريني بقبول حبه، أو ربما يحاول اللعب على أوتار أنوثتي وكبريائي، فتجاهلت ما قال مؤقتًا، وانهمكنا في حديث آخر طويل مع الأصدقاء، وعندما عدت للبيت اتصل بي مروان ليخبرني بخبث أنه عرف بلقاء اليوم. تظاهرت بالبلاهة لأنني لم أرد إشاعة الخبر، حتى لا يحرج سمير إذا ما رفضته، لكن مروان ألح وألح، وفي النهاية قال: "عمومًا سمير شخص كويس، أنا فرحان عشانك وأتمنى الموضوع يكمل".

انتهت المكالمة وأنا أضحك، وشردت بابتسامة أسترجع الكلمة الأخيرة، ووجدت نفسي أقول بغيظ ضاحك: "فرحان إزاي يا غبي، فرحان وحبيبتك ممكن تكون مع واحد تاني؟!"

وداهمني الإدراك المؤلم، أنا لست حبيبته، لم أكن ولن أكون.

انهارت معنوياتي مجددًا، وتبدد كل ما مضى من أشهر التماسك ومحاولات النسيان، وهكذا اتصل بي سمير ليحييني في آخر اليوم، ليجد صوتي منطفئًا كاسفًا، فانفجر فيَّ يتهمني بأني أهدرت مشاعره بدلًا من الاحتفاء بها، وأن واحدة مثلي تتلقى اعترافه بالحب لا بد أن تحلق في السماء. كم العجرفة العدوانية في صوته نسف أي رغبة في التفاعل مع مشاعره، أو التفكير في الارتباط به حتى تُخلق داخلي أي مشاعر جديدة. اعتذرت له بهدوء وعقلانية أنني لست في حالة جيدة، وأنهيت المكالمة عالمة أن الأمر قد انتهى.

تراجعت خطوة، وبدا لسمير أنه عاد صديقًا كسائر الأصدقاء، لكن الصمت كان سيد الموقف، ولم يحل هذه المشكلة سوى يحيى، فقد سألني عن سر تجاهلي التام لسمير لأيام فأخبرته أنى لا أريد ارتباطًا بأحد، فتعامل معي بتعالٍ وكأن رفضي لصديقه قد أهانه! كبرياء الرجولة المضحكة! كان يوشك على قول:"أنتِ الخاسرة"، تمامًا كما قلت لي يا ندى ذات يوم أن مروان هو الخاسر.

من هنا بدأت النهاية يا صديقتي..

دُمرت علاقتي بسمير منذ ذلك اليوم، تشوهت معاملاتنا، وتباعدت اتصالاتنا ، كان يبدو ثائرًا وساخرًا مني طوال الوقت، لكني قاومت لأتحمل تصرفاته كرد فعل طبيعي من شخص متكبر مغرور، تعرض لرفض غير متوقع من فتاة أصبح يراها فجأة تافهة. ولكن بعد أسبوعين اتصل بي صديق بعيد،

تطوع بإخباري أن شائعة عظيمة تنتشر انتشار النار في الهشيم، وتقول إنني أسعى خلف سمير محاولة إقناعه بقبول حبي، لكنه يرفضني بقسوة، ورغم هذا أستمر في مطاردته، أغاظني هذا قليلًا، ثم ضحكت، وأخبرت سمير بهذا فضحك معي من قلبه، وظننت أن تلك الضحكة إعلانًا بنهاية الحرب الباردة، ولكن سرعان ما أرسل لي صديقي البعيد قائلًا إن سمير نفسه هو من نشر الشائعة، وأرفق لي ما يثبت هذا.

هنا كرهته لأول مرة.. كرهته وأنا أرى ما كتبه في حقي، وسخريته مني وادعاءه عليَّ، كرهته من كل قلبي، وعزمت على الانتقام منه شر انتقام.

يبدو أنه ضمر لي الشيء نفسه يا ندى، الآن فقط أستطيع رؤية ما فعله سمير..

جاء رأس السنة، وبدأ عام جديد مرت أول شهوره في غمضة عين، واستيقظت يومًا لأجد اقتراحًا في منتدانا لإقامة حفل خيالي، على أن ننقسم إلى ثنائيات خلاله.. لعبة افتراضية تحاكي ما جاء في روايتنا السحرية، وتفاعل معها الجميع بجدية هائلة، حتى أنا. تمنيت أن يدعوني مروان لذلك الحفل السحري، وتعللت بالمرض بانتظار دعوته، لكن ما أن أخبرني أنه لا يخطط للاشتراك حتى استجبت لطلبات صديقاتي، وأنتِ أهمهن، وقبلت دعوة آخر من طلب مرافقتي.

وبشكل غريب انقلبت الدنيا عليَّ، وفي لحظة أصبحت خائنة للشلة، وأفضل المرح مع شخص غريب على اللعب مع أصدقائي، وثار عليّ معاذ ومحمود، وحتى مروان اتصل بي ليعنفني في مكالمة طويلة.. كنت مذهولة مما يفعلون! إنها لعبة افتراضية في منتدى على الإنترنتّ ماذا حدث يا مخابيل؟!

لم يظهر سمير في الصورة، كان الوحيد الذي ابتعد عن الأحداث وعاملنا كأطفال، وقال لي ألا أهتم بهم لفترة حتى يهدؤوا لنتصالح. بالطبع لم يهدأ أحد يا ندى.

عدت من جديد لوحدتي، ثم بدأت أمي تفتعل معي الشجار يوميًّا لبقائي في المنزل طوال الوقت، ولم أفهم سبب غضبها من شيء طلبته مني! حتى اتضحت الأمور مع منتصف شهر مارس، واكتشفت أن هناك كارثة يتعرض لها عملها مع الضرائب، ولم أكن في حل من مساندتها.

في تلك الفترة المضطربة أرسل لي معاذ يقول إنه مستعد لسماع اعتذاري في أقرب وقت، كما طلبتُ من سمير، فأجبته برسالة مقتضبة تقول إنني لم أقل

هذا. وفي اليوم التالي اتصل سمير ثائرًا كالمجنون، يصرخ بأنني جعلته يبدو كاذبًا أمامهم، فحاولت التوضيح له: "يا سمير ده بيقول إنك...".

-"مش عايز أعرف حاجة، هي كلمة واحدة، أنتِ مش قلتي إنك هتعتذري؟"

-"لأ ماقولتش يا سمير، هم أصلًا اللي غلطوا في حقي، ايه اللي يخليني...".

-"خلاص يبقى أنا كذاب وشارب جاز كمان، ولا تزعلي نفسك، مع السلامة".

-"مع الـ...".

أغلق الهاتف دون حتى أن أتم التحية، أشعرني الحزن بالدوار، وحملت حقيبتي وتأهبت لمغادرة العمل حين سألتني أمي: "على فين يا هانم؟"

-"على البيت، أنا تعبانة".

-"قلتِ إنك هتشتغلي معايا انهاردة!"

-"خليها بكرة، أنا فعلًا مش قادرة".

-"ماشي، بس خليكي فاكراها يا هبة. وعمومًا الدنيا مش هتقف عليكِ، مفيش حد صعب تعويضه، والدنيا مش بتقف على حد. الفلوس بتشتري أي شيء، حتى أنتِ".

-"شكرًا".

ولم أنظر خلفي، كلامها اختلط في عقلي بكلام سمير، امتزجا حتى أصبحا واحدًا، وعندما وصلت إلى البيت ارتميت في نوم كالإغماء.

في اليوم التالي عرفت أن أمي عينت شابًا ليدير مشروعها بدلًا مني، وعاملني أخي باحتقار وهو يخبرني بالأمر، وسخر مني في النهاية بكلمة: "وريني بقى هتعملي ايه عشان يمشي".

لم أجد شيئًا يستفزه إلا: "ومين قال إني عايزاه يمشي؟"

تجاهلني وخرج، عاد المنزل يخلو كالعادة وبقيت وحدي أحاول أن أستريح، ثم بدأت أكتشف على مهلٍ تهرب الجميع مني، وتجاهلهم لمكالماتي، وحذفي من قوائم الصداقة، وحظر بريدي الإلكتروني على الماسنجر.. يا للمراهقة!

كان ما يؤلمني أن معاذ تعامل معي باعتباري شيئًا يملكه، ولا يحق له أن يمرح مع سواه، وسمير الذي لم يسمع حتى موضع سوء التفاهم، ومروان الذي

لم يكلف نفسه عناء الحياد، ضاربًا بصداقتنا عرض الحائط.. أما الباقون فكان وجع عدم رغبتهم حتى في فهم ما حدث أو إصلاحه أو حتى مجرد السؤال من أسوأ ما يكون.

ازددت انعزالًا، وكنت قد تركت عملي قبل أسابيع بعدما خلعت كتف المدير الذي تحرش بي، فآثرت أخذ راحة طويلة، فرحت أمضي الليل أقرأ بنهم، وأنام نهارًا. تخيلت أن الحياة ستستمر هادئة لفترة إلا أنها اشتعلت فجأة؛ فالشاب الذي عينته أمي ليدير عملها قام باختلاسات كبيرة، انضمت لاختلاسات من سبقوه، ومشكلة الضرائب تحولت فجأة لكارثة انتهت بالحجز على المكان.

كنت مذهولة؛ بدأ عالمي ينهار دون مقدمات، وأمي في أسوأ حال، وألقى أخي المسؤولية عليّ باعتبار الأمر كله خطإي أنا، وفي النهاية كان القرار: "المشروع من دلوقتي مسؤوليتك لوحدك يا هبة، اتصرفي".

مرضت أمي ولزمت المنزل، وتوليت كل شيء وحدي. أي صدمة شعرت بها وأنا أرى عمل أسرتي يتحول إلى أطلال! لا يمكن لأحد أن يقدِّر ذلك، هناك أشياء يجب أن نجربها لنفهمها، ومشاعر تبدو شديدة التفاهة من بعيد لكنها الجحيم بعينها إذا عشناها.

المشروع الذي أحمل له الحب والكره معًا تحطم، أحبه لأنه كان مصدر دخلنا منذ وعيت الدنيا، وهو ما أنفق عليّ وعلى تعليمي، وأكرهه لأنه أخذ أمي مني أغلب الوقت.. الآن صار هباءً شبه منثور، هباءً يجب أن أصنع منه شيئًا أفضل، وأن أبدأ فيه من تحت الصفر.

بدأت بجدولة ديوني ليزداد فزعي يا ندى، كنت مطالبة بإيجارات ودفعات قروض والتزامات مادية ثابتة تتعدى الألف وخمسمائة جنيه شهريًّا، بخلاف الديون الأصلية ومتطلبات المعيشة، كل هذا برأس مال لا يكاد يبلغ الثلاثمائة جنيه. كدت أجن، وصببت حنقي وغيظي على أمي سرًّا، متسائلة عن حدود الغباء التي تجعل إنسانًا يُسرق بهذا الشكل دون أن يلاحظ!!

بدأت بمشاريع صغيرة تساند مشروعنا الكبير، صنعت الحلي اليدوية، وعبأت التوابل ووزعتها بالجملة على المحلات الكبرى، واشتغلت بأعمال التريكو وصنعت مئات المفارش، بل وصنعت حلوى وغلفتها، اشتغلت في المنظفات بكل أنواعها، ثم اشتريت عربة صغيرة لبيع شطائر الكبد السريعة، واشتغلت عليها في نفس المنطقة التي شهدت أوج مجدنا وثراءنا، واعتدت نظرات الاستغراب

والذهول في أعين الآخرين، ثم نظرات الشفقة، ثم تجاهل أصدقاء الطفولة، وزميلات الدراسة القديمات.. كنت أستشعر حرجهن من النظر نحوي، فجنبتهن إياه بالتظاهر بالانشغال حتى يمرقن بالقرب مني كالبرق. لم أشعر بشيء وقتها يا ندى، حقًّا، لم أشعر بأي حرج ولا خجل مما أفعل، ولم أشعر أيضًا بالضيق لتصرفات الآخرين.. هذا طبيعي، أليس كذلك؟ من الطبيعي ألا ينحدروا بمستواهم للأسفل، وكوني في الأسفل لا يغير من الأمر شيئًا.

كنت في قلب كارثة يا ندى، لم تكن لديّ المشاعر الكافية للشعور بشيء إلا الخوف من الغد؛ كنت خائفة من اللحظة التي قد ينتزع فيها مشروعي مني، واللحظة التي سأعجز فيها عن سداد إيجار البيت وألقى في الشارع، واللحظة التي تتدهور فيها أمي وتموت. كنت عامرة بشتى أنواع المخاوف.

الشيء الوحيد الذي كنت أشعر به بخلاف الخوف هو الحسرة، واعتدت الشعور بألم خالص كأنه السُم المركز كلما رأيت فتاة مثلي في طريقها إلى الجامعة. لشد ما تمنيت أن أفعل! لشد ما تمنيت لو كان لديّ شخص يحميني وينفق عليّ لأتفرغ لدراستي، ويجعلني أنعم برفاهية عدم التفكير في مصروفات طعام اليوم، ومصروفات علاج أمي، وسلسلة الديون التي يجب عليّ تصفيتها، ويتركني آخذ دفتر محاضراتي، وأتقافز كغزال طليق سعيد في طريقي إلى الجامعة.

لم يكن لديّ هذا الشخص، كل من كان في حياتي في تلك الفترة كان يسخر مني، حتى أحد جيراننا الذين أحبهم، مر عليّ وأنا أطهو الكبد ذات يوم يقول: "بقى دي نهاية التعليم والقراية؟ بيّاعة في الشارع على عربية كبدة خربانة؟ ههههههه".

-"في يوم من الأيام هتشوف العربية الخربانة دي عملت مني ايه".

قلتها بلهجة عادية، دون تحدٍ ولا سواه، كأنني أخبره بدرجة الحرارة.

في غمرة كل هذا عملت كوسيطة في عمليات بيع وشراء لعشرات الأشياء، بداية من الشقق السكينة، وحتى الثلاجات المستعملة، وحصلت على عمولات صغيرة حينًا وكبيرة حينًا، ولكن أهم ما فعلت كان ضغط مصروفات الأسرة إلى الحد الأدنى، الحد الذي جعل أخي المدلل يئن شاكيًا طوال الوقت، حتى انفجر فيّ مطالبًا بمصروف أكبر، ومحتجًا على الطعام المتواضع الذي يعد له يوميًا بعد الأصناف الفخمة التي عودته عليها أمي من مختلف المطاعم.

ذات ظهيرة صرخ فيّ: "كفاية بقى، أنا مش قادر على العيشة المقرفة دي".

نظرت له بلا مبالاة ورحت أكمل العمل في مفرش صوفي جديد: "ومين سمعك!"

-"اتصرفي واعملي حاجة بقى، أنا زهقت".

دندنت قليلًا كأنني لا أسمعه، وعندما كرر العبارة قلت: "طب ما تجرب أنت تعمل حاجة لازم أنا فاشلة للدرجة دي".

تحول الاحتجاج لتراشق بالكلمات مني ومنه، كان يقودني بسرعة إلى قمة الجنون التي لا شيء بعدها إلا أن أقتله، باعتباره أحد أهم الأسباب التي قادتنا إلى هذا الحال، في النهاية صرخت: "عايزني أعمل ايه أكتر؟ أنا بشتغل عشرين ساعة في اليوم. أنت بقى بتعمل ايه؟"

-"هو ده كل اللي عندك، إنك بتعملي كل حاجة وأنا ولا حاجة".

-"لأن دي الحقيقة، ايه اللي بتعمله عشان تتبجح فيّا كده؟"

انتفض لصرختي، وجم لحظة ثم انفجر بي: "أمك عمرها ما بهدلتني بالشكل ده، أنتِ بقى ليه بتعذبيني معاكِ؟"

-"أنت فاكر معايا مفاتيح الكنوز يعني؟ القرف ده مش اختياري يا بابا، دي أخطاءكم أنتم".

-"مش مهم، اعملي حاجة".

-"زي ايه؟"

-"أي حاجة، أنا ماقدرش أستحمل العيشة دي أكتر".

صرخت كالمجنونة: "قوللي أعمل ايه؟ مش في إيدي أكتر من اللي بعمله فعلًا. ليه بترمي عليا اللوم؟ أنا عملت كل شيء في حياتي عشانك، وكل شيء بعمله دلوقتي عشانك، عايز ايه أكتر من كده؟"

كنت أحبه، كان شيئي الصغير الثمين الذي لا يجب أن يتعرض لأي شيء مما تعرضت أنا له، لا يجب أن يتعرض لقسوة أبي، ولا لثقل كتمان أسرار أمي، لا يجب أن يعلم بأي أزمة تحدث في البيت، لا يجب أن يحرم من أي شيء يحب، يجب أن يحصل على كل ما يريد، يجب أن يكون أفضل. كانوا دائمًا يقولون إن الشخص الوحيد الذي نتمنى أن يكون أفضل منا هو طفلنا، لكن بالنسبة إليّ

كان أخي قبل أي شخص آخر، ربما لأنني أحببته كطفلي، دائمًا كان كابني، كل شيء فعلته لأجله لم أكن مجبرة عليه إلا بدافع حبي له.

تمنيت أن يتذكر كل هذا، أن يفهم أنني أضطر لحرمانه من بعض ما يحب فقط لأن الظروف تفرض هذا، تمنيت أن يفهم أنني لم أطلب أن أكون في هذا المكان، ولم أتمن مثل تلك المسؤولية، هو وأمي فعلا لكنني لم أفعل.

لكنه صرخ بدوره: "أنتِ ماعملتيش أي حاجة في حياتك عشاني من نفسك، أوعي تعيشي دور الملاك المضحي، ده واجبك، أنتِ أختي الكبيرة، وحقي عليكِ إنك تعملي أي شيء عشاني وعلى بوزك جزمة".

نادرًا ما تعرضت في حياتي للحظات من العمى المفاجئ الذي تصاحبه نوبة جنون، وفي تلك اللحظة شعرت بالدنيا تظلم أمامي، ولم أدر بنفسي وأنا أندفع لأمسكه من تلابيبه وأدفعه للخلف، ولعلي لم أدفعه بقدر ما حملته حملًا، وضربته بالحائط ضربة شعرت بصداها في قلبي أنا.. عندها استرددت شعوري بنفسي مع دفقة خوف من أن أكون آذيته دون قصد، لكنني لم أر في وجهه أي تأثر وكأنه لم يشعر بالضربة، لم يكن في وجهه إلا الكراهية والغضب، وقليل من الخوف.

للحظة شعرت بأنه غريب، شخص لا أعرفه، بل فتى لا أعرفه، كان طويلًا عريضًا يختلف تمامًا عن ذلك الطفل الصغير الذي كان ينام في حضني، ويتشبث بي خائفًا ونحن نعبر الشارع، والذي أسرع لنجدته إذا ما تعرض له أي شخص في المدرسة، وأتلقى التوبيخ من مدرسيه بدلًا منه. دمعت عيناي وشعرت أنني أوشك على البكاء، لكنني ضغطت أسناني واجتهدت كي أحول مشاعري إلى الغضب، لم أستطع أن أقول شيئًا إلا: "غبي!"

لكن صوتي خرج أجشًّا ومحطمًا برغم كل شيء، وخفضت وجهي كي لا أراه، ولحسن الحظ أنني فعلت، لحسن الحظ أنني لم أر وجهه وهو يقول: "أنا بكرهك، أكتر من أي شخص تاني كرهته في حياتي، أكتر حتى من كرهي لأبوكِ".

لم أر وجهه، لكنني إذ أسمع نبرة الكراهية العميقة في صوته، شعرت أن كل جميلٍ وغالٍ بحياتي قد تحطم، وأن شيئًا كبيرًا في قلبي انكسر كسرًا لن يصلح إلى الأبد، جذبته من صدره ودفعته جانبًا كأنني أطوح به بعيدًا، أو كأنني أحاول إزاحة كل التعاسة التي سببها لي عني، بقيت لحظة صامتة لا أعرف ماذا يجب أن أفعل، ثم أمرته: "اخرج".

سمعته يسب ويلعن وهو يغادرني، لكني لم أجد القوة حتى لمحاولة الرد أو التفكير في رد. عدت لجلستي الأولى، إلا أنني لم ألتقط ما كنت أعمل به؛ انفتح صندوق مشاعري السوداء مرة واحدة: أبي اللا مبالي، وتفضيل أمي له، وحلم الدراسة الذي تنازلت عنه كي لا أسرق فرصته في أن يكون إنسانًا أفضل، وكل العبء الذي تحملته من تلك الأسرة المجنونة الملعونة كي لا يختل عقله وتتأثر نفسيته مثلي، كل هذا كانت هذه هي نتيجته.

تذكرت صديقاتي اللائي هجرنني لأسباب تافهة، أو لأنني فقط أكثر تفوقًا بشكل يجعل مرافقتي تبدو سبة لهن، وتذكرت سمير، ومعاذ، ومروان، ويحيى، ومحمود، كل شلتنا تذكرتها، تذكرت كل لحظة طيبة جمعتنا، وكل شيء جميل فعلته لكل واحد منهم، أشياء كبيرة أحيانًا وصغيرة أحيانًا، لكنها -كلها- لم تلق أي تقدير.

كل هؤلاء الناس أنا أحببتهم، لكن أحدًا منهم لم يحبني، لم يحبني أحد قط إلا لكوني مفيدة له، لم أكن محبوبة إلا بقدر ما سيحصلون عليه من منافع مني.

لم يحبني أحد قط، لم أكن الأولى بالنسبة إلى أي شخص قط، لم يهتموا، لم يبالوا حتى بمحاولة فهمي، ولم يكترثوا قط لمعرفتي حقًّا، كل حبي لهم وكل مشاعري الصادقة نحوهم لم تغير شيئًا من كوني فتاة يمكن فقط استغلالها إلى أقصى درجة، أو الاستهتار بمشاعرها دونما اهتمام، لأنهم مهما فعلوا بها ستظل في النهاية تحبهم.

هؤلاء الأشخاص، كلهم، أنا حقًّا أكرههم، أكرههم جميعًا.

في تلك اللحظة شعرت بكراهية مجنونة يا ندى، وبحقد بالغ عليهم، ولأول مرة في حياتي كرهت نفسي، كرهت سذاجتي الغبية، وكرهتهم أكثر لأنهم استغلوا هذه السذاجة.

وجدت نفسي دون وعي ألتقط بكرة الخيط الصوفي وقصصت جزءًا كبيرًا منه، ثم لففت الخيط على بنصري الأيسر وعقدته بقوة.. كاد يخنقني، أصابعي التي لا تتحمل حتى ارتداء الخواتم راحت تصرخ، لكني تجاهلت احتجاجاتها، رحت أتأمله برضا وحشي متلذذ تلاشى الألم خلف أعاصيره المجنونة.

أقسمت ألا أنزع هذا الخيط أبدًا؛ سأتركه حول إصبعي دائمًا كي لا أنسى ما سمعته اليوم، كي لا أنسى أنني وحدي تمامًا، وكي لا أكون تلك الفتاة الساذجة

الغبية التي يتم استغلالها مرة أخرى، الفتاة التي لا يهتم أي شخص بمشاعرها، الفتاة التي يسهل هجرها، ولا يشكل التخلي عنها مشكلة كبيرة.

الفتاة التي يسهل استبدالها.

هذا لن يكون ثانية، لن أسمح لأحد أن يفعل بي هذا ثانية، أقسم على هذا.

وكان قسم حياتي الأكبر يا ندى..

أقسمت بأني لن أحب أحدًا إلا نفسي، إلى الأبد.

هبة

15 يونيو 2011

اليوم السادس

ونسير معًا

صديقتي العزيزة ندى

أستغرب دومًا تضاؤل الألم بمرور الوقت، رغم علمي أن "كل شيء يبدأ صغيرًا ثم يكبر، إلا الحزن فإنه يبدأ كبيرًا ثم يصغر". عندما أتذكر ما مر بي في 2009 تمر بي لحظات أستغرب فيها أنني كنت أتألم، وأُدهش لأن شيئًا صغيرًا وتافهًا كهذا –أيًا كان"هذا"- قد آذاني يومًا إلى هذا الحد. لكن هناك لحظات تمر بي أتذكر الألم بكل جلاء، وينتابني شعور بأنني أسقط في بئر سوداء تقود إلى جهنم، يا الله! ما مقدار القوة التي منحتها للبشر كي يمروا بأشياء كهذه!

لحظة كهذه مررت بها أمس.. بعدما أنهيت رسالتي الكئيبة وجدت أفكاري تسبح إلى ذلك العام، تذكرت أشياء عدة كأنها وقعت بالأمس، وفترات أخرى غائمة كأحلامٍ منسية، لا أريد تذكر أوجاعها أبدًا، ولا أريد –وبشكل أكثر إلحاحًا- تذكر لحظات السعادة التي سبقتها.. بشكل ما تبدو جارحة، تشعرني بفقد متوحش، تشعرني بافتقاد تلك الصغيرة الهشة التي تلاعب بها الحقراء المحيطين بها. آه لو كان بإمكاني العودة بالزمن للخلف وتعليمها! آه لو كان بإمكاني أن أعود لأجعلها أقوى وأقدر على القسوة والتخلي عن الآخرين! لو أجعلها أكثر أنانية! آه لو كان هذا بإمكاني!

لا يعزيني عن هذا إلا وجود إيتشيرو، ربما لو لم تمر بي 2009 ما أصبحت الفتاة التي يحبها.

أتذكر ليلة قال لي فيها: "لا تنظري بعيدًا، ابقي معي".

كنا نرقص، وأخرجني من شرودي عندما سحب ذقني لأنظر إليه، وسألني: "من أي شيء أنتِ خائفة؟"

-"أنا لست خائفة، لماذا تقول هذا؟"

-"أنتِ خائفة، تنظرين بعيدًا وكأن شبحًا خلف كتفي يتربص بك. ماذا أفعل لتكوني آمنة؟"

أمسكت بيده وقلت مخلصة: "أنا آمنة، كيف يمكنني ألا أكون وأنت هنا؟"

-"هذه النظرة...".

ثم انحدر بأصابعه من خدي حتى عنقي..

-"وكأنك تتأهبين للفرار...".

-"لن أذهب إلى أي مكان، أنا معك".

حدق إليّ مأخوذًا، فأحطته بذراعي والتصقت به..

-"أنا معك دائمًا، إيتشيرو".

-"هذا العالم الخاص الذي يأسرك، أو الشبح الذي يتربص بك...".

-"ماذا عنه؟"

-"خذيني إليه معك".

-"لن يعجبك عالمي، سيبدو لك تعسًا وغير مريح".

-"على الأقل سيجعلني معك دائمًا".

-"أنا معك، إلى الأبد".

أسكته الصدق في صوتي فلم يجادل، وضمني إليه، لا أتذكر أنه ضمني بتلك القوة في يوم آخر، قوة من يتشبث باستماتة بشيء يخشى ضياعه.

ذكرى هذا الحضن أخرجتني من تعاستي، وصوت ميانو مامورو لا يزال يأتي من حاسوبي ويمتزج بصوت الموج المرتفع. كان منظر البحر بالخارج مخيفًا في الليل الحالك، والمنطقة معزولة حتى أن كل العمارات من حولي كانت مظلمة، شعرت بالبرد، وبرجفة خوف مرعبة، البرد لشعوري المفاجئ والمفزع بالوحدة، والخوف على إيتشيرو، كيف سيعود الآن؟ وهل سيعود بخير؟

أصابني فجأة غضب غير طبيعي، وبلا مقدمات قررت الاتصال به لأبدأ أول شجار في حياتنا؛ تركني صباحًا وتأخر كثيرًا جدًّا في العودة غير مكترث بقلقي، فماذا يظنني؟ تمثال؟ حجر؟ لماذا لم يتصل حتى ليخبرني بسبب تأخره؟

استدرت متخلية عن وقفتي أمام النافذة فرأيته عند باب الغرفة، وجعلتني المفاجأة أطلق صرخة فزع غير طبيعية، أفقدتني أنا نفسي توازني، وفي لحظة تنازعني شعور بالاستغراب لأنني أصرخ، وشعور آخر بالفزع الحقيقي، فزع يفوق ما تستحقه مفاجأة كهذه!

كنت جاثية على ركبتي أرضًا وجسدي منحني وكأنني ساجدة، ويديَّ مطروحتين أمامي بلا حول ولا قوة. أمسكهما إيتشيرو بين يديه ورفعني لأعتدل، لكن جسدي كان رخوًا بلا روح، لا أعرف ماذا دهاني، ويمكنني تخيل رعبه وهو يضمني شاعرًا ببرودة جسدي. للحظة لم أشعر بنفسي، واستسلمت لموجة سوداء داهمتني، وأفقت بعد لحظات لأجدني في الفراش وهو يحاول وضع بعض الملابس عليَّ، تمتمت: "ماذا تفعل؟"

-"سآخذك إلى المستشفى".

الكلمة جعلتني أضطرب، وتلاشى الكثير من تشوشي في لحظات، رفعت رأسي وسألت بانزعاج: "لماذا؟"

-"أليس هذا واضحًا؟! لقد فقدت وعيك!"

-"أنا بخير".

وأمسكت بيده قبل أن يضع الحجاب على رأسي، كررت: "أنا بخير".

ظل ينظر لي بقلق، فاعتدلت لأطمئنه قليلًا، وأخيرًا استسلم وجلس يحيطني بذراعيه. قال: "آسف، لقد دخلت وطرقت الباب مرتين. لقد أفزعتك كثيرًا، أليس كذلك؟"

-"لا أعرف، إيتشيرو، حقًا".

نعم، شيء ما بداخلي كان يخبرني أن هناك خطأ ما، لم تفزعني رؤية إيتشيرو إلى هذا الحد، لكنني كنت خائفة إلى درجة الجنون، لماذا؟!

ربتُّ على يده، ثم لامست خده بكفي، شعرت بأن وهجًا ما اشتعل في أعماقي، وبدد ظلمة الخوف وبرودته، الشيء الخطأ أصبح الآن في مكانه الصحيح.. عندما أكون مع إيتشيرو يصبح كل شيء مثاليًّا متكاملًا، أنا ناقصة تمامًا من دونه، عندما يبتعد عني أفقد شيئًا كبيرًا من نفسي، شيئًا لم أشعر من قبل بمدى أهميته وجوهريته في حياتي، ربما هو الشيء الذي أعادني إنسانة مرة أخرى.

سقطت دموعي دون مقدمات، شعور غريب من الرضا والألم ملأني، وانحدرت بيدي حتى أمسكت بذقنه، هززته كأنني أؤنبه، ولم تكن ثمة كبرياء تمنعني من ذرف دموعي كما أشاء وأنا أسأله: "هل لديك فكرة عن مقدار القلق الذي سببته لي؟"

نظراته كانت مذهولة، لن أبالغ لو قلت إنه كان مصعوقًا لرؤية دموعي.

-"لماذا تأخرت؟"

قال بصوت خافت كأنه سيجرح مشاعري: "حادث على الطريق جعل الشرطة....".

-"كان من الممكن أن يحدث لك".

هكذا صحت به، ثم خفضت رأسي وانخرطت في البكاء، بالتأكيد بدوت غبية وعاجزة إلى أقصى حد، لكن مشاعري كانت فوق قدرتي على التحكم، سألته: "لماذا تفعل هذا؟ هل تريد أن تموت وحدك؟ هل ستتركني؟"

-"هبة تشان!"

وأمسك بيديَّ معًا، شدني قليلًا لأنتبه له، وقال برجاء رقيق: "لا تتحدثي عن الموت، هلا فعلت؟"

-"أنا أحبك!"

وأمسكت بيديه بقوة أيضًا، واستمر جنوني دون تحكم: "أحبك، إيتشيرو، أتمنى لو تعرف كم أحبك، أتمنى لو كنت قادرة على إخبارك كيف أحبك وما تعنيه لي".

مسح دموعي وأخذني في حضنه، أزاح شعري ووضع رأسه على كتفي المكشوف، مس عنقي بقبلة خفيفة وقال: "أعرف".

تشبثت به وبدأت أهدأ، كل شيء مضطرب في أعماقي بدأ يعود لمكانه الطبيعي..

قلت: "عدني أننا سنبقى معًا، في الحياة، وفي الموت وبعده".

-"مازلت تذكرين الموت، هبة!"

وابتعد عني، مسح دموعي، وطفا تعبير الأسى الغامض على وجهه...

-"أمازلت تصرين على أن الموت لا يفرق البشر؟"

-"أمازلت تعتقد أن كل ما بيننا سينتهي بموتنا؟ وأن كل ذكرياتنا وأحلامنا وآمالنا ستتحول إلى تراب؟"

آلمته الكلمات التي اعتاد قولها عندما وجهتها إليه، ألمًا صارخًا شعرت به في ضمة شفتيه وتوتر أصابعه، لبث قليلًا ناظرًا في عيني ثم أشاح بوجهه، وجاء صوته مخنوقًا عندما قال: "دعينا لا نعود لهذا الجدال".

أدرت وجهه نحوي بلمسة خفيفة، قلت وأنا أنظر في عينيه وقد رق قلبي: "إيتشيرو...".

-"أنا آسف، أدرك أنني أزعجك كلما تحدثنا عن...".

-" إيتشيرو!"

-" حسنًا، سأصمت، والآن ابتسمي".

وهج وجوده كان نارًا قوية صيَّرت حزني رمادًا، فلم أجد عسرًا في الابتسام بخلافه، الأسى كان بعد يسكن عينيه رغم ابتسامته، إلا أنني لم أرغب في خوض جدال لم ننهه يومًا.

لازلت أذكر بداية جدالنا الطويل هذا، كان يومًا رماديًّا في أواخر ديسمبر ذهبنا فيه إلى الكنيسة المعلقة، كان هذا أول مكان نخرج إليه بعد عودتنا من الواحات، وقد عدنا صديقين دون أدنى إشارة لما حدث في تلك الليلة. خرجنا عازمين على الاستمتاع بجولة لطيفة في مجمع الأديان، ولا أظنني أحببت مكانًا أثريًّا كما أحببت شارع المعز وهذا المكان. كانت الكنيسة المعلقة هادئة، مكان مذهل ذو سطوة روحية تسلب العقل، فيها سكينة غامضة وشعور عميق بالطمأنينة. وجدت في جوها رائحة مخدرة، وكان صوت الرياح الباردة بالخارج يبعث على النعاس، فبقيت جالسة كالمخدرة أنظر لصورة العذراء وهي تحمل صغيرها. الألوان رائعة جلية، مطبوعة بوضوح على ستارة كبيرة تغطي الحائط المواجه لنا، حيث جلسنا في أول صف من المقاعد الطويلة.

بعد صمت طويل همست: "هذا رائع".

-"ممممممم".

استغربت همهمته الباردة، والكاميرا المعلقة بعنقه دون أن تفارق جرابها كالعادة، وأشعرتني نظراته الثابتة للأرض بالغباء، سألته: "ماذا بك؟"

-"لا شيء".

-"أخبرني بما يضايقك"

-"هذا المكان يثير أعصابي".

-"هه!!"

-"الكنائس.. أنا لا...".

قطبت جبيني، لم أكن متأكدة إن كان يمزح أم يمزح؛ منذ عرفته وهو يرتدي قمصانًا ذات فتحة عنق متسعة، تنزلق منها عادة سلسلة تنتهي بصليب فضي مزخرف رائع، يتوسطه حجر كريم صغير أزرق اللون، يشع بريقًا جذابًا كأنه يحتضن في أعماقه نجمًا، صليب أخبرني أنه مسيحي، فلم ينزعج من الكنيسة إذن؟

بتلقائية نظرت إلى صدره، فالتقط الإشارة وقال: "إنه لا يخصني، إنه هدية، منحتني إياه الفتاة التي أحبها أكثر مما أحب أي شخص في هذا العالم، وقد وعدتها ألا أخلعه أبدًا".

الفتاة التي أحبها أكثر من أي شخص في العالم!

طرفت بعينيّ مستوعبة ما قال، وانغرست الكلمة في قلبي مسببة لي ألمًا لم أتخيل قدرتي على الشعور به..

"أنت واقعة في حبه".. كذا همس قلبي، وتفاقم الألم لدرجة غير محتملة..

ضممت قبضتيّ، فانغرست أظفاري في اللحم بقوة، حاولت استغلال الألم لأشتت مشاعري، ليس الآن، لا أريد أن يبدو على وجهي أي تأثر الآن..

قال إيتشيرو: "سأنتظرك بالخارج".

ثم نهض مغادرًا..

"أنتِ واقعة في حبه حقًا".. كرر قلبي فأخرسته بغرس أظفاري في يدي أكثر.

كان إيتشيرو شاردًا مع السحب الرمادية حين خرجت، بدا أهدأ نفسًا بكثير، حتى أنني تساءلت إن كان هو الشخص نفسه الذي كان يحدثني قبل دقائق في الكنيسة. أمسك يدي لنسير، وفعل هذا وكأن تشابك يدينا هو أكثر الأشياء طبيعية في العالم. نظرت ليده التي لفت يدي بألفة، ولم أتمالك نفسي من الشعور بالقشعريرة عندما أدركت أنني لم أنزعج. عادة ما يزعجني الاقتراب من أي شخص، ولا أحب أن أصافح أحدًا أو أن أقبل أحدًا أو أحتضنه، وكم من المشكلات أثرتها مع قريباتي وصديقاتي بسبب هذا، بعدها اعتبرنني متعالية وكرهنني، لكنني لم أستطع فعل شيء حيال هذا الطبع البري الذي يريد

الاحتفاظ بمسافة كبيرة بيني وبين البشر جميعًا، وعدم الاقتراب بأي شكل منهم، ماديًّا ومعنويًّا.

سألني إيتشيرو: "والآن، إلى أين؟"

-"إلى أي مكان تحب".

-"إذن دعينا نمشي فقط".

كان هادئًا، لكن تعبير وجهه كان عصيًّا على الفهم، فلم أعرف فيم يفكر، لكنني قررت تركه حتى يتحدث بنفسه، وبقيت مستغرقة في الشعور بيده حول يدي، أختزن الشعور ولا أسمح له بالظهور، وأتأهب لليلة طويلة أسترجع فيها مشاعري ثم أتحكم فيها.. لا بد أن أتحكم فيها.

قال لي ونحن نغادر مجمع الأديان: "أعرف أن ما قلته ضايقك، فلا تصمتي أرجوك".

-"لم تقل شيئًا يضايقني، قلت إن الصليب لا يخصك وحسب".

-"إنه كذلك".

ومس السلسلة المدلاة من عنقه بيده الأخرى، فشعرت بالألم مجددًا؛ لم يبد أنه معي على الإطلاق، لعله غارق في التفكير في تلك التي منحته إياه. أتراها الفتاة نفسها التي كان يسعى للحاق بموعدها حين التقينا أول مرة؟

-"أنتم تهتمون بالدين كثيرًا في مصر، ولا تتقبلون المختلفين عنكم، أليس كذلك؟"

-"ظاهريًّا.. نعم، نهتم به، والمفترض ألا تعنينا أديان الآخرين لأن ديننا يحترم حرية المرء في اختيار دينه، لكننا نعتبر التدخل في معتقدات الآخرين من صميم تديننا".

-"مـ..!! لم أفهم!!"

هززت رأسي بنفاذ صبر وقلت: "دعك من المصريين، لو كنت تتأهب للتصريح بشيء صادم فأنا مستعدة، ليست لديّ تحيزات مسبقة ناحية أي دين في هذا العالم، ما لم يكن دينًا يعتبر ذبح العزل والأطفال واجبًا سياسيًّا".

-"يا لفمك الثرثار! لم لا تجيبين بكلمة واحدة؟"

شرد عقلي.. تقول قراءاتي إن اليابانيين يؤمنون عادة بالشنتو والبوذية معًا، لكنهم أيضًا يحترمون الكنيسة؛ نظرتهم للدين غير نظرتنا، هم ينظرون لأديانهم -على اختلافها- كعادات اجتماعية يجب أن تحترم، لهذا لا يجدون غضاضة في الخروج من المعبد والدخول إلى الكنيسة، كل أماكن العبادة بالنسبة إليهم هي أماكن محترمة ومحبوبة، ليس كنظرتنا المصرية التي تعتبر التدين انغلاقًا على النفس ونبذ الآخر إن لم نقل احتقاره.

نسبة الملحدين هناك كبيرة أيضًا، ولكن لامبالاة الملحدين كانت أبعد ما تكون عن إيتشيرو..

نبهني بسؤاله: "أتؤمنين بالرب، هبة تشان؟"

-"نعم، أتؤمن به أنت؟"

-"كنت كذلك".

-"حتى...؟"

-"حتى عجزت عن الفهم".

ابتسم، ونظر بعيدًا كأنما يفكر، لاحقت أفكاره بكلماتي: "إنني أومن به، لقد رأيته في الكون، في النجوم والسماء والقمر، ورأيته في جسدي، في عقلي الذي لا يشبه عقلًا آخر، وفي التكامل الرائع بين كل شيء فيّ، في معجزة خلقي.. في عينيّ، في سمعي، في دقات قلبي. هذا الصوت المنتظم الدافئ الذي يدق باستمرار. كل هذا متقن جدًّا ومثالي لدرجة يستحيل معها أن يوجد بالصدفة. إنها إجابة كلاسيكية لكنها ما أشعر به حقًّا".

-"أكنتِ مؤمنة به هكذا دائمًا؟"

-"بلى، حتى في لحظات اهتزاز إيماني كنت موقنة أنه موجود".

ضحك: "هذا غير منطقي على الإطلاق".

ونظر إلى عينيّ، سألني: "لقد عشتِ حياة مأساوية.. يمكنني رؤية هذا في عينيك بوضوح، أنت عانيت الكثير، وربما لا زلتِ تعانين، لِمَ لَمْ يكفي إيمانك لمنع كل هذه المعاناة؟"

-"ماذا تريد أن تقول؟"

-"أتساءل كيف يقول إنه يحب من يؤمن به، ثم يلاحقنا بالمصائب مهما بلغ إيماننا؟ ألا يجب أن يعاملنا بنوع من الامتياز لأننا نحبه؟ لأننا نثق فيه؟ ألا يكفيه هذا؟"

-"لقد فكرت فيما تقول قبل عام واحد بالضبط".

-"وعثرتِ على إجابة؟"

-"نعم".

-"وما هي؟"

أشفقت عليه من السخط المعتمل في نفسه، وأمسكت يده بيديّ معًا وقلت: "أستطيع إخبارك، لكن هذا سيضيع متعة الاستكشاف، حين بلغت إجابتي وحدي انقلبت حياتي رأسًا على عقب، وامتلكت بين جوانحي نورًا سيضيء حياتي ألف عام. يجب أن تعثر على إجابتك وحدك، إيتشيرو، حينها سيتغير كل شيء، سيهدأ قلبك، وسيمكنك الرؤية بوضوح، ستكون قادرًا على الرؤية لدرجة ستعميك عن الألم الذي مررت به من قبل".

-"أحقًّا؟"

-"نعم، لقد جربت الأمر قبلك".

رأيت في عينيه حيرة من يبحث عن مفر..

-"إنني أجهل لماذا خلقني أنا بالذات، ولا يمكنني العثور على إجابة".

-"أعرف هذا الشعور، كان هذا سؤالي الأول".

-"حقًا؟"

-"نعم، لماذا خلقتني أنا بالذات يا الله؟ كان بوسعك تركي في العدم، حيث لا ألم ولا معاناة، إذا كنت ستخلقني في هذا العالم فعلى الأقل أخبرني لماذا أنا هنا؟ لماذا أنا بالذات وسط مليارات البشر هنا؟ كان بوسعك خلق شخص غيري لا يعاني هكذا. هل ثمة شيء يبرر مروري بكل هذا الألم؟.. لقد لاحقتني هذه الأسئلة طويلًا حتى كادت تفقدني عقلي، وعذبني ضميري حتى أوشكت على قتل نفسي".

-"هذا هو. أخبريني إذن، أي إجابة جعلتك ما أنتِ عليه الآن؟"

-"أتريد حقًّا معرفتها؟"

في عينيه كان صراع، ثم سألني: "أتظنيني أجد إجابتي وحدي؟"

-"حتمًا".

هز رأسه، شرد قليلًا ثم وضع يده على رأسي وكأنني قطة..

-"شكرًا..".

-"..........".

-"لقد تساءلت كثيرًا، لكن أحدًا لم يمنحني إجابة، حتى أصدقائي ثاروا لمجرد التساؤل، وقد أوصلوني لحالة من الغضب جعلتني أتفوه بكثير من الحماقات".

-" لا بد أنهم مصريون".

ابتسم محرجًا ولم يجب، فقلت: "إنهم مصريون حتمًا، إنه...".

وأكملت العبارة في سري: "إنه هذا التفكير العقيم الذي يخشى طرح الأسئلة، وكأن التفكير جريمة".

قاطع أفكاري سائلًا: "التفكير ليس خطأ، أليس كذلك؟"

-"بلى، لا بد أن نفكر لنصل إلى الحقيقة، ديننا يأمرنا بذلك".

-"مهما كان التفكير؟ ومهما كان الشك؟"

-"نعم، يمكنك التفكير فيما يحلو لك، ابحث عن إجاباتك كيفما شئت، إن صدقك في البحث عن إجابة سليمة سيجعل الله يساعدك. سوف أخبرك لاحقًّا بقصة سيدنا إبراهيم عندما ظن الشمس والقمر آلهة، وظل يبحث عن إجابة".

-"ثم؟"

-"لا أملك الحصيلة اللغوية لأشرح لك بالتفصيل، لكنه وصل لإجابته في النهاية".

-"إنه محظوظ".

وبعد لحظة صمت قال: "أودُّ أن يكون موجودًا، لكنني لا أومن بهذا حقًّا".

ربت على يده، وطال تلاقي نظراتنا، ثم أشرق وجهه بسعادة، وجذب يدي لنسير بسرعة، كان سعيدًا وكأنه سيطير، شعرت بقليل من التوتر للتقلب الشديد في مزاجه، ثم توقف مجددًا فأجفلت. قال بحماس: "كوني معي إذن، أشعر بالسعادة لأنك عثرت على إجابتك الخاصة، وأريدك أن تبقي قربي لأعثر على إجابتي أنا أيضًا، هل يمكنك هذا؟"

-"وأين تظنني سأذهب؟ سأظل ملتصقة بك كالجرادة شئت أم أبيت".

بدت في عينيه نظرة مرحة موبخة، أعادت لي ذكرى تلك الليلة الصحراوية، ثم قال: "دعينا نسافر، هبة تشان، أريد أن أرى البحر معك".

ضحكت وقلت: "البحر في نهاية ديسمبر، إيتشيرو؟"

-"نعم، لقد مر وقت طويل منذ رأيت البحر، أريد أن أراه معك".

-"فلتذهب إلى الإسكندرية إذن أو الإسماعيلية".

-"أيهما تحبين أكثر؟"

-"الإسكندرية، لكن الإسماعيلية هي الاختيار الأفضل؛ فهي أكثر هدوءًا وأقرب، ولن يضيع نصف اليوم في السفر".

-"متى؟"

-"ليس قبل الأسبوع الثاني من يناير، إجازاتي في العمل كثرت بسببك".

-"لن يستمر هذا طويلًا".

قطبت وقلت: " بالتأكيد، فسوف يقذفون بي في النيل لو لم ألتزم قليلًا".

-"لا بالطبع، لا، لم أعن هذا".

وضحك بمرح استغربته، وسألني: "حسنًا، متى نسافر إذن إلى ارسماعيي.. اراسماييي...".

-"الإسماعيلية".

-"حسنًا، متى؟"

خطرت لي فكرة فقلت: "مادمت قد قررت الإسماعيلية، فلنذهب في الخامس والعشرين من يناير إذن، إنه يوم عيد الشرطة، لتخليد ذكرى ضباط المدينة الشهداء، سيكون أمرًا ممتعًا أن نذهب في هذا اليوم".

-"تبدو قصة مثيرة".

-"جدًّا، سوف أراجع معلوماتي التاريخية، والكلمات المتعلقة بها وأخبرك".

-"إذن، سأنتظر شيئًا جديدًا أتعلمه".

وهكذا، اتفقنا على أولى رحلاتنا..

تعرفين بالطبع أن الرحلة لم تتم يا ندى، مصر كلها تعرف ما حدث في الخامس والعشرين من يناير عام 2011.

يا لها من أيام!

لم يخطر على بالي قط وأنا أتفق مع إيتشيرو أننا سنرى ما رأيناه.

هبة

18 يونيو 2011

اليوم السابع

أول الليـل

صديقتي العزيزة ندى

أتساءل كيف مر بك هذا العام؟ كيف مررت بكل أحداثه وكيف كان وقعها عليك؟ تبدو 2011 سنة غريبة للغاية يا ندى، ربما هي أسعد سنوات حياتي حتى الآن، وبرغم هذا عانيت فيها الكثير.

لم أكن متفائلة هكذا في بداية العام؛ فقد قضيت رأس السنة في القراءة، ورقصت مع قطي أوديتو طوال الليل وغنيت، ثم نمت بعد الفجر، وقد أدارت الموسيقى رأسي. لكن بهجة العام الجديد تلاشت في مساء نفس اليوم عندما اتصلت بصديقتي كاترين فأخبرتني بما حدث في كنيسة القديسين، كدرني هذا الأمر لأيام.

وبعد أسبوع حدثت مشاجرة كبرى في العمل، وعليها قدمت استقالتي وكأن عبارة إيتشيرو كانت نبوءة سحرية. كانت مدخراتي كافية لتغطية احتياجاتي لشهور فلم أشعر بقلق، واستمتعت بسعادتي لأنني صرت حرة في الخروج مع إيتشيرو، والذهاب لمؤسسة اليابان، وحضور دروس اللغة العربية في ساقية الصاوي. حضر معي إيتشيرو مرتين وأصيب بصدمة لكون اللغة العربية التي ندرسها تختلف عما يدرس...جعلني اليأس المضحك المشع منه أكبت ابتساماتي بصعوبة.

خرجنا كثيرًا نستمتع بالبرد، وخططنا لرحلتنا الموعودة وأنا لا أطيق صبرًا على السفر معه، إلى الإسماعيلية التي أحبها كثيرًا، والتي سأراها بمذاق مختلف معه.

وأتى صباح الثلاثاء فاستيقظت في السادسة تقريبًا، رحت أعد حقيبة بها أهم ما سأحتاج إليه. وعلى الطريقة اليابانية أعددت له صندوق بنتو(1) أنيقًا، بذلت فيه جهدًا مرعبًا لكن النتيجة النهائية كانت تستحق، واضطررت لإغلاق الصندوق كي لا يهزمني الإغراء فآكله، وفي التاسعة اتصل بي ليصدم صوته القلق مشاعري: "هبة تشان، أمازلت بالمنزل؟"

[1] Bento : صندوق الغداء الياباني.

-"نعم، ماذا حدث؟"

-"آسف، هبة تشان، دعينا نلغي موعد اليوم".

-"لماذا؟"

كانت حوله جلبة شديدة، لم أسمعه جيدًا وأصابني قلق من أن يكون متورطًا في مشكلة.. ناديته مرارًا، وتدريجيًّا خفت الضجة وجاء صوته واضحًا: "هبة تشان، لا تغادري منزلك اليوم، لا أعرف ماذا يحدث، لكن هناك مظاهرات هائلة في وسط البلد، والشرطة تتعامل بعنف".

-"مظاهرات؟!!"

شككت في لغتي الإنجليزية فجأة، بالتأكيد أنا أسأت الفهم؛ لا توجد مظاهرات بهذا الحجم في مصر! هذه الأمور لا تحدث هنا!

-"أأنت واثق؟"

-"نعم، هناك مشكلة كبيرة في وسط البلد والطرق مقطوعة، لا أعرف ما يحدث لكن بالتأكيد هناك شيء كبير يحدث اليوم".

-"حسنًا، هذا في القاهرة، لماذا لا نسافر إذن؟"

-"لا، أنا لن أخاطر بك.. أرجوك ابقي في منزلك".

كنت مغتاظة، أيًّا كان السبب الذي يتظاهر بسببه هؤلاء التافهون فلا يحق لهم أن يهدموا أحلامي، تنمرت: "كما تريد".

-"أنا آسف، دعينا نؤجل السفر ليوم الجمعة".

أنهيت المكالمة مغتاظة، وأول ما فعلت هو أن أمسكت صندوقي البنتو وأكلتهما كلهما، وضاعف هذا غيظي.

في المساء دخل أخي المنزل مبعثر الثياب، استغربت منظره واعتقدت أنه تشاجر، لكنه بادرني بالقول: "ولاد الكلب البوليس نازلين ضرب في الناس في وسط البلد".

-"حصل ايه؟"

-"ولا أعرف، بيقولوا في مظاهرات، بس الأوساخ دول ضربوا الناس بغباوة، ماتعرفيش هيحصل ايه لو سابوا اللي يتكلم يتكلم.. مش كفاية ناهبين البلد ومحدش عارف يوقفهم".

وانطلق في سباب مقذع جعلني أصم أذني انزعاجًا، ثم سألته بعد تلك الفقرة النابية: "مين بيتظاهر؟ وبيتظاهر ليه؟"

-"مش عارف، كلام عن العدالة والكرامة وحاجات زي كده".

-"ولا هيعملوا حاجة، بس على الأقل يكدروهم في يوم عيدهم زي ما هم مطلعين عين اللي جابونا كل يوم.. الله لا يرحمهم ولا يغفر لهم الذل اللي معيشين الناس فيه".

كان هذا ما عرفته عن المظاهرات، ثم نسيت كل شيء خلال ساعات. وفي مساء الأربعاء خرجت مع أمي للتسوق في العتبة، وكانت أول مفاجأة أن الحافلات كلها غيرت مسارها لتتفادى دخول ميدان التحرير، وقال لي سائق الحافل: "أنتِ مش دارية بالدنيا ولا ايه؟ البلد بتولع يا بنتي، وضرب النار شغال في وسط البلد ليل ونهار".

-"هه!!"

شعرت أنني دخلت بلا مقدمات لرواية خيالية...مظاهرات وضرب نار ومطاردات بين الشرطة ومتظاهرين، بل وضحايا أيضًا! ماذا يحدث؟! أهذه مصر؟!

كانت الأسواق مغلقة، والشوارع خاوية، فلم نبذل وقتًا ولا جهدًا في التسوق، وفي أثناء عودتنا أخذنا سيارة أجرة أخبرنا سائقها قبل الركوب أنه لن يدخل وسط البلد لأي سبب، فوافقنا وعدنا من طريق أطول.

قالت أمي بشكل عارض: "لو استمر الحال على كده كتير الجيش هينزل الشارع".

سخرت منها: "جيش مين يا حاجة اللي ينزل الشارع؟ هي لعبة!"

تنهدت وقالت بتأكيد: "هينزلوا، وقريب قوي...المرة دي مظاهرات مختلفة عن مظاهرات الخمسين ستين اللي كانوا بيخرجوا عشان خالد سعيد وبيلموهم في ربع ساعة، والشرطة مش هتعرف تلم الموضوع، لكن الجيش هيتصرف".

قال سائق التاكسي: "وهي دي شرطة يا حاجة! دول عصابة من الصيع.. ابن فلان وابن علان اللي دخل الكلية بالواسطة عشان يلبس البدلة ويتنطط على مخاليق ربنا، لكن الجيش حاجة تانية، رجالة بجد، ناس بتنام في الصحرا في عز التلج وتتمرن في عز الحر، رجالة رجالة يعني مش ولاد الـ*** دول، خليهم ينزلوا عشان يذلوا أنفاسهم زي ما بيذلونا".

وانسجما في الحديث عن ذكريات نزول الجيش من قبل للشارع، لم أكن أعرف أي شيء عن هذا الأمر ولم يخطر لي ببال، وفكرت في إيتشيرو بقلق، وتولاني شعور مقبض بأني لن أراه ثانية.

كنت قلقة هذه الليلة، ولكن لم تكن بي رغبة في الحديث معه، كنت أنظر للهاتف كل لحظة وأخرى ثم أتجاهله، رحت أدعو الله أن تهدأ الأمور، وأن يوفق هؤلاء المتظاهرين أيًا كان هدفهم، ماداموا يكدرون حياة كلاب الحراسة المسعورة المؤتمنة على قتلنا وترويعنا بدلًا من حمايتنا.

مساء الخميس اتصل بي إيتشيرو، كان صوته كئيبًا وهو يقول: "أريد أن أفهم ما يحدث في مصر!!"

-"أنا نفسي لا أفهم".

-"أنت تقرئين العربية، ويمكنك معرفة أي شيء".

-"خدمة الإنترنت مفصولة عندي، ولا أشتري الصحف، والتلفزيون المصري هو أغبى مؤسسة إعلامية في العالم، ولا صبر لدي للبحث بين ألف قناة فضائية عن قناة تنقل ما يحدث بصدق، إذا وجدت".

-"إذن، ما الحل!؟"

-"تجاهل ما يحدث، المعادي بعيدة تمامًا عن التحرير".

-"لكن كل هنا يقلقني، لا أفهم ما يحدث والناس يتصرفون بغرابة".

-"هل يضايقك أحد؟"

قال بضيق: "هل أبدو لك ضعيفًا إلى هذا الحد؟"

-"أنا آسفة، ظننت أحدًا ضايقك أو....".

-"ليس هذا ما أعنيه، اللعنة!"

صمت لحظة ثم تدارك نفسه وقال: "آسف، هبة، ولكن السفارة مغلقة، وليس هناك أي شخص حولي يمكنه فهم ما أقول، أنا لا أعرف ما يحدث، وأخشى أن الأحداث لو تصاعدت أكثر أن تعلن اليابان إجلاء رعاياها عن مصر".

توقف قلبي لحظة ثم صحت: "أنت تمزح!"

-"بالتأكيد لا، هذا محتمل جدًّا".

-"لا، أنت لا تستطيع الذهاب".

لم يرد، شعرت بخوف شديد ارتعد به صوتي: "إيتشيرو، هل ستذهب؟"

صمت طويل، أجابني بعده، جاء صوته هادئًا تمامًا: "لا، أنا باق معك مهما حدث".

-"إيتشيرو".

الراحة التي شعرت بها فجأة جعلت قلبي يخفق بعنف وأنا أنطق باسمه، أجابني هو: "هبة تشان؟"

كتمت بصعوبة كلمة "أحبك بجنون"، واستبدلت بها نفسًا عميقًا ثم قلت: "اطمئن، كل شيء سيكون على ما يرام".

-"إذن اذهبي وصلي، ربما يستطيع دعائك تغيير شيء، ربما تنتهي هذه الأزمة اليوم".

-"إن شاء الله".

-"نعم، إن شاء".

ثم قال بسرعة: "ولا تغادري منزلك لأي سبب".

-"بالتأكيد".

كنت صادقة في كلمتي؛ لم يكن ثمة شيء يغريني بالخروج إلى هذه الجحيم المشتعلة في وسط البلد، مصر لا تعنيني في شيء، فلتحترق في الجحيم أو فلتأت الجحيم إليها.. بعد أربعة أعوام من العمل والانتقال من وظيفة لأخرى لأؤمن قوت يومي، وبعد الاحتكاك بآلاف البشر، وعشرات المهن، بعد هذا كله أصبحت أكره الوطن الذي تقت طيلة حياتي للموت فداءً له؛ من العسير أن أحب مكانًا

يكرهني.. مصر التي جعلت مستقبلي رهن درجتين ونصف، وحرمتني التعليم اللائق لأنني لا أملك المال، والتي يتحرش بي حتى رجال شرطتها، ويقتلون الشباب لأبسط الأسباب. هذا الوطن ليس وطني، لم يعد وطني.. أنا أكره مصر، أكرهها، وأكره ما فيها من فساد، وضجرت من كمية السلبية واللامبالاة التي يتعامل بها أهلها مع كل شيء، أكره غرورهم وغطرستهم وسخريتهم من كل شيء وكل شخص حولهم، وأكره رجالها المتحرشين المستبدين، ونسوتها الفضوليات النكديات اللائي يدسسن أنوفهن في كل ما لا يخصهن، بالتأكيد لن أعرض نفسي للخطر لأجل شعب كهذا.. فليحترقوا.

وبرغم هذه الكراهية، أو بسبب هذه الكراهية، احترمت هؤلاء الذين يقاتلون لأجل شيء ما غير واضح المعالم، لكنه بالتأكيد شيء نبيل، ما الذي يدفع الشرطة لمحاربتهم بهذا العنف ما لم يكونوا على حق؟!

حاولت العثور على أي قناة إخبارية لكني فشلت، وجدت الجزيرة بعد عناء لكن بثها كان متوقفًا، ولم يعد أمامي سوى التلفزيون المصري. أعلنوا أن الرئيس سيتحدث "بعد قليل" واكتشفت أن هذا القليل مدة تتجاوز الثلاث ساعات. بقيت كل هذا الوقت أحاول أن أفهم شيئًا فلم أفلح، ماذا أتوقع من جهاز إعلامي كالتلفزيون المصري؟ فقط التحريض وبث الكراهية نحو المتظاهرين في الشوارع، الأمر الذي أشار أكثر لنبل قضيتهم التي أجهلها. أعرف أن جهاز الشرطة مؤسسة قذرة، والقذارة لا تصطدم بالقذارة، وإنما تصطدم بالشرفاء، لعل الشرطة الوحيدة في العالم التي تتربص بالشرفاء هي الشرطة المصرية، إنه وضع مضحك مؤسٍ، لكن هذه هي مصر!

ظهر الرئيس عند منتصف الليل تقريبًا، وبخطابه الممل الطويل شعرت أنه يتحدث عن مؤامرة خيالية لا علاقة لها بالواقع. سببت ولعنت انفصاله عما يحدث، وتحملت حديثه حتى النهاية بصبر رفع ضغط دمي، لكنني كنت سعيدة إلى حد ما أن هؤلاء الثائرين المتمردين استطاعوا فرض وجودهم، كان هذا دليلًا آخر على كونهم محقين، ترى من هم؟ وماذا يفعلون؟ ولماذا يفعلون ما يفعلون؟

بقيت أتنقل بين القنوات طوال الليل، وأشرقت شمس الجمعة وأنا على أريكتي أتابع ما يحدث، وعند السابعة صباحًا نقلت شاشة التلفزيون مشهدًا هادئًا لكوبري أكتوبر، وتم الإعلان عن انفضاض المظاهرات أخيرًا، برغم راحتي للاستقرار الذي عاد، إلا أنني شعرت بالإحباط وذهبت لأنام.

استيقظت ظهرًا على رنين هاتف المنزل، صوته المزعج أيقظني بصدمة فجريت نحوه لأسكته، ثم سقطت على وجهي بسبب دوار النهوض المفاجئ، وحالما رفعت السماعة سمعت صراخًا مدويًا، ورجل يتشاجر مع امرأة ما تبكي، قلت بغباء: "ألو!!"

سمعت فيكتوريا صديقتي تصرخ، كانت تلطم تقريبًا فأفزعتني، تلاشى نعاسي ودوار رأسي وأنا أصيح بها: "حصل ايه؟ أنتِ كويسة؟"

واصلت صراخها حتى أفقدتني عقلي، وصرخت: "أنتِ يا متخلفة! حصل ايه؟"

-"ابني، ابني يا هبة، ابني".

-"دانيال؟ ماله؟"

كنت أحب دانيال وحده دون كل أطفال العالم المزعجين، وفكرة أن مكروهًا أصابه جعلتني على وشك الانهيار، لكن قلبي نبض مرة أخرى وهي تقول: "هو قاعد عند إيفون من يومين. أنتِ عارفة إيفون، مش كده؟"

-"ما هي اللي عرفتنا ببعضنا يا بنتي!"

-"هاتي لي ابني يا هبة، هو راح لعمته بعد رجلي ما اتكسرت عشان تراعيه، بس أنا عايزاه دلوقتي".

-"ليه يا بنت الحلال؟ ما هو مع إيفون و...".

-"عايزة ابني يا هبة".

وانفجرت في البكاء، فتثاءبت مللًا وقلت: "الله يخرب بيت مشاعر الأمومة البدائية السخيفة دي! مش هياكله تنين عند إيفون يا فيكتوريا، سيبيه يلعب مع عيالها واهتمي بصحتك لحد جوزك ما يرجع من السفر".

-"عايزة ابني دلوقتي".

قطبت جبيني مغتاظة وقلت: "تصدقي بالله.. أنا لو اتجوزت عمري ما هافكر أخلف، عشان مش هاسمح لنفسي أكون بالهبل ده. ممكن تقوليلي بتعيطي ليه؟"

-"أنا باتصل بيها من الصبح ومش بترد، كل التليفونات المحمولة واقفة، ومش عارفة ايه بيحصل في وسط البلد، أنا عايزة ابني".

انتبهت في هذه اللحظة فقط لغرابة اتصالها بالهاتف الأرضي!

تولاني القلق لكنني تحدثت بصوت عادي: "طيب، هروح أجيبهولك، أنا متفرغة انهاردة".

-"بجد؟ شكرًا يا هبة، شكرًا".

سمعت صوت دمدمة حانقة، وميزت الصوت للمرة الأولى: "مايكل عندك؟"

أجابني أخوها الذي لا أطيقه ولا يطيقني: "أيوة ياختي مايكل. قوليلي يا هبة، أنتِ مش متابعة اللي بتنشره صفحة كلنا خالد سعيد عن الوضع في وسط البلد؟"

-"لا، مش متابعة حاجة، الإنترنت مفصول عندي".

-"أبشري ياختي، أنتِ مش لوحدك، الإنترنت مفصول عند الكل".

-"قصدك ايه؟"

-"مش مهم، نتقابل في محطة سعد زغلول بعد ساعة، وربنا يسامحني لو حصلّك حاجة".

ووضع السماعة قبل أن أفهم..

في طريقي للمترو اشتريت جريدة الأخبار فلم أجد نبأً عن أي خطر.. ماذا قصد هذا الأحمق إذن؟ لكن الإجابة جاءت بمجرد نزولي في محطة سعد زغلول، إذ صفع أذنيّ وعقلي ووعيي صوت هادر، لوهلة ظننته صوت بعض المفرقعات التي يلهو بها الأطفال، ثم أدركت حقيقته فاتسعت عيناي وتجمدت في مكاني، ونظرت لأعلى مأخوذة.

ناداني مايكل: "هبة!"

سمعت من جديد صوت الرصاص.. ليس صوت مفرقعات ولا ألعاب، بل رصاص حي!

لم أكن قد سمعت صوت الرصاص من قبل، لكنني عرفته، وأوجفت في نفسي خيفة. اقشعر جسدي وأنا أتخيل كل رصاصة تخترق جسد إنسان حي، إنسان له أحلام كأحلامي، وطموحات كطموحاتي، وآمال يريد تحقيقها، وشخص يحبه يريد أن يعيش معه إلى الأبد. ما الحق الذي يملكه إنسان مثله كي يأخذ حياته بكل ما فيها من تفاصيل صغيرة وثمينة وممتعة؟

ما الذي يحدث في مصر؟ برب السماوات ماذا يجري ها هنا؟!

-"هبة".

طرفت بعيني ثم نظرت إليه، حييته بصوت شاحب: "أهلًا يا مايكل".

ترفق بي على غير العادة قائلًا: "اوصفيلي العنوان وارجعي، مفيش داعي تعرضي نفسك للمشاكل".

ذهني كان مشتتًا، فتحدثت كالإنسان الآلي: "أنا مش هاسيبك".

كاد يتكلم ثم أحجم؛ كان يعرفني جيدًا، علاقتنا كانت طويلة بما يكفي ليدرك أن الجدال معي سيهدر الوقت والجهد.

-"طيب، يالا بينا".

خرجنا من المحطة وصدمنا بسحابة بيضاء خانقة تغطي الشوارع، لم نر أي شيء على مسافة أمتار، لكثافة الغاز المسيل للدموع، كان يغطي العالم وكأننا نسبح في سحابة بيضاء. وسمعت مايكل يقول بذهول: "يا ولاد الكلب!"

وشرعنا نركض، كانت الشوارع خالية وتسبح في الدخان الأبيض الحارق، ولسبب ما كان يطاردني يقين بأنني سأخطئ العنوان، في هذا الضباب الكثيف الملعون يبدو كل شيء متشابهًا، ويسهل أن يضل المرء طريقه.

سمعنا من بعيد صوت سارينة عالية، ثم صوت سيارة تندفع بأقصى سرعة، ثم سمعنا صراخًا نصفه غاضب ونصفه مذعور، قيدني الصراخ في مكاني رعبًا، لكن مايكل شدني لنتابع العدو، وبعد دقائق خاب شعوري المتشائم، ووصلنا إلى البيت المقصود، أخيرًا.

عندما فتحت إيفون الباب كانت متأهبة بسكين كبيرة، وبذعر كفيل بتحويلها إلى نمر، وعندما رأتنا تهالكت وبدأت تبكي، الأمر الذي جمدني ذهولًا في مكاني.

دفعني مايكل لندخل وأغلق الباب، واحتضنتني إيفون وبدأت في الحديث الهستيري: "الحمد لله إنكم بخير، الحمد لله، تعالوا، اتفضلوا".

-"أنتِ كويسة؟"

-"نشكر ربنا. ادخلوا بسرعة، ظباط أمن الدولة اقتحموا أكتر من عمارة من الصبح، أنا فكرت إنكم...".

وتكفل البكاء بتحويل كلماتها لمقاطع مشوهة.

قال مايكل: "اهدي يا مدام، احنا جينا ناخد دانيال، وماكُنّاش عارفين ايه اللي بيحصل".

تسلل دانيال من مكان ما آتيًا، ونادى بصوت وجل: "خالو".

واحتضن ساق مايكل، ومزقني المشهد حيث وقفت مقطبة الجبين أحاول فهم مبرر هذه المجزرة التي تحدث بالخارج.

قال لي مايكل: "لو كنتِ متابعة الأخبار كنتِ عرفتي إن المتظاهرين كانوا ناويين يحولوا اليوم لنواة ثورة تهز مصر، ودعوا إلى النزول لميدان التحرير ورفع مطالب الثورة في وجه الحكومة".

-"ثورة؟!"

هزتني الكلمة من أعماقي، وكأن عملاقًا ينتزع شجرة هائلة من جذورها.. ثورة؟

نعم، هذا هو الحل الوحيد لكل شيء، المنقذ الوحيد لكل شيء.

سألته كالمشدوهة: "مين صاحب الثورة دي؟"

-"محدش يعرف. الحكومة بتقول إنهم مجموعة خونة يحاولون قلب نظام الحكم، لكن صفحات الفيس بوك بتقول إنهم شباب لا يتبع أي تنظيم، وكل طلباتهم إصلاح أحوال البلد. نزلوا في يوم عيد الشرطة احتجاجًا على ممارساتها المتوحشة في الفترة الأخيرة، والشرطة عاملتهم بعنف مفرط، وسقط شهيد في السويس، بعدها تمت الدعوة إن اليوم يكون (جمعة الغضب)".

-"وبعدين؟"

-"محدش يعرف، الحكومة قطعت كل الاتصالات من الصبح. مخدتيش بالك إن موبايلك عطلان؟"

-"آه، وفكرت إن....".

-"خدمة الإنترنت كمان مقطوعة عن مصر كلها، أكيد في حمار ما اقترح إن دي هتكون الوسيلة المثالية لتشتيت جمع المتظاهرين".

قالت إيفون: "معتقدش إنهم أغبياء عشان يكرروا اللي حصل يوم الثلاثاء.. أكيد هيسيبوهم يتظاهروا براحتهم وفي الآخر يروحوا".

-"لحسن الحظ إنهم بالغباء ده يا مدام".

ورأيت في عينيه لمعة غامضة أخبرتني أنه يساندهم، يساند هؤلاء الذين يقاتلون بالخارج لأجل ثورة لعلها هي الأمل الذي نتوق إليه، ولا نعرف ما هو، ولا كيف سيتشكل.

شعرت بنار قوية تستعر بين ضلوعي.. ما هذا الشعور؟ ماذا يدعونه؟ وكيف يسكنني بهذه القوة دون أن أعرفه؟

انحنيت منادية دانيال: "يالّا يا حبيبي، لازم نمشي".

صاحت إيفون: "مستحيل.. مش هتخرجوا في الظروف دي".

-"لازم نخرج بسبب الظروف دي بالذات.. احنا مش عارفين هيحصل ايه، ومش ضامنين رجوعنا تاني".

-"أنا مش خايفة على دانيال بس، أنتم برضو...".

أمسك مايكل معصمي ورفعه بمرح قائلًا: "احنا أبطال رياضة، لازم تخافي على اللي يقف في وشنا، مش علينا".

لمعة عينيه أصبحت مفهومة، كانت لمعة بهجة وحماس.

تأهبنا للخروج فأحضرت لنا إيفون علبتين من المياه الغازية، وإزاء استغرابي من هذه اللمسة المجاملة التي تتم قبل خروج الضيوف قالت لي: "خلوها معاكم، اغسلوا بيها وشكم لو ضربوا عليكم قنابل".

أرعبتني تلقائية حديثها، كأنها أم توصي ابنها بالحفاظ على ثيابه في المدرسة، كأنه أمر طبيعي جدًّا أن تلقى علينا القنابل المسيلة للدموع ونحن نسير في الشارع!!

تجاوز مايكل صمتي وأخذ العلبتين وقال: "شكرًا، وآسفين على الإزعاج".

حملت دانيال وخرجنا، قطعنا مسافة صغيرة ونحن نسير جوار جدران العمارات العالية، ثم اعترضنا جدار بشري غليظ، رجل طويل عريض يضع مسدسًا في جانبه ونظرة متعجرفة متسلطة على وجهه، صاح بنا: "وقَّف ياض أنت وهي".

توقفنا، فاقترب منا يقول: "خارجين ليه من بيتكو دلوقتي، يالا ارجعوا".

قال مايكل محاولًا تلطيف الجو العدواني: "بيتنا مش هنا يا باشا، احنا كنا جايين ناخد ابن أختي بس".

-"وهو كان فين؟"

-"كان عند عمته يا باشا، أنت عارف الستات لما بيخافوا على...".

قاطعه بلهجة متعجرفة بغيضة: "والهانم اللي معاك تبقى مين؟"

شعرت بانبعاث طاقة الغضب من مايكل، لم أر وجهه، وصوته كان ثابتًا على حاله، لكنني أيقنت أنه سينفجر بعد لحظة. قال: "تبقى أختي يا باشا".

شده الضابط من تلابيبه وقال: "أختك بالصليب اللي أنت لابسه ده يا روح أمك؟ هتصيع عليا! جايين منين ياض منك ليها؟"

أمسك مايكل بيده ولواها، كان فارق الحجم بينهما مهولًا لدرجة جعلتني أذهل لرؤية جسد الضابط يطير في الهواء، ثم يسقط على ظهره بركلة انتزعت ثقل جسده عن الأرض.. تمدد تحت قدمي مايكل يتأوه ويشتم، فزمجر بوجهه: "شوف حد تاني تتأمر عليه يا روح أمك، ماتعملش راجل بس على اللي شكلهم مش بتوع مشاكل، يا أوساخ".

وركله في وجهه بحذائه الرياضي الشبيه بآلة قتل متنكرة، وانتزع مسدسه وطوح به عن آخر ذراعه، ثم شدني لأسير أمامه. ابتعدنا بسرعة قبل أن تظهر مشكلة أخرى.

قلت له: "أنت جيت عشان تعرف اللي بيحصل هنا، صح؟"

-"جيت عشان أحميكِ، وعشان أرجع بدانيال".

-"بطل صياعة يا بني.. أنت جيت عشان الأخبار مقطوعة وأنت عايز تعرف اللي بيحصل".

ابتسم وقال بصوت يكاد يكون متألقًا: "اسكتي ونظِّمي نَفَسك".

كان السير مرهقًا مع حمل الصغير، لكنني خشيت إنزاله فيحدث شيء يقتضي منا العدو المفاجئ فيصيبه مكروه ما. وشرع مايكل في السباب كلما رأى آثار الرصاص والقنابل. قطعنا شوارع عدة حتى اقتربنا من وزارة الداخلية، عندها شعرنا بأننا خرجنا من مدينة أشباح لسوق مدينة كبيرة؛ كان هناك

العشرات يعدون يمينًا ويسارًا، وصوت إطلاق الرصاص كان أقرب وأعنف، ولسبب ما وجدت نفسي أنظر لأعلى، عندها رأيت أحدهم فوق سطح إحدى العمارات، قناص يصوب بندقيته نحوي، فتوقفت أنفاسي رعبًا، وفي تلك اللحظة فكرت في ألف شيء، أولها أحلامي وطموحاتي وحياتي التي لا يحق لإنسان مثلي أن يسلبني إياها أبدًا!

شعرت وكأنني أرى انطلاق الرصاصة، رغم أن هذا مستحيل، وحدقت إليه وكأنني أراه؛ ذلك الوجه البارد وهو يضغط الزناد، بلا انفعال، ولا شعور، ولا اكتراث.. رأيت الرصاصة تنطلق حاملة الموت معها، نحوي، بل قريبًا مني.. كانت آتية إلى مايكل ولا أحد سواه، ولم يكن بوسعي الصراخ في أقل من ثانية لأنبهه، كان موته آتيًا إليه بسرعة، ولم يمنع الموت عنه إلا مرور شخص آخر كان يعدو من أمامه. تجمد الزمن بي في تلك اللحظة، عندما سمعت صوت الرصاصة وهي تحطم جمجمة الشاب، ورأيته يسقط وشعرت بالدم الذي انفجر من رأسه يتناثر عليَّ ويلوثني، نظرت لجثته الملقية أرضًا، وتساءلت كيف شعر في تلك اللحظة الأخيرة، هل شعر بشيء ما أم وجد نفسه فجأة في عالم آخر؟

جثا مايكل مذهولًا يهز الفتى كي ينطق بكلمة، أما أنا فنظرت لأعلى، رأيت الوجه البارد يبتسم، رغم كل هذه المسافة كنت أراه بوضوح، لن أنسى ملامحه ما حييت.

عندما تأكد له موته نهض مايكل وجذبني، انطلقنا نجري على غير هدى؛ الشوارع التي أتينا منها كانت مغلقة الآن، والعودة إلى إيفون مستحيلة، ورغم أننا لم ننطق بكلمة إلا أننا اتفقنا على أن الطريق الوحيد للخروج من هذه المتاهة هو ميدان التحرير، لا نعرف كيف، لكن علينا أن نفعل.

غسلنا وجوهنا بالمياه الغازية، وأغرقنا بها الكوفية التي تحمي وجه دانيال، ثم اتخذنا طريقنا نحو شارع محمد محمود، وبمجرد دخولنا إليه رأينا مجموعات كبيرة من الشباب تنطلق عدوًا نحو الميدان، ومن ناحية الوزارة يأتي صوت عال مروع لسارينات سيارات الشرطة، وسمعت انفجارات متتالية وملأ الضباب الأبيض الكثيف كريه الرائحة الدنيا، ومن بين سعالي أخفيت وجه دانيال في كتفي كي لا يستنشق هذا الموت الأبيض.. ناديت مايكل مرارًا لم أتلق ردًا، وسمعت صراخًا وسبابًا وهتافات بعيدة، ثم صوت سيارة تمرق بسرعة، خرجت كوحش خرافي من بين سحب الدخان وهي تنطلق بأقصى سرعة لتدهس عشرات الشباب تحتها وتواصل طريقها لتطارد غيرهم.

لوهلة توقف عقلي، ولم أستوعب أني رأيت ما رأيت، قلت لنفسي إن هذا لا يمكن أن يكون حقيقيًّا، ولكن الأجساد المحطمة النازفة على قارعة الطريق أكدت أنني لا أحلم، وأن بشاعة الكوابيس لها حد، وما أراه فاق هذا الحد بمراحل. فتحت فمي وصرخت، صرخة غضب عالية مجنونة، وجريت نحو الجرحى، لو أنني أمسكت من فعل بهم هذا لمزقته بأسناني حتى وإن كان آخر ما أفعله في حياتي، لا يعنيني شيء آخر الآن.

فجأة أمسك مايكل بمعصمي، نظرت له لأجد بنطلونه ملوثًا بدماء ليست دماءه، ولم يبد مدركًا لسوء حال عينيه الملتهبتين، فقط شدني وصرخ: "اجري".

خلال جرينا انتبهت لصراخ دانيال المتواصل وبكائه، ويده الملتفة حول عنقي هي الشيء الوحيد الذي يحفظ لي عقلي، ولولا هذا لانطلقت خلف تلك السيارة ومزقتها بيدي.. نعم، قوة الغضب التي كنت أشعر بها في تلك اللحظة كانت ستؤهلني لفعل هذا وأكثر.

عبرنا ميدان التحرير جريًا نحو كوبري قصر النيل، ولا أظننا شعرنا بأنفاسنا التي تقطَّعت من اللهاث والغاز المسيل للدموع، وقبل أن نصل إلى بداية الكوبري سمعنا صوت القنابل ورأينا سحب الدخان الكثيفة، توقفنا وتراجعنا جريًا مرة أخرى، لم يعد أمامنا إلا الاتجاه نحو رمسيس مادامت كل الطرق قد أغلقت بوجهينا.

زمجرت إحدى مدرعات الأمن المركزي قادمة من ناحية الوزارة، وسحقت في طريقها أربعة أو خمسة شباب فصرخت مجددًا، وصرخ مايكل، لكن صراخ دانيال كان الحاجز الذي منعنا من الاشتراك في تلك المعركة المجنونة. ركضنا نعبر الطريق إلى الناحية الأخرى كي لا نسحق بدورنا، لكن حالما فعلنا سمعنا صوت سارينة من خلفنا، شد مايكل يدي وهو يعدو بجواري، ولم أرد أن أنظر إلى الخلف لئلا أتعثر، لكنني كنت أرى المدرعة بعين الخيال وهي تأتي بأقصى سرعة نحونا، تستهدفنا دون شك، لا تبغي إرهابنا ولا ترويعنا بل قتلنا، وهذا ما أدركه مايكل أيضًا وهو ينظر خلفه للمرة الأخيرة، ربما لهذا صرخ مغتاظًا: "يا كلاب.. يا ولاد الكلاب!"

انطلق الرصاص كالمطر، رأيته يضرب الرصيف إلى يميننا، لكن في هذه اللحظة شعرت بمايكل يفرد ذراعه خلف ظهري ثم يديره حول وسطي ويرفعني عن الأرض وهو مستمر في الجري، أصبح أسرع حتى وهو يحملني ويحمل الطفل معًا، أرعبني الأمر، غضبه الذي منحه قوة غير طبيعية أخافني، جعلني أشعر

بأنه يستنزف آخر لحظات حياته لأجل إنقاذي والطفل فقط، صرخت به: "مايكل!!"

صوت السيارة كان خلفنا تمامًا الآن، وقبل أن أدير رأسي شعرت بنفسي أطير في الهواء، انقلب العالم ودار بي خلال سقوطي الطويل، ثم اصطدمت بالأرض صدمة أفقدتني شعوري بنفسي.

لا أعتقد أنني فقدت وعيي أكثر من لحظات، وأفقت لأجدني ملقية أرضًا بين سيارتين، ودانيال فوق صدري يبكي بصوت مختنق كأنه يخشى أن ينبه بكاؤه أحدًا إلينا، مسحت على رأسه وقبلت جبينه، ثم داهمني التذكر كصدمة كهربية فهببت واقفة. وجدت جسد مايكل ملقيًا على وجهه فوق مقدمة إحدى السيارتين بلا حراك، وظهر قميصه ممزق في خمسة مواضع انفجر منها الدم كثيفًا، وتشرخ زجاج السيارة تحت صدغه الأيسر، أما نصف وجهه الأيمن فكان مسترخيًا كأنه نائم بسلام.

كتمت فمي بكفي واحتضنت الطفل بقوة أحاول منع نفسي من الانهيار، أو أحاول الحفاظ على عقلي من الإصابة بالجنون، ثم مددت يدي بخوف ووضعتها على ظهره، تمتمت وكأني أتوسل: "مايكل.. والنبي...!"

شعرت بأنفاسه تتردد فسالت دموعي، وتراجعت أستند على مقدمة السيارة الأخرى، لم أقدر على التماسك أكثر فبكيت وأنا أبعد الطفل عني ثم أحمله ثانية بقوة أكثر، بعد قليل تحرك مايكل، فتح عينيه وبقي ثابتًا للحظات، وبعد قليل بدأ يتحرك، كان هناك جرح قطعي من منتصف صدغه الأيمن وحتى فكه، لكنه اعتدل جالسا ولما رآني أبكي ابتسم، قال ضاحكًا: -"بركاتك يا أم النور! التمثال البارد بيعيط! سجل يا تاريخ".

-"يا حلوف يا معدوم الإحساس!"

-"يالا يا هبلة".

وهبط عن السيارة بغير اتزان، وترنح قليلًا قبل أن يسترد توازنه، ثم أشار للجانب الخلفي من السيارة التي أستند أنا عليها، قال: "ابن الكلب كان مصر يدهسنا، تخيلي إنه كان هيفرم العربية دي لمجرد إنه ياخدنا تحت عجلاته!"

جعلني هذا أبكي أكثر، ولم أجد ما أقول سوى: "الحمد لله".

-"بطلي عياط، أنا بخير".

وعدنا نواصل هروبنا..

طلقات الرصاص الغزيرة، والقنابل التي لا تنتهي، وصوت المدرعات التي تدهس الأجساد، كل هذه الأشياء صارت غير محسوسة. كان كل تفكيرنا الآن مركزًا على الوصول لميدان الإسعاف، وبمعجزة ما وصلنا، وبمجرد أن فعلنا وجدنا جيشًا من جنود الأمن المركزي يأتي من ناحية دار القضاء العالي، انحرفنا يسارًا وواصلنا هروبنا. قطعنا وكالة البلح في لمح البصر، وهربنا منهم صاعدين لكوبري 15 مايو، وخلال المسافة من بولاق أبو العلا وحتى هبوطنا من الكوبري عند ميت عقبة لم تمر بنا سيارة واحدة، سواء في اتجاهنا أو بالعكس.

قبل أن نهبط من الكوبري بقليل سقط مايكل أرضًا، كان وعيه يتلاشى لكنه يقاوم لينهض، رأيت ظهره غارقًا في الدم بشكل غير طبيعي، لا يعقل أنه أصيب بالرصاص الحي، مستحيل!!

قال لي بسخرية وأنا أمسك بذراعه لينهض: "شوفتي؟ طلع عندي دم".

سألته برعب: "ده مش رصاص حي، صح؟"

-"ليه؟ فاكراني أدهم صبري؟"

أنزلت الطفل أخيرًا وقد صرنا في أمان نسبي، كان أهدأ الآن بشكل جعلني أتساءل عن مدى تأثر نفسيته بما حدث له اليوم وما رآه، والتفت أمسك بذراع مايكل أساعده ليقف، لكنه كان متهالكًا لدرجة غير طبيعية، قال بضعف: "ماتخافيش، ده مش رصاص حي، بس أنا عندي سيولة دم، لما بتجرح بنزف كتير، والـ..".

وترنح، شعرت أنه سيهوي فسألته: "أنت كويس؟"

-"السؤال ده يا إما العمى بعينه يا إما الغباء بعينه!"

وضحك، كنت أبتسم من روحه الساخرة المستفزة، ثم تبددت ابتسامتي عندما سقط مرة أخرى، هذه المرة بشكل نهائي، تمدد جسده على الأرض وهو يتنفس بصعوبة، ومضت دقيقة وهو يتحدث بكلمات لا أفهمها ثم سكن، وراح وجهه يزداد شحوبًا مع كل دقيقة أخرى تمر، التصق دانيال بي لكنه لم يتكلم، فحملته مرة أخرى، عندها سألني وهو يلف ذراعيه حولي: "طنط هبة.. الناس دي ماتت ليه؟"

لم أرد، كنت أنا أيضًا بحاجة لشخص يخبرني بالإجابة.

-"خالو مايكل هيموت يا طنط؟"

-"بعد الشر يا حبيبي، خالو هيكون كويس إن شاء الله".

بعد دقائق ظهرت سيارة مسرعة من أعلى الكوبري، وبمعجزة حقيقية استطاعت أن تفرمل قبل أن تدهس جسد مايكل الملقي في عرض الطريق. هبط السائق بوجه قلق وقال: "اطلعي العربية يا آنسة، أنا هشيله".

لم يسألني من أنا، ولا ماذا نفعل هنا، ولا ماذا حدث، كان كملاك جاء من السماء لينقذنا، حمل مايكل إلى السيارة وفتح لي الباب المجاور له، ركبت جواره بثقة، وقلت له إننا ذاهبون إلى شبرا، فهز رأسه وانطلق بأقصى سرعة، كانت شوارع القاهرة خالية مهجورة، تمامًا كقلبي.

لك أن تتخيلي حالة فيكتوريا وأنا أدخل عليها بهذا الشكل يا ندى، كنتُ مغبرة الثياب وملوثة بالدم ومشوشة المظهر، وقد انكشف نصف شعري واعوجت نظارتي، نظرت لي برعب وهي تفتح الباب مستندة على عكازها، وسألتني بصوت مرعوب: "فين مايكل؟"

-"بخير يا بنتي، بخير".

أدخلتني وأجلستني، أخبرتها أنني عرجت على أختها في الشارع المجاور، وطلبت من زوج أختها أخذ مايكل إلى المستشفى، بعدها لذت بصمت طويل، عقلي وقلبي كانا خاليين تمامًا ومشاهد عدة تمر بي، وإلى جواري دانيال يقص عليها ما رآه من أحداث. عندما انتهى أدخلته غرفته وغابت معه قليلًا ثم عادت لي، وضعت يدها على رأسي ثم شدتني لحضنها، بقيت صامتة قليلًا ثم قالت: "أنا آسفة يا هبة، أنا آسفة بجد، وعمري ما هانسى اللي عملتيه انهاردة، وعمري ما هانسى إني كنت هاتسبب في موتك".

آخر ما كنت أريده هو رؤيتها تبكي، فقلت: "الحمد لله يا فيكتوريا، احنا بخير، أرجوكِ كفاية عياط".

-"أنتِ تعبانة دلوقت، قومي واستحمي، وهجهزلك هدوم نضيفة وأسخن الأكل، محدش...".

-"مستحيل طبعًا، أمي متعرفش إني خرجت من البيت، ولو رجعت وأنا برة هتتجنن".

-"قوليلها إنك معايا ومش هتمانع".

-"عارفة، بس أنا مش بعرف أنام برة سريري".

-"طب لو هتمشي يالا قومي، المغرب خلاص هيأذن، والدنيا هتضلم ويبقى صعب عليكي ترجعي البيت".

-"آه، الحمد لله إن المترو قريب من هنا".

في أثناء عودتي كنت مخدرة تمامًا، لا أفكار ولا تفكير، وعندما وصلت للبيت كنت أتحرك كالإنسان الآلي، أخرجت حقيبة ظهر كبيرة، وأخذت كل الأدوية الموجودة في صيدلية الحمام ووضعتها فيها، أخذت سترة ثقيلة ومسدس لعبة اعتدت اللهو به في طفولتي، وزجاجة ماء وزجاجة أصغر فيها ماء مخلوط بالخل، بدلت ملابسي ووقفت في الصالة أرتدي حجابي، وقبل أن أستدير بعيدًا عن المرآة انفتح الباب، ودخل أخي مع أمي، وسألني مصدومًا: "على فين؟!"

شعرت بغيظ شديد كتمته بالكاد، قلت ببرود: "رايحة السوق، أنت طلبت مني شامبو امبارح وأنا عايزة مكياجات".

قالت أمي: "مكياج ايه وشامبو ايه! أنتِ نايمة في كهف؟! البلد بتولع يا بنتي!"

-"بجد؟ ليه؟!"

-"البوليس نازل ضرب في الناس من الصبح، وزي ما قلتلك الجيش نزل الشارع، وأعلنوا من شوية حظر التجوال".

فغرت فاهًا وأنا أردد: "هه!!"

مرة أخرى شعرت بأنني أحيا رواية خيالية، فتحت التلفزيون وبحثت عن قناة الجزيرة فسمعت البيان يتردد مرارًا: "الحاكم العسكري يعلن فرض حظر التجوال".. لم أكن قد سمعت عبارة الحاكم العسكري هذه في حياتي كلها، ولم أعرف من المقصود بها..: أين أنا؟ أهذه مصر؟!

بدلت ملابسي ثانية وجلست مع أخي نشاهد الأخبار، والأحداث تتوالى بسرعة غير طبيعية.. كنا نرى احتراق مقر الحزب الوطني ولا نصدق أن هذا يحدث فعلًا، السيارات تحترق، الجرحى والمصابين والفارين من بطش كلاب الحراسة المسعورة، ومشاهد عدة لأحداث اليوم، ثم المشهد الذي لم أره أنا ومايكل على كوبري قصر النيل، رشاشات الماء التي أغرقت الناس، والسيارات التي دهستهم بلا رحمة، نعم، كانت هذه السيارة تريد سحقنا وهي عائدة من

هناك، لم يهتموا بحقيقة كوننا عزلًا من أي سلاح، ولم يهتموا أن من أرادوا سحقهم فتاة وطفل صغير، وشاب أعظم خطاياه سيجارة يدخنها سرًّا.

كلما أذيعت أخبار ما حدث ظهرًا شعرت بحجم المعجزة التي أعادتني على قيد الحياة، واقشعررت حتى أوشكت على التجمد خوفًا؛ لقد كنت على قيد خطوات من الموت لكنه أخطأني، بل تركني لأن أجلي لم يحن بعد، بخلاف الشاب الذي فجرت الرصاصة جمجمته، كان بعيدًا، ولأن قدره قد حان فقد حملته قدماه ليتلقى الرصاصة بدلًا من مايكل.

انسحبت الشرطة من الشوارع تاركة وراءها فوضى لا حد لها، وعندما أشارت الساعة للعاشرة سمعنا صراخًا عاليًا عند بداية شارعنا، فخيم صمت مقبض على المنطقة ولدت منه ضجة أعلى. قفزت من مكاني وجريت للمطبخ وأخذت أكبر سكين وجدته، وصحت بأخي: "يالا قوم، انزل مع الرجالة اللي تحت".

نظر لي كأنه لا يصدق، أما أمي فانطلقت في الصراخ لكنني كنت مصرة على أن من واجبه التصرف مثل الرجال. وبالفعل نزل ووقف مع الآخرين، وكنت أنا أتابع الأخبار في التلفزيون وأشعر بعجز مؤلم، عندما هوجم المتحف المصري كنت أوشك على البكاء، وطارت بقايا عقلي مع أنباء إطلاق الرصاص في المعادي قرب فيلا السفير الإسرائيلي، فهل هذا المكان قريب من إيتشيرو أم بعيد؟!

شغلت نفسي بنسخ أرقام القوات المسلحة على أوراق صغيرة، واتصلت بأخي أطلب منه أن يأتي ليأخذها ويوزعها على الرجال الساهرين معه لعلها تساعد أحدًا، فقال لي: "ماتقلقيش، في مدرعة على ناصية الشارع".

-"مدرعة؟!!"

عاودني الدوار، وشعرت بأن عالمي هذا ليس عالمي المعتاد، وعندما أشرقت الشمس كانت قوتي النفسية قد استهلكت تمامًا من الانفعالات، القلق مما يحدث بالخارج وجهلي بمصير إيتشيرو، والقلق الذي ما انفك يؤلمني كلما فكرت في أخي الساهر في الشارع البارد مع الرجال، والقلق من الاستغاثات التي تذاع في التلفزيون المصري رغم ثقتي التامة أن نصفها مزيف، كل هذا جعلني أشبه بشخص سكير يترنح بحثًا عن مكان يستلقي فيه لينام.

ونمت، ولم أشعر بنفسي كأن روحي لم تعد ها هنا!

هبة

22 يونيو 2011

اليوم الثامن

فجر بعيد

صديقتي العزيزة ندى

حكيت لك في آخر رسالة عن بداية الثورة، وكيف وجدت نفسي دون مقدمات في قلب أحداث جمعة الغضب. يا لها من أيام! المضحك أن كل المحيطين بي ذكرياتهم عنها سعيدة مما يجعلني أستغرب لأمرهم، بالنسبة إليّ أنا كانت تلك أيامًا من الرعب.

يبدو أنني لن أتخلص من تلك الذكريات بسهولة يا ندى، مجرد تذكر تلك الأيام يجعلني أشرد بعقلي بعيدًا، ويبدو أن لشرودي هذا مذاقًا مختلفًا. بعدما أرسلت لك رسالتي بقيت أحدق إلى شاشة الكمبيوتر فترة طويلة، وانتبهت عندما ناداني إيتشيرو للمرة الثالثة تقريبًا، فكسر صوته حاجز ذكرياتي السميك، نظرت له وسألته: "نعم؟"

كان على وشك قول شيء ما تراجع عنه فورًا، وبدلًا من هذا ابتسم حائرًا وسألني: "ماذا ذكرك بالثورة؟"

ضحكت، دائمًا ما تبدو طريقته في قراءة أفكاري مربكة وممتعة في الوقت نفسه، إنه يفعل هذا دائمًا فلم أعد أُدهش، لكني لم أفقد شعوري بالاستمتاع لأنه يفهمني إلى هذا الحد. أجبته: "أرسل لندى أخبرها بما حدث لي في تلك الأيام".

أصدر صوت همهمة واقترب مني، جلس على أقرب مقعد لي وقال: "هل أخبرتها بما حدث لي أيضًا؟"

-"لا أريد حتى أن أتذكر".

وتنهدت ثم عدت أبتسم، فقال هو بنفس اللهجة: "ولا أنا أريد تذكر ما فعلته بي".

قلت بالعربية ممازحة: "يا قلبك الأسود!"

أومأ برأسه ونهض بنظرة مشاغبة ظللت وجهه يقول: "أسود جدًّا، وأنت تستحقين العقاب".

-"أنا مستعدة لأي عقاب يجعلك تكف عن توبيخي كلما تذكرت ما حدث!"

-"لا!"

ونهض ليجلس على مسند مقعدي، مال نحوي وقال بصوت موبخ وإن كان مغريًا: "يجب أن تشعري بالذنب طوال الوقت لما فعلت بي".

وأخذ شفتي في قبلة طويلة أذابتني، وتوقف ليردف: "كما أنك لا تتحملين عقابي".

همست له: "وهل تتحمل أنت معاقبتي؟"

بلا تفكير أجابني: "لا".

وربت على رأسي يقول بحنان: "أنا سعيد لأنك بخير، ومعي".

إيتشيرو مثلي تمامًا، لا يرحب عادة بتذكر تلك الأيام.

أول اتصال بيننا بعد جمعة الغضب كان ظهر السبت 29 يناير، استيقظت على رنين الهاتف أخيرًا، وصحت: "قل لي إنك بخير".

-"أنا في حالٍ ممتازة، كيف كان يومك أمس؟ ".

تذكرت ما جرى لي مع مايكل واقشعر جسدي، قلت: "لا شيء، ماذا عنك؟"

سمعت صوتًا مصريًا يقول بالقرب منه: "خلاص يا إتش، كله تمام، تقدر تطلع تنام دلوقتي".

لولا لكنته المخيفة وحرف اللام الممزق إربًا إلى راء ثقيلة ما ظننت هذا صوته، أجاب: "قشطة يا معلم، أشوفك بالليل".

-"ماشي".

لوهلة لم أقو على النطق بكلمة، ثم رددت: "إتش؟ قشطة يا معلم؟"

ضحك إيتشيرو بمرح وقال باليابانية: "لغتي جيدة، أليس كذلك؟"

حقًا شر البلية ما يضحك فضحكت، وقلت: "هل هذه هي حدود إتقانك للغة العربية؟ "قشطة يا معلم"!! أنا نفسي لم أنطقها في حياتي!"

-"طبعًا، لأنها كلمة رجولية، أخبرني إسلام بهذا".

-"إسلام!؟"

-"جاري، لقد تعرفت أشخاصًا كثيرين هنا".

-"أشخاص؟!"

-"نعم، الجيران، سهرنا أمس في..... نسيت اسمها!"

-"لجنة شعبية؟"

-"نعم، نعم".

ضحكت من قلبي: "يبدو أنك تستمتع بوقتك حقًا!"

-"لا متعة في الشعور بالخطر، هبة".

-"خطر؟"

صمت قليلًا، ثم تحدث بصوت مرح يمحو به قلقي: "كان لديّ عمل سهرت أنجزه حتى ضحى يوم الجمعة، ثم نمت، وصحوت في التاسعة مساءً على صوت إطلاق نار، وامتلأ الشارع بشباب يحملون أسلحة غريبة.. في البداية ظننتها مشاجرة ما، ولكن بعد ساعتين تجدد إطلاق النار فخرجت من المنزل لأفهم ما يحدث".

-"وبعد؟"

-"قابلت إسلام وهو خارج من شقته، وأخبرني بما يحدث منذ الصباح".

-"وكيف تفاهمتما؟"

-"بالإنجليزية، وبالاستعانة بقاموس اليكتروني يترجم كلماته التي لا أفهمها لليابانية".

وضحك محرجًا، لكنني قلت بتشجيع: "هذا رائع، إنها فكرة ممتازة".

أذهلني صوته الخجول: "نعم، لكني لن أعتمد عليه كثيرًا، سوف أبذل جهدي في الدراسة أكثر".

-"وماذا حدث بعد هذا؟"

-"خرجت مع إسلام ووقفنا في اللجنة الشعبية طوال الليل، لقد تعرفت أشخاصًا كثيرين، كلهم يعرفونني لكننا لم نتحدث من قبل".

-"نعم، قال أخي الشيء نفسه، لكن لماذا وقفت في اللجنة الشعبية مع الشباب؟"

همهم كأنه يود الاعتراض، ثم قال بضيق: "ربما لم تنتبهي لهذا، لكنني رجل قوي".

كبرياؤه الشديدة جعلتني أرتبك وكأنني أهنته بلا قصد.. سألته: "ما علاقة هذا بـ...؟!"

-"لن أمكث في منزلي إذن وأترك شبابًا أصغر مني يحمونني".

-"لم أقصد هذا.. ستتعرض للمشكلات لو اختلطت بالآخرين الآن، وقد يشك أي شخص فيك".

-"يشك فيّ!"

-"أنت أجنبي، وفي الوقت الحالي الكل يتلفت حوله بحثًا عمن يلقي عليه مسؤولية ما يحدث".

-"لكنني لم أفعل شيئًا!"

-"أعرف، لكن الآخرين لا يعرفون".

-"هبة تشان!"

-"هل تملك سلاحًا على الأقل؟"

صمت فترة، واشتممت رائحة غضبه بوضوح، ثم قال بهدوء: "أنا آسف، هبة تشان، سأغلق الآن لأنني غاضب بشدة، وسأتصل بك حين أهدأ.. ولكن اطمئني، أنا لا أحتاج سلاحًا لأحمي نفسي والآخرين".

-"كما تحب، إيتشيرو".

وعدت لمتابعة الأحداث، ورغم رجفتي مما حدث بالأمس، إلا أنني أردت العودة إلى ميدان التحرير وحدي، دون مايكل ولا دانيال، كي لا يعوقني أحدهما أو يحميني الآخر، وعند الخامسة والنصف أخذت القرار ونهضت أرتدي ملابسي، وفي أثناء حزم حقيبتي وجدت أخي وأمي يدخلان المنزل فاستشطت غضبًا.. لا يعقل أن تتكرر المصادفة نفسها مرتين!!

قلت لهما قبل أن يسألاني عن وجهي: "رايحة ساقية الصاوي، محاضرة اللغة العربية".

قال أخي مستنكرًا: "ساقية مين؟ أنتِ فاكرة حد هيخرج من بيته في وقت زي ده عشانك؟!"

انتبهت فجأة للضمادة التي تغطي ذقنه، والدم الغزير الذي جف على قميصه، سألته بجزع: "ايه اللي جرالك؟!"

وضع يديه في خصره يقول: "نزلت المظاهرات انهاردة".

الدهشة والانبهار تملكاني وأنا أسأله: "وحصل ايه؟"

-"كانت مجزرة، احمدي ربنا إني واقف قدامك دلوقتي".

-"اتجرحت إزاي؟"

-"مش عارف، القنابل كانت بتقع فوق دماغنا ولقيت حاجة طارت في وشي.. تقريبًا شظية زجاج".

قطبت جبيني، وطافت صورة مايكل وهو ملقىً أرضًا غارقًا في دمه، والشباب الذين سحقوا تحت عجلات مدرعات الأمن المركزي أمام عيني، وأخيرًا أخي، أخي الصغير الثمين الذي لا يجب أن يصيبه مكروه، فتولاني شعور شديد بالغيظ والرغبة في الانتقام، فعدت لجمع أغراضي وقلت: "أنا رايحة الساقية".

قال لي بهدوء كأنه حسم أمرًا لا جدال فيه: "مفيش خروج من البيت".

-"هاروح، عندي محاضرة لغة عربية مهمة جدًّا".

أما أمي فراحت تصرخ كالعادة.. يثير أعصابي هذا الطبع المصري السخيف الذي يجعل المرأة تحصل على حقها بطريقتين لا ثالث لهما: الدموع أو الصراخ الهستيري، لكنني كنت صارمة وعنيدة، وفي محاولة يائسة قالت لي: "البلطجية ماليين الشوارع، دول نازلين يدبحوا في الناس".

كان ما فتح به الله عليّ عبارة ساخرة مستخفة من نوعية: "هه.. خليهم يحاولوا".

حاولت أن تصرخ مجددًا لكن أخي أوقفها، ابتسم بسخرية وقال: "ماشي، يالا روحي".

حاولت أمي الاعتراض لكنه قال مقاطعًا: "سيبيها".

خرجت من المنزل، كانت الساعة السادسة مساءً لكن الشارع كان مظلمًا تمامًا، وأعمدة النور كلها مطفأة، وعدد مهول من الرجال والشباب يحملون أسلحة لم أر لها مثيلًا في حياتي، مررت وسطهم متأهبة لسماع أول عبارة غزل سخيفة تحرق أعصابي، لكن أحدًا لم ينطق بكلمة، طوال الطريق إلى محطة المترو لم ينطق أحد بكلمة وجعلني هذا أستغرب، منذ متى هذا الأدب؟!

لم أعرف وقتها أن هؤلاء هم اللجان الشعبية التي انتشرت في مصر، ووفرت لنا أمنًا لم نشعر به في حراسة ألف رجل شرطة.

محطة المترو كانت بدورها مظلمة، وقطار ما يرحل بعد صافرة طويلة.. لم أجد موظفين خلف شباك التذاكر، وكانت الماكينات مفتوحة لمن يريد الدخول أو الخروج.. فراغ، صحراء، لا بشر، لا شيء.

تولاني الخوف، ماذا يحدث بالضبط؟ أين الناس؟ هل ستغلق محطة المترو؟ ولو فعلت كيف سيمكنني العودة؟!

ترددت فترة احترقت خلالها بشعورين متناقضين، أولهما الخوف من أن تنقطع بي سبل العودة، وثانيهما الغضب العارم الذي راح يتهمني بالجبن، وهي تهمة كادت في لحظة ما تدفعني للذهاب وليحدث ما يحدث، لولا أنني منعت نفسي بالكاد وقررت أن أفكر بعقلي. تجمدت أكثر من عشر دقائق، وأخيرًا دارت بي قدماي لأعود من حيث أتيت. كادت كبريائي تمنعني، لكن عقلي تغلب عليها، وعدت إلى منزلي في دقائق معدودات.. لحسن الحظ أنني فعلت، فلو لم أفعل لربما لقيت مصرعي ليلتها، كانت تلك هي الليلة التي حوصرت فيها وزارة الداخلية، وارتكبت فيها مذابح لا يعلمها إلا الله.

تابعت كل شيء عبر التلفزيون، شاكرة الله في كل لحظة لأنه منحني العقل، وأنقذني.

لم أنم، بقيت طوال الليل أتابع قناة الجزيرة التي تلبسها جنيّ ما ظل يغير ترددها بلا توقف، وفي الصباح أخذت حقيبة الظهر التي أعددتها مساء جمعة الغضب بكل ما فيها، وقلت لأمي عندما استيقظت: "أنا مش هفضل قاعدة هنا والناس برة بتموت، أنا هاروح التحرير أصور اللي بيحصل هناك.. لازم العالم يعرف اللي بيجرالنا، ولازم حد يوثق الأحداث، ولو لاقيت خيمة طبية محتاجة متطوعين فأنا هفضل في الميدان".

-"الدنيا هديت ومفيش داعي تروحي، بلاش تقلقيني".

-"لازم الدنيا هديت يبقى مفيش قلق عليا.. من فضلك يا أمي".

لم تكن قادرة على الاعتراض، لهجتي المصممة جعلتها توقن أن أي ممانعة لن تلق أذنًا صاغية.

خرجت من المنزل متجهة إلى ميدان التحرير، راحت مشاهد جمعة الغضب تمرق أمام عيني، في البداية كانت تصيبني بالغضب وبمرور الوقت راح الخوف يحل محل الغضب، كنت خائفة جدًّا يا ندى، خائفة حتى الموت من الموت.

أنا لست مستعدة بعد لمواجهة الله.. لم أتطهر من ذنوبي بعد، لم أنشر رواياتي بعد، لم أنجح في حياتي بعد، لم أفعل شيئًا يخلد اسمي بعد، لو أخذني الموت اليوم فسوف أتلاشى كأنني لم أكن، سينساني الجميع كأن حياتي لم تكن كما حدث مع أعز أصدقائي، ولا شيء يخيفني أكثر من هذا.

ارتفع أذان الظهر قبل أن أصل لمحطة المترو بقليل، كنت في هذه اللحظة أمر أمام مسجد لم أدخله من قبل فعدت أدراجي، نظرت للداخل فنهض الأمام وفتح باب مصلى السيدات من أجلي، كنت أصلي وحدي، صليت الظهر جماعة، وبعد الصلاة قال الإمام بصوت عالٍ: "والآن يا إخوة الإيمان والإسلام، دعونا نصلي صلاة الغائب على أرواح شهداء مصر، اطلبوا لهم الرحمة ولأنفسكم المغفرة".

وبدأ يشرح كيفية الصلاة، كانت هذه أول في حياتي أصلي صلاة الغائب، وجعلني هذا أبكي دون شعور مني، تذكرت الشباب المسحوقين تحت عجلات المدرعات، ومايكل الغارق في دمه، ووجه أخي المجروح، وفكرت أن كلًا منهم خرج من بيته دون أن يتوقع ما سيحدث له، لكن منهم من مات ومنهم من أصيب. ربما أنا أيضًا مثلهم، ربما سيحدث لي شيء مما حدث لهم، لا شيء فيّ يجعلني أفضل منهم، فكلهم بلا استثناء كانت لهم أحلام وطموحات وأمنيات لم ينالوها، وذنوب لم يتطهروا منها، لماذا أعتقد أن من حقي وحدي النجاة لمجرد شعوري بأنني مميزة؟ هم أيضًا كانوا مميزين، ولعلهم كانوا أفضل مني.

انتهت الصلاة فصليت ركعتين أخريين، وسجدت لله سجدة لم أسجد مثلها في حياتي، ودعوته من كل قلبي وأنا أبكي ألا أموت اليوم، رجوته بكل مشاعري أن يمنحني فرصة أخرى للحياة، لأتطهر من ذنوبي وأتعلم وأُعلم، حتى إذا ما لقيته كان العلم الذي منحته شيئًا يغفر لي.

عندما أنهيت صلاتي أصبحت مطمئنة قليلًا، وناداني شيء ما بداخلي أن أعود للمنزل، وقررت هذا بالفعل، لكني خرجت من المسجد شاردة ولم أنتبه لنفسي إلا بعد وصولي إلى محطة جمال عبد الناصر.

لقد حملتني قدماي حملًا إلى قدري!

تنهدت وحاولت أن أتمالك مشاعري، وخرجت من المحطة ليصدمني ضوء الشمس كأنني نسيته خلال الدقائق التي أغرقني فيها ظلام أفكاري، كانت مصابيح الشارع مكسورة وزجاجها يغطي الأرض، وأحجار مفتتة في كل مكان، وعلى الأسفلت سواد يشي بأن أشياءً كثيرة احترقت في مواضع عدة، وأخيرًا مدرعة أو اثنتين من مدرعات الأمن المركزي محترقتين عن آخرهما.

سرت في الشارع لا أصدق ما أراه، كل شيء كان عجيبًا، وعلى الجانب الآخر رأيت لافتات كثيرة معلقة على مبنى نقابة المحامين، ولوحة مكتوبة بخط اليد على المدخل، جذبني الفضول لقراءتها فعبرت الشارع، حقًّا لا أذكر نصها لكنها كانت تعلن استمرار الاعتصام بالنقابة لحين تحقيق مطالب المتظاهرين.

مجموعة من الشباب والفتيات خرجت أمامي، منهم فتاة تحمل كيسًا أسود ضخمًا، اقتربت منها وسألتها: "تحبي أساعدك؟"

توقعت بعض التمنع المعتاد، لكنها قالت بترحيب: "طبعًا، ياريت".

حملت الكيس معها، وسرنا، كان اسمها مريم، ولم يكن لها أي حظ من الجمال، لكنها تملك روحًا قوية، روحًا تنبض بالعزم والتصميم. أول سؤال وجهته لها كان: "أنتِ بتشتغلي في السياسة؟"

قالت لي بكبرياء: "أنا مصرية".

-"أيوة، كلنا مصريين، لكن ايه اللي جابك المظاهرات دي؟"

قالت بكبرياء أقوى: "جيت لأني مصرية، ودي مش مجرد مظاهرات، دي ثورة مش هنسيها غير لما نرجع بلدنا".

ثورة؟!

طرقت الكلمة مسامعي مع شعور أكبر بالغرابة كأنني دخلت مجددًا تلك الرواية الخيالية، وسرنا معًا متخلفتين عن المجموعة التي تجد السير أمامنا بخفة، وهي تحكي لي عما جرى في الخامس والعشرين والثامن والعشرين من يناير، لقد حضرت كل شيء منذ البداية، ورأت أسوأ بكثير مما رأيت أنا يوم

جمعة الغضب، في لحظة ما عبر وجهها حزن عميق سرعان ما غمرته تلك القوة التي تبثها روحها، فتساءلت إن كانت قد فقدت عزيزًا في تلك الأحداث!

واصلنا الطريق، وعند مَنْزَل كوبري السادس من أكتوبر رأيت أول دبابة، ابتلعت ريقي لأتغلب على شعوري بالغرابة؛ لم أكن قد رأيت دبابات في حياتي إلا في بانوراما حرب أكتوبر!

دخلنا التحرير، وفتحنا الكيس الأسود لنخرج البطاطين ونوزعها على المعتصمين في صينية الميدان، ثم سألت أحد الشباب المرافقين لنا: "يا ترى في هنا خيام طبية أو مكان للإسعافات الأولية؟"

-"آه، ليه؟"

-"عايزة أتطوع".

-"أوكي، هنروح".

انهمكوا في الحديث حول ألف شيء لم أكن قد سمعت عنه من قبل، ورحت أنتظر متململة حتى أشارت الساعة للساعة الثانية والنصف، فتعجلت الشاب قائلة: "ياريت نروح، عشان لو مفيش حاجة أعملها أعرف أرجع البيت قبل حظر التجوال".

كان حظر التجوال يبدأ في الثالثة، في ذلك اليوم.

مشينا معًا وودعت مريم قائلة إنني سأراها لاحقًا، لكنني لم أرها ثانية قط، ولم أنسها أبدًا.

سرت مع الشاب إلى الخيمة الطبية المنشودة، فأخذني إلى مسجد صغيرة جدًّا يقع في ممر بين مدخلين خلفيين لعمارتين كل منهما في شارع مختلف، مكان غريب! تحول هذا المسجد إلى مستشفى صغير امتلأ عن آخره بالأدوية، ومعدات طبية متواضعة جدًّا، وأجولة مليئة بالقطن والشاش من مختلف الأنواع والأحجام، وتحول المحراب إلى خزانة ملابس عملاقة تضم عشرات المعاطف والسترات التي خلعها الأطباء ليعتنوا بالمرضى، أما المنبر الذي لم يكن ارتفاعه يزيد عن نصف متر فقد تحول إلى صيدلية ومعمل تحاليل!

نظرت حولي مذهولة، حتى سألني مرافقي عن اسمي فأخبرته، قال لي: "وأنا خالد، تعالي معايا".

أخذني للطبيب المسؤول عن إدارة المستشفى، أخبره برغبتي في التطوع فقال: "أهلًا بيكِ".

وتركنا ليواصل عملًا ما، فاقترب منا شخص آخر يسألنا إذا كنا نريد شيئًا فأخبرته، كنت مرتبكة وأشعر بالحرج لكني كنت مصرة على فعل شيء، أي شيء مهما كان بسيطًا، المهم ألا يضيع الوقت عبثًا.

قلت للشاب الذي يرتدي معطف الأطباء: "بصراحة يا دكتور أنا عايزة أساعد، بس معنديش أي خبرة في الطب، أنا دراستي أدبية بحتة".

تبسم لي بتشجيع وقال: "وأنا زيك بالضبط، أنا طالب في كلية الإعلام، فبلاش موضوع دكتور ده وقوليلي يا أسامة".

-"ماشي يا أسامة، لكن يا ترى أنا هقدر أساعد بشيء؟"

-"الدنيا هادية دلوقتي، بس ممكن يحصل أي شيء في أي لحظة وساعتها هنكون محتاجينك، بيني وبينك أتمنى إننا مانحتاجش لحد".

أومأت برأسي آملة ألا يحدث شيء، ثم استدرت لخالد وقلت: "شكرًا يا خالد، تقدر تروح تشوف اللي وراك وأنا هفضل هنا".

قبل أن يرد اتصلت أمي تسألني إذا كنت عدت للبيت بعد أم لا، فأخبرتها أنني باقية هنا، وضغطت على أعصابي لدقائق لأتحمل سيمفونية الصراخ وأسطوانة "يا بنتي أنا كبرت بلاش تبهدليني معاكِ" وسواها، فاقترب خالد يسألني عما يحدث، وأخذ الهاتف ليحدثها ببراعة وثقة: "أيوة يا أمي.. أنا الدكتور خالد، متقلقيش على بنتك هي هنا وسط إخواتها، أنا هفضل معاها ومحدش هيقدر يضايقها بكلمة، رغم إن مفيش حد بيضايق حد هنا. لا يا أمي ماتصدقيش كلام التلفزيون المصري خالص، كل دي شائعات، صدقيني، أيوة، أيوة، أوعدك إني هرجعهالك لحد البيت بنفسي".

وانتهت المكالمة، شعرت براحة غريبة وحرية أغرب، كانت تلك أول مرة أكون بصدد المبيت خارج البيت وحدي، شعور غريب، لا أفهمه نهائيًّا.

كنت ممتنة لخالد وشكرته من قلبي، قال لي: "العفو، بس أنا عند كلمتي، أنا هاعتبرك زي أختي طول ما أنت هنا".

وتركني وخرج، وبقيت مع أسامة دقائق منحني خلالها معطفًا طبيًّا وبعض الأدوات البسيطة التي تصلح للإسعاف السريع، وبدأنا ترتيب وتنظيف المكان

استعدادًا لأي طوارئ، مر الوقت وأنا أتابع الساعة بعيني كل دقيقة حتى أشارت للثالثة عصرًا، هنا شعرت بخوف غامض إذ أيقنت أنني لن أكون قادرة على العودة للمنزل هذه الليلة حتى لو أردت.

بعد ثوان اهتزت الدنيا كلها من حولي، لوهلة لم أفهم ما يحدث، ظننت صممًا عظيمًا قد أصابني وأطاح بحاسة سمعي إلى الأبد، أو أن العمارة التي تعلونا على وشك الانهيار، الصوت الرهيب الذي ملأ العالم حولي وجعلني غير قادرة على سماع أي شيء أشعرني بفزع لم أشعر به من قبل، صوت صفير رهيب لا أستطيع أن أصفه يا ندى، ولا أريد أن أصفه لك كي لا أمنحك هذا الرعب الذي لن أنساه ما حييت.

كنت جامدة في مكاني أنظر للحائط، أيقنت أنني سأموت الآن وفورًا، وأن حياتي قد وصلت لمحطتها الأخيرة، لم أفكر في أحلامي التي لن تتحقق وخطاياي التي لم تغفر بعد، كل ما فكرت فيه هو أمي وإيتشيرو، فكرت في مقدار الحزن الذي ستشعر به عندما تعلم بأمر موتي، هل سيجعلها هذا الحزن الساحق تكرهني؟ وفكرت في إيتشيرو ومقدار ما سيشعر به من غضب لأنني حنثت بوعدي له وغادرت المنزل إلى الميدان، ثم فكرت للحظة في مشاعرنا، لو كانت مشاعره نحوي تماثل مشاعري نحوه فسيكون شعوره أكبر بكثير من مجرد الغضب، لو أن مكروهًا أصابه سأصاب بالجنون، فماذا سيصيبه هو؟ جعلت هذه الفكرة قلبي يتحطم.

"أنت تحبينه حقًا".. هكذا همس قلبي وهو يرتعد..

"أنت تحبينه، كان يجب أن تدركي هذا قبل فوات الأوان".. كرر قلبي همسته المرتعدة، فانتفضتُ بقشعريرة لا توصف..

همست: "لو مُنحت فرصة أخرى، أقسم أني لن أتركه أبدًا ولن أهرب مجددًا".

أجابني: "لقد فات الأوان".

هدأ الصفير بعد ثوان لم تتجاوز ربع الدقيقة فعدت أسمع ما يدور حولي، شعرت بقشعريرة باردة تسري في عظامي وأنا أكتشف أنني لازلت أملك حاسة السمع، ملأني الصراخ الخائف للجرحى والمرضى، وسمعت الدكتور عمرو المسؤول عن المستشفى يصيح: "اهدوا يا جماعة، مفيش حاجة، دول بيحاولوا يخوفونا بس".

أكثر من شخص سأله عن هذا الصوت لكنه لم يكن يملك الإجابة، وجعلني الجهل أكثر خوفًا فاتجهت لأجلس على سور مرتفع، يفصل ساحة المسجد عن الممر الذي يستعمله الناس للتنقل بين العمارتين، كان بجواري طفل صغير عمره عشر سنوات على الأكثر، سألني وهو يراني أجلس مطرقة الرأس أنظر ليدي: "أنتِ خايفة؟"

نظرت له وسألته: "وأنت مش خايف؟"

هز رأسه نفيًا، وببراءة كاملة أجابني: "لا، وأنتِ خايفة ليه؟"

قلت بصدق:"لأني مش عايزة أموت".

-"ليه؟"

أجبته بصدق ودون تفكير: "لأني لسة ماعملتش أي حاجة مفيدة في حياتي، وأحلامي ماتحققتش".

-"بس لو متِ هتكوني شهيدة، وده أحسن من أي شيء ممكن تعمليه في حياتك، صح؟"

ابتسمت، راودتني رغبة عميقة في البكاء وأنا أقول له: "بس أنا عملت في حياتي ذنوب كتير، وكنت عايزة أعمل شيء يخلي ربنا يغفر لي".

-"هيغفر لك، لأنك متِ شهيدة، ماتخافيش".

بللت شفتي بلساني وابتسمت، هنا ملأ الصفير المرعب العالم مرة ثانية، وملأني يقيني بالموت مرة ثانية، اهتزت العمارة بعنف، ومرقت رياح شديدة بين الممرين جعلت الأشياء الخفيفة الملقية هنا وهناك تتطاير في الهواء، وسقطت بعض زجاجات الدواء من الصيدلية الصغيرة المعلقة. بدا وكأن الدنيا تنهار وأن تلك لحظاتي الأخيرة حقًّا، فمددت يدي ووضعتها على كتفه، كنت أتمنى لو أخذت بعض شجاعته، ثم تمتمت بالشهادتين وتمنيت أن يكون هذا كافيًا ليغفر لي الله كل شيء.

لكن العالم لم ينهر، استعدت أنفاسي والصفير يتبدد من حولي، بقيت لحظات أحاول التنفس، ثم علا الصفير مرة أخرى، كان أقوى وأقرب كثيرًا كما بدا من قوة اهتزاز العمارة، وشدة الرياح التي عصفت بين الممرين، وكثرة الزجاجات التي سقطت، لكنني كنت أكثر هدوءًا الآن، لم أكن أقل حزنًا لكنني

استسلمت تمامًا لفكرة أنني سأموت الآن، لن يجعلني الرعب ولا الدموع أنجو، فقررت أن أموت بكبريائي.

ضغطت أسناني وتمنيت أن تكون النهاية سريعة وبلا ألم، ثم لمحت على الجانب الآخر من المسجد امرأة تبكي، كانت منتقبة فلم أر وجهها لكنني رأيتها تمسح دموعًا كثيفة، ربت على كتف الطفل ثم نهضت إليها، اتجهت إليها واحتضنتها فرفعت وجهها وقالت شيئًا لم أسمعه، قربت أذني منها فسمعت صوتها غير واضح برغم المسافة: "هيضربونا بالطيارات؟"

إذن فهذا الصوت الجهنمي صوت طائرات؟

لم تكن لديّ فكرة عن أي شيء لكنني قلت بثقة: "مستحيل يا ماما، عمرهم ما هيضربوا حي سكني، وجنبنا الجامعة الأمريكية والمتحف المصري.. مستحيل يضربونا".

راحت تبكي فواصلت احتضانها، وشددت ذراعيّ حولها عندما اقترب الصوت أكثر، صار جهنميًّا لا يمكن تصديق ارتفاعه، ولا كمية الرعب التي يبعثها في القلوب، ربما لن يضربوننا بصاروخ أو سلاح ما لكن العمارة ستنهار بالتأكيد، كل شيء حولي صار يهتز، هذه هي اللحظات الأخيرة، نعم، في أي لحظة الآن سأموت.

أغمضت عيني وانتظرت، تشهدت للمرة الأخيرة، ثم انتهزت فرصة الصوت الذي أصاب الجميع بالصمم وناديت إيتشيرو، ناديته مرتين أو ثلاثًا، تمنيت أن أسمع الاسم مادمت لن أرى صاحبه، لكنني لم أسمع حتى نفسي.

وبشكل غير متوقع هدأ الصوت، ابتعد، صار كأن لم يكن.

فتحت عيني فرأيت خالد أمامي، قال لي: "تعالي يا هبة".

خرجنا من المستشفى دون أن أتكلم، كنت غارقة في سواد حالك من الخوف لم يتلاش إلا عندما رأيت الشمس والسماء الصافية، شعرت بأنني حية كما لم أشعر من قبل، وامتننت لله امتنانًا كان من الممكن أن يجعلني أبكي لولا وجود خالد جواري.

وصلنا إلى الميدان فرأينا الشباب الذين افترشوا الأرض ليكتبوا بأجسادهم كلمة "ارحل"، وعددًا آخر من حاملي اللافتات المضحكة والساخرة، بعد فترة سمعت نفس الصوت، كان يقترب بسرعة فرفعت رأسي أبحث عن مصدره،

ورأيت الطائرات قادمة من بعيد، اقتربت بسرعة حتى صارت فوق رؤوسنا ودارت، كانت فوق العمارة التي غادرناها منذ قليل، قريبة جدًّا من المبنى بشكل مرعب، وتواصل تحلقها حول الميدان في شكل دائرة. دب الجنون في أجساد المتظاهرين وراحوا يلاحقونها بهتاف ساخر: "حسني اتجنن، حسني اتجنن".

نظرت حولي مذهولة لردة الفعل ووجدت نفسي أضحك مع خالد وألوح بيدي للطائرة وهي تحلق فوق رأسي، وبعد قليل حلقت طائرة أخرى، كانت أقرب للمباني من سابقتها فرأينا زجاج المبنى كله يهتز، صرخ البعض يطلبون الابتعاد عن المبنى استعدادًا لتحطم الزجاج المتوقع، لكن الحمد لله أن هذا لم يحدث.

لم يكن الصوت مرعبًا بالخارج بقدر ما كان في الداخل، ضيق المكان يجعل الصوت أكثر ارتفاعًا، واندفاع الهواء أقوى، والأهم من كل هذا أن الجهل يجعل الإنسان أعمى، والأعمى عادة ما يكون أكثر خوفًا من المبصر.

عندما عدت للمستشفى كان هناك بعض الجرحى من معركة الأمس، أول جريح تعاملت معه كان رجلًا في منتصف الأربعينات تقريبًا، نظف أحد الأطباء جروح ظهره وطلب مني تضميدها، فأسرعت بجلب مستلزمات التضميد، كان الرجل مصابًا بثماني رصاصات في ظهره فقط، وأعتقد أنه أصيب بنصف هذا العدد في ساقيه لكنني لم أنظر لما يفعله الطبيب هناك، نظرت فقط لصوان أذنه اليسرى الذي اخترقته رصاصة من ناحية وخرجت من الأخرى، وحاجبه الأيمن المتورم برصاصة لم تستخرج بعد كان من الممكن أن تذهب بعينه، كل هذه الرصاصات كانت مطاطية لحسن حظه.

أنهيت التضميد بشكل جيد، لكن الطبيب كان قد انتهى قبلي ووقف يراقبني، عندما انتهيت شكرني وقال: "تسلم إيدك، بس عايزك تتعلمي إزاي تقطعي البلاستر".

وأخذني في جولة سريعة، علمني أهم مبادئ الإسعافات واستخدام الأدوات الطبية، علمني كثيرًا أشياءً لن أنساها، وخلال الأيام التالية كنت أرافقه في إسعاف أي مريض لأنني فهمت كيف يعمل، وكنت أتعلم منه باستمرار.

جاء المساء سريعًا وخرجت مع بعض زملائي نبحث عن أي جرحى أو مرضى حاملين معنا كمية كبيرة من الأدوية، وتولى خالد تأمين المستشفى بإقامة لجان شعبية عند بداية الشوارع المؤدية إلينا، مر وقت طويل في أثناء جولتنا حول الميدان كله، ودخلنا شارع القصر العيني نسأل جنود وضباط الجيش إن كانوا

بحاجة لشيء ما فكانوا يشكروننا مبتسمين، أحببتهم كثيرًا خصوصًا الجنود، أغلبهم ريفيين فيهم عزة نفس وروح مرحة وشجاعة، كنت أرتجف كلما تخيلت نفسي أسهر مثلهم في الشارع البارد طوال الليل دون راحة، لكن ما كان يجعلني أرتجف أكثر هو منظر أسلحتهم، كنت أتخيل ما سيحدث لو قرر الجيش أن يحارب المتظاهرين كما فعلت الشرطة من قبل.

في ذلك اليوم لم يكن الجيش قد أعلن موقفه من الثوار بعد، وبدا كل شيء حولنا أسود ومظلمًا بلا بصيص ضوء.

وعلى غير توقع وجدت من يناديني باسمي في أثناء تجولي في الميدان، كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة صباحًا، وكنت أمشي تائهة لا أصدق أنني أحيا ما أحياه الآن؛ أنا أمشي وحدي في ميدان التحرير بعد منتصف الليل في أثناء ثورة في قلب مصر، وحولي آلاف الرجال لكن أحدًا لا يضايقني.

عدت إلى المستشفى وحاولت أن أجد شيئًا أفعله كي لا يغلبني النعاس، فسألت أحد الأطباء أن يوكلني بشيء، فلم يكن منه إلا أن أخذني للصيدلية وأمضى معي نصف ساعة يشرح لي الأدوية الموجودة، ثم قسمها لي وتركني لأتولى مسؤولية الصيدلية، وكانت مهمة شاقة رغم بساطتها التي بدت لي في الوهلة الأولى، وقضيت ليلة طويلة للغاية.

أشرقت الشمس، ووجدت للجو طعمًا غريبًا مختلفًا، وشعرت كأني قضيت عمري كله هنا، وفي العاشرة صباحًا عدت إلى البيت، وأطعمت قطي، وحصلت على ثلاث ساعات من النوم، وقبل الثالثة عصرًا عدت مجددًا إلى الميدان، وكانت عودة يحدوها اشتياق حقيقي، اشتياق اكتشفت فيما بعد أنه الإحساس السحري المسمى بـ"الانتماء".

لم يأتنا جرحى في ذلك اليوم، ولكن توافدت علينا عشرات من حالات البرد والزكام، والصوت المبحوح بسبب الصياح في المظاهرات والمسيرات التي لا تتوقف. أخذت مكاني في الصيدلية لأعفي الطبيب الذي علمني مبادئها قبل ساعات فودعني بابتسامة.

ومن جديد تابعت الساعة حتى أشارت إلى الثالثة، وتملكني شعور من أحرق سفينته خلفه، نفس الخوف الذي شعرت به أمس عندما أيقنت أنني لن أعود للبيت الليلة حتى وإن أردت، لكنني اليوم كنت أكثر اطمئنانًا لمن حولي، وأكثر ثقة بأن أحدهم لن يؤذيني، ولن يترك شيئًا يؤذيني.

أمضيت بضع دقائق أرتب أمتعة الأطباء، ثم رن هاتفي فتوقعت أن تكون أمي، لكنني رأيت اسم إيتشيرو يومض على الشاشة. عندها توقفت وكأن كهرباءً أصابتني، تجمد جسدي، وأرعبني اكتشاف أنني نسيته تمامًا طيلة ليلة أمس وصباح اليوم، كأنه لم يكن، كأن العالم الذي التقينا فيه اختفى بوصولي إلى هذا العالم الخيالي في ميدان التحرير.

أجبت الهاتف، وعندما دق قلبي لسماع صوته أدركت بعد أن عالمي الآخر لم يختفِ، وأنه قائم لا يزال.

قال لي بعد التحية: "أنا آسف".

-"لا أحد آسف أكثر مني، سامحني".

-"أرجوكِ لا تلومي نفسك، لقد كنتِ محقة. هناك أحمق ما طالب بالقبض على أي أجنبي في التلفزيون، وأوقعني في ألف مشكلة".

-"من هذا الأحمق؟ وماذا حدث لك؟"

-"لا أعرفه، لكنه غبي. ما من عاقل يعمد إلى إثارة الجماهير ضد الأجانب في بلد سياحي، لو أنني كنت ضيفًا عابرًا ولست مقيمًا في مصر منذ فترة لغادرت بلدك الآن إلى الأبد".

-"آسفة، إيتشيرو".

-"هناك شيء أريد أن أعرضه عليك، لكن لا تغضبي".

-"قل ما تريد".

صمت لحظة وترتني بشدة، وفي النهاية قال: "اليابان ستجلي رعاياها عن أرض مصر اعتبارًا من اليوم".

تذكرت ما عاهدت نفسي عليه بالأمس وأنا أشعر بدنو الموت، فتمزق جزء كبير من قلبي، لكنني بقيت صامتة. فتابع كلامه: "العائلة اتصلت بي تطلب مني العودة، فلو أنني فعلت، هل ستصدقينني إذا وعدتك بأنني سأعود يومًا من أجلك؟"

-"عد لبلادك، إيتشيرو".

كلمتي التي لا تردد فيها جعلته يصمت، ثم سألني: "هبة تشان، هل ضايقتك؟"

آلمتني فكرة رحيله، لكن جزءًا مني كان مستريحًا لأنه سيكون آمنًا، قلت بصدق: "لا، إيتشيرو، عد لبلادك، سأكون أسعد إذا كنت بأمان".

سمعت صوت الطائرات تقترب فتوقف قلبي، وفي لحظات ملأ الصفير المخيف الدنيا، اهتز كل شيء حولي، وفقدت القدرة على السمع لدقيقة تقريبًا، ثم تلاشى الصوت تدريجيًّا بابتعاد الطائرة، لم يكن هناك صراخ كالأمس، ومن الهاتف أتى صمت طويل يهدد بالخطر، قلت بعد لحظات: "إيتشيرو، أنا آسفة".

-"أين أنتِ؟"

-"إيتشيرو....".

-"أين أنت، هبة؟"

-"في ميدان التحرير".

انفجر صراخه يخرق أذني: "أين؟"

لم أعرف بم أجيب، كنت أريد إخباره بكل ما أراه هنا، وبعدم قدرتي على تحمل ما أراه من مشاهد مأساوية على شاشة التلفزيون وأنا في منزلي، وبمشهد الشباب الذين ماتوا تحت العجلات أمامي دون أن أمد لهم يد المساعدة، لكنني في النهاية لم أنطق.

توقعت أن يصرخ أو ينهرني بعنف عما فعلت، أو على الأقل يغلق الهاتف في وجهي، لكنه لم يفعل، صمت إيتشيرو، صمت طويلًا جدًّا وفي النهاية قال: "لقد طلبت منك ألا تعرضي نفسك للخطر، كان هذا أكثر شيء تمنيته ورغبت فيه، فإذا بك تلقين نفسك في قلب الموت كأنك لا تأبهين بما سيحدث لي لو أصابك مكروه. هل تدركين ما تفعلين بي الآن؟"

-"لم أستطع رؤية ما يحدث وأبقى في منزلي".

بعد صمت طويل قال كأنه يتوسل: "أرجوك عودي لمنزلك، افعلي هذا لأجلي".

تمتمت بصوت خافت: "أنا آسفة".

-"هذا قرارك إذن.. حسنًا".

-"متى ستسافر، إيتشيرو؟"

-"آسف، لا بد أن أذهب الآن".

انتهت المكالمة بطريقة جارحة، أردت أن أبكي، لكنني تشاغلت بالعمل في الصيدلية بقدر ما أستطيع، وانضم لي عند المغرب شاب جديد سألني: "أقدر أساعدك بإيه يا دكتورة؟"

-"اقطع شرايط الأدوية دي، كلها. اسمك ايه؟"

-"محمد عبد الواحد".

-"ماشي، ياريت تخلص بسرعة يا دكتور محمد".

راح يؤدي عمله بهدوء أثار أعصابي.

كانت مشاعري غير طبيعية، ووجدت نفسي أتصرف بعصبية غير معقولة في عدة مواقف، في النهاية تركت الصيدلية له بعدما أخبرته بنظام ترتيبها، وخرجت للميدان. كانت الساعة نحو التاسعة مساءً، توجهت للحديقة الموجودة بمنتصف الميدان وجلست على حافتها، سمعت من خلفي بعض الضحكات التي جعلتني أشتعل غيظًا، واستدرت أبحث عن مشاجرة ما أفرغ فيها عصبيتي فوجدت ضابط جيش يجلس محاطًا بشابين وسيدة شابة. عرفت الضابط فورًا، فقد تصدرت صورته صحيفة "المصري اليوم" أمس باعتباره أول ضابط ينضم للثوار، في الحقيقة يا ندى لن أنسى أبدًا أن هذا الضابط من أشجع من قابلت في حياتي كلها.

ظللت أنصت قليلًا وفي النهاية انضممت لمجلسهم، كان حديث النقيب إيهاب آسرًا، ترك عمله وانضم للثوار مؤمنًا بعدالة قضيتهم، دون اكتراث للخطر الذي يعرض نفسه له. سألته في إحدى اللحظات عن عقوبة ما فعل فأخبرني أنها قد تصل للإعدام، وجعلني هذا أرتعد؛ لم أتخيل الشجاعة التي تؤهلني للمغامرة بحياة سعيدة ووظيفة يحسدني عليها كل الناس، وأهجر أهلي من أجل قضية لم أعرف بعد إن كانت خاسرة أم رابحة، أهذا ما يسمى الإيمان يا ندى؟!! لم أعرف إجابة قاطعة وقتها، لكنني كلما دققت النظر في وجهه وسمعت صوته كنت أفهم الكثير عن تلك الكلمة التي لم أتأملها بجدية من قبل، وقررت بيني وبين نفسي أن أسانده لو فشلت تلك الثورة وتعرض للخطر، بالتأكيد سأجد شيئًا أفعله لأجله.

راح هاتفي يرن عدة مرات فلم أعره اهتمامًا، وعندما فاض بي الكيل التقطته لأسب من يزعجني في تلك اللحظات المهمة فوجدته إيتشيرو، شعرت بخوف غير مبرر وأجبت الهاتف لأجده يصرخ بي: "ليه مش بتردي؟"

تقدم مستوى إيتشيرو كثيرًا في اللغة العربية، خصوصًا عندما يستعملها للشجار! هذا ما فكرت فيه وأنا مصدومة بلهجته الهجومية، لم أنطق للحظة فقال لي: "هبة، أأنت هنا؟"

-"نعم، ما..".

-"اخرجي من الميدان الآن، أنا أنتظرك".

هوت على رأسي صاعقة، صحت: "تنتظر من؟! تنتظر أين؟!!"

-"أنا في شارع القصر العيني، أمام مؤسسة اليابان.. اخرجي الآن".

نهضت واقفة غير مبالية بالأعين المدهوشة والقلقة، قلت: "أنت تمزح!"

نظرت للساعة التي تشير لمنتصف الليل إلا قليلًا، وسألته برعب: "لماذا جئت الآن؟ أأنت مجنون؟"

صاح بعصبية مفرطة: "نعم، اخرجي الآن.. إن ضباط الجيش لا يريدون إدخالي، ولو لم تخرجي لا أعتقد أنني سأبالي باختراق الحاجز الذي يمنعني عنك ولو انتهى الأمر بي مقتولًا".

تذكرت الأسلحة التي يحملها الجنود فتوسلت إليه: "أنا قادمة.. أرجوك انتظر".

كان الخروج والدخول من شارع القصر العيني محظورين، والمكان أشبه بمدينة أشباح مظلمة تسكنها الدبابات والمدرعات، لهذا كان أملي ضعيفًا جدًّا في أن يسمح لي الضباط بالمرور، لكني لم أجد ضباطًا، وجدت جنودًا لم يكن أي منهم ليتحمل مسؤولية مخالفة الأوامر فرفضوا عبوري رفضًا قاطعًا، حتى مع المعطف الأبيض الذي أرتديه، ورغم أنهم يعرفونني جيدًا من جولة أمس. اضطررت في النهاية للخروج من شارع محمد محمود متحدية أشباح ذكريات جمعة الغضب المخيفة، وقمت بدورة واسعة جدًّا حتى أعود من منتصف شارع القصر العيني. قضيت في هذه المتاهة أكثر من نصف ساعة اتصل خلالها إيتشيرو ثلاث مرات أو أربع، وعندما وصلت إليه كنت منهكة لدرجة أنني أوشكت

على فقدان الوعي لشدة الإجهاد العصبي، والرعب الذي استهلكني خلال ركضي عبر الشوارع المظلمة.

وجدته بين جنديين وضابط، وواضح أن التفاهم بينهم جميعًا وصل لطريق مسدود، لكن عندما رأوني هدأ الجو فجأة، شاعت على وجوههم ابتسامات ودود كأن دليل براءته ظهر. قال لي الضابط من وراء الحاجز الذي يفصلني عنهم: "أنتِ من المستشفى الميداني؟ كنت هنا امبارح، صح؟"

حمدت الله على هذه الصدفة وقلت براحة: "أيوة يا فندم".

-"تعرفيه؟"

-"أيوة يا فندم، أعرفه كويس، وأعتقد إنه هنا بسببي".

أشار لجنوده بترك إيتشيرو، وفتح الحاجز لي يقول: "خليه يرجع بيته، دخول الميدان دلوقتي مستحيل لأي أجنبي".

-"حاضر".

عبرت الحاجز، وعندها أفلتت مشاعري من عقالها وأنا أسرع إليه، وبدوره كانت مشاعره منفلتة تمامًا. تعانقنا دون تفكير، وكان هذا عناقنا الأول الذي لن أنساه أبدًا.. عناقًا خائفًا مليئًا بالحب والألم، بعد الارتجافة الأولى اللذيذة والمؤلمة معًا شعرت بقلبه، كان ينبض بقوة شعرت بها كأنها تتردد بين ضلوعي، أما أنا فتقطعت أنفاسي وأنا أتشبث به شاعرة للمرة الأولى بما سأخسره عندما يتركني ويسافر، ووجدت نفسي أبكي.

شدد ذراعيه حولي وراح يهمس: "حمدًا لله أنك بخير، حمدًا لله".

تشبثت به بكل ما أملك قوة، أردت أن أبقى هكذا إلى الأبد، وأردت في نفس اللحظة أن أتأوه من أعماق قلبي وأصرخ، لكنني تمالكت نفسي بالكاد، أما هو فقال وهو يضغط رأسي في صدره، ويشدد من احتضانه لي: "يومًا ما سأعاقبك لما فعلت اليوم، وسأعاقبك بقسوة".

لكن عناقه الحنون أنبأني بعدم جدية نيته، وآلمني هذا أشد الألم، وزاد من حدة بكائي، تمتمت: "لا تذهب".

كان هذا كل ما أفكر فيه، فكرة مفارقته بعد شعوري به قريبًا إلى هذا الحد كانت أسوأ من الموت، ورغم هذا شعرت بالندم بعدما نطقت تلك الكلمة، لكنه قال: "أخيرًا!"

وسمعته يبتسم، واهتز صدره بضحكة، قال: "لا تنطقي بعد الآن بكلمات مضحكة مثل "عد لبلادك" و"سأكون سعيدة إذا كنت في أمان"، لا أريد سماع هذا، أريد أن أسمعك تودين بقائي معك".

ضربته على ظهره بشكل غير جدي وقلت بحرارة وأنا أجاهد دموعي: "أيها الغبي، أنا أريد البقاء معك إلى الأبد".

-"أخيرًا!".

-"لقد احتفظت بهذه الكلمة دائمًا، إيتشيرو، دائمًا، لكنني خشيت الاعتراف بها، ومصارحة نفسي بمقدار حبي لك ورغبتي في البقاء معك، كي لا يتحطم قلبي إذا تركتني، لم أعتد أن يبقى معي الأشخاص الذين أحب، وأنت أكثر من أحب".

-"هبة!"

بدأت الثقل الجاثم على قلبي يخف تدريجيًّا، صرت قادرة على التنفس من جديد، وخصوصًا عندما قال: "لن أتركك أبدًا، كوني واثقة".

وبعد قليل افترقنا وإن ظل ممسكًا بيدي، جلسنا على سور مرتفع محيط بشجرة كبيرة، سألته: "متى تسافر؟!"

كنت أضغط مشاعري في قلبي كي لا تظهر مدى كراهيتي لما أقول، لعلها تقنعه بالعودة حقًّا، لكنه ضغط يدي وأجاب بهدوء: "لقد فاتتني الطائرة، أنا باق هنا".

-"إيتشيرو!"

برفق ذكرني بما لم أنسه: "لقد طلبتِ مني منذ قليل أن أبقى معك".

أطرقت برأسي أقول: "هذه أنانية مني".

-"بل هذا ما أردت".

وضغط يديّ الاثنتين بين يديه، وسألني: "في تلك الرحلة سألتك سؤالًا ولم تجيبي، وتهربتِ طويلًا فلم تتح لي الفرصة لأطلب إجابة، فهل سأحصل عليها الآن؟"

-"أي إجابة؟"

-"لو قلت لك أنني أحبك، فهل تصدقين؟"

ركزت عينيّ عليه، لم أشأ أن أفقد تلك اللحظة مهما بلغ خجلي..

-"نعم".

-"أحقًّا؟"

-"نعم".

-"أنا أجنبي، وأنت لا تعرفين عني شيئًا، ولست أخطط لأي شيء يجمعنا معًا في المستقبل، أنا حتى لست مسلمًا، بل لدي الكثير من الأسئلة التي لا يتحملها أحد".

-"هذا لا يعنيني".

-"لماذا؟"

لم تسعفني اللغة لأشرح ما شعرت به أمس وخشية الموت تقتلني، وقلبي يهمس بأن فرصة البقاء معه ذهبت إلى غير عودة. كل ما أعرفه أنني أحبه، وأريد البقاء معه، أريد البقاء مع هذا الرجل الذي لا أدري كيف أحببته كل هذا الحب، الرجل القادم من أقصى بلاد العالم، والذي أتواصل معه بخليط من ثلاث لغات، وأقضي الليل في الدراسة لأستطيع نطق جملة كاملة متماسكة ليفهمني، والذي لا أعرف أي شيء عنه إلا أنه يحبني حقًّا، وأنه جدير بالثقة.

ضغطت أصابعه وكررت: "هذا لا يعنيني، أنا أثق بك".

-"هذا يعني الكثير بالنسبة إليّ، هبة".

وربت على رأسي كأنني قطة، وأمرني: "هيا، سأعيدك لمنزلك".

هززت رأسي ولم أجرؤ على النظر في وجهه، قلت بإصرار وإن كان صوتي خافتًا: "لا أستطيع، إيتشيرو، أرجوك تفهم الأمر".

-"أنت هنا في خطر كبير، أرجوك حاولي تقدير ما أشعر به".

-"أعرف، أقسم لك أنني أفهم شعورك، لكن حاول أنت أيضًا أن تفهم شعوري.. أنت لا تتخيل بشاعة ما حدث اليومين الماضيين".

-"لقد عرفت ما حدث".

-"إذن ستفهم ما شعرت به من عجز وأنا في منزلي والعشرات يموتون دون أن أستطيع مساعدتهم.. لقد جئت إلى هنا بمعجزة، ولو عدت للمنزل لن يتركوني أعود مجددًا، ولن أستطيع تحمل شعوري بالعجز مرة أخرى، إنه يورثني خسة واحتقارًا لنفسي".

وضع يده على رأسي ولم ينطق، نظرت له أسأله: "هل تفهمني؟"

-"أفهم".

صوته كان متألمًا، وبعد ثوان أردف: "أفهم، لكنني لا أثق في هؤلاء".

وجدته ينظر لضباط الجيش والجنود المدججين بالسلاح، سألني: "ماذا سيحدث لك لو قرروا الوقوف ضدكم؟ هذه الأسلحة ليست كأسلحة الشرطة، وسيكون الضحايا بالآلاف، ولا شيء يضمن أنك...".

نظر لي ورأيت عينيه تلمعان، فحاولت طمأنته: "سأكون بخير، أنا لا أريد الموت، ولن أتهور وأدفع نفسي للخطر".

-"لا خطر أسوأ مما أنت فيه الآن".

-"سأكون حريصة، أعدك بهذا".

وفكرت في أنني لا أريد الموت فعلًا، ورغم هذا فلا شيء يضمن لي البقاء، ووجدت نفسي أستعيد صوت الطائرات كما سمعته في المرة الأولى، فتولتني رعشة لم أستطع منعها من هز كل جسدي.

مال عليَّ يأخذني في حضنه وهمس: "أنت خائفة، لا تكابري ودعيني أعيدك للمنزل، اتركي هذه الأمور وكوني آمنة فقط".

-"لا أستطيع، صدقني أنا أريد العودة لكنني عاجزة حقًّا عن مغادرة الميدان، لا تجعل الأمر أصعب، إيتشيرو".

ضمني بقوة أكبر، صارت ضربات قلبه أسرع، وحرارة عناقه على وشك أن تصهرني وتجعلني أتخلى عن كل شيء، بعد قليل تمتم: "لم تتحدثي معي عن مصر قط، لكنني اعتقدت دائمًا أنك لا تحملين لها أي حب بداخلك، ولم أتخيل أنك قد تلقين بنفسك في هذه الجحيم لأجلها، كيف يمكنك تحمل فكرة أنك قد تموتين في أي لحظة ورغم هذا تبقين هنا؟"

لم أجد إجابة، ورحت أملأ عيني بوجهه وهو ينظر لي نظرة نصفها حب ونصفها حزن، وبعد قليل لان لرأيي وقال: "سأذهب الآن، لو غادرت الميدان أخبريني لأن هناك أمرًا هامًا يجب أن نتحدث بشأنه".

-"أي أمر؟"

-"سأخبرك إذا غادرت الميدان.. ليس الآن".

تسائلت إن كان يساوم فضولي لأغادر الميدان معه، لكنني أجبته على كل حال: "ليكن، إذا غادرت".

نهض وخلع سترته، كان التيشيرت القطني الذي يرتديه أسفلها يكشف عن ذراعيه وجزء كبير من كتفيه، كما كان يضيق عليه فيبرز عضلات بطنه وصدره. كانت تلك أول مرة أرى فيها جزءًا من جسده إذ إنه عادة ما يرتدي ملابس واسعة طويلة الأكمام، وعرفت لماذا كرر أكثر من مرة أنه ليس ضعيفًا.. في الواقع لم يكن ضعيفًا على الإطلاق، لو كنت رجلًا ما كنت لأفتعل معه الشجار لأي سبب.

تناولت السترة وسألته: "أي رياضة تمارس؟"

-"لا شيء حاليًّا".

عضلات عنقه وكتفيه وذراعيه المقسمة بدقة لم أرها من قبل، وعضلات بطنه وصدره التي تبدو مثالية من أسفل قميصه القطني الضيق جعلتني أتساءل إن كان يمزح أم يسخر مني، لكنني لم أعلق. سألته وقد انتبهت للسترة: "ما هذا؟"

-"دعيها معك، فملابسك خفيفة للغاية".

كنت أريد الجدال لكنني توقفت إذ رأيت تلك النظرة في عينيه وهو يقول: "هذا أقل ما تفعلين لأجلي، هبة تشان".

-"نعم".

لكن هذا لم يكن دافعي، كان الدفء المنبعث من السترة والعطر الخافت مغريين جدًّا، فلو مت سأحرص على أن أموت مرتدية هذه السترة عوضًا عن الموت بين ذراعيه.

لفني الدفء فور ارتدائها، لكن الدفء تحول إلى بركان من الحرارة عندما أخذني إيتشيرو في حضنه مجددًا، ظل صامتًا لدقيقة تقريبًا ثم قال: "أحبك، مهما حدث سأظل أحبك، مهما حدث ستبقين فتاتي الأولى والأخيرة، لا تنسي هذا أبدًا".

أومأت برأسي عاجزة عن الرد كيلا يبدو أثر الدموع في صوتي، وسمعته يتنفس بعمق ثم يخفض صوته ويتمتم: "اهتمي بنفسك".

صار عناقه قويًا لدرجة جعلتني أتوقع الألم إذا ما شدد ذراعيه أكثر، لكنه فجأة تركني، وفي لحظات كان يجد السير مبتعدًا دون أن يمنحني فرصة رؤية وجهه لآخر مرة، ناديته بدون تفكير فتوقف، وكما توقعت لم يستدر، ولم ينطق بكلمة، فقط رفع رأسه وتنفس ثم واصل سيره وإن أصبح أسرع، وبعد أمتار ركض، وتحول ركضه إلى عدو حتى اختفى في الظلام.

حاولت أن أتخيل ما يشعر به فلم يزدني التفكير إلا ألمًا، وبعضًا من الكراهية لنفسي، شكرت الضابط الذي وجه لي نظرة غريبة لم تحمل الاحتقار والسخرية كما توقعت، بل توهمت للحظة أن بها بعض التعاطف.. قال لي: "تقدري تمري من شارع القصر العيني، لو حد قابلك قوليله الرائد هشام سمح لي بالمرور".

-"شكرًا يا فندم".

وأسرعت الخطى مغادرة المكان، ورفعت ياقة السترة لتخفي نصف وجهي، ففاح عطرها ليغمر كل مشاعري، ويقتلني ألمًا.

عدت إلى المستشفى الميداني لأجد محمد عبد الواحد بعد في الصيدلية، قال لي: "حمدًا لله على السلامة، كل ده!"

ابتسمت، كانت عصبيتي المفرطة قد تلاشت وحل محلها هدوء مبعثه الشجن، وجدت كل شيء حولي مختلفًا، رحنا نتحدث عن آخر الأخبار والمتوقع حدوثه في الأيام القادمة، وعند الفجر ونحن نقطع أشرطة الأدوية معًا سألني: "أنتِ تخصصك ايه يا دكتورة؟"

-"أنا مش طبيبة، وأنت بتدرس ايه؟"

-"أنا متخصص في أمراض الكبد".

نظرت له مذهولة لأجده هو أيضًا ينظر لي بذهول، وفي وقت واحد قلنا معًا: "أنت دكتور؟!"

-"وأنتِ مش دكتورة؟!"

حتى اليوم لا يزال محمد عبد الواحد أقرب أصدقاء ميدان التحرير بالنسبة إليّ، وكلما تذكرنا هذا الموقف نضحك، لكنني في الواقع مازلت أشعر بالخجل من نفسي كلما تذكرت كيف عاملته بعصبية؛ معتقدة أنه مجرد متطوع أبله سيزعجني تدريبه على أشياء كثيرة، لقد علمني هذا الموقف ألا أستخف بأي شخص وإن كان جاهلًا، حتى ولو بدون وعي مني. أما محمد فما أذهله كان شيئًا آخر عبر عنه بإيجاز: "سبحان الله! شكلك دكتورة صميمة، فيكِ عجرفة الدكاترة وغرورهم وخلقهم الضيق، معقول أنت مش دكتورة؟!"

أذهلني كلامه وقتها، قلت له: "عجرفة؟ هو ده كل اللي لفت نظرك في مواهبي الطبية الوهمية؟!"

-"آه".

لطيف جدًّا محمد، له روح كوميدية قاتلة، وما يجعلها مؤثرة هو أنه يلقيها بوجه جاد تمامًا، لا يفتعلها، بل إنه حتى لا يشعر به.

سهرنا نثرثر في كل شيء ونحن واقفين في الصيدلية، وجاء الفجر وصلينا مع أطباء المستشفى جماعة، وفي الصباح غادرنا الميدان معًا إلى محطة المترو، اشترينا الجرائد في الطريق متجاهلين حقيقة أن كل الناس ينظرون بفضول لملابسنا المغبرة المشوشة، وواحد من هؤلاء الناس فقط هو الذي انهال علينا بالسباب والتوبيخ وفتح علينا أسطوانة: "الله يخرب بيوتكم زي ما خربتم البلد، يعني تعديل الدستور هو اللي هيأكلنا عيش، احنا ستاتنا مرعوبين وعيالنا مش عارفين يناموا من الخوف وأنتم قاعدين هناك تاكلوا كنتاكي".

لم أسمع من كل تلك المحاضرة إلا كلمة واحدة، وسألت محمد باستغراب: "كنتاكي؟"

روحه الكوميدية الخفية توارت في لهجته اللامبالاة، أجاب: "موضوع كده هبقى أحكيلك عليه، مع السلامة يا خرَّابة البلاد".

في مساء اليوم نفسه بعد رجوعي إلى الميدان، كنت في حالة صحية سيئة؛ التقطت عدوى ما من شخص ما فأصابني زكام شديد، ونصحني كل الأطباء بتناول أي دواء جيد، فأخذت قرصين من كونجيستال عند العصر، ثم قرصين آخرين عند العشاء بلا أي تأثير يذكر، ثم خرجت مع محمد عبد الواحد ومع

طبيب ثالث لجولة في الميدان.. اختنقت في إحدى التجمعات بسبب رائحة الدخان، فاقترحت عليهم أن نطلب من الناس عدم التدخين في الزحام لتلافي حوادث الإغماء، وفعلنا هذا مستمتعين باستجابة الناس لنا دون نقاش. كان خطاب الرئيس الثاني منتظرًا، وكل منا يتوقع أن يستجيب للاحتجاجات الشعبية المتصاعدة دون هوادة في كل مكان، لكن أملنا خاب، فبعد ساعات من انتظار ظهور الرئيس "بعد قليل" وبعد تحمل عبارات المقدمة السخيفة المملة في الخطاب سمعناه في النهاية يقول أنه سيموت في أرض مصر و...

لا أعرف ما حدث حقًّا يا ندى، حتى اليوم لم أستمع لهذا الخطاب، فبمجرد نطق الرئيس لتلك العبارة خرجت قواميس السباب التي يداريها الجميع في صدورهم لتنطلق في الهواء، وارتفعت الأحذية لتغطي مشهد الشاشة العملاقة التي هي عبارة عن ملاءة ضخمة ممتدة بين طابقين في إحدى العمارات.. استشطت غضبًا لعدم قدرتي على الاستماع فالفهم، وجعل هذا محمد يقول لي ولزميلنا الثالث: "يالا بينا يا جماعة، كده مش هنفهم حاجة".

وشققنا جموع الغاضبين خارجين من الزحام، توجهنا إلى المستشفى بسرعة لم تمنعنا من ملاحظة النقاشات الحامية في كل مكان، انقسم الثوار في تلك الليلة إلى نصفين، أولهما يرى أننا قطعنا شوطًا كبيرًا يمكننا من قبول ما يعرضه الرئيس، مع قدرتنا على إحداث ثورة ثانية لو لم تتحقق التعديلات التي وعد بها، والنصف الآخر ساخط ناقم لا يصدق كلمة مما قيلت، ويريد استمرار الاعتصام والضغط على القيادة السياسية إلى أقصى حد ممكن.

في المستشفى كانت هناك مشاجرة ضخمة بين أسامة الذي التقيته أول مرة عند مجيئي وأحد الأطباء، كان أسامة من الفريق الأول لكنه تعرض لهجوم كاسح بمجرد عرض وجهة نظره، وانتهى به الأمر متهمًا بكونه جاسوس، تلك كانت أجواء متوترة حقًّا يا ندى، كلنا كان يشك في كلنا، ولم يكن هناك أحد فوق مستوى الشبهات، لو أن هناك خونة فلن يكونوا مدسوسين، بل سيكونون منا.

أغرقتني الأفكار حتى سمعت صياح لجنة تأمين المستشفى، ثم دخل بعض الرجال يحملون آخر فاقد الوعي، أسرع له بعض الأطباء وأنا واقفة بعيدًا أراقب ما يحدث وأفكر، ثم دخل آخرون يحملون رجلًا آخر، وقبل أن يضعوه على الأرض دخل آخرون يحملون فتاة.. دب الرعب في قلبي، هل يعقل أن هناك إطلاق نار مرة أخرى؟

لكن الأمر لم يكن كذلك، الانفعال الشديد الذي أصاب متظاهرين نصفهم لم يأكل أو ينام منذ فترة طويلة جعلهم ينهارون، وخلال ربع ساعة امتلأ المستشفى عن آخره بحالات الإغماء، وبالخارج كانت حالات أخرى تنتظر وقد افترشت الرصيف.. أي جنون هذا!

الفتاة التي توليت إفاقتها راحت تصرخ بمجرد أن فتحت عينيها:"ابن الكلب، ابن الكلب، مش راضي يسيب بلدنا ليه؟ مش كفاية النهب اللي نهبه والسرقة اللي ساب عصابته تسرقها، حسبي الله ونعم الوكيل، حسبي الله ونعم الوكيل".

وانطلقت مستعرضة قاموس عظيم من الشتائم فتركتها لإسعاف امرأة منتقبة، حالتها كانت أسوأ بكثير وتعاني نوبة ربو شديدة.. بقينا في هذه الدوامة حتى الفجر، وتفاقم الزكام فخنق أنفاسي، وبدأت رعشة تجتاحني، فأخذت كونجيستال للمرة الثالثة، بل كانت الرابعة لأنني أخذت قرصين عند منتصف الليل.

بعد صلاة الفجر انضم إليّ محمد لترتيب المواد الغذائية التي تبرع بها البعض، وسألني: "ايه رأيك؟"

-"مش عارفة يا محمد، أنا عايزة الدنيا تهدأ ومحدش تاني يموت، بس برضو مش مصدقة الرجل ده. أنت ايه رأيك؟"

-"زيك بالضبط".

أجفلت عندما سمعت صيحة عالية، نظرنا معًا لمشاجرة تشتعل خارج المستشفى، ثم تبادلنا نظرات قلقة، قلت له: "مش عاجبني اللي بيحصل ده، ما ينفعش نتفرق دلوقتي خالص".

كانت أول مرة أسمع صوته غاضبًا: "مش قادر يقف قدام مطالب الناس فبيحاول يعمل فتنة".

-"تفتكر هيقدر؟"

-"هو قدر فعلًا خلاص يا هبة، من بكرة مصر كلها هتاكل في بعضها، ونتقسم نصين، نص يقول خلونا ندي الراجل فرصة وسيبوا الحياة ترجع لطبيعتها، والنص تاني هيقول الراجل ده مالوش أمان وقتل إخواتنا يوم جمعة الغضب، وهتبقى حرب بين اللي بيقاتلوا عشان يكملوا حياتهم الطبيعية، واللي عايزين ينتقموا لناس خسرت حياتها فعلًا".

كنت أفكر فيما يقول، وترسم كلماته في عقلي صورة سوداء قاتمة لبلد لا أعرفه، أصابني خوف لا حد له، وسألته: "وايه الحل؟"

-"نثبت مكاننا، ونصلي وندعي ربنا ينجينا من الفتنة دي".

-"يا رب".

-"يا رب".

واصلنا عملنا حتى السابعة صباحًا تقريبًا، وعندما انتهينا بقينا نثرثر، وتأخرنا كثيرًا في ذلك الصباح عن المغادرة، أعتقد أننا تركنا الميدان في الثانية عشر ظهرًا، وكنت أنا في حالة يرثى لها.

عدت إلى المنزل مستريحة لقرار تأخير حظر التجوال حتى الخامسة مساءً، أردت أن أنام عدة ساعات تعوضني عن عدم النوم الجيد خلال الأيام الماضية، ولكن بمجرد أن أخذت حمامًا ساخنًا أدركت أنني لن أكون قادرة على النهوض اليوم لأي سبب.. قلت لنفسي إن لا مشكلة في هذا لأن الدنيا هادئة، لن يحدث شيء سيء بعد الخطاب الذي يحاول به الرئيس خداع الجميع، ولن يضيرني أن أرتاح اليوم لأستطيع المواصلة غدًا.

وهكذا أغلقت هاتفي وأخذت سترة إيتشيرو العالق بها عطره في حضني، وقررت أن أنام بعمق حتى أستيقظ وحدي.. كان هذا في اليوم الثاني من فبراير يا ندى، يوم موقعة الجمل.

يا الله! لا أريد فعلًا أن أتذكر ما حدث!

هبة

25 يونيو 2011

اليوم التاسع

نيـران هاويــة

صديقتي العزيزة / ندى

أتساءل متى سيأتي رد منك.

بدأت أعتقد أن لديك مشكلة ما في الاتصال بالإنترنت، لقد عانيت مشكلة مماثلة لفترة طويلة بعد الثورة، لكنها حُلت بالاعتماد على"فلاشة" الإنترنت، وكان ما يعزيني أنني مع الثوار في موقع الأحداث، ولست بحاجة لمن يخبرني بما يحدث. اليوم الوحيد الذي كدت أجن فيه حقًّا بسبب الإنترنت كان يوم موقعة الجمل.

دعيني أكمل لك ما حدث يومها.

صباح موقعة الجمل بلغ بي المرض ذروة أعجزتني عن الوقوف وتمالك نفسي، كما أخبرتك في رسالتي السابقة. ولمّا عدت لمنزلي نمت كالقتلى، ثم استيقظت والساعة تشير إلى العاشرة مساءً.. ابتسمت بكسل ورحت أتمطى في فراشي الدافئ، وفتحت هاتفي لتهاجمه رسالة فورية، كانت من إيتشيرو، وكلماتها قصيرة ومقلقة: "اتصلي بي فور قراءتك هذه الرسالة، سأكرهك للأبد لو كان مكروهًا قد أصابك".

مكروه؟!!

اتصلت به فأجابني قبل انتصاف الرنة الأولى، قلت بمرح: "ما الداعي للكراهية الآن، أيها المجنون؟"

صمت طويل أجابني، فقلت لأتحقق من المكالمة: "آلو، إيتشيرو، هل هذا أنت؟!"

جاء صوته مبحوحًا جدًّا يسألني: "ماذا أصابك؟"

-"بل ماذا أصابك أنت؟ ما هذا الصوت الذي تتحدث به؟"

-"لا تهربي من سؤالي".

-"أنا بخير، أصابتني نوبة برد أمس، كما أنني استيقظت لتوي، ماذا أصابك أنت؟"

صاح كأنه عثر على كنز: "أنت في منزلك؟"

-"نعم! هل ستخبرني بم أصابك أم لا؟"

-"حمدًا لله".

وارتجف صوته بالارتياح، سألته باستغراب: "إيتشيرو، ماذا حدث؟"

-"ظننت مكروهًا أصابك في أحداث اليوم.. لقد كنت على وشك الجنون".

-"أحداث اليوم!"

وقفزت من فراشي جريًا، وفتحت التلفزيون وهو يصيح بي: "أنت لن تعودي مجددًا، ابقي في منزلك ولا تغادريه لأي سبب".

كانت القنوات تعرض أفلامًا ومسلسلات لا محل لها من الإعراب، وعلى عدد من القنوات الأخرى كان يبث برنامج ما مع فتاة أخفوا وجهها بطريقة مستفزة، وقناة الجزيرة متوقفة كالعادة، لكن لا أخبار من ميدان التحرير مطلقًا.

قاطعت عصبيته المجنونة بسؤالي: "ماذا حدث، إيتشيرو؟ هل أصاب المتظاهرين شيء ما؟"

صرخ فيَّ: "لا تفكري في مغادرة منزلك لأي سبب".

كنت وحدي في المنزل، أمي وأخي لم يعودا للبيت منذ غادرته أنا للميدان، ويقضون لياليهم في العمل حيث يشارك أخي في اللجان الشعبية بالمنطقة، ولم أكن بالتهور الكافي للإقدام على مغامرة غبية كمغادرة المنزل الآن، وحتى لو غادرته فلن أجد أي مواصلات.

حاولت تهدئته: "أنا مريضة لدرجة تمنعني حتى من مغادرة غرفتي، أخبرني ماذا حدث؟"

اقتصد في إخباري بالمعلومات، ولم أفهم منه إلا أن هجومًا حدث على الميدان وأصيب خلاله البعض، ودفعني قلقي للاتصال بخالد بمجرد إنهاء المكالمة معه، وقابلني صوته بالصراخ: "أنتِ فين يا هبة؟ الدنيا بتخرب وبندوَّر عليكِ".

-"حصل ايه؟"

-"ولاد الـ*** بعتوا بلطجية يهاجموا الميدان، دخلوا علينا بسنج وسكاكين وهم راكبين أحصنة وجمال، ودلوقتي بيضربوا علينا نار من فوق كوبري 6

أكتوبر، والمولوتوف بيقع علينا من العمارات.. أنتِ فين؟ الدكاترة هنا قليلين ومش ملاحقين يعملوا حاجة لكل الناس المصابة".

-"كام مصاب؟"

-"أكتر من 700 ، واللي ماتوا أكتر من 13 لحد دلوقتي".

صرخة رعب غص بها حلقي فسعلت، دارت الدنيا بي ولم أعد قادرة على النطق.. أخبرني بما يفعلون لوقف هجوم البلطجية القادمين من كل مكان حول الميدان، وعن الرصاص الذي لا يتوقف عن الانهمار فوق رؤوسهم، وبعدما أنهى المكالمة وضعت رأسي في وسادة وغرقت في البكاء.

بعد ساعة من البحث وجدت قناة واحدة محترمة تنقل ما يحدث بدقة، كانت قناة OnTv التي لم أنتبه لها في حياتي من قبل، رحت أتابع ما يقال فيها شاعرة بالرعب على المذيعين الثلاثة الذين لا يخفون ميلهم لما يحدث في الميدان، وتساءلت عن مصيرهم لو فشلت تلك الثورة، هنا، تفجر داخلي غضب أعظم من أن يكبح، وللحظة أوشكت على الخروج من المنزل لأحاول الوصول للميدان بأي شكل. لم يكن وعدي لأمي بالحفاظ على حياتي يهمني، ولا وعدي لإيتشيرو بالبقاء في أمان يعنيني، ولا صارت حياتي كلها غالية كما كانت دائمًا، كان داخلي شعور بالرغبة في الثأر رهيب، ولم يقعدني عن مغادرة المنزل إلا المرض الذي جعل أقل حركة تصيبني بالصداع والدوار.

رحت أتابع المكالمات المفتعلة التي انهالت على OnTv بلا رحمة، واحد يقول: إن المتظاهرين أسفل كوبري أكتوبر يلقون المولوتوف على الواقفين أعلاه، يا سلاااااام!! وقوانين الجاذبية ذهبت إلى أين؟ اختبأت من حظر التجوال؟! والآخر يتحدث عن سيارة الإسعاف المليئة بوجبات الكنتاكي، الموجود معها علب مياه غازية معبأة بالبنزين، ومعها منشورات من كتائب القسام، يا سلامين!! شخص عبقري هذا الرجل، ارتاب في سيارة الإسعاف بغريزة خرافية، ثم ارتاب في علب المياه الغازية، يبدو أنه كلب بوليسي متنكر! وأخيرًا منشورات كتائب القسام! هأو، كتائب القسام لبث الفتنة وإسقاط الأنظمة المستبدة، اتصل بنا على زيرو تسعمئة أربع مولوتوفات تصلك سيارات إسعافنا بالكنتاكي الممول!

كان هذا فوق طاقة تحملي فانطلقت في سباب مقذع لم أستطع كبحه، لم يخفف من غضبي قليلًا إلا استهانة المذيع يسري فودة بهؤلاء الكلاب.

وكان الحوار المفتعل مع الصحفية التي ادعت تلقيها تدريبًا على قلب نظام الحكم لا يزال يذاع وأنا أتنقل بين القنوات، ملأني الغضب والقهر، كل هؤلاء الذين ماتوا دون ذنب بعدما غدر بهم الرئيس، وكل هؤلاء الذين سيموتون حتى يقرر هو أن يوقف هجوم عصابته عليهم، وكل الأغبياء الذين سيخرجون من بيوتهم غدًا لاعنين المعتصمين في الميدان باعتبارهم تلقوا تدريبًا أجنبيًّا لتخريب البلاد، كما يدعي التلفزيون المصري.

كنت أرى بعيني فتنة توشك على إحراق كل شيء، عندها فهمت لماذا قال الله: "والفتنة أشد من القتل".. نعم، أشد بكثير جدًّا من القتل أن تفتن الناس وتضللهم عن الصواب، وتجعل المُضَلَّلِين هؤلاء يهاجمون الحق عن جهل وعمى.

مرت تلك الليلة عليّ كأسوأ وأطول ليالي حياتي.

لا أعرف كيف نمت على الأريكة، لكني استيقظت ظهرًا بألم رهيب في عظامي، وترنحت حتى وصلت لفراشي وأكملت نومي، ثم استيقظت لأحشو بطني بالأدوية لعلي أتحسن، وغادرت المنزل في الخامسة، مع بداية حظر التجوال. تُرى، لماذا أخّروا فرض حظر التجوال منذ يوم الهجوم؟ أليس البلطجية يهاجمون الميدان؟ ألا يجب التضييق عليهم بدلًا من منحهم المزيد من الوقت ليهربوا أو ليتوافدوا أكثر؟!

كان المترو يعمل لحسن الحظ، فركبت إلى محطة جمال عبد الناصر منتوية دخول الميدان من جهة عبد المنعم رياض كالعادة، ولكن بمجرد اقترابي سمعت صوت انطلاق الرصاص، كان يختلف عن الصوت الذي سمعته في جمعة الغضب، كان أسرع وأقوى لدرجة جمدتني في مكاني، ورأيت من بعد سيارة تقف فوق كوبري أكتوبر، وجوارها عدداً لم أميزه من الرجال.. كان إطلاق النار من هناك.

قابلت شابين يستندان إلى دراجة نارية ويراقبان، فسألتهما: "الدخول من هناك مستحيل، صح؟"

قال أولهما وهو يمط علكة ما بين أسنانه وشفتيه متأهبًا لصنع بالون: "طبعًا، ضرب النار ما بطلش من امبارح".

-"طب أدخل الميدان منين؟"

نظرا لي كأنني مجنونة، وقال الثاني: "ارجعي بيتك يا أختي، مش هتعرفي تدخلي".

رفعت الساعة في وجهه وقلت: "الساعة دلوقتي 6، وحظر التجوال بدأ من ساعة والمترو وقف.. يا إما تقولولي أدخل إزاي وإلا هدخل من هناك".

قال ماضغ العلكة رائق البال: "خشي الشمال ده طيب وحاولي تشقّي طريقك".

شكرتهما وابتعدت، وقبل دخولي إلى الشارع الجانبي سمعت انطلاق الرصاص مرة أخرى، متتابعًا وعنيفًا، وعرفت فيما بعد أن هذه بنادق آلية. تساءلت عن مقدار الشجاعة التي يملكها المرء ليكون قادرًا على الوقوف أمام النار بصدر عار لمجرد حماية الآخرين؟ لمجرد الدفاع عن قضية؟ هل أملك تلك الشجاعة؟ بالتأكيد لا، جعلت الإجابة عينيّ تغيمان بالدموع.

الشوارع مظلمة، زجاج كثير محطم وأحجار ملقية في كل مكان أشعر بها في كل خطوة، سرت فترة طويلة دون أن ألتقي بمخلوق، وعندما وجدت واحدًا صاح بي: "أنتِ، رايحة على فين؟"

استدرت له وقلت: "داخلة ميدان التحرير".

راح ينادي على زميل له لكنني لم أنتظر، سرت وتجاهلت نداءه لي بالعودة، وأسرعت إلى شارع آخر ومنه إلى شارع ثالث فوجدت آخرين يقفان كأنهما بانتظاري.. سألاني بخشونة عن سبب وجودي هنا فأخبرتهما، فتبادلا نظرات أشعرتني بالريبة، ولكن قبل أن أتجاوزهما ظهر جنديان من مكان ما، وبدا عليهما الذهول لرؤيتي وأشارا لي بالاقتراب، قلت لهما: "خطيبي مصاب في الميدان، ولازم أروح أشوفه".

جعل البكاء كلماتي أقوى تأثيرًا، وبرغم هذا قال أولهما: "ارجعي بيتك وسيبك منه دلوقتي، هو راجل ويتحمل".

لكن الثاني قال: "خدي أول شارع شمال وامشي طوَّالي، بعدها خدي شمال في شمال".

شكرتهما وابتعدت، لكن مع أول فرصة انحرفت يمينًا، كان من الواضح أن الجندي يريد إبعادي لأقصى درجة حتى أخرج في منتصف شارع القصر العيني،

ولو وجدني الضباط هناك سيرسلون بي إلى أول محطة مترو دون اهتمام بما أريد.. فعلوا هذا أكثر من مرة مع أكثر من شخص وكان هذا آخر ما أتمنى.

سرت طويلًا في ظلام حالك لا أول له ولا آخر، أحاول التفكير بمنظور عين الطائر، لأتخيل تلك المتاهة من أعلى حتى أعثر على طريقي، وبمرور الوقت لم أعد قادرة على سماع طلقات الرصاص، ولا الهتافات الحماسية، ولا الطرق على الأسوار الحديدية التي تطوق الميدان.. كنت أبتعد ولا أعرف كيف يمكنني الاقتراب، رحت أبكي كأنني طفلة تاهت بلا أمل في العودة لأمها.

فجأة وجدت نفسي مغمورة بنور ساطع لشارع نظيف واسع، بدا كسوق مزدحمة بخلاف الصحراء التي كنت أسير فيها قبل قليل.. وقفت لحظات أحاول الاستيعاب ثم رأيت امرأة وابنتها تسيران وهما تحملان الخضر، توجهت إليهما بتعجل أسألهما عن طريق مختصر لميدان التحرير، ولمّا بدا على المرأة الجزع بادرتها قبل أن تتكلم: "أنا طبيبة يا أمي، وفي ناس بتموت جوة ومحتاجين أي حد يساعدهم.. أرجوكِ قوليلي فين الطريق".

كانت ست "جدعة" فعلًا لأنها لم تناقش رغم تعبيرها المتعاطف الذي لا يفارق خيالي، فقط استدارت تصف لي الطريق بعبارات من نوعية "يمين، شمال، شمال، يمين، شمال، يمين" إلخ.. كان وصفًا مربكًا حقًّا، وفي النهاية قالت لي: "بلاش تكلمي حد وأنت ماشية، وابعدي عن شارع طلعت حرب".

-"حاضر، وشكرًا يا ست الكل".

دعت لي وأنا أنصرف، وأخرج من هذا الشارع إلى شوارع أخرى مظلمة كسابقتها، رحت أسير على وصفها فترة ثم توقفت في لحظة ما محاولة تذكر هل آخذ الطريق يمينًا أم يسارًا، وسمعت من يناديني فالتفت، كان شابًا صغيرًا لكن هيئته جعلتني أرتاب، وطريقته الخشنة في الحديث جعلتني أتساءل عن نيته. تذكرت تحذير مرشدتي واستدرت أتابع سيري دون اهتمام بندائه، وأخيرًا سمعته يصرخ مناديًا آخرين، وكان هذا حسمًا لشكي إذ أن هذه لم تكن تصرفات اللجان الشعبية أبدًا.

أطلقت العنان لساقيّ، لم تكن سرعتي عالية نظرًا لمرضي ولكن برغم هذا أنهكتهم خلفي، ولم يقلقني شيء إلا أنني فقدت الطريق مرة أخرى، رحت أعدو من شارع إلى شارع حتى ابتعدوا عني تمامًا، ودخلت عمارة ما أتوارى عنهم

وألتقط أنفاسي فوجدت لها مخرجًا خلفيًّا، غادرته إلى شارع مظلم ضيق جدًّا خرجت منه إلى آخر أوسع، وسرت في عدة شوارع ضيقة أخرى دون أي أمل في العثور على شخص يدلني، لكن الله فعل، فوجدت نفسي دون مقدمات في شارع طلعت حرب.

وقفت لحظة أنظر للزجاج المهشم على نطاق واسع، والحاجز الذي صنع بالقرب من الميدان لصد أي هجوم، كنت مشوشة التفكير لكن فتاة ما نادتني بصوت عال محذر: "يا آنسة، غلط الوقفة دي، شوفي أنتِ رايحة فين".

توجهت إليها، كانت تفتش الفتيات والنساء القادمات إلى الميدان، قالت لي وأنا أقترب منها: "كانوا بيضربوا علينا رصاص من شوية".

وسألتني عن سبب بكائي فكررت عليها ما سألني إياه دانيال قبل أيام: "الناس اللي ماتت دي ماتت ليه؟!"

احتضنتني، حضنًا مطمئنًا مليئًا بالسكينة وقالت: "فدا مصر يا أختي.. هي تستحق".

ربت على ظهرها وشكرتها، ودخلت الميدان متجهة إلى المستشفى لأصدم بكمية الجرحى الرهيبة هناك، لم يعد على الأرض شبر يصلح للمشي، وقسَّم الأطباء الأماكن ما بين الأعمدة إلى عنابر بدائية صنَّفوا فيها المرضى بحسب إصاباتهم.. عناية مركزة.. جراحة.. عظام.. قلب.. أكثر مستشفى بائس رأيته في حياتي.

أخذت معطفًا طبيًّا وبعض الأدوات الضرورية، وحولي عشرات من المتطوعين لا أعرفهم، فشعرت أنني تائهة حتى ناداني الدكتور عمرو. ظللت أتبعه لساعة أو ساعتين دون شعور بالوقت، لكنني لم أكن قادرة على كبح دموعي رغم تحذيره لي ثم لومه.. قال لي: "الدكتور مهمته يدعم مرضاه يا هبة، مش يعالجهم بس، ولازم يكون قوي عشان هم كمان يكتسبوا القوة. الناس معنوياتها في الأرض دلوقتي، وكل الدنيا ضدهم.. اللي بيشتمهم واللي بيلومهم واللي بيقول نحرقهم بجاز، رغم إن منهم اللي مات واللي أصيب واللي فقد عينه أو بصره للأبد. بلاش نزوِّد عليهم همومنا احنا كمان، عايزك تبقي أقوى من كده".

-"حاضر".

حاولت أن أتماسك، صحيح أنني لم أتوقف عن ذرف دموعي، لكنني كنت أجففها خفية بين حين وآخر.

بعدما ضمدنا جرحًا كبيرًا في رأس أحد الشباب وجدت من يشدني من ذراعي ليقول: "يا دكتورة.. اعملي حاجة ربنا يكرمك".

كان شابًا من أولاد البلد البسطاء، قدماه مشوهتان بطريقة مروعة، فسألته: "ايه ده؟!"

-"المولوتوف وقع عليا من فوق العمارة، رجلي بتتحرق، اعملي حاجة يا دكتورة".

رأيت المرهم المدهونة به قدماه، سألته: "مين حط لك ده؟"

-"الدكتور ده، وقال لي أستنى بس أنا مش قادر".

-"معلش، حاول تستنى شوية وهتكون كويس، ربنا معاك".

وأمسكت بيده أجلسه على أحد المقاعد، قوة ضغط يده على يدي أشعرتني بهول الألم الذي يكافحه، فرحت أربت عليه حتى هدأ قليلًا، وتركته متوجهة لجريح آخر أتى حديثًا، كان جرحه محدودًا استطعت تضميده وحدي ثم صرفته، عندها اقترب مني شاب يحمل طفلًا لا يتجاوز الرابعة عشر على الأكثر، ويرتدي أسمالًا ملطخة بالشحوم والقذارة كصبية الحرفيين.. قال لي: "اعملي حاجة للولد ده يا دكتورة، ده جننا".

أجلست الطفل على مقعد ونظرت لجرح جبينه الكبير، سألته: "اسمك ايه؟"

تذمر وأعرض عني بوجهه يقول: "سيبوني أمشي.. والنبي أنا كويس".

برغم كل شيء ابتسمت لتلقائية تذمره الطفولي، قلت: "طيب يا سيدي.. خلينا نقفل الجرح وبعدين امشي براحتك".

وناديت الدكتور عمرو فجاء وخيَّط الجرح بسرعة، ونظفت خلفه ثم ضمدت الجرح، وفور أن فعلت نهض الفتى لينصرف فقلت له: "خد عصير من الصيدلية عشان تعوض الدم ده".

قال بشموخ: "مايلزمنيش، خليه للي يحتاجه".

كان هذا أول شيء جعلني أضحك في هذا اليوم، تركته ينصرف وعدت لمتابعة ما يحدث حولي، ناداني المسؤول عن قسم التغذية يطلب مني مساعدته في إعداد الشطائر للمقاتلين بالخارج، فقضيت معه ساعة أو أكثر حتى انتهينا وبدأنا توزيع الطعام على الجميع، وقبل أن أجلس رأيت خالد يأتي من مكان ما، حياني وسحب الشاب الذي يمسك بيده وقال لي: "عايزك تخلي نور معاكي لحد ما ارجع".

استغربت لما يقول إذ أن نور هذا لم يكن طفلًا بأي حال من الأحوال، فقال لي مفسرًا: "أخوه استشهد من شوية".

اقشعر جسدي وأومأت برأسي، أخذت يد نور وسحبته لركن بعيد وأجلسته، كان كالدمية بلا حول ولا قوة، وكنت بدوري غير قادرة على النطق، لم أعرف ماذا أقول لأخفف من هول مصيبته.. بأي شيء أستطيع مواساته؟!

أحضرت له علبة عصير ومددت يدي بها فلم يرها، وظل ينظر للأرض بإصرار كأنه يتابع مشهدًا لا أراه أنا، ناديته برفق: "نور!"

نظر لي، وجهه خاو لا انفعال فيه، قال بصوت هادئ: "ضربوه بالرصاص.. كان واقف جنبي وأنا برمي الحجارة عليهم عشان يبعدوا ولما بصيت لاقيته ميت، معرفش مين ضربه، ولا إزاي، ولا ليه".

ربت على يده برفق وأنا أحاول السيطرة على نفسي مذكرة نفسي بكلمات الدكتور عمرو، قال وصوته ينخفض بالتدريج: "كل شيء كان زي الحلم.. حلم طويل مش عارف ليه مش بيخلص".

لم أفهم ما يقصده، لكنني قررت تركه يتكلم كما يشاء عسى الكلام يريحه، إلا أن هذه كانت آخر كلماته، ظل صامتًا فترة طويلة بعدها، وبقيت جواره لا أعرف ماذا أفعل ولا ماذا أقول، حتى ناداني شخص ما فنهضت، ووجدت الطفل المشاغب نفسه وهو يحاول التملص من شابين أحضراه قسرًا كالمرة السابقة.

كانت شظية رخام مغروسة في ذراعه، وأنفه ينزف بفعل حجر ما أصاب وجهه، وبرغم هذا كان يقاوم كأننا نمنعه من الاستمتاع بنزهة.. نظفت جراحه بإشراف إحدى الطبيبات، وسألته وأنا أضمدها: "اسمك ايه؟"

قال بكبرياء: "أنا مصري".

قلت أحاول إضحاكه: "كلنا مصريين بس برضو لينا أسماء، أنت اسمك ايه؟"

-"أنا مصري وبس".

وبمجرد أن أنهيت تضميد جروحه تملص مني وهرب، فتبادل الشابان نظرات ضاحكة وراحا يمزحان، وعدت أنا إلى حيث تركت نور لكنني لم أجده، ولم أره بعدها قط.

مضى الوقت في العناية بالجرحى المتوافدين دون توقف، وبعد منتصف الليل بدقائق دب التوتر في المكان مع صوت هجوم قريب.. بدأ الرجال في إبعاد الفتيات استعدادًا لأي اقتحام، وبعدما تقطعت أعصابنا ونحن نتمسك بأماكننا جاء أمن المستشفى ليخبروننا أننا بأمان، وأن زمرة من البلطجية حاولوا اقتحام الميدان من شارع طلعت حرب لكنهم تلقوا درسًا قاسيًا.

خفق قلبي ألمًا مسترجعًا كلمات إيتشيرو.. كان محقًّا.. الموت أرحم بكثير من عذاب انتظاره.

وعند الثالثة صباحًا جاء أول قتيل تراه عيناي، كان الطفل المشاغب الذي رفض بإصرار إخبارنا باسمه.. عرفته وكتمت آهة ألم وذهول.. من هو؟ هل هو طفل شارع؟ صبي ميكانيكي؟ متسول؟ ماذا فعلت له مصر ليصر على الصمود في الميدان حتى آخر رمق؟ لفني صمت مميت وأنا أنظر للبقعة السوداء التي خلفتها الرصاصة في جبينه.

نشر موت هذا الطفل سوادًا كئيبًا في الجو، وأمضينا الليل نسمع أجنحة الموت ترفرف فوق رؤوسنا، حتى إذا صلينا الفجر هبط التعب عليَّ كضيف ثقيل، وافترشت بعض زميلاتي الأرض في ركن بعيد، والتحفن ببطانية كبيرة سيئة الرائحة، لكنني لم أتردد، وعلى الأرض الباردة، وتحت الأضواء الساطعة، ووسط زحام المستشفى، نمت بعمق.

حل الهدوء حثيثًا فجر الجمعة، وبدا أن المعركة المجنونة بالخارج قد بدأت تهدأ.

قضيت الجمعة؛ لم يعد أحدنا يأمن الخروج من الميدان ليقع في براثن البلطجية المحيطين بنا، ومزقنا الشعور بالحصار لساعات عصيبة، حتى بدأ أهالي المصابين يتوافدون على الميدان باحثين عن أبنائهم، وفي المساء ناولني الدكتور عمرو قائمة طويلة مكتوبة بخط صغير، وشرح لي بهدوء: "دي قائمة

بأسماء الشهداء اللي عدوا علينا من أول الثورة لحد انهاردة، عايزك تنسخيها وتتولي مسؤوليتها عشان لو حد جه يسأل عن قريب له".

-"ايه!!!!"

أردت الاعتراض على توريطي في هذه المهمة المفزعة لكنه لم يناقشني، نظر إليَّ مهمومًا يرجو مساعدتي فابتلعت غصة في حلقي وسكت على مضض، وجلست أنسخ القائمة مذهولة بطولها.. كل هؤلاء الذين ماتوا، لماذا ماتوا؟ بأي حق أخذت حياتهم بيد بشر مثلهم؟!

هجم على المستشفى عشرات الأشخاص يسألون عن أولادهم المختفين، وكانت مهمة إجابتهم من الثقل والعسر ما جعل أي شخص يُسأل عنهم يشير إليَّ ملقيًّا عليَّ العبء المفزع، وكنت أبحث في القائمة عن الأسماء المطلوبة وأحمد الله إذا لم أجدها، لأتلقى واصلًا طويلًا من البكاء والهلع.

جاءني الدكتور عمرو يقول: "هبة.. أي شخص مختفي من يوم جمعة الغضب، أو من يوم معركة الجمل واسمه مش موجود هنا يبقى غالبًا مات، قولي كده لأهله وبلاش تعذبيهم".

انطلق غضبي من عقاله فقلت بانفعال: "أقول لهم ايه يا دكتور عمرو؟ أقول لهم اسم ابنكم مش موجود، بس بلاش تحسوا بالأمل إنه يكون عايش لأنه غالبًا مات".

-"أيوة، قولي كده بالضبط، أنت عارفة يعني ايه الأمل الوهمي في الحالات دي يا هبة ولا لأ؟"

تخيلت نفسي أمًّا تبحث عن ابنها، يراودني شعور أنه استشهد ثم يمنحني شخص ما أملًا أنه بعد على قيد الحياة، ترى ماذا سيكون شعوري عندما أجده أمامي ميتًا بعد هذا الأمل؟

عصرت قبضة متوحشة قلبي، فانفجرت: "أنا ماقدرش أقول كده.. مستحيل".

كان من الممكن أن يستمر جدالنا عامًا، لكنه ابتعد عندما سألني رجل عن ابنه، ورحت أبحث في القائمة وأنا أجاهد دموع غضبي.. اخبرني الرجل أن ابنه اختفى يوم جمعة الغضب، وأنه بحث في كل مكان ولم يجده، فعرفت الإجابة لكنني لم أجرؤ على النطق بها.. قلت له: "حاول تدور تاني يا بابا، ممكن لا قدر

الله يكون في غيبوبة ومش معاه بطاقة أو حاجة تدل على هويته، ربنا يوفقك وتلاقيه".

انصرف وهو يدعو لي، ودعوت أنا أن يمنحه الله الصبر ويوفقه لابنه فعلًا، حيًّا كان أو ميتًا، ثم استقبلت أبوين آخرين رحت أبحث عن اسم ابنهما أكثر من مرة، وفي النهاية أخبرتهما أن يبحثا في القصر العيني أو مستشفى الدمرداش، وهكذا، استمرت تلك المهمة المؤلمة تعذبني لساعات، ولم تنته إلا عندما جاءت عائلة كاملة تبحث عن ابنها.. أب وأم وأخ وزوجة تحمل طفلًا صغيرًا، عندما رأيتهم راودني شعور مشئوم صدق عندما عثرت على اسم ابنهم في القائمة، سألتهم أن يعيدوا الاسم أكثر من مرة فكان يطابق الاسم الرباعي الذي أقرأه أمامي، لم يكن هناك شك، ووجدت نفسي فجأة أواجه موقفًا أسوأ مما توقعت.

لم أجرؤ على النظر إليهم، تساقطت دموعي فطمست بعض الحروف، قلت بصوت مخنوق: "أنا آسفة".

كانت الزوجة أسبقهم إلى الفهم، بدأت تنهنه متأهبة للانفجار في البكاء، وصمت الأبوان، أما الأخ فسألني بعصبية: "يعني ايه آسفة؟"

لم أعرف ماذا أقول، وآخر ما كنت أتمناه الآن أن يكون بطئ الفهم أو غير راغب في الفهم، كررت كلمتي بصوت أكثر اختناقًا: "أنا آسفة، حقيقي أنا آسفة، البقاء للـ...".

لم أكد أنطق بالكلمة حتى شقت صرخة الأم المكان، أفزعني ما فيها من لوعة، وجمدتني في مكاني وأنا أضع القائمة المشئومة أمام وجهي كي لا أرى شيئًا وكي لا يروني.. لم أميز شيئًا من الجلبة الدائرة حولي، حتى وضع أحدهم يده على كتفي وناداني، فاستدرت ووضعت القائمة في يده وخرجت.. ركضت ركضًا سريعًا تحول إلى عدو فور خروجي إلى الميدان، وبقيت أجري حتى وصلت إلى مسجد عمر مكرم وجلست في أبعد مكان عن الميدان، وانفجرت في بكاء لم أبك مثله في حياتي.

أظلمت الحياة في وجوهنا بعد معركة الجمل، صرنا ننتظر معارك أخرى مماثلة، ولم يكن التراجع في هذه اللحظة إلا جبنًا وإهانة لدماء من ماتوا، وكلما سرت في الميدان تفاقم غليان مقتي وأنا أرى الرجال والشباب الذين فقدوا

أعينهم.. الفقد الذي رأيته أسوأ بكثير جدًّا من الموت. بقيت محاصرة في الميدان غير آمنة على نفسي لأخرج، وثبتت الحياة عند نقطة الصفر.

ببطء استولت عليَّ نوبة البرد مجددًا، وانهارت أعصابي مع الشد العصبي المتكرر يوميًّا كلما سمعت ضربات الإنذار، فكلما وقع هجوم في مكان ما يصيح شباب الخطوط الأمامية محذرين، وتبدأ الفتيات في الطرق بالأحجار على الأسوار الحديدية التي تفصل الرصيف عن أرض الشارع، وكل من يسمع هذا الإنذار يطرق بدوره لتنبيه الآخرين، دقات مرعبة كتقدم الموت ناحيتنا، ثم تهب الوحوش من قلب الميدان مطالبين النساء والفتيات بالتراجع للخلف، ويندفعون هاتفين "الله أكبر" بصوت كالرعد مهيب، رأيت هذا مرارًا لكنه استمر في إرعابي، وفكرت في الاتصال بإيتشيرو مقرة بغبائي، وطالبة منه أن يأتي ليأخذني.. كانت الحمى تقترب مني وتقهر قوة روحي حتى انهرت.

فقدت وعيي مساء الأحد، واستيقظت وآلام البرد تعربد في عظامي، واصطكت أسناني ألمًا، ورحت أحصي الدقائق حتى أشرقت الشمس.. غادرت الميدان صباح الاثنين عالمة أنها آخر مرة، ورحت أجيل النظر بين الرجال الذين افترشوا الأرصفة نائمين، والشباب المترنحين من طول السهر، والفتيات الجالسات حول النار عند النقطة الطبية 9، والتي أسميناها "وحدة خط النار".. وغادرت الميدان كما دخلته أول مرة، تاركة خلفي شجارًا بين ضباط الجيش الذين يريدون رفع المدرعات والعربات المحترقة عند مدخل عبد المنعم رياض، في حين يعارضهم المعتصمون لأن هذا سيعني موتهم المؤكد إذا حدث هجوم آخر، وعندما أخبرهم اللواء أنه سيحميهم، كان ردهم فوريًّا ولاذعًا: "كنتم حميتونا وقت الهجوم الأولاني يا باشا.. أنتم سيبتونا نموت وماتحركتوش".

غادرت أخيرًا، عدت لمنزلي أترنح كالسكرى، وأخذت حمامًا ساخنًا نمت بعده لمدة عشر ساعات أو أكثر، وصحوت في حال أسوأ، كنت محمومة كأن نارًا تشتعل تحت جلدي، وكلما حاولت النظر بإمعان لأي شيء كانت عيناي تدمعان وأشعر بسخونة شديدة فيهما، ولم تفلح الكمادات الباردة في إنقاذي.. ارتميت في فورة الحمى يومي الثلاثاء والأربعاء دون أن يعود أهلي للمنزل، وكان مؤنسي هو صوت إيتشيرو عبر الهاتف. سكَّن آلامي بصوته، وغنَّى لي مخففًا عني مقدمًا إليَّ أفضل عناية حظيت بها خلال مرضي على الإطلاق.

خفّت الحمى عني صباح الخميس، ولساعات نادرة عاودني صوت إيتشيرو القديم رائق البال، المختلف عن الصوت القلق والمتذمر الذي رافقني في ليالي

الميدان، شعرت أنني أسترد نفسي الأولى التي لم تر الدم وتختبر الموت، لكن أجواء الميدان انبعثت في قلبي مع انتظاري بيان الرئيس الذي ألقاه مساء الخميس.. انتظرت طويلًا جدًّا وكل الاحتمالات تجول برأسي، لكن البيان جاء بلا رأس ولا ذيل، وجعلني الإحباط الناجم عنه أفقد الأمل في أي شيء جيد يغير ما يحدث على الأرض. ماذا سيحدث لو تمسك الطرفان بموقفيهما دون تنازل؟ هل سنبقى في دوامة الدم هذه فترة أطول؟!

لم أستطع نزول مليونية الجمعة، بلغ بي المرض ذروته، ونمت طوال النهار ثم استيقظت عند المغرب لآكل، وتأهبت للنوم مجددًا عندما اتصلت بي أمي تخبرني أن بيانًا آخر سيذاع حالًا.. حاولت النهوض إلى التلفزيون فسقطت جوار فراشي تعبًا وأنا ألهث، فأمسكت هاتفي الصيني المحمول وفتحت التلفزيون الموجود به، ورأيت وجه اللواء عمر سليمان فاستغربت، حتى نطق بيان تخلي الرئيس عن الحكم.

للحظة لم أفهم.. ما الذي يعنيه هذا الرجل؟!

لم أفهم، لكنني أطلقت زغرودة قوية وهببت واقفةً أرقص، وسمعت جيراني يطلقون الزغاريد تباعًا، وفي أثناء رقصي المجنون ومضت أمام عينيّ صور الشهيد أحمد بسيوني، ومصطفى الصاوي، والطفل الصغير الذي لم نعرف اسمه قط، ونور الذي فقد أخاه، ووجدت نفسي أسقط أرضًا وأنطلق في بكاء حار، نصفه سعادة ونصفه مرارة، وسجدت لله شكرًا وسألته أن يرحمهم جميعًا.

ارتديت ملابسي وغادرت المنزل لأجد نصف مصر تقريبًا في الشارع، زحام، زحام، زحام لا يصدق.. المترو كان على وشك أن ينفجر من كثرة المحشورين فيه، وأفرغ حمولته في محطة سعد زغلول فنزلت مع النازلين، وبالخارج اشتعل مهرجان من الجنون في الشوارع.. فقد شباب مصر عقولهم في تلك الليلة، رحت أضحك كما لم أضحك من قبل، ونسيت مرضي وإرهاقي، ودخلت الميدان أجاهد ضد الزحام الرهيب، وجريت إلى المستشفى الميداني فوجدت حفلًا لكتابة الكلمات التذكارية على معاطف الأطباء.. يا للجنون!

اتصل بي إيتشيرو، كنت مبتهجة فصرخت بكلمات كثيرة قاطعها بسؤال: "أنتِ فين يا مجنونة؟!"

ضحكت رغم لغته المتقنة.

قال: "أنا عند المتحف".

لم أجد مشقة في العثور عليه رغم الزحام، عندما رآني أسرع وأمسك بكتفيّ بقوة، بنظرة غيظ غير مقنعة نظر في عينيّ وقال: "لقد جعلتِ مني مجنونًا، وأقلقتني إلى حد الموت.. أنت تستحقين العقاب، وبقسوة".

وبشكل مفاجئ شدني نحوه وقبل جبيني، قبلة لطيفة لم أتوقعها جعلت أنفاسي تتوقف، وقبل أن أنطق انفجرت فوق رؤوسنا الألعاب النارية، كان شكلها مذهلًا حقًّا، فقال إيتشيرو ضاحكًا بسعادة: "هذا فأل جميل".

-"الألعاب النارية؟"

-"يجب أن يصير جزء منك يابانيًّا لتفهمي معنى الألعاب النارية بالنسبة إلى المحبين".

أمسكت بيده الدافئة، فقال بسعادة وصدق: "أنا أحبك، هبة".

ووضع يده على يديّ، لم أنطق بكلمة من فرط سعادتي، وبقينا هكذا لدقائق حتى قال: "قلت لك إن أمرًا هامًا سنتحدث عنه بعد مغادرتك الميدان".

-"إذن لم تكن هذه محاولة لاستغلال فضولي؟!"

ضحك ومشينا إلى مكان أقل ازدحامًا. قال لي بنظرة موبخة: "أنا مدهوش لمقدار السخافة التي تعتقدين أنني أتمتع بها، لكن لا، لم أكن أحاول أن أستغل فضولك، كنت أتحدث جديًّا".

-"إذن ما الأمر؟"

أخرج من جيب معطفه ورقة مطوية ناولني إياها، فتحتها باستغراب ولم أفهم منها شيئًا، سألته وشعور طاغٍ بالغباء يعميني: "ما هذا؟"

قاوم الضحك، وأجابني ملوحًا بيده بلامبالاة: "الوثيقة بالعربية، المفترض أنك تفهمينها أفضل مني".

نظرت للورقة نظرة خاوية أخرى وقرأتها، لكنني لم أفهم شيئًا أيضًا، رددت فقط كالببغاء: "وثيقة إشهار الإسلام.. من تخصه هذه الوثيقة؟"

تنهد ونظر لي بأعين مشفقة.. لم يتكلم وأنا أيضًا لم أفهم. يضحكني تذكر هذا الموقف أيما ضحك!

بعد دقيقة أيقن أنني لن أبدي رد فعل آخر، فأخرج من جيبه بطاقة ومدها لي مبتسمًا، سطعت ابتسامته كضوء باهر يمكن أن يحل محل الشمس، فبقيت أنظر إليه غير قادرة على تحويل عينيّ بعيدًا، وعندما فعلت وفتحت البطاقة قرأت عبارة Marry Me مكتوبة بخط مرح أنيق، وتزينها قلوب وزهور صغيرة مرسومة ببراعة تخلب العقل، فشعرت أنني أحيا حلمًا لم أتوقعه.

برغم هذا سألته: "ما هذا؟! أنت تمزح.. أليس كذلك؟ قل إنك تمزح!"

تنهد كأنما فاض به الكيل، فأخذ الوثيقة ووضعها في جيبه، ثم أمسك بذراعيّ وشدني إليه، احتضنني بقوة وقال بنفاد صبر: "أنت غبية جدًّا، هبة تشان. أنا أحبك، تزوجيني وابقي معي إلى الأبد، هل أصبح الأمر واضحًا؟!"

انفجرت أضحك بطريقة متقطعة كالإنسان الآلي، اهتز صدري بقهقهات عجيبة، حتى استوعب عقلي ما سمعته، عندها تحولت ضحكاتي العجيبة إلى ضحك هستيري سعيد، ثم غلبني دمع الفرح.

بادلته العناق وضربته على ظهره، ورددت دون تصديق: "أنت مجنون.. حقًّا مجنون! كيف فعلت هذا؟ بل متى فعلت كل هذا؟"

-"منذ فترة طويلة، وكنت أنتظر مفاجأتك أمام البحر لكن الثورة أعاقت سفرنا، ولكن لا يمكنني الشكوى، فلولا ما حدث في الأسابيع الماضية ما أيقنت من حبي لك، واليوم أقول لك بصدق إنك الشخص الوحيد المهم بالنسبة إليّ في هذا العالم".

هززت رأسي وتشبثت به، لم أستطع تذكر وضع آخر كنت فيه أكثر سعادة من البقاء في حضنه، ولم تتوقف دموعي وضحكاتي. كانت تلك أول أجمل لحظات حياتي يا ندى، لأنني أدركت أنني لن أكون أبدًا وحيدة مرة أخرى، سأكون مع الرجل الذي أحب إلى الأبد، الشخص الوحيد الذي أثق أن مشاعره ما هي إلا انعكاس لمشاعري أنا.

قال لي: "أنتِ تذكرين ما تحدثنا بشأنه من قبل، أتذكرين؟ تلك الأسئلة التي تدور بعقلي".

-"نعم".

-"أنا لست مسلمًا، لست متدينًا، لكنني لم أمانع في إشهار إسلامي لمجرد أن أكون معك، حتى أصل لإجابات تقنعني، فهل تقبلين بهذا؟"

مرت بنا أثقل لحظة صمت، ثم قلت: "أقبل".

ووضعت يدي على خده، كنت مؤمنة أن طاقة ما من السلام ستنفتح له يومًا، وسيعثر على إجابة لأيّ كانت الأسئلة التي أخذته بعيدًا هكذا.. لا يهمني إيمانه كثيرًا، فلديَّ إيمان يكفينا معًا عمرًا كاملًا.

ابتسم بشكل لعوب، وسألني: "إذن، هل أتصرف الآن بالطريقة التقليدية؟"

-"التقليدية؟"

-"هل ستفقدين الوعي لو جثوت على ركبتيَّ لأبدأ الطقوس الرومانسية، أم ستصرخين؟"

تصلبت يدي حول يده ونظرت حولي برعب، وقلت: "قتلك سيكون حلًا أنسب.. ماذا ستفعل!"

قهقه ضاحكًا: "لم أتوقع أن يبلغ خجلك هذا الحد! أنت تبدين دائمًا عدائية بخصوص الآخرين ولا تبالين بهم".

-"كف عن السخرية مني، تاكاهاشي إيتشيرو!"

-"إذن، اقبلي بي زوجًا يا هبة مصطفى، وسأخلص لك وأحبك ما حييت. هل تقبلين؟"

-"نعم".

للحظة بدا مأخوذًا، ثم ابتسم كمن نُصر نصرًا مبينًا في قتال عظيم، ومد يده في جيبه ليخرجها وعلى كفه خاتم رقيق، تتوجه ماسة دقيقة تحيطها أذرع حانية من الذهب. سلبني لبي، حتى رفع إيتشيرو يدي اليسرى، وبدا مترددًا حيال الخيط الأحمر في بنصري.

انقبضت أصابعي تلقائيًا.

تركها وأمسك يمناي، وبهدوء وضع الخاتم برفق في بنصري، كان مناسبًا تمامًا، وفسر هذا عمق السعادة التي بدت في وجهه، تمتم: "كأنه خلق لك".

جعلت الماسة الصغيرة يدي تبدو صغيرة جدًا وهشة، فابتسمت بامتنان: "إنه جميل جدًّا، إيتشيرو".

أمسك يدي اليسرى وقال: "لا يعنيني هذا الخيط، يمكنك الاحتفاظ بالخاتم في يمناكِ كما شئت، ولكنك منذ اليوم ملكي، كما أنا ملك لك. هل تفهمين هذا بوضوح؟"

-"هل تفهم أنت لأي درجة تبدو مرعبًا بهذه الروح المتملكة؟"

ابتسم وشد يدي، جذبني إليه ولف ذراعه الأيمن حولي بخفة، وبقيت يده اليسرى تمسك بيمناي، وتمتم: "مهما حدث، أنا بالتأكيد سأبقى معك، ولن أتركك تذهبين أبدًا".

-"ولا تذهب أنت أيضًا".

-"لن أفعل، أعدك".

وكانت تلك ثاني ليلة نمضيها معًا، سهرنا حتى الصباح وسط زملاء الميدان، وإن لم نكن غارقين في السعادة العامة، بقدر ما كنا مستغرقين في سعادتنا الخاصة.. بالنسبة إلينا لم نكن نحتفل مع الآخرين، بل كان الآخرون يحتفلون معنا، يشاركوننا سعادتنا، تلك السعادة الصغيرة والرائعة، والأعظم بكثير من أن يسعها قلبي.

هبة

3 يوليو 2011

اليوم العاشر

اللقاء المقدر

صديقتي العزيزة ندى

تم زواجي بإيتشيرو في النصف الثاني من مارس..

مرت بنا فترة عامرة بالأحداث بعدما تعاهدنا على الزواج، وضُربت مصر بسلسلة من التغيرات السريعة بعد تنحي الرئيس، لم يخفف من لهاثنا خلفها إلا الشعور الراسخ بالفخر والأمل، وكان من دواعي راحتي اختفاء الببغاوات الذين أخذوا على عاتقهم مهاجمة ثوار التحرير وتشويههم وتخوينهم، تلاشوا في ثقب أسود ما، ولم يعد أحد يتحدث إلا عن شباب مصر الباهر العظيم، والذي حقق معجزة لم تكن الأجيال السابقة لتحلم بها، ثم انتقلت الحوارات إلى مستوى آخر، عن عظمة الجيش، ورجولة أفراده، واحترام العساكر للمواطنين، ومذلة رجال الشرطة وانكسارهم الممتع.. و.. و.. و..

كان في أصواتنا انبهار طفل بعالم جديد.. جعلتنا الثورة نكتشف شعور "البشر" الطبيعيين بالاحترام، وكيف يبصرون الحياة وهناك من ينصت لصوتهم المرتفع، وكيف تكون الحياة حين نكون ملء السمع والبصر.. كان قلبي ينبض وعيناي تدمعان، ويخفق فيَّ جزء ظننته اندثر، جزء يدعى "حب الوطن".

بهدوء واطمئنان ابتعدت عن دائرة أخبار الثورة، وألقيت الأحداث العامة عن عقلي، وبدأت أهتم بحياتي التي بدت -لأيام معدودات- خيالية إلى درجة يتعذر استيعابها، ثم استردت إيقاعها التعس المألوف بشجارات عائلية أقرب لصدامات النيازك في الفضاء، عندما أخبرت أهلي بشأن إيتشيرو، وهو ما أجابوه برفض صارم وسخرية، ولكن بعد أسبوع من الإلحاح تقبلوا فكرة زواجي من الأساس.

كانوا يوبخونني دائمًا كلما قلت إنني لن أتزوج، ولكن عندما قررت أن أفعل وبخوني أكثر! لن أفهم أبدًا كيف تفكر الأُسرة المصرية! ولو فهمت كيف يفكرون فلن أفهم ماذا يرضيهم!!

كان اعتراضهم الأول قائمًا على أن:"لسة بدري عليكِ"، ثم جاء الاعتراض الثاني:"ده أجنبي! ومهما كان عمره ما هيكون زي المصري" وهو اعتراض اختبر قدرتي على ضبط النفس، ثم جاء الاعتراض الثالث:"وده هنتفاهم معاه إزاي!"، وكان هذا اعتراضًا كوميديًّا قتلني ضحكًا، ثم أخبرتهم أنني من سأتزوجه لا هم.

في النهاية وافقوا على مقابلته من قبيل "ترييح الدماغ"، وفي أعينهم عزم صادق على رفضه، لكنني كنت واثقة أن إيتشيرو سيأسر قلوبهم في لحظات كما أسر قلبي، وكما يأسر قلوب الجميع.

عندما جاء إلى بيتي كان أخي يغالب الضحك، بتلك الطريقة المصرية السخيفة التي تعامل الأجنبي كفقرة كوميدية، ثم صافحه فأخذه صمت الرهبة والانبهار، أما خالي وأمي فتوارى تعقلهما المتحفظ البارد خلف ابتسامة مرحبة وصادقة، وهم يتابعون حديثه وابتسامته وصوته المطمئن، ثم ينظرون إلى صديقه إسلام ليترجم لهم، فيما جلست أنا شاردة في وجهه وأفكر: أهو ساحر؟

انتهى كل شيء بسلاسة، وكنت صارمة مع أهلي في عدم تعقيد الأمور كعادة الزيجات المصرية التقليدية، لكن إيتشيرو قال لي: إنه لن يمانع في عمل أي شيء تفرضه علينا تقاليدنا، فأكدت له أن تلك السخافات لا تسري عليَّ. وكان لي ما أردت رغمًا عن اعتراضات أخي.

انتهت الليلة بزغرودة عالية من أمي.

كنت على أعتاب حياة جديدة، مع أجنبي عرفته قبل أشهر معدودات، وكان هذا الشعور يدير رأسي أحيانًا، ويجعلني أتسائل عمّا إذا كان ما أفعله صوابًا أم لا؟!، وما إذا كان زواجنا المرتقب السريع شيئًا محمودًا؟!، لكنني كنت أنظر في عينيه فأبصر روحه واضحة، وأعرف ما أريده في قادم الأيام، ولا أود تضييع الوقت..أريد الحصول على كل الوقت الذي يمكنني الاستمتاع به معه.. الاستيلاء على كل يوم فردوسي يمكنني قضاؤه في حضنه.

سألته ذات غروب ونحن نشرب الكوكتيل أمام النيل: "هل من شيء تريد سؤالي عنه، إيتشيرو؟"

-"لا. هل تودين أنتِ سؤالي عن شيء؟"

-"لا، أنا أعرفك وأشعر بك كفاية".

وابتسمت، ممتنة لأنني لست مضطرة لإخباره بحياتي الماضية التعسة، والمساحات السوداء التي تمتد لتغطي أراضي ذاكرتي.

-"أنتِ غريبة!"

-"لماذا؟"

واجهني بابتسامته الباهرة. قال: "ألا تريدين معرفة أي شيء عن ماضي الأجنبي الذي ستتزوجين به؟ أليس من الممكن أن أكون قاتلًا أو سارقًا، أو مجرمًا محترفًا هاربًا؟"

ضحكت من كل قلبي، وقلت: "ستكون الحياة أكثر إثارة عندما أعرف جرائمك بعد تورطي معك".

-"إذن سيكون لنا سجن واحد؟"

-"أنا لا أفضل السجون، إيتشيرو، سوف نبحث عن بلد بعيد لنهرب إليه، ونعيش غرباء بعيدًا عن العالم بأسره وليس لأحدنا سوى الآخر".

تعبير عاطفي دافئ ظهر على وجه رغم مرح كلماته: "لكن مطاردينا قد يدركوننا!"

-"عندها سنفجر القنابل التي زرعناها حول منزلنا، ونأخذ سيارة مصفحة لنهرب ونتبادل معهم إطلاق الرصاص ونقتلهم جميعًا".

-"نعم، وإذا كانوا كثرة سأحميك منهم".

-"نعم، سيكون شيئًا جميلًا أن يختطفوني ويهددوك، وتبحث عني حتى تعثر عليّ وتنقذني...".

-"وعندما يكتشفون هروبك يرغبون في قتلك، وهنا سأتلقى رصاصتهم بدلًا منك، وبرغم هذا سأتحامل على نفسي حتى أهرب بك إلى مكان آمن، وبكل سعادة سأموت بين ذراعيك".

للحظة لذت بالصمت، لأن الكلمة الأخيرة أصابتني بألم لم أستطع معه الرد أو الابتسام. قلت بإصرار: "مستحيل.. نحن سنموت معًا، في نفس اليوم والدقيقة، ولن يترك أحدنا الآخر ليتعذب وحده".

-"نعم.. معًا".

للحظة بدا وكأن الشجن سيطغى علينا طغيانًا مميتًا لولا أنه ضحك، وقال بمرح غير أصيل: "ما الذي قادنا لهذه النقطة! كنا نتحدث عن جرائمي وسرقاتي!"

-"أخبرني إذن، أريد أن أعرف كم بنكًا سطوت عليه، وكم سيارة فجرتها، ومن من زعماء المافيا كان صديقًا لك؟"

أخذ كفي اليسرى بين يديه وتراجع للخلف خطوتين، ثم سألني: "أتدركين المسافة بيننا، هبة؟"

أومأت برأسي، ودق قلبي إذ أيقنت من تلاقي أفكارنا في نقطة واحدة، كان هذا الشعور قاسيًا ورقيقًا وأنا أرى إلى أي درجة هو قريب مني، دون أن أستطيع احتضانه، ولمسه كما أشاء، وتأمله حتى تشبعني تفاصيله.

-"البشر كائنات غريبة، ألا تعتقدين هذا؟"

-"بلى، خصوصًا عندما يفتقدون أوقاتًا كانت صعبة وعسيرة طالما صلوا لأجل أن تنتهي".

شد على يديّ، وضحك ضحكته السعيدة التي تطير صوابي.. كان يفكر مثلي في عناقنا الأول، ودفئه الذي لا يمكن لأحدنا وصفه لكنه يستقر في أعماق القلب.

لحظة صمت عاطفي طويلة مرت بنا، ثم شد يدي وقال: "دعينا نكمل نزهتنا".

كنا نمر دائمًا بميدان التحرير خلال نزهاتنا، وكان مما يزعجني رؤية بقايا الاعتصام في الصينية التي تتوسط الميدان، ولم أفهم قط ما يريده هؤلاء المعتصمون بعد تحقق أقصى مطالب الثوار برحيل مبارك غير مأسوف عليه، وربما لهذا لم يثر حفيظتي فض هذا الاعتصام في التاسع من مارس، لكن الافتراءات التي لحقت بالجيش آنذاك عن طريقة فضه للاعتصام، والانتهاكات التي أنزلها بحق المقبوض عليهم، هي ما أثار غضبي.

قال لي خالي: "بطلي غباوة.. العسكر أوسخ من اللي قبلهم، ولسة ياما هتشوفوا".

عبست في وجهه، وأنهيت الحوار ببرود مقررة ألا أخوض نقاشًا سياسيًّا مع من ينتقد الجيش مجددًا.

ثم جاء أسبوع زواجي المرتقب، وبدأت وساوسي تصحو وتكدر حياتي، وتبعث داخلي ألف تساؤل عن حسن اختياري وجدية مشاعري، ثم مات ترددي بسهم مسموم بعد يومين عندما وقع زلزال هوكّايدو المروع، ورأيت الحالة النفسية التي أصبح بها إيتشيرو. عندها أدركت أنني لا أستطيع التخلي عنه، أو العودة لقوقعتي السوداء المعزولة عن العالم.. لقد كان إيتشيرو -قبل أي شيء- صديقي الوحيد.

من المؤسف أننا أنهينا إجراءات الزواج في تلك الأيام، وأصبحنا زوجين في وقت لا نقدر فيه حتى على الابتسام.. أكد لي مرارًا أنه بخير، لكنني كنت أعتبر اختفاء بسمته كارثة تهدد العالم.. تلك الابتسامة! تلك الابتسامة! إنها الشمس التي تضيء عالمي كله، فكيف لها أن تنطفئ!

ذهبنا إلى السفارة، ووضعنا زهورًا على نصب صغير لضحايا الزلزال، وكتبنا بطاقات للتعزية كل بلغته، ووقفنا صامتين وكل منا يصلي، ثم أمسكت يده وهمست باسمه فنظر لي وابتسم، جعلني هذا أبتسم أيضًا وقلت له: "سيكونون بخير".

هز رأسه وضم أصابعه حول يدي، فشعرت بدفء مخدر جعلني أسند رأسي لذراعه، ومضينا لنزهة قصيرة على كورنيش المعادي، وطال تمسكه بصمته فسألته: "هل من شيء يزعجك بخلاف الزلزال؟"

بابتسامة باهتة قال: "لا شيء سوى الكوارث الطبيعية يرعبني".

داعبته بطريقة مشاغبة: "هذه عبارة لا نتوقعها نهائيًّا من ياباني. قلت لي كم زلزالًا يضرب اليابان سنويًّا؟ ألف؟ ألف وخمسمائة؟".

-"نحن نحب أوطاننا على ما هي عليه لا على ما نتمنى وحسب، هبة، بالنسبة إليّ لا يمكنني أن أتفهم أبدًا كيف تحبون وطنكم، فالحياة في مصر تبدو كالجحيم".

لطمتني عبارته، وقلت مصدومة: "أنت لم تتعرض لشيء يبرر هذه الكراهية، إيتشيرو!"

-"وهذا ما أعنيه بالضبط، الأجانب لا يُمسون بسوء، لكنكم تتعرضون لكل الأشياء التي تبرر الكراهية، أرى أن مصر لا تكترث كثيرًا بأبنائها بقدر ما تكترث للآخرين، بل وحتى بأعدائها، لهذا لا أفهم كيف تحبونها وكيف تموتون لأجلها

وتعرضون أنفسكم للخطر. أنتِ اقتربت من الموت في الثورة لأجل بلد لم يوفر لك تعليمًا لائقًا هو أتفه حقوقك".

شعرت بغضب شديد، وللحظة كرهت نفسي لأنني أخبرته بقصتي مع الجامعة، ولا أعرف ماذا كنت لأقول لو لم ينتبه لحدة كلامه ويعتذر بصدق: "أنا آسف".

-"لا عليك.. لكن الخطأ كان في القائمين على الوطن لا الوطن نفسه، وغدًا يكون كل شيء على ما يرام".

-"غدًا ستكونين زوجتي".

ضحكت: "غدًا أكون أول عروس تدلي بصوتها في الاستفتاء على التعديلات الدستورية".

-"تعديلات دستورية؟"

لبث حائرًا لثوان، ثم فهم ما أريد قوله فصحح لي نطقي، ثم سألني: "ما مشكلة الدستور؟"

تأبطت ذراعه وأكملنا سيرنا، وأجبته: "برحيل الرئيس وحل مجلس الشعب يعتبر الدستور لاغيًا".

-"وما المشكلة؟ اكتبوا دستورًا جديدًا!!"

-"البعض يعارض هذا، ويريد تعديل الدستور القديم، والعمل به لحين انتخاب برلمان ورئيس جديدين، ثم كتابة دستور جديد".

-"مممممم.. هذا يذكرني بدعابة يصعب أن تفهميها، ولكن الرأي الأول هو الأصوب، مادام الدستور قد سقط فكتابة آخر جديد أفضل؛ التعديلات مهما كانت لن تستمر، وصياغة دستور جديد ستوفر وقتًا وارتباكًا لا داعي لهما. ما هذه الابتسامة؟!"

-"أتساءل إن كان رأيك هذا بناء على اتفاقنا المعتاد في التفكير، أم بسبب تجربة قرأت عنها؟"

ضم أصابعه وطرق بها على رأسي: "لم تقرئي تاريخ اليابان إذن؟ لقد حدث هذا بعد الحرب العالمية الثانية، سقط دستور ميجي وتم تعديله، ولم يستمر التعديل طويلًا، ثم كُتب دستورنا القائم حتى الآن".

-"أنا لم أعرف هذا قط!"

-"لأنك طالبة فاشلة".

صحت ساخطة: "أيها الوغد! لماذا سقط الدستور بعدما تعديله؟"

أجابني باستفاضة مرعبة، فلوحت بيدي وقاطعته: "توقف، لا أفهم كلمة واحدة".

-"لهذا قلت إنك طالبة فاشلة".

-"حقًا؟! ولم لا تقولها بالعربية إذن أيها الطالب المثالي؟!"

ضحك، وطرق بأصابعه على رأسي ثانية وقال: "ليست مشكلتي أن لغتكم أصعب. عمومًا سأعتمد عليك في إتقانها بعد زواجنا".

شعرت بوجهي يحمر فجأة، دمدمت: "لا تكن متفائلًا".

-"لماذا؟ هل تريدين التراجع قبل زفافنا بيومين؟"

-"ماذا لو قلت "نعم"؟"

-"بهذه البساطة! أنت قاسية، هبة تشان، لكن حتى إلغاء الزفاف لن يستطيع إلغاء أنك الآن زوجتي".

جعلتني الكلمة أقشعر خوفًا، وللحظات معدودة استولت عليَّ مخاوفي مجددًا.

تعرفين يا ندى أنني أكبر فتيات العائلة، لهذا لم أر من قبل زفافًا من قرب، ولا أعرف ماذا تفعل العروس صباح يوم زفافها!. كانت بداية اليوم بالنسبة إليّ عادية كأي يوم آخر، استيقظت وتناولت فطورًا من الجبن والشاي، وخرجت إلى أقرب مدرسة لأدلي بصوتي في الاستفتاء، وعدت بعد أقل من نصف ساعة وأخذت حمامًا، ثم جلست أقرأ رواية رومانسية ادخرتها خصيصًا لأجل هذا اليوم، حتى سمعت أمي تصرخ فقفزت أستطلع المصيبة التي حدثت، فوجدتها تصيح: "الساعة 11! الساعة 11 يا هبة!"

حدقت إلى وجهها دون فهم، وسألتها: "وايه المشكلة؟"

-"يا باردة يا معدومة الإحساس! انهاردة فرحك!"

-"طيب وايه المشكلة؟ ايه سبب الصريخ في أول اليوم يعني؟!!"

جرجرتني خلفها إلى غرفتي، راحت تصرخ لأن هناك ألف شيء يجب عمله، لكنها رأت أن كل شيء جاهز، وفستان زفافي والإكسسوارات وكل ما سأحتاجه مرتب بعناية، وكل ما عليّ هو أن أمضي الوقت حتى العصر، ثم الذهاب لمصففة الشعر.. ما الداعي للصراخ إذن؟! لا شيء، لن أفهم الأمهات المصريات أبدًا، وأخلص ابتهالاتي لله ألا يجعلني مثلهن يومًا!

في هذا اليوم تذكرتك يا ندى، تمنيت لو كانت لديَّ صديقة تمضي معي الوقت في الثرثرة والضحك والغناء، لكنني كنت وحدي وأمضيت الوقت في غرفتي تاركة إياهم بالخارج يستعدون. ومع أذان الظهر استخرجت من أعماق مكتبتي صندوقًا أسميته يومًا صندوق الحلوى، وكنت أجمع فيه أحلى أشيائي وأغلاها.. كروت شخصية لأعز أساتذتي، كارنيهات جامعتي القديمة، حجر كريم منحتني إياه أمي في طفولتي كأمانة لأحفظها بعيدًا عن أبي ولم تستردها مني، ميدالية اشتريتها يومًا كهدية لأخي وكسرها وألقاها فاحتفظت بها، لأنني لم أتحمل أن تلقى مشاعر حبي له في القمامة معها، صورة لأبي وهو يحملني في عيد ميلادي الأول كلما طالعتها رحت أتساءل إن كان يومًا قد أحبني حقًّا أو اهتم لشأني، وهديتك الأولى لي، وورقة خط عليها سمير قواعد لعبة طفولية ضحكنا بسببها نهارًا كاملًا، وغطاء زجاجة مياه غازية لعبت به مع معاذ ذات يوم لنثير جنون محمود.

وفي هذا الصندوق أيضًا كنت أجمع الأشياء التي تخص مروان ثم وقعت في يدي، القلم الذي استعاره مني وأبيت أن أستخدمه بعده، وأوراقًا كتب عليها قواعد النوتة الموسيقية، ومشطًا صغيرًا كان ملحقًا بمرآة الجيب الخاصة بي، استعاره مني يومًا وعلقت به شعرة واحدة من رأسه وتعاملت معها ككنز فلففتها مع المشط في منديل حريري، ومنديل به بضع قطرات من دمه عندما مزق أحد الأوتار إصبعه، وميدالية اشتريتها له كهدية وترددت في منحها له حتى ضاعت فرصتي، وأخيرًا ميداليتين تكملان بعضهما البعض اشتريتهما يوم اعترفت لنفسي بحبه ونويت أن أمنحه إحداهما إذا ما ارتبطنا يومًا، كان هذا في التاسع عشر من مارس 2008 يا ندى.

في مثل هذا اليوم قبل ثلاث سنوات.

مررت يدي على كل تلك الأشياء بابتسامة غريبة، ثم انتبهت لدموع تنهمر من عينيَّ.. صدمني الاكتشاف، ورحت أجففها شاعرة ببعض العار؛ كان لديّ إيتشيرو، لديّ شخص يحبني كما أحبه ولن يتركني أبدًا، ولا يحق لي أن أبكي لأي

سبب بعد الآن، ليس لأجل تلك الحياة المصبوغة بسعادة وهمية، والتي رحلت وتركتني منذ زمن، وها أنا أودع كل ما بقي منها إلى الأبد.

لا أعرف لماذا بدت لي فجأة تلك الحياة التي يُفترض أن أكون عشتها حقيقية أكثر من أي وقت مضى، وبدت حقيقة أنني لم أحظ بها قط ولن أحظى بها أبدًا مؤلمة أكثر من أي وقت مضى، الأب الحنون والأم المتفرغة والأخ المُحب، والأصدقاء الذين يقبلونني كما أنا ودون اكتراث بماضي، كل هذه أشياء خرافية لا وجود لها، لم تكن لديّ، ولن تكون لديّ.

رفعت الصندوق بين يديَّ، وأطلت النظر إلى محتوياته كأنني لن أراه ثانية، وبابتسامة أخيرة قربته من أنفي، شممت عبق الذكريات العالقة به، ودون نظرة أخرى أغلقته، أبقيته في حضني لحظات ثم أعدته لمكانه، ونهضت. بهدوء ارتديت ملابسي ثم خرجت وأخبرتهم أنني ذاهبة للكوافير. سألتني أمي مصدومة: "لوحدك؟"

نظرت لها بعدم فهم وقلت: "وايه المشكلة؟"

كنت أتغابى يا ندى، أتظاهر بأن ما أفعله أمر طبيعي، ولكن بداخلي كان شعور من الشجن وربما المرارة يملأني، شعوري بالوحدة كان مؤلمًا حتى وإن كانت كل الضجة الموجودة بالبيت قائمة لأجلي، ربما لأنني كنت أفكر في الزفاف كما يجب أن يكون، عائلة محبة ترقص لأجلي وصديقات يحطن بي، لكن عائلتي الآن اقتصرت على أخ يثير الشغب، ويفتعل أكبر قدر من الضوضاء مع أصدقاءه وباقي شباب العائلة في محاولة بدت لي بائسة، وخال يبذل كل جهده لترتيب الأمور وتنظيمها تليفونيًّا، وأم تبكي من خلف ظهري، ولشد ما أكره البكاء ولشد ما يثير أعصابي! الشخص الأهم في هذه الأحداث لم يكن موجودًا ولو حتى بحضور شرفي.. لم أخبرك يا ندى أن أخي اتصل بأبي ليخبره أن ابنته ستتزوج، فقال له: إن ابنته ماتت وأغلق الهاتف، من الغريب أن كثيرًا من الأمور التي نتوقعها ونوقن بها تظل مؤلمة عندما تحدث فعلًا، لقد سخرت من الأمر كثيرًا وقلت: إنني لست بحاجة إليه، لكنني الآن في تلك اللحظة الفارقة من حياتي كنت أريد وجود أب في عالمي الصغير، حيًّا كان أو ميتًا، أما أن يكون موجودًا وغير موجود معًا فهذا هو الألم بعينه.

نبهتني الكوافيرة إلى أن عينيّ دامعتين، فابتسمت في وجهها بإشراق واستعدت رباطة جأشي، رحت أقنع نفسي أن وضعي أفضل بكثير من وضع

إيتشيرو الذي هو وحيد بالكامل الآن، وليس معه أي شخص بخلاف صديقه إسلام.

قالت لي الكوافيرة وهي تنتهي: "أنتِ جميلة جدًّا، جدًّا، مش محتاجة لأي مكياج".

نظرت لنفسي في المرآة فوجدت اللمسات البسيطة التي طلبتها جعلتني أبهى وأكثر جمالًا بالفعل، لم يكن هناك سوى كحل كثيف ومكياج دخانيّ لعينيّ يتناقض مع اللمعة الفضية أسفلهما، ووجنتيّ متوردتين بلون هادئ أغمق بدرجة واحدة من لونهما الطبيعي، ولون وردي لامع لشفتيّ. أكره المكياجات عادة لأنني لا أحب أن أبدو واحدة أخرى، لهذا طلبت منها أن تضع أقل القليل الذي يخفي أي عيوب في بشرتي ويجعلها تبدو متألقة، دون المبالغة البشعة والمرعبة التي أراها عادة لدى العرائس، وكانت هذه هي النتيجة.. ملأني ارتباك عظيم وأنا أنظر لنفسي في المرآة، ولم أرد أن أطيل النظر.

في النهاية جمعت شعري الذي مسته بالمكواة في تصفيفة لطيفة سهلة الفك، وأخفته تحت طرحتين واحدة بيضاء وأخرى فضية بشكل أبهرني أنا نفسي، وجعلني لا أناقش المبلغ المبالغ الذي طلبته.

عدت للبيت بعد ساعتين فوجدت الضوضاء قد بلغت حدًا خياليًّا، والجنون الذي يمارسه أخي وشباب العائلة المخابيل أصبح فقرة تتحدث عنها المنطقة كلها، ودخلت غرفتي وارتديت فستان زفافي بحرص، وأنا أحاول أن أصم أذني عن الجنون الدائر بالخارج، لأركز في صوت ميانو مامورو الذي طرد أشجاني وهو يغني من جديد لروعة الحب.

كان فستاني رائعًا، عشت طيلة حياتي أتمنى أن أتزوج بفستان منتفش التنورة كالقصص الخيالية، وفي النهاية اخترت النقيض تمامًا، كان حريريًّا وانسيابيًّا بشكل خلاب، بياضه ناصع وموشى بخيوط فضية، لهذا اخترت أن أخفي الذراعين وفتحة الصدر بكنزة فضية حريرية نافسته جمالًا، وعندما انتهيت لم أكن قادرة على النظر في المرآة دون شعور أكبر بالارتباك، ورحت أتساءل عن الفتاة الجميلة –بل باهرة الجمال- التي تطل عليّ من المرآة؟

دخلت أمي الغرفة فكبَّرت، وسرعان ما بدأت تبكي صراحة، فتنهدت وهدأتها، ثم ظهر خالي وبدأت استعدادات المغادرة، وبحذاء سندريلا الفضي مشيت متأبطة ذراعه حتى السيارة اللامعة المزينة بالورد تحت بيتي، والسعادة

التي أشرقت عليّ وملأت نفسي بعدما رأيت صورتي المذهلة في المرآة تجعلني كالسكارى.

ضحكت لفترة طويلة مع خالي، وانهمكنا في السخرية من الطابع المصري المحب للنكد في أجمل لحظات السعادة، وبرغم هذا رأيت عينيه دامعتين وهو يمد لي يده لأغادر السيارة، وجعلني هذا أتأثر تأثرًا عميقًا دفعني لاحتضانه فترة قاربت الدقيقة.. لم أستطع نطقًا لأن كل كلمات الامتنان لم تكن لتعبر له عن مشاعري، كان دائمًا صديقًا لي لأنه لا يكبرني بكثير، أما الآن فقد قام بشيء سيمثل لي –إلى الأبد- دينًا لا أستطيع رده.

كنت وسط حديقة شاسعة، تعانق السماء خضرتها عند خط الأفق الغربي، والشمس في طريقها للرحيل، وسمعت موسيقى لطيفة تتردد من بعيد.. تفوق إيتشيرو على كل شيء توقعته أو حتى تخيلته، وجهز لي زفافًا أجمل من أجمل أحلامي.. زفافًا في ضوء الغروب في مرج واسع وموسيقى هادئة راقية، وبحضور خمسين شخصًا على الأكثر، عندما رأيت ما رتبه لأجلي فكرت في أن المرء قد يرى لمحات من الجنة وهو لا يزال على قيد الحياة.

كان بانتظاري تحت قوس تزينه الزهور، وتتدلى منه أوراق أشجار ناضرة الخضرة، وبالقرب منه صديقه إسلام. ابتسامة هادئة جدًّا وحنون كانت تضيء ملامحه، ومقطوعة "ها هي العروس قادمة" كانت تجعل الجو بالنسبة إليّ خياليًّا حقًّا، وصلت له فرفع خالي يدي عن ذراعه ومد يده بها نحوه، لم أشعر بهذا، كنت مأخوذة بالنظر إليه، وشعره الطويل المرتب بنظام ونعومة، عيناه الداكنتان، ابتسامته، قامته الفارعة، أناقته اللطيفة.. كان أجمل رجل رأيته في حياتي، أكثر رجل أحببته، أكثر رجل انجذبت له، أكثر رجل تمنيته وأردته من قلبي، والآن، يدي تؤخذ إليه لأكون له ما حييت.

أخذت قصتي الخيالية بُعدًا آخر منذ تلك الليلة يا ندى.

كان ذلك حفل زفافنا الأول، لكن زفافنا الثاني والحقيقي بدأ في بيتنا، في تلك الشقة الواقعة في طابق مرتفع للغاية بأحدى عمارات المعادي، والتي تحول أحد جدرانها لنافذة ضخمة تطل على النيل، ومن بعيد تبدو قمم الأهرامات، وتنحني السحب لتعانقنا. أمام تلك النافذة، وعلى ضوء الشموع، رقصت مع إيتشيرو شطرًا من الليل، وتتبعت النجوم بأناملي فوق الزجاج، وتركت شعري الطويل ينهمر ويغمرني، ليراني –لأول مرة- أنثى كاملة.

لمس إيتشيرو خصلات شعري الناعمة مأخوذًا، وقال: "لم أخبرك قط من قبل كم أراكِ جميلة، هل فعلت؟"

بحثت في ذاكرتي لكنني لم أتذكر أنه قد فعل.. يا للغرابة!

حلَّ زر الكنزة الحريرية التي أرتديها، وأزاح كميها للخلف بأنامله فانزلقت عني لفرط نعومتنا، ثم لمس خدي، وانحدر بأصابعه إلى عنقي، ثم إلى ذراعيّ، واحتواني في عناق دافئ وهمس: "أنت أجمل فتاة في هذا العالم، هبة".

ارتبكت، لكن قلبي على قوة خفقاته كان مطمئنًا كأنني عدت إلى الوطن، فرفعت ذراعي وأحطت وسطه، ولا أعرف كم لبثنا صامتين في هذا الوضع، ربما لحظات وربما سنوات، لكنها كانت لحظات تضم إلى صندوق اللحظات الثمينة في ذاكرتي، اللحظات التي سأموت ولا أحمل في قلبي سواها.

لفنا صمت مفعم بالمشاعر، ولن أنسى ما حييت نظراته المحبة قبل أن يقربني إليه، يشدني إلى حضنه ليحتويني في عناق دافئ تصاعدت حرارته بسرعة، مرر يده على عنقي وذراعي، وازداد احتضانه قوة، ثم لامست أصابعه الجزء العاري من ظهري، عندها دق قلبي، وانتبهت لشدة ضربات قلبه هو، ولدهشتي وجدت نفسي فجأة أشعر بارتباك أقرب إلى الخوف!

تمالكت نفسي، كان الخوف أمرًا غير متوقع لم يخطر لي من قبل ببال؛ لم أشعر مع إيتشيرو من قبل بشعور مماثل، بالعكس، وجوده يمنحني الطمأنينة والدفء، كأني أقعى قرب مدفأة حنون في ليلة شتاء. مرت عليّ لحظات أغمضت فيها عينيّ لأسترد عقلي وأحرر مشاعري نحوه، لكن أنفاسه لفحت عنقي وهو يقبلني أسفل أذني، عندها فارقت زفرة غريبة صدري، ودون إرادتي تحركت يداي المحيطتان بوسطه لتصبحا فوق صدره، مترددتين بين دفعه برفق أو شده أكثر.

توقف إيتشيرو، ولثوانٍ شعرت بذعر من أن أكون جرحت مشاعره، ناديته لكنه أجابني بصوت وشوشة مطمئن، ورفع رأسه لأعلى، لم يبتعد ولم يخفف من قوة احتضانه لي، لكن عناقه عاد إلى تلك النقطة الدافئة الأولى، وأصبحت دقات قلبه أكثر هدوءًا، ومرة أخرى تحركت يداي دون إرادتي، وأحاطتا وسطه بهدوء واطمئنان.

أطلق السكون عنان حواسي، وتنهدت تنهيدة بدت من عمق اشتياقها كزفرة ألم؛ عطره عبث بأعصابي عبثًا لا يحتمل، وبشعور مثير هو مزيج من دهشة

وشغف اكتشفت أن الدفء الرائع المحيط بي ما هو إلا دفء جسده المتسرب إليَّ، كان الشعور به مثيرًا للحنين، سلبني عقلي، جعلني أطوقه وكأنه طوق نجاتي، وقبلته، مرتين فعلت ثم تنهدت واستسلمت لرغبتي الشديدة في الشعور بقربه، تذوق رائحته، والاستمتاع بدفئه.

صوته المداعب أتاني خافتًا ومثيرًا: "أتدركين حقًّا ما تفعلين، هبة؟!"

وأمسك بوجهي يبعدني قليلًا، رأيت في عينيه نظرة حب خدرتني وسلبتني ما بقي من عقلي، ومن فرط انشغالي بها وجدت صعوبة حقيقة في الرد: "أدرك فقط إلى أي درجة أحبك".

الدعابة البادية في وجهه تحولت إلى شوق مس به خدي، ثم انحدر بلمسته إلى عنقي، ملكتني تلك اللمسة تمامًا، أسرتني، دار لها عقلي حتى ترنحت، احتضنته أكثر، وازداد احتضاني قوة وهو يميل عليّ، وبعينين مغمضتين انتظرت القبلة العميقة التي داعبت أحلامي طويلًا، والتي أتت أرق بكثير مما توقعت، وكانت أشبه بلمسة خاطفة منحتني أحلامًا بلا حصر ثم تركتني، وها هي تعود لتمنحني أحلامًا أخرى، بعضها رقيق لطيف، وبعضها غريب مضحك، وبعضها جامح إلى حد الجنون، ومجنون إلى حد أهاج خوفي الصريح بعد ارتباكي المتواري.

الخوف المفاجئ الذي اقتحمني كان كنهار غادر بدد عذوبة فجر لطيف، روعني، قلب كل مشاعري إلى فوضى، لكن يد إيتشيرو أمسكت بيدي، كأنما تستنقذني من عاصفة هوجاء، ثبتتني كأنها تربطني لبر أمان، وسمعت وشوشته المطمئنة تهدئني، تعيد فوضى مشاعري إلى ما كانت عليه، ثم تملَّكتني ذراعاه تمامًا، وسمعت أنفاسه في أذني مباشرة، حارة، لافحة، مثيرة، تلاها صوته أشد إثارة، يعدني بأجمل مما تمنيت: " هذا حلم رائع، هبة، حلم لا يملكه سوانا".

كل هذه السعادة يا ندى! أيعقل أن نجدها حقًّا في هذا العالم؟! أنا لا أصدق هذا، أحيانًا أشعر أن كل هذا حلم كبير سأفيق منه، لكن وجود إيتشيرو جواري يستمر بإخباري أنني أحيا واقعًا يفوق أحلامي القديمة، عندما يبتعد فقط يقتحم الواقع المألوف عقلي ليحدثني أنني كنت أحلم، أو أتوهم كل تلك السعادة التي لم أتخيلها قبلًا.

كنت في أعمق لحظات الغرق حين انسحبت يده التي تسند رأسي، ساحبة معها سباتي العميق، واختفى وجوده المحسوس جواري، لف الفراغ كياني،

وسمعت لأول مرة ذلك الصوت الغامض يخبرني أن كل ما أعيشه مجرد حلم. ناديته بصوت خافت لكنه لم يرد، ناديت ثانية فأجابني الصمت، تلاشى نعاسي في لحظات وهببت من نومي أناديه، عندها رأيته واقفًا جوار الفراش يرتدي الروب، وضوء الفجر يغلف حدود جسده بهالة شاحبة زرقاء، والتفت لي يسألني برفق: "هبة تشان؟"

-"إلى أين ستذهب؟"

-"سأشرب".

تنهدت وخفضت رأسي، جلس جواري وسألني: "هل رأيت كابوسًا؟"

-"لا، لكنه صوت مزعج".

-"صوت!"

لم أرد، فقط وضعت يدي على عيني، كرر سؤاله بصوت رقيق، فقلت: "هذا لم يكن حلمًا، أليس كذلك؟"

ظل صامتًا قليلًا، ثم حل الروب عنه واندس تحت الغطاء جواري، شدني إلى حضنه مجيبًا بصوت لطيف: "نعم، هبة، كل هذا حقيقي".

-"أنت باقٍ إذن".

-"ليس لديّ أي مكان في هذا العالم إلا معك!"

-"لا تذهب".

-"لن أفعل.. أنا آسف".

وربت على رأسي ليعيدني إلى وسادتي، فسقطت في النوم فورًا، وفقدت كل شعور بنفسي حتى تسللت إليَّ شمس الظهيرة، فتحت عينيَّ فكان أول ما رأيته الصليب الفضي المتأرجح على صدره، ويخرج لي لسانه متحديًا، يذكرني أن فتاة أخرى مرت بحياته وأحبها أكثر مني، ولا يريد التخلي عن ذكراها رغم وجودي.

دمدمت محنقة: "يا فتاح يا عليم!"

حاولت استرداد نومي العميق، لكني انتبهت لحديثه بالإنجليزية مع شخص ما، وأصغيت قليلًا فلم أفهم شيئًا، وببطء فتحت عينيَّ فحياني ببسمة مشرقة، ولمّا انتهى مال وخطف قبلة سريعة مني، وقال: "هيا بنا؟"

مستني تلك القبلة بسعادة ثمينة، كانت سريعة ودافئة، كأنها شيء اعتاد فعله عمرًا كاملًا.

سألته: "إلى أين؟"

-"اغتسلي وارتدي ملابسك، واتركي كل شيء لي".

صنع إفطارًا خفيفًا، وفي أجواء موسيقية متناغمة أكلنا، ورافقنا شعور سعيد بالسلام والسكينة طوال النهار، ومع غروب الشمس كنا نستقبل جوًّا مختلفًا تمامًا بوصولنا إلى الإسكندرية، لنبدأ زواجنا بالرحلة التي ألغتها الثورة.

نظرت له وابتسمت، لم أكن بحاجة لقول شيء، كان يشعر بكل ما يدور في صدري من حبور وانطلاق.

لم تختلف الشقة التي أجّرها إيتشيرو في الإسكندرية عن شقتنا في القاهرة، كانت تواجه البحر من طابق مرتفع، والشرفة الكبيرة في صدر الصالة تحيلها إلى حلم حي، عشناه في ليلتنا الأولى هنا.

قضينا وقتًا رائعًا، لم تنبع روعته من عواطفنا الجارفة بقدر ما نبعت من استقرار هذا يقين مطمئن في أعماقي بأننا سنبقى معًا إلى الأبد. ما أجمل الإيمان يا ندى! ما أجمل أن يكون لديك شيء أنت واثقة منه كل الثقة، يكون الأرض الثابتة التي تقفين عليها وتنطلقين إلى آخر العالم واثقة من أنها لن تهتز أبدًا. طالما حسدت من يملكون إيمانًا من هذا النوع، وطالما حسدت كل شخص استكان مع نصفه الآخر المقدر لها، سواء تعذب لأجله أو مات لأجله أو جرح بسببه.. كنت أشعر بالغيرة ممن يملكون شخصًا لن يفترقوا عنه أبدًا، أو على الأقل شخصًا امتلكوا اليقين الجميل بأنه الحب الذي سيعلق بقلوبهم حتى النهاية.

من كان يصدق أنني سأعثر على هذا الشخص؟!! حتى أنا لا أصدق!!!

كنت نائمة في حضنه والشمس على وشك الشروق عندما همست: "كل هذا يبدو كحلم، ألا تشعر بهذا؟"

-"لا أريد أن أشعر بهذا، هذه هي الحياة الحقيقية التي أستحق".

ابتسمت وازددت التصاقًا به، بعد قليل سألني: "هبة تشان، لماذا يُحرَّم على البشر قتل أنفسهم؟"

رفعت رأسي ساخطة أقول: "السؤال المناسب في الوقت المناسب! هل تمزح؟!"

-"أخبريني حقًّا، لو كان هناك رب حقًّا، فهل يحبني؟"

تلاعبت بخصلات شعره الطويلة وتمتمت: "لو لم يحبك ما خلقك من الأساس، وما كان ليمنحك القدرة على التفكير التي تجعلك تتساءل هكذا، وما كان ليمنحك كل ما تتمتع به. لماذا لا تنظر حولك لتجد أنك تتمتع بألف شيء حرم منه سواك؟ لديك العقل والصحة والمال، ولديك جسد جميل ووجه جذاب، وعلم كبير ومستقبل".

-"إذن فهو لا يحب الفقراء والمرضى بما يكفي؟"

تأوهت واستلقيت على ظهري ساخطة...

-"أكثر ما يغيظني فيما تقول هو ثقتي بأنك تعرف الإجابة الصحيحة ولا تريد أن تراها".

-"لا يوجد عدل في الأرض، هبة".

-"نعم، فبني البشر يظلم بعضهم بعضًا في كل لحظة، لكن الله لا يظلم، لقد منح كل منا حظه من الحياة بشكل يختلف عن الآخرين، فحتى الفقراء قد يملكون سعادة أو نجاحًا أكثر من آلاف الأثرياء، والمرضى قد يملكون موهبة أو عبقرية لا يمكن أن نمتلكها نحن".

ابتسم قليلًا، تمتم: "ألا تظنين أن امتلاكك لكثير من الأشياء قد يكون بلا معنى إذا افتقدت شيئًا هامًّا جدًّا تحتاجين إليه؟"

-"آآآه، إنها الأنانية البشرية المعتادة!"

-"نعم، هي كذلك، أخبريني، لو أنه موجود حقًّا، فلم خلقنا ونحن نحمل تلك الأنانية التي ستعذبنا دومًا بعدم الرضا؟ ألا تظنين أنه يتعمد إيلامنا أحيانًا؟"

غص حلقي لثوان انزعاجًا مما يقول، لكنني قاومت نفسي لأقول: "إيتشيرو.. انظر حولك وتأمل الحياة، انظر من نحن، وأين نعيش، انظر لهذا الكون الذي يضم مليارات المجرات، وكل مجرة تضم مئات أو آلاف من المجموعات الشمسية، وهذه المجموعات تتكون من عشرات الكواكب الصغيرة أحدها كوكبنا هذا. على هذه الأرض عشرات الآلاف من الكائنات الحية المختلفة، وملايين البشر كل منهم لا يشبه الآخر في أي شيء".

فتح عينيه ونظر لي نظرة دهشة وعدم فهم...

-"... ورغم كل هذا الزخم والصخب المحيط بك إلا أن حياتك تسير وفق نسق وتوازن لا يختل أبدًا، كم حدثًا صغيرًا أثر في حياتك وغيرها تمامًا؟ كم صدفة جعلتك تبتهج لأنها جمعتك بشخص تحبه؟ وكم صدفة أصغر أنقذتك من الموت؟ هل حدث قط وأن تأخر رزقك؟ هل حدث قط واضطربت ضربات قلبك؟ انظر إلى قلبك، إيتشيرو، استمع لتلك النبضات لتعرف حقًّا أنه يحبك، لا تتأمل كل ما قلته لك بل انظر فقط إلى داخلك، إلى عقلك الذي يعمل بطريقة لا يعمل بها عقل شخص آخر قط، إلى نبضات قلبك المنتظمة، وأنفاسك التي تعمل حتى وأنت نائم، وإلى أعصابك التي تنقل أوامر مخك إلى جسمك في زمن غير محسوس، فكر في كل هذا معًا وحاول أن تستوعبه وستفهم".

-"لست مقتنعًا، ولكن بإمكاني أن أفهم كيف تفكرين".

-"هه؟"

وابتسم، مد يده يحيط بي ليأخذني في حضنه مجددًا...

-"أفهم تفكيرك، ولأول مرة منذ زمن أكون شاكرًا لأنني لم أخسر حياتي قبل لقائك. لو أن شيئًا يثبت لي أنه موجود ويحبني، فهو أنني عشت حتى اليوم، ولهذا أنا ممتن".

شعرت بعطف رهيب نحوه، ومسست جبهته بأناملي أهمس: "بالتأكيد يحبك، إيتشيرو، إنه يحبنا جميعًا بالقدر نفسه".

هز رأسه بتأكيد لم يظهر تمامًا في عينيه بقدر ما بدا أنه يحاول إقناع نفسه به، وبدأت عيناه تنعسان ببطء وهو يتمتم:

-"هبة، أنا حقًّا سعيد".

أمسكت بيده وقبلتها هامسة: "سأجعلك كذلك دائمًا يا حبيبي، نم الآن واحلم أحلامًا سعيدة".

ودفعت ذراعي أسفل عنقه فمال برأسه على كتفي واسترخى، وببطء تراخت أصابعه وأنا أمسك بيده، بعد لحظات من الهدوء تمتم: "شيوري تشان".

وسحب يده من يدي، لامس الصليب النائم على صدره، وتوتر وجهه بتعبير متألم، ثم تشبث به، وبدا كأن وعيه قد انطفأ تمامًا واستغرق في نوم شديد العمق.

وجع غريب وخز قلبي، ثم ابتسمت ساخرة من خيالاتي واحتضنته، تشبثت به أحميه وأحتمي به، وبعد طول تفكير استغرقت في النوم بدوري.

عندما استيقظت وجدته جالسًا على مقعد قريب، ويمدد قدميه على مقعد مقابل واضعًا عليهما حاسوبه المحمول، كان مستغرقًا في الكتابة ولوحة المفاتيح تقرقع تحت أنامله.. شكله كان غريبًا بمعطف الاستحمام وشعره المبتل المصفف للخلف، والنظارة الطبية العريضة التي لم أرها من قبل، تعبير وجهه كان جادًا وفي غاية التركيز فبقيت صامتة أتأمله.

بعد فترة طويلة ألقى نظرة عابرة عليّ وعاد لما يفعل، ثم انتبه لاستيقاظي فابتسم، واصل عمله بضع لحظات ثم أغلق الجهاز، ونزع نظارته ووضعها فوقه ونحاه ناهضًا إليّ، جلس جواري ومال يقبلني فبادلته القبلات، وسألته: "كم الساعة؟"

-"الثالثة ظهرًا تقريبًا، هيا انهضي، فلديَّ مفاجأة لك".

تمطيت وتثاءبت بقوة، وسألته بكسل: "أي مفاجأة؟"

ناولني بطاقة ذهبية لامعة، مغلفة بورق شفاف ومزينة بفيونكة وردية لطيفة فصحت بها إعجابًا، رحت أداعب الفيونكة وأنا أبتسم وأطلق صيحات جديرة بطفلة في الخامسة رأت قطة وليدة، فلم أفيق من بلاهتي إلا وهو يحتضنني ويضحك. قال بصوت باسم: "أنت حقًا بريئة لدرجة خيالية".

-"إنها جميلة جدًا حقًا، إيتشيرو، شكرًا".

-"ما هي؟"

-"الفيونكة".

-"وماذا عن الهدية نفسها؟"

انتبهت للمرة الأولى للهدية، واعتذرت له بوجه محمر وقلبتها في يدي، فتحت الغلاف الشفاف وقرأت العبارات الدقيقة المكتوبة بالإنجليزية فلم أفهم الكثير،

قرأت مثيلتها اليابانية فأعاقني جهلي ببعض الرموز الصينية، قطبت وسألته: "أهي لغز اليوم؟"

نكش شعري وقال: "بل هدية زواجنا".

-"هدية؟"

-"نعم، بطاقة ائتمان يمكنك استخدامها في أي مكان بالعالم، إنها هديتك".

هززت رأسي وناولته إياها، قلت بابتسامة: "أنا لست بحاجة لها، زواجنا بها أفضل هدية في العالم، إيتشيرو".

أوقف يدي وقال وهو يهز رأسه: "لا يمكنك رفضها، إنها هدية أبي، كان من المفترض أن أشتري لك بها سيارة لكنك قلتِ إنك تكرهين السيارات، فاشتري بها ما تريدين".

فتحت عيني ذعرًا وسألته: "لحظة واحدة، هذه البطاقة بها رصيد يكفي لشراء سيارة؟"

ببساطة أجابني: "مممممم.. نعم، خمسة مليون ين تقريبًا".

-"أنت بالتأكيد تمزح".

وألقيت البطاقة كالثعبان السام، ونظرت له منتظرة التعبير المرح الذي ظهر على وجهه في الحال قبل أن يضحك، وقال: "لقد أخبرته كيف سيكون رد فعلك لكنه لم يصدقني، في كل الأحوال لقد أوصلت رسالته كما طلب، لا يمكنه الشكوى".

-"من هو؟"

-"أبي، إنها هديته".

والتقط البطاقة وناولها لي ثانية وقال: "احتفظي بها، فالهدية لا ترد، إذا أردت ردها فافعلي هذا بنفسك".

-"أفعل ماذا؟"

قال بصوت لعوب فيه نبرة سخرية مراوغة: "قفي أمام تاكاهاشي سويتشيرو وتجرئي على رد هديته إذا أردت، أما أنا فلن أفعل".

أطبقت يديّ على البطاقة وتوترت، تمتمت وأنا أقرب للغيظ مني للسخرية: "لو كنت أعلم أنك ثري إلى هذا الحد...".

-"أنا لست ثريًّا".

لوحت بالبطاقة في وجهه وكدت أنفجر، فأنقذ نفسه بسرعة: "عائلتي ثرية، لكنني لست كذلك".

ضممت شفتيّ وقطبت جبيني ونظرت له كأني أقول: "كف عن العبث" فضحك، توقعت أن يقول أي شيء أو يفعل أي شيء سوى أن يأخذني بين ذراعيه بهذه القوة، أدهشتني ردة فعله، سألته باستغراب: "ماذا تفعل؟"

لم أفهم ما يضحكه هكذا وأنا أحترق توترًا، كدت أبعده لكنه تمسك بي، ضمني بين ذراعيه أكثر، وبأنفه أزاح خصلات شعري عن خدي وقبلني، وبصوت عاطفي همس لي: "أريد فقط أن أحبك أكثر".

أمضينا أيامًا من الحلم يا ندى، كم من الوقت مر يا ترى وأنا في تلك الحالة من الثمالة؟ أسبوع؟ أسبوعان؟ لا أعرف، كل ما أعرف أنني كنت غير راغبة في انتهاء هذا الوقت، كنت أريد البقاء في هذا الزمان والمكان بلا نهاية، كان نهارنا رحلة رائعة طويلة لاستكشاف ألف جديد وجديد، والسير بلا هدف في أماكن مجهولة بذكرى ممتعة، أو صورة تذكارية مميزة، أما ليلنا فكان فقرة طويلة من الرقص والحب.. كنت في الجنة يا ندى، عشت فيها ورأيتها بعيني.

وفي أحد صباحات أبريل المشمسة انطلقنا إلى قلعة قايتباي، رافقتنا الشمس الرائعة التي عادل دفؤها برودة الهواء في مزيج ساحر.. سرنا على الكورنيش طويلًا، وجريت بخطوات مرحة أدور حول نفسي، وإيتشيرو يضحك ويلتقط لي آلاف الصور.

وعند قلعة قايتباي كان المشهد أسطوريًّا، استمع إيتشيرو لترجمتي عن تاريخ المكان، ثم واصل التصوير دون أن يشعر بي، ثم استدار صوب البحر ومنظر السحب التي تتكاثف في الأفق.

لم أقطع تركيزه لفترة، ولكن مع ازدياد الحرارة قلت له: "سأذهب لأشتري عصيرًا".

وقفزت عن حافة السور التي أجلس عليها وابتعدت بخطوات راقصة من شدة سعادتي، كنت أتقافز كالأطفال مستريحة لخلو المكان النسبي، ولكن فجأة

وجدت أحمقًا ما يقفز من فوق أحد الأسوار، ويعترض طريقي بقامة فارعة حجبت عني الشمس.

رفعت عينيّ أنظر إليه فتحرك جانبًا في نفس اللحظة. ضربت الشمس عينيّ فأغمضتهما، وعندما فتحتهما رأيت وجهًا ينظر إليّ، وجهًا مألوفًا جدًّا لكني لم أعرفه.

سألني بصوت متشكك: "هبة؟!"

انضم إليه شخصان آخران حجبا عني الشمس فتمكنت من النظر بروية، كنت صامتة صمتًا لا أفهمه، وأنظر إلى ثلاثتهم نظرات بلا معنى أحاول التركيز، كانوا مألوفين جدًّا كأنني عرفتهم منذ زمن بعيد، بعيد للغاية!

كرر سؤاله وهو ينزل الجيتار عن كتفه ويسنده للأرض: "أنتِ هبة؟ صح؟!"

تعلقت عيناي بالجيتار، وفي لحظة بدت نبرة صوته مألوفة فدق قلبي، ونظرت في ملامحه بدقة فعرفته، وتراجعت للخلف خطوات وتجمدت.

كان ثلاثتهم أمامي.. مروان، ومعاذ، وسمير!

فجأة، وأنا في أعماق سعادتي وجدت نفسي أمام الأشخاص الذين قتلوني قتلًا، وهم بكل سعادة يبتسمون!

هبة

5 يوليو 2011

اليوم الحادي عشر

أطياف الذكرى

صديقتي العزيزة ندى

لا يمكنني وصف اللحظة التي التقيت فيها هؤلاء الذين أسميناهم يومًا "أصدقاء".

للحظة كاد قلبي يتوقف عن النبض إذ اقتحمته بجموح آلاف الذكريات والمشاعر المجنونة، وفتحت عينيّ على اتساعهما محدقة فيهم لا أصدق حتى أنهم هم، أيعقل أن يكونوا هم!؟

لم أصدق، ابتسمت بدهشة وأنا أعتقد حقًّا أنني توهمت وجودهم، ولكن لم يكن ثمة شك في وجودهم، كما لم يكن ثمة شك في هويتهم، لن أخطئهم أبدًا، كانوا بالفعل هم، مروان ومعاذ فارعا القامة، وسمير الذي لم يفقد من وزنه الكثير، كل شيء فيهم كما هو!

كانوا صامتين وعلى وجوههم نظرات غريبة، ومروان بالذات كان أكثرهم انفعالًا، وكرر سؤاله: "هبة؟ معقول؟!"

تراجعت خطوة لأنظر له بإمعان، كأن زمنًا لم يمر! نفس نمط الملابس، نفس تصفيفة الشعر، نفس حلاقة الذقن، الجيتار معلق على كتفه كما اعتاد دائمًا، لا شيء مختلف إلا تلك النظرة المذهولة المبهورة في عينيه، لكم أسعدتني، لكم جعلتني أشعر بالرضا.

قلت بطريقة عابثة: "آه، هاي".

كنت أقرب إلى السخرية، لم أكن قادرة على الشعور بأي شيء آخر سواها، بعد كل هذا الوقت يرونني الآن، هنا، مع إيتشيرو، فأي سخرية!

كأنما التقط أفكاري اقترب مني، لف ذراعه حول وسطي وسألني: "هل هناك مشكلة، هبة تشان؟"

ضحكت، قلت له بإشراق: "لا شيء، كل شيء على ما يرام".

أشار لهم ونظرة غيرة مدهشة في عينيه كأنه طفل يمنع أمه من حمل سواه، وتذمر: "وهؤلاء الأشخاص؟"

لففت ذراعي حول وسطه مواسية وقلت ببساطة: "مجرد معارف قدامى، لا شيء يهم".

زم شفتيه ونظر لهم، أعتقد أن نظرته كانت متملكة ومتحدية بما يكفي لتفجير هذا التوتر بينهم، فقد تبادلوا نظرات متسائلة ومستغربة، ثم كرر مروان سؤاله: "هبة؟ معقول أنتِ؟"

قلت بسخرية: "أيوة يا مروان هي أنا، ليه مستغرب كأن طلعت لي عين تالتة؟"

تمتم سمير: "ياريت!"

أطلقت نخرة ساخرة ونظرت له، بالفعل لم يتغير قط، ولن يتغير أبدًا!

ثم نظرت لمعاذ، للحظة شعرت بكهرباء خفية تسري في قلبي لكنني تجاهلتها، بقيت مترددة لحظة، أردت أن أسأله عن حاله لكنني لم أشأ أن أسمع ردًا يؤلمني، ولم أشأ أن أتجاهله كي لا أزعجه أو أجرحه مجددًا. كنت أتساءل عما يجب عليّ فعله عندما ابتدرني: "إزايك يا هبة؟ شكلك واحدة تانية خالص!"

صوته كان هادئًا، تتوارى في أعماق نبراته ابتسامة لم تظهر في وجهه لكنني شعرت بها، ابتسمت، كنت حقًّا ممتنة وأنا أجيبه: "شكرًا يا معاذ، أنا الحمد لله بخير".

هز رأسه وابتسم، ابتسامة لم أر مثلها من قبل فعرفت أنني لست بحاجة للسؤال عن أحواله، إنه بخير، إنه أفضل بكثير مما تمنيت له وأنا أمنحه المقص الذي قطع به خيوط صداقتنا إلى الأبد.

قال للآخرين بتململ: "يالّا بينا، كده هنتأخر".

بصوت غليظ قال مروان: "استنى عندك، مش نفهم الأول".

-"تفهم ايه؟ يالّا يا بني مش ناقصين عطلة".

ضحكت وهززت رأسي باستمتاع، كانت مراقبته وهو غاضب ومتوتر إلى هذا الحد تثير بهجتي، ليست بهجة خالصة صادقة، بل بهجة غريبة لها طعم التشفي ومذاق الشماتة! مروان، صديقي العزيز الذي تخلى عني، الرجل الذي تمنيته ورفض حبي لسبب لا أعرفه، يراني بعد سنوات وأنا شخص آخر لا يمت لتلك الفتاة البائسة التي يعرفها بصلة، واقفة بالقرب من رجل أفضل منه،

أتصرف وكأنني لا أعرفه، لم أحلم بربع هذا، لم أتمنه، لكنه انتقام أتاني على طبق من فضة، مُحلى بعشرات المشاعر الرائعة التي لم أتوقع يومًا أن أشعر بها، رحت أستمتع بمذاقه بقدر استطاعتي وأنا أرسم على وجهي ابتسامة ساخرة مُحلاة ببراءة خادعة.

سألني وهو يلوي شفتيه: "من امتى بتتكلمي ياباني يا هبة؟"

-"ده مش ياباني، ده كوري".

كنت أسخر منه وأنا أعرف أنه يميز اللغة اليابانية جيدًا، صحيح أنه لا يتقنها لكنه يعرفها حين يسمعها، فبعد كل شيء مروان من أكبر المعجبين بالدراما اليابانية، وهو من نصحني بمسلسل **Death Note**، إنها سخرية أخرى من سخريات القدر!!!

تمتم إيتشيرو من بين أسنانه: "من هذا؟! إنه يغار!!"

نظر له مروان بحدة، أما أنا فضحكت، قلت له: "لا تهتم، دعنا نرحل".

ولوحت لهم بيدي وقلت: "آسفة بس احنا مستعجلين، سلام".

-"استني".

هكذا استوقفني مروان بصيحته، كدت أتجاهله لكن رغبتي في الاستمتاع بانزعاجه كانت أقوى مني، التفت وسألته: "ايه؟!"

-"مين ده؟"

-"مين ده؟"

توتر يد إيتشيرو حول يدي أنبأني أن تلك النبرة المحتقرة في صوت مروان لم ترق له، وبالفعل استدار ونظر له ببرود بخر الكثير من بهجتي البلهاء وأشعرني بالقلق، فأجبت مروان ببرود: "ماظنش إن ده يخصك".

صُدم، ثم وجم، بالطبع؛ فتلك الإجابة الوقحة شيء آخر لا يمت للفتاة البلهاء المهذبة التي عرفها قديمًا.

واصلت برودي وكررت: "سلام يا جماعة".

-"استني هنا قلت لك".

مرة ثانية استوقفني بتلك الصيحة الحادة، هنا ملأني الغضب حقًّا واستدرت لأظهر أنيابي ومخالبي، لكن إيتشيرو سبقني بالقول: "هل أخبرك أحد من قبل إلى أي درجة أنت مزعج؟"

بروده كان ينذر بعراك وشيك، ورغم أن كل بادرة في مروان شفت عن شعوره بهذا إلا أنه أصبح أكثر حدة، وبطريقته النزقة المألوفة سأله بالإنجليزية وهو يومئ بطريقة متعالية أقرب للاحتقار: "من أنت؟"

-"من أنا!!"

هكذا ردد إيتشيرو السؤال بصوت غامض لكن السخرية توارت في نبراته، ثم أجابه: "أنا صديقها، هل من اعتراض؟"

ونظر لي وابتسم بسخرية ابتسامة بادلته إياها، وصمت مروان كأنه تلقى صفعة على وجهه، فجذبني إيتشيرو من يدي، وفي هذه المرة لم يستوقفني أحد. اتجهنا إلى حيث تركنا الكاميرا، وفككتها عن الحامل ووضعتها في جرابها ريثما لملم هو الحامل في حقيبته، وأدار ذراعه حول وسطي يقودني للمغادرة.

مررنا بجوارهم، ولمحت مروان بطرف عيني يمد يده كأنه سيشدني لكن يده اختفت من مجال بصري فورًا، وسمعت معاذ يقول موبخًا: "أنت اتجننت ولا ايه؟"

توقف إيتشيرو فتوترت، هل يمكن أن يكون قد لمحه؟

لم أعرف، ولن أعرف الإجابة، فقد قال ببرود تام: "أنت مغرور حقًّا يا هذا، أتظن أحدًا لا يمكنه أن يحل محلك؟"

وشدني إليه أكثر لنسير، وفي كسر من الثانية قبل أن نبتعد رأيت نظرة لا توصف في عيني مروان، لم أفهم ما تعنيه لكنها كدرت مزاجي حقًّا وقضت على بقايا بهجتي، وكان هذا كافيًا لإثارة غيظي.

قبضت على يد إيتشيرو بقوة فنظر لي، فاعتذرت: "أنا آسفة، إيتشيرو، أرجوك لا تتضايق".

-"لست متضايقًا".

قالها بدهشة فنظرت له ورأيت صدقه، استغربت، فكرر وهو يضع ذراعه على كتفي: "أنا لست متضايقاً، حقًّا، أنا فقط منزعج".

-"يا له من فارق كبير!!!"

-"نعم، إنها تلك النظرة في عينيه".

وراح يدمدم بكلمات لم أسمعها، فقلت: "هلا تجاهلت ما حدث؟ إن الأمر غير مهم".

هز رأسه موافقًا، وصمت، كذلك فعلت لأن فكرة واحدة لم تخطر في بالي لنتحدث عنها.

وفور دخولنا البيت سألني قبل حتى أن يغلق الباب: "لماذا لا تسأليني عن أي شيء أبدًا، هبة؟ أنتِ لم تسأليني قط عن أي شيء يخصني!"

استغربت عبارته، وحاولت التلصص على أفكاره فلم أر إلا ضبابًا، أجبته: "لقد سألتك من قبل مرتين عن عائلتك، ألم أفعل؟ وأنت لم تجبني عن شيء، وهذا كاف للتوضيح".

-"توضيح ماذا؟"

-"توضيح أن الأمر يزعجك أو يؤلمك، أو أنك لا تثق في كفاية لتخبرني".

أجفل ونظر لي بأعين متسعة، أمال رأسه قليلًا وسألني باستنكار: "هل مر بخيالك حقًّا أنني لا أثق فيك؟!"

لم أرغب في خوض هذا النقاش الآن، ابتسمت مراوغة وبادرت بهجوم غير متوقع: "لماذا تتحدث عن هذا فجأة؟ هل ترغب في سؤالي عن شيء ما؟!"

-"أشياء".

-"ولم لا تسألني دون هذه المناورة؟"

تردد، فعاودت سؤاله: "لماذا؟"

اندفع كأنه يخشى التراجع: "لأنك ستكذبين، وأنا أكره أن يكذب عليّ الأشخاص الذين أحبهم".

-"أنا لن أكذب أبدًا، إيتشيرو. ما الذي قد يدفعني للكذب عليك؟"

-"عازف الجيتار".

-"ماذا عنه؟"

-"هل كنت تحبينه؟"

شعرت بصدمة خفيفة، ودق قلبي دقة قوية وأنا أنظر في عينيه.. كان محقًا، فهمني كالعادة وعرف كيف سأتصرف، نعم، إزاء هذا السؤال ما كنت أستطيع شيئًا إلا الكذب، ليس خوفًا، وليس خجلًا، وليس هروبًا من ألم الماضي الذي صار خافتًا أدنى إلى الانطفاء، بل لأنني لا أملك إجابة، حقًا!

في هذه اللحظة وأنا أنظر في عينيه، أشعر بأن العالم الذي أعيشه حقيقي أكثر بكثير من ذلك الذي عشته في حياتي الأولى عندما التقيت بمروان.. كنت مراهقة يومًا، ثم مت وبعثت على حقيقة أكبر بكثير من تفاهات صغيرة، سميتها يومًا مشاعر حب واعتبرتها عالمًا كاملًا احتلني. لا، ما عدت قادرة على الشعور بأي من تلك المشاعر، تبدو لي وكأنها حُلم ضبابي بلا ملامح، هلوسة ليلية تلاشت مع ضوء الصباح، شيء بعيد كأن لم يكن. بالتأكيد لم أُحب مروان هذا يومًا، بالتأكيد لم يعن لي شيئًا يومًا، هذا ما أشعر به وأومن به من قلبي، لكن الحقيقة تقول غير هذا، وهي حقيقة لا تستحق شيئًا سوى الإنكار، وبصدق.

ابتسمت، شعرت بأني لم أحبه قط كما الآن، تقدمت نحوه وأمسكت بباب الشقة وأغلقته، ثم لففت ذراعيّ حوله، ذراع حول وسطه والآخر حول عنقه لأحني قامته الفارعة إليّ، ثم ملت برأسي يسارًا ليلاصق خدي خده، وهمست في أذنه: "أنت أحمق، أنت أكثر رجل أحمق ورائع وطيب ومرح ولطيف وحنون وجميل في هذا العالم بأسره، وأنا أُحبك، لم أحب قط أي شخص مثلما أحببتك، ولن أحب أبدًا أي شخص مثلما أُحبك، كن مؤمنًا بهذا، ليكن هذا إيمانك الأول في الحياة، إيتشيرو".

-"إذن، لم تقعي في حبه؟"

-"مرة أخرى! ليكن، لا، أنت الرجل الأول بحياتي، ولن يكون بعدك آخر".

لف ذراعيه حولي، وغرقنا في لعناق صامت دافئ فترة، ثم ابتعد واسترد مرحه المألوف: "سأصنع لك شيئًا مبتكرًا احتفالًا بهذه الإجابة".

-"أرجوك ابتعد عن المطبخ".

-"أنتِ قاسية، هبة تشان، سيكون شيئًا مميزًا حقًا".

أومأت برأسي، وراقبته بابتسامة حب وهو يسبقني إلى الغرفة.

بعد تبديل ملابسي وقفت في الشرفة، منح الجو الدافئ مذاقًا خاصًا للأغاني التي يبثها هاتفي، ثم غصت فجأة في بحر آخر من الأشجان وأنا أستمع لأغنية

Hakosora.. ليس لميانو مامورو الكثير من الأغاني الكئيبة، أربع أغنيات فقط هذه إحداها، وكانت كفيلة بسحبي للخلف، لهبة القديمة التي تطفو على السطح في لحظات كهذه.

هل حقًّا التقيت بهم؟ مرة أخرى بعد كل ذلك الوقت؟ هل حقًّا ما زالوا كما هم، وتغيرت أنا إلى هذا الحد الذي يجعل سمير مذهولًا ومروان مصعوقًا ومعاذ يبتسم بصدق؟ هل كان مروان ينظر هكذا لي أنا؟ ما الذي اختلف في شكلي على كل حال؟! الوجه لا زال وجهي، والابتسامة هي ابتسامتي نفسها، عيناي كما هما خلف نظارة شفافة، وشعري تحت حجاب لا يكشف شيئًا. ماذا تغير؟ فقط بعض الملابس؟ هذا الانبهار والاهتمام والتشبث كان فقط لأجل مظهري الأنيق؟!

لم يسعدني هذا الاكتشاف، بالأحرى شعرت باشمئزاز يخالطه غضب الإهانة.. البشر حقًّا مخلوقات غبية!

مس يدي شيء بارد أخرجني من أفكاري، ونظرت فوجدت إيتشيرو يبتسم لي ابتسامته الحنون الباهرة ويسألني: "لم تشردين هكذا مع تلك الأغنية؟"

أخذت كأس العصير منه، وأجبته: "بعض الذكريات".

-"مع ذلك الشخص؟"

تذمره الصارخ بالغيرة جعلني أنكش شعره كما يفعل معي عادة، وصححت له: "مع أولئك الأشخاص".

-"تعرفينهم؟"

-"كانوا أصدقائي، يومًا ما اعتبرتهم عائلة لي".

-"وبعدها؟"

-"صار كل شيء كأن لم يكن".

-"أتساءل عن السبب!"

رفعت الكأس وأنا أبتسم، قلت بصدق: "وأنا أيضًا مازلت أتساءل".

لف ذراعه حول وسطي، وبعد صمتٍ قلت له: "شكرًا، إيتشيرو.. شكرًا لأن وجودك جعلني أستغني عن الجميع".

-"استغني عنهم إلى الأبد إذن، اتبعيني وكوني معي وحدي. ولن أجعلك نادمة على هذا القرار أبدًا. سأكون عائلتك، وسأخلص لك ما حييت، وسأبقى جوارك

لأحميك، وفي الليل سأحتضنك لأبعد عنك الأحلام السيئة وأمنحك أخرى جميلة، يمكنك أن تثقي بي، أنا أستطيع أن أفعل كل هذا بالتأكيد".

لم أتمالك نفسي واحتضنته، ودمعت عيناي رغمًا عني..

-"من أين تأتي بكلماتك هذه؟"

بين كفيه احتضن وجهي، ابتسم وقال ببساطة صادقة: "كل شيء هنا، في عينيك، أنت فقط لا تعرفين".

أطلت النظر في عينيه وأنا أفكر في الأشياء المدهشة الكثيرة المختبئة في أعماقهما، تدريجيًّا استطعت رؤيتها، وتتبعتها وهي كنجوم لعوب تراوغ أناملي وأنا أحاول الإمساك بها.

كم من الوقت طاردتها؟ أعوام؟ قرون؟ آباد؟ ربما، لكنني لم أكلَّ ولم أملَّ، كنت مستمرة في مطاردتها رغم شعوري بشخص ما يشدني، يسحبني بعيدًا عنها، تذمرت احتجاجًا لكنه واصل سحبي، ولم يعبأ بتلاشيها من حولي ولا كم السخط الذي شعرت به لهذا.

في ضوء الغروب رأيته يميل عليّ قائلًا: "أجيبي هذا الشيء المزعج أو حطميه".

خيالات أحلامي كانت بعد تترقرق في ظلام وعيي، فقلت بصوت خافت وأنا أخشى تبديدها: "اتركني الآن، إيتشيرو، أريد أن أعرف كيف ستنقذني من العصابة، لقد كانوا يرفعون المسدسات".

هزني بشدة وناداني بصوت أعلى: "هاتفك يرن، هبة، استيقظي".

تبددت أحلامي ففتحت عيني وحدقت إليه بغيظ، اشتعلت غضبًا وصحت: "كنت أحلم بك، لماذا توقظني؟!"

-"لم تخسري الكثير في كل الأحوال فأنا هنا، لكن أجيبي هذا الشيء وإلا حطمته".

الهاتف الملعون كان يرن دون انقطاع، يكرر أغنية Kimi E دون توقف ما جعلني أكره مامورو لأول مرة في حياتي.. انقلبت على جانبي وقلت بسخط: "لا أريد، دعني أعود لنومي".

-"هبة تشان!"

-"من الملعون الذي يتصل إذن؟"

-"رقم مجهول".

-"إذن فليذهب إلى الجحيم، أجبه أو ألق الهاتف في البحر، أنا لا أهتم".

وأغمضت عينيّ راغبة في النوم حين توقف الرنين، سببت ساخطة في سري، وواصلت سبابي عندما استعصى عليّ النوم لدقائق، ثم أخيرًا عدت لعالمي الجميل المليء بنجومي المحبوبة وخيالاتي الجموح، ولم أرجع منه إلا وأنا أشعر بالهاتف البارد يلامس أذني، وأسمع صوت إيتشيرو العصبي يقول: "انهضي وأجيبي، إنه هذا المزعج".

-"أيهم؟ هذا العالم مليء بالمزعجين؟"

-"استيقظي، هبة".

شيء ما في صوته جعلني أنفض نعاسي وأنقلب راقدة على ظهري في محاولة للإفاقة، وقلت بسخط عبر الهاتف: "من؟ وماذا تريد؟"

نبهني إيتشيرو: "هو بالتأكيد لا يفهم اليابانية".

تفاقم سخطي فترجمت زمجرتي: "مين وعايز ايه؟"

تمنيت أن يكون هذا كافيًا ليغلق المتصل أيًّا كان الهاتف ولا يعرفني بعد الآن، لكنني سمعت صوتًا مصدومًا يقول: "معقول تكوني نايمة معاه في مكان واحد؟"

-"أنت مين وعايز ايه؟"

-"وكمان مش فاكرة صوتي!"

انفجرت فيه بوقاحة: "والله كان بودي أفتكر لولا إزعاجك ليا في نومي. ودلوقتي ناوي تقول أنت مين ولا تقفل التليفون أحسن لك".

-"أنا مروان يا هبة".

صوته كان مريرًا وساخرًا، أطار النوم من عينيّ وجعلني أهب جالسة بأعين مفتوحة، لم أجد ما أقول حتى تكلم هو: "أنتِ فين دلوقتي؟"

أجبته بسؤال ساخط: "عايز ايه يا مروان؟ وجبت رقمي منين؟"

-"سألتك أنتِ فين؟"

-"وأنت مالك!!!!"

وجه إيتشيرو كان ينبئ بالخطر، فقلت: "من فضلك اقفل وبلاش إزعاج. مع السلامة".

وأغلقت المكالمة بوجهه، ثم أغلقت الهاتف نفسه وألقيته عن آخر ذراعي فوقع فوق مقعد أنقذه من التحطم للأسف. نظرت لإيتشيرو فسألني: "هل من شيء تريدين قوله؟"

-"لا".

-"إذن عودي لنومك".

وأولاني ظهره وشد الغطاء عليه، ملت واحتضنته وهمست: "إيتشيرو، أنا آسفة".

-"لا عليك، لم يحدث شيء".

-"فيم تفكر إذن؟"

-"أنا لا أفكر الآن".

-"أنت منزعج، إيتشيرو!"

-"لا، أبدًا. عودي لنومك".

هززته بإصرار وقلت: "لن أتركك حتى تخبرني فيم تفكر".

بإصرار مماثل أزاح يدي عن كتفه وقال: "قلت لك إنني لا أفكر الآن".

ترددت بعض الوقت ثم سألته وأنا أشعر بالسخافة: "إيتشيرو، هل تغار؟"

-"لا".

لم أمتلك قط أي ثقة في نفسي تجعلني أصدق أنني مستحقة لغيرة شخص ما، وبرغم هذا شعرت بخيبة أمل كبيرة عندما سمعت إجابته.

بعد قليل انقلب ليرقد على ظهره، وبشكل مفاجئ شدني معانقًا بقوة دهشتني، وأشعرتني بنار خفية لا أراها، لكنها قد تحرقني ذات يوم. قال: "أنا أحترق غيرة.. لا أطيق أن أرى رجلًا آخر ينظر إليكِ بالطريقة التي كان ينظر إليكِ بها. لقد تصرف وكأنني سرقت شيئًا ثمينًا يخصه".

-"أنا لست شيئًا!"

-"وهذا ما يجعلني أكثر رغبة في ضربه، أنتِ لستِ شيئًا، ولو كنتِ فأنتِ ملكي أنا، أنتِ لي وحدي أنا، ولا يحق لأي رجل آخر أن ينظر إليكِ هكذا".

ابتلعت ريقي وتنحنحت، قلت محاولة جعله يضحك: "حسنًا، أنت الآن تبدو حقًّا مرعبًا".

ابتسم، وألقى عقلي في دوامة من الجنون بهمسته: "إنني فقط أحبك".

-"إذن لا تقارن نفسك بأي شخص آخر، وخصوصًا هؤلاء، إنهم أتفه البشر في حياتي، أمَّا أنت فأهم شخص عندي في هذا العالم، إيتشيرو.. أنت أهم من نفسي، وأنت تعرف إلى أي درجة أنا أحب نفسي".

-"وهؤلاء الأشخاص؟"

-"كانوا أصدقائي يومًا، لكن علاقتنا انتهت، وانقطع اتصالي بهم منذ...".

وانتبهت للمرة الأولى: لقد اتصل بي مروان!!

ناداني إيتشيرو مرارًا، سمعته لكنني لم أكن قادرة على الرد وأنا غارقة بين ألف فكرة في نفس الوقت، وأخيرًا نظرت له، سألني: "ماذا حدث؟"

-"لا شيء، انتبهت فجأة لأمر هذه المكالمة، من المفترض أن اتصالي بهم انقطع منذ زمن طويل، وأنا أعرف أنهم لم يكونوا يملكون أي وسيلة للاتصال بي".

-"إذن؟"

-"كيف اتصل بي هذا الشخص؟!"

-"هل كان يملك رقمك هذا ذات يوم؟"

-"نعم".

-"إذن فقد كان يحتفظ به".

كان هذا ما توصلت إليه، لكن توكيده جعلني في مزاج عجيب، مزاج من كان ينتظر خطأ معينًا فوقع على خطأ أكبر..

مزاج من اكتشف فجأة أنه كان أغبى مما تخيل قط..

إذن فقد كانوا يملكون وسيلة للاتصال بي طوال كل ذلك الوقت! لكنهم لم يبالوا أبدًا بالاتصال!! صحيح أن خلافاتنا رغم تفاهتها جعلتني لا أتوقع منهم

اهتمامًا، صحيح أنني لم أكن أنتظر اتصالًا، لكن أن يكونوا قد فقدوا كل وسيلة للتواصل معي أمر، وأن يكونوا تجاهلوا التواصل معي أمر آخر تمامًا.

فجأة شعرت بالغضب، أدنى درجة من الشعور الذي تملكني يوم ارتديت الخيط الأحمر، لكنها كافية لتجعلني أقدم على قتلهم دون تردد لو رأيتهم.

تمتمت لإيتشيرو: "هذا يغير كل شيء، حقًا".

خلال اليومين التاليين تعرضت لمطاردة لحوح من مروان، اتصل بي مليون مرة تقريبًا، في البداية طلبت منه عدم الاتصال ثانية، لكن عندما عاود الاتصال أغلقت المكالمة في وجهه دون سابق إنذار، توقعت أن يهينه هذا لدرجة تجعله يحجم عن الاتصال ثانية لكنني كنت مخطئة، فقد زادت اتصالاته غزارة، وأصبح الهاتف يرن طوال اليوم بالمعنى الحرفي للكلمة.

كنت أفكر بغير جدية في تغيير رقم هاتفي، فقال إيتشيرو موبخًا: "ولم تقلبين نظام حياتك بالكامل لأجل شخص كهذا؟ هناك أشخاص لا تملكين وسيلة للاتصال بهم لكنهم يعرفون رقمك هذا، فهل ستغامرين بفقد وسيلة اتصالك بهم إلى الأبد؟".

-"إذن؟"

-"لا تهربي، واجهي مشكلتك بشجاعة، قابليهم وضعي حدًا لهذه المطاردة لأنه لن يتوقف عن مطاردتك".

-"لو أنني قابلتهم ثانية سأقتلهم حقًا".

-"إذن، هل أنت غير راغبة في الرد عليه لمجرد تعذيبه؟ أهذه هي وسيلتك في نيل انتقامك؟"

نظرت له تائهة، وعندما التقت نظراتنا داهمني صمت تستبيحه أفكار غريبة، وصدمتني مدى دقة عبارته وصدقها.

وضع يده على رأسي وقال: "قابليهم واجعلي هذا الأمر ينتهي إلى الأبد، كما أخبرتك هو لن يتوقف عن مطاردتك، ولو فعل أنا سأقتله، وأنا جاد فيما أقول".

توترت، كانت جديته واضحة ومرعبة، قلت: "كما تريد، سأفعل هذا من أجلك أنت، إيتشيرو".

-"أعرف".

وابتسم، فتبدد بعض قلقي، وأصبح خيار لقاءهم أفضل الخيارات في الوقت الحالي؛ لأنني لست راغبة في تحول الأمر لمطاردة حقيقية بيني وبين مروان، وهو يعرف أين يجدني. لا أريد رؤيته في مكتبة الساقية، أو مكتبة مصر العامة، كما لا أريد رؤيته نهائيًا في مؤسسة اليابان أو حفلات السفارة.. إنه ذكي بما يكفي ليبدأ في حشر أنفه في تلك الفعاليات بحثًا عني، وعندها...

بطريقة متعجرفة وافقت على لقائهم، كنت أتمنى لو تغضبه معاملتي المزدرية ويغلق الهاتف في وجهي، لكنه لم يفعل، جعلني هذا حانقة طوال الوقت حتى اقترب موعد اللقاء، ووقفت أمام المرآة أرتدي ملابسي على عجل وفي عصبية مطلقة.

لفت نظري إيتشيرو بتعمده الأناقة المبالغ فيها، لفترة طويلة وقف أمام المرآة يتأكد من ضبط هندامه، ويصفف شعره بمستحضرات متنوعة يمزجها ببعضها، فبدا أكثف من العادة وأغزر.. كان أشد جاذبية ووسامة مما تخيلت قط، لكنه أيضًا كان شديد الغرابة، كأنه شخص آخر.

انتهى ووقف أمام المرآة جامدًا، نظراته الثابتة فضحت شروده، فوقفت جواره أسأل انعكاسه في المرآة: "هل ستخرج هكذا؟"

انتبه ونظر لي، سألني بحاجب مرفوع تساؤلًا: "ألا أعجبك؟"

-"أنت تعجبني دائمًا، لكنك تبدو غريبًا".

-"هل تخشين أن يسخر الناس مني؟!"

لم أكن قد فكرت في هذا، ولكن بمجرد أن سأل شعرت بصدمة تشبه تلك التي نتعرض لها عندما يقرأ شخص آخر أفكارنا بحذافيرها!

ظل يحدق إلى انعكاسي في المرآة وفي مسلكه شيء لا أفهمه، ثم استدار لي وأمسك بذراعيّ معًا: "نحن مختلفان تمامًا، كنا دائمًا كذلك وسنظل إلى الأبد كذلك".

كان غريبًا فعلًا، بدا وكأنه يتعمد إغوائي! تنهدت وأسندت رأسي على صدره، همست: "لا تعبث بمشاعري، تاكاهاشي إيتشيرو، ولا تتصرف وكأنك تجهل مدى تأثيرك عليّ".

لف ذراعيه حولي، كانت ضحكته الخافتة راضية وهو يقول: "سأفعل ما هو أكثر كي لا ترى عيناكِ غيري، هبة تشان".

ثم بهدوء أبعدني عنه، فشعرت بوخز غريب!

أشرت للصليب النائم على صدره، وقلت: "لا يبدو إظهاره بهذا الوضوح مناسبًا".

شد سحاب سترته لأعلى قليلًا فأخفى الصليب، ثم ابتسم ابتسامة غامضة لم أرها من قبل وقال: "هيا، لقد حان الوقت".

في أحد الكافيهات الدافئة المطلة على البحر قرب وسط البلد جلسنا، طلبنا قهوة إيطالية، فهز النادل رأسه وهو لا يكف عن الابتسام مطيلًا النظر إلينا، كذلك راح رواد المطعم ينظرون لنا خلسة كل لحظة وأخرى، لا أعرف إن كان هذا بسبب ملابسنا اللافتة للنظر، أم بسبب الجلسة الحميمة التي اتخذناها، أم لأنه أجنبي، في النهاية النتيجة واحدة وهي أنني كنت في مرمى الأنظار، أما إيتشيرو فكان يبتسم طوال الوقت، ورغم أن ابتسامته كانت غريبة ككل شيء فيه اليوم، إلا أنني شعرت بشعور أغرب يشع حوله كهالة ضخمة لا أستطيع الهرب منها، كان سعيدًا لأنه وحده يحظى باهتمامي الكامل.

تبادلنا حديثًا لطيفًا طويلًا، وكنت في أشد لحظاتي سعادة، أنظر في عينيه، وأمسك بيده الموضوعة على خدي، وأهمس له، عندما رأيت عينيه تبتعدان عني، وبصره يتعلق بنقطة خلفي فالتفت، شعرت بالغضب إذ رأيتهم كأنني لم أكن أعرف بقدومهم، وكأنني لم أتوقع قط أن يبلغ الشر بهم درجة مقاطعة تلك اللحظة الجميلة.

همست بهذا لإيتشيرو فضحك، ثم قال بصوت لعوب: "دعينا نرى ما سيحدث، لكن لا تخبريهم أنك زوجتي".

شعرت بلذة غامرة لسماع كلمة "زوجتي" بتلك الطريقة المتملكة، لكنني سألته: "لماذا؟"

-"افعلي هذا من أجلي فقط".

وربت على شعري ثم أشار لهم ليجلسوا، قال لنا معاذ متذمرًا وهو يجلس: "لم أرغب بالمجيء لكنهم أجبروني".

سألته بنفس اللغة الإنجليزية: "لم ترغب بالمجيء؟"

-"أنا لست غبيًّا مثل البعض".

ثم نظر لهما وبابتسامة ساخرة قال: "والأغبياء يستحقون المعاناة".

طرفت بعينيّ أحاول الفهم، لكني فشلت، هنا ضحك إيتشيرو وقال باليابانية: "إنه يعرف".

-"يعرف؟"

-"نعم، يعرف أنك زوجتي".

-"هه؟!"

ونظرت لمعاذ متفاجئة، وفي نفس اللحظة نظر لي، شفت ابتسامه عن صحة استنتاج إيتشيرو، ولعدة ثوان تبادلا نظرات أقوى بكثير من أي حاجز لغوي!

قال معاذ وهو يشير للنادل: "يمكنكما التصرف وكأنني لست هنا. عصير برتقال لو سمحت".

وأسند ذقنه لظهر كفه المثنية ونظر للبحر، وساد صمت كامل من جهته كأنه حقًّا غير موجود.

تنهدت، ونظرت للآخرين، رأيت النظرات الطافحة بالفضول في عينيّ سمير، والمليئة بالسخط في عيني مروان، كنت أتأهب للسخرية منهما لكن شيئًا ما أوقفني، نظرت إليهما بإمعان متسائلة عن سبب كل ما حدث، ولم أجد إجابة، أصابني هذا بألم خافت راح يكبر ببطء كلما أطلت النظر إليهما. أي وجع هذا الذي يمزق المرء عندما ينظر بعين الدهشة لهؤلاء الذين أحبهم يومًا، متسائلًا عن السبب الذي جعله يفعل! حقًّا، لم أحببتهم إلى هذا الحد؟ هل كنت بائسة ووحيدة إلى درجة تجعلني أهرب إلى هؤلاء؟!

ناداني سمير فنظرت له دون أن أتمالك الاحتقار الذي تبدى في نظراتي، بعدها أشحت عنه بوجهي ناظرة لمروان، سألته بالإنجليزية: "ماذا تريد؟"

-"مين ده يا هبة؟"

-"إذا كنت ستتحدث عنه فتحدث بلغة يمكنه فهمها".

لوى مروان شفتيه، استفزازي كان شديدًا لدرجة أنني لو كنت رجلًا لضربني فورًا. قال سمير محاولًا تهدئة الجو: "قبل أي نقاش، علينا أن نلتزم الهدوء، نحن أصدقاء في نهاية الأمر".

كنت بعد أنظر في عيني مروان بثبات عندما زجرته: "أنت! لا تتجرأ على التحدث إليّ أو إدعاء تلك الصداقة الوهمية".

ونظرت له متمنية لو تحولت كراهيتي لخناجر تمزقه، لكن إيتشيرو وضع يده على كتفي ونبهني بلطف: "هو لا يفهم اليابانية، هبة تشان، إنه محظوظ لأنه لم يفهم عبارتك القاسية".

ابتسمت بسخرية وواصلت النظر لسمير وقلت: "إنه دائمًا محظوظ".

ثم نظرت لمروان وسألته بملل جعلني فجأة راغبة في المغادرة: "دعوننا ننته من هذا الحوار، ماذا تريدون؟"

-"من هذا الشخص؟"

لهجته جعلتني أصر على أسناني، لكن إيتشيرو أجابه بهدوء: "أنا إيتشيرو تاكاهاشي".

نظر له مروان شذرًا كأنما يقول (وبعدين؟)، فتابع إيتشيرو: "أنا مترجم وباحث لغوي، تشرفت بمعرفتكم".

-"باحث لغوي ومترجم؟! الاثنان معًا؟! هذا يذكرني بمثل شعبي مصري لا أستطيع ترجمته".

وأردف بالعربية ساخرًا: "سمك، لبن، تمر هندي".

سأله إيتشيرو: "ما وجه اعتراضك؟"

-"هؤلاء الذين يشتتون أنفسهم بين أكثر من شيء، لا يحققون شيئًا في نهاية المطاف".

بدأت السخرية تظهر في لهجة إيتشيرو: "ربما هذه حدود معلوماتك يا سيدي، لكن هناك بشر كثيرون يملكون قوة الإرادة التي لا يمكنك تخيلها هذه".

خرس مروان للحظات، فاجتهدت كي لا أنفجر ضاحكة..

قال سمير: "أعتقد أن بذل الجهد في أمور مختلفة شيء صعب، أليس كذلك؟"

كان ألطف بكثير من مروان فأصبحت ابتسامة إيتشيرو أكثر إشراقًا، أجابه: "ليس إذا ما امتلكت شخصًا يدعمك ويساندك، أنا مدين لهبة تشان بهذا".

وتبادلنا نظرة عاطفية غير مفتعلة..

كنت سعيدة لموقف مروان؛ يراني وأنا شخص آخر مختلف تمام الاختلاف عن تلك الصغيرة البائسة التي كانت يومًا بحاجة لحبه وصداقته، واقفة بغرور أنظر إليه من عل وأسأله ماذا يريد مني، وهو على يقين بأنه لن ينال أبدًا أي اهتمام. سمير أيضًا كان ينال ما يكفي من الإيذاء وهو يتبادل الحديث مع إيتشيرو، ويكتشف مع كل عبارة جديدة كم هو مدهش هذا الشخص الذي وقعت في حبه، كم هو مختلف، كم يحبني، هذا شيء أنا واثقة أنه سيتعذب به مهما تظاهر باللامبالاة والعملية وفتح فمه عن آخره مبتسمًا.

إيتشيرو، أنا حقًّا ممتنة لوجودك.. ممتنة أكثر لأنك لم تسمح لي بالهرب منهم.

شعوري بهذا جعلني أنظر له وأنا أبتسم، عيناي كانتا دامعتين بسعادة فتوقف عن الحديث ونظر لي، سطعت ابتسامته الحنون وهو يسألني: "هل أخطأت في شيء؟"

-"نعم".

-"ماذا؟"

-"لقد تأخرت كثيرًا، إيتشيرو، كان عليك أن تأتي مبكرًا، كان يجب أن ألقاك منذ عشر سنوات لا عشرة أشهر. أنا....".

قاطع استرسالي في الحديث تلك النظرة التي بدت في عينيه وهو ينظر إلى جواري، كان مروان على وشك أن يجذب معصمي لأقف فأمسك إيتشيرو بمعصمه، واختفى ودَّه تمامًا وهو يسأله مبعدًا يده: "ماذا تريد؟"

نقل مروان عينيه بيني وبينه، وعندما تأكد من صاحب القرار قال له: "أريد أن أتحدث معها وحدنا".

أشحت بوجهي عنه وأطلقت نخرة ساخرة، سأله إيتشيرو: "ماذا لو رفضت؟"

توقعت أن تنشب الحرب العالمية الثالثة، لكن مروان قال بهدوء: "أرجوك، لن يأخذ هذا أكثر من خمس دقائق".

ظل الصمت سائدًا بضع لحظات ثم تمتم لي إيتشيرو: "لا بأس، إن أردتِ الذهاب اذهبي".

شعرت بالغدر لقراره غير المتوقع، واحتججت: "لكن أنا لا....".

-"يجب أن تضعي حدًّا لهذا، لقد أخبرتك أنه لن يتوقف عن مطاردتك ما لم تستمعي إليه".

-"كما تريد".

ونحيت حقيبتي بعصبية لأنهض، وغادرت المائدة فأفسح لي مروان الطريق، قال: "خلينا نطلع برة".

خرجنا لنقف أمام الكافيه، واستندت إلى سيارة واقفة ناظرة إلى الكورنيش الخاوي على الناحية الأخرى، مضت لحظات غلفنا فيها صمت من لا يعرف فيم يتحدث، اختلست النظر إليه لحظات فداهمني ضيق غير مفهوم، وتساءلت: ما الذي جعلني أقع في حبه من قبل؟

-"هبة!"

هكذا لفت انتباهي فنظرت له بإمعان، سألني: "ناوية تقولي لي مين الشخص ده؟"

-"لأ".

هكذا ببرود صددت محاولته لتلطيف الجو، ثم تذكرت ما قاله إيتشيرو فقررت أن ألين قليلًا.

قبل أن أحيل قراري لموضع التنفيذ شد يدي اليسرى وفتح راحتها قسرًا، أحنقني هذا حتى الجنون فصحت: "أنت مجنون!"

-"فين هبة يا هبة؟!"

ثم ألقى بيدي، ولاحقني بكلمات طائشة: "هبة اللي كنا نعرفها خجولة جدًّا، لطيفة وطيبة ومتدينة، هبة اللي شايفها دلوقتي شخص ممسوخ منها، شخص وقح معندوش أي احترام لاصحابه القدام ولا للناس اللي حواليه".

-"ولمّا أنا وحشة أوي كده تاعب نفسك ليه وبتطاردني؟"

نظر لي نظرة طويلة ثم سألني: "للدرجة دي احنا مش فارقين معاكِ يا هبة؟"

الغضب الأعمى انبعث في قلبي من جديد، لهذا لم أرد كي لا يشعر به، كي لا أمنحه سعادة أن ما حدث من قبل أثر بي، كي لا يعرف إلى أي درجة جرحت ونزفت حتى الموت بسببهم، لم يكن يستحق أن يعرف، الانتقام الذي سأحظى به هو أن أقنعه بأنهم لم يكونوا شيئًا كبيرًا في حياتي.

ابتسمت بسخرية، ثم بدأت أضحك، ضحكة مفتعلة تحولت بعد قليل لضحكة حقيقية، وأمامي رأيته يوشك على الاشتعال غضبًا وحيرة. قلت باستهانة: "مروان، أنت معتقد إن بعد كل السنين دي، وبعد كل المشاكل اللي حصلت بيننا، ممكن أكون لسة مهتمة بيكم؟ أو حتى فاكراكم من الأساس؟!"

أجفل، تلك الهزة العصبية التي تصيب يده اليسرى عندما يتفاجأ التقطتها بوضوح رغم أنني مازلت أنظر في عينيه.

-"مروان، أنا لما شفتكم خدت دقيقة تقريبًا على ما افتكرت شفتكم فين قبل كده، معقول تكون معتقد إني لسة بفكر فيكم أو مهتمة بأي حاجة تخصكم؟!"

-"ليه اتنرفزتني طيب من مكالماتي؟ ليه مكونتيش عايزة تشوفينا تاني؟!!"

-"لأن ده مش وقتكم خالص يا مروان".

وابتسمت بسخرية متخيلة الأفكار التي ستدور في رأسه بعد سماع هذه العبارة، ولاحقته بعبارة أقسى: "زائد إن الموضوع كله مش مهم، ايه اللي ممكن أستفيده من مقابلتكم؟ أنا معنديش وقت أضيعه".

-"كنتِ فين كل الفترة اللي فاتت؟ واختفيتِ ليه؟ ومين الشخص ده فعلًا بالنسبة لك؟"

قطبت جبيني متسائلة عما إذا كان قد سمع ما قلت أم لا!

-"الأمر ما يخصكش يا مروان، هسألك لآخر مرة: عايز ايه؟ أنا فعلًا مش فاضية ولا عندي وقت للعب الأطفال ده".

-"عايز أعرف مين الشخص ده".

كان مصرًا بطريقة جعلتني لا أتردد في إيلامه أكثر: "صاحبي يا مروان، وصديقي الوحيد، وحبيبي، ونُصّي التاني، يا ترى الإجابة دي كفاية؟"

-"آه!"

أخيرًا، بعد كل هذه السنوات، سببت لمروان أذى يضاهي ما أشعرني به يومًا، وما أشعروني به جميعًا.. ظلت عيناه مسلطتان عليَّ تتابع فيهما شتى المشاعر.

نظر نحو البحر وضحك بافتعال: "مش مصدق إن ممكن يكون في حياتك شخص تحبيه أكتر ما كنتِ بتحبيني".

شعرت بيدي تبرد، ولم أرد أن ينظر إليّ في تلك اللحظة لكنه فعل، قال: "فاكراني ماكنتش عارف يا هبة؟ أنا كنت عارف طول الوقت إنك بتحبيني".

أغاظتني ثقته، أشعلت في قلبي نارًا مزدوجة، الغيظ لغروره، والألم لأن مشاعري رغم وضوحها –باعترافه- لم تحرك فيه ساكنًا يوم كان حبه يقتلني ألمًا ألف مرة في اليوم، لم تجعله حتى يترفق بي ويحفظ صداقتنا، كبحت نفسي عن الرد، واستدرت لأعود إلى المطعم لكنه شدني نحوه، وبوجه يشتعل جنونًا صاح في وجهي: "أنتِ عارفة أنا دورت عليكِ قد ايه؟ ولا كنت هتجنن إزاي في غيابك؟ ويوم ما ألاقيكِ تكوني مع واحد زي ده؟ ده حتى مش مصري! وأكيد مش مسلم! إزاي تسمحي لنفسك...".

دفعته يده لأبعده عني، وقلت ببرود منذر: "حاسب على كلامك يا مروان".

-"هبة!"

-"شيء واحد لازم تفهمه يا مروان، كل اللي كان بيني وبينكم قبل كده انتهى، كل شيء، شلتنا، صداقتنا، عيلتنا الوهمية، كل ده مبقاش ليه أي معنى عندي، للأسف أنت وصلت متأخر جدًّا".

-"أنتِ لازم تفهمي حاجات كتير يا هبة".

-"أنا مش عايزة أفهم حاجة، الشيء المهم أنا فهمته من زمان".

-"شيء مهم!"

حيرته الكبيرة واجهتها بسخرية: "آه، أهم شيء في الموضوع، أنتم كنتم أعز أصدقائي، وسيبتوني كلكم من غير ما تفهموا أي حاجة أو تحاولوا حتى، وأنا كنت محتاجة لكم جدًّا، لكن ما لاقيتش حد منكم، وعرفت إني مش هلاقي حد منكم طول عمري، عشان بقيت أقوى ومش محتاجة لحد يا مروان، خالص".

-"أنا عارف إن أنا ومعاذ....".

-"خرّج معاذ من الموضوع، أنا مش شايلة ناحيته أي شعور سيء".

-"ماشي، أنا عارف إنك اتوجعتي كتير بسببي".

-"اتوجعت؟!"

ثم ضحكت، نفس الضحكة المفتعلة التي تحولت بعد قليل إلى ضحكة حقيقية، لم يفقد وجهي كل سخريتها حتى بعدما انتهت.

-"اتوجعت؟! لا، الكلمة دي غلط يا مروان، الكلمة الصح هي إني كنت في الجحيم".

ثم اعتدلت واقفة، نفضت بنطلوني وسترتي دون داعي وقلت: "شخص زيك مستحيل يفهم أنا مريت بايه".

-"أنا دورت عليكِ يا هبة، أكتر من....".

-"رقم تليفوني كان معاك".

هكذا قاطعته فارتج عليه وخرس، راح يتأملني بصمت وعدم تصديق وأنا بعد أبتسم، حتى ضحكت، هذه المرة ضحكت حقًّا من قلبي فقال: "أنا آسف يا هبة".

-"آسف؟ تفتكر الأسف ممكن يكفي؟ لو كانت كلمة آسف بتصلح الأخطاء ماكنش ربنا خلق جهنم".

-"ماينفعش تديني فرصة تانية؟ الشخص اللي معاكي ده يستحيل يكون جدير بحبك".

-"لكن أنت جدير، صح؟"

استوقفني لمرة أخيرة قبل أن أذهب: "برضو هتمشي؟"

-"أنا اديتك فرصة تقول اللي عندك، في حاجة تانية؟"

-"آه.. أنا هافضل أدور عليكِ لحد ما الاقيكي تاني يا هبة، ساعتها مش هتقدري تهربي مني".

نظرت لوجهه بإمعان، في هذه المرة كنت أبحث عن الفتى العابث الذي أوقعتني ابتسامته في حبه، لكني لم أجده، اختفى، ولعل هذا يعني بأنه -من الأصل- لم يكن موجودًا!

جعلتني الفكرة أبتسم ابتسامة مرة، ملأني شعور مفاجئ وقاس بافتقاد وجهه القديم، ونبرة صوته التي أسرتني، والمرح الذي لا يستطيع أي حزن أن يطمره. مروان هذا لم يعد موجودًا، مروان الذي أحببته لم يعد موجودًا، تحول إلى رجل ناضج عاقل متمسك بالبحث عن هبة التي انتهت هي الأخرى منذ زمن، ربما يجعلنا هذا لائقين ببعضنا، كل منا كان يبحث عن الآخر في الوقت الخطأ والمكان الخطأ، وفي وجود شخص ثالث يحول بيننا.

الآن فقط يريدني ألا أذهب! ألمجرد أن رؤية إيتشيرو جواري تستفزه؟ وأين كان من قبل عندما خسروني لأمور طفولية تافهة؟ ماذا عن الصداقة الطويلة التي فرطوا فيها دون تفكير؟ والفتاة التي أحبتهم كثيرًا واعتبرتهم كعائلة لها، وما كانت بالنسبة إليهم إلا شيئًا هامشيًّا بلا معنى، حتى رأوها ترافق شخصًا آخر! إذا كانوا أغبياء بما يكفي ليظنوا أنني قد أعاملهم بود بعد كل ما فعلوه، فلماذا أتصرف أنا أيضًا بغباء وأتأثر حتى أكاد أدمع لما قال؟!

لو كان قد قال هذا منذ عامين يا ندى!

لو كان قد أنقذني من الجحيم التي احترقت بها وفيها وحدي، لو كان قد تمسك بي كما يريد أن يفعل الآن! تُرى كيف كنت سأكون اليوم؟ ألم أكن لأصبح شخصًا أفضل؟ على الأقل ما كنت لأكتسب تلك الطباع الأنانية المخيفة التي تعذبني، والتي أخشى أن أوذي بها إيتشيرو يومًا.

مروان الذي أحببته يومًا حبًا ما عدت قادرة على تخيل مدى عمقه، وكان من أعز أصدقائي، كان يملك أن ينقذني مرتين لكنه تركني، قتلني عدم شعوره بحبي، ولكن تخليه عني كصديقة أورثني ألمًا يفوق ما كنت سأشعر به لو قطعني تقطيعًا، ما كنت لأغفر له هذا؛ لأنه كان يستطيع إنقاذي ولأنه كان يستطيع أن يبقى صديقي الوحيد، وهو اختار العكس؛ لأجل سمير الذي يبتسم اليوم بصفاقة يطالبنا بالتعقل!

أفقت من أفكاري وموجة هادرة تضربني حيث وقفت وحيدة على الكورنيش، ومن خلفها رأيت موجة أعنف تلاحقها، وثبت إلى الخلف مبتعدة لكنها كانت أسرع مني، وتطاير الماء إلى أعلى ليغرقني بالكامل فشهقت لهول البرد الذي اقتحمني.. سمعت صرخات صغيرة متفاجئة ومستمتعة ومذعورة، ثم هتف بي رجل عجوز مر بجواري: "ده اسمه كلام يا بنتي؟ حد يقف هنا في الشتاء؟ أنتِ ما بتشوفيش الموج بيوصل لحد فين؟"

مسحت وجهي واعتذرت، وبالكاد كبحت نفسي عن سؤاله عن سبب وجوده هنا!!

قال لي ناصحًا: "يستحسن تروحي بسرعة عشان ماتبرديش، وخدي بالك من نفسك، البلد مش أمان".

هززت رأسي وشكرته، وجلست على سور الكورنيش أنظر إلى الناحية الأخرى حيث المقهى، وغمرتني الأفكار مجددًا، ثم سمعت صوت إيتشيرو: "أأنت بخير؟"

نظرت له بخواء، ثم ابتسمت وأومأت برأسي، لم يكن بي طاقة لأي أحاديث، وعدنا إلى بيتنا في صمتٍ تام.

نام إيتشيرو مبكرًا، والتحفت أنا وشاحًا صوفيًّا وأنا أجلس في الشرفة أرمق البحر، وصدى كلمات مروان لا يفارق رأسي، وكل شيء من حولي يدور.

الألم كان واضحًا جليًّا يا ندى، كأن كل اللحظات القديمة المريرة لم تنقض بعد.. الإرهاق القاتل في عمل تتجاوز ساعاته عشرين ساعة يوميًّا، والذي استمر شهورًا حتى استطعت إنقاذ المشروع، والوحدة الطويلة بين جدران باردة، وتجاهل الجميع لي باعتبار كل ما يحدث مشكلتي وحدي.. أمي التي تدعو لي أغلب الوقت، وأخي المتمرد طوال الوقت، وأبي وأقاربي جميعًا الذين اختفوا إلى غير رجعة، والأصدقاء الذين ذهبوا ولم يبالوا بالسؤال عني رغم طول غيابي، كل الألم كان محسوسًا مجددًا يا ندى، وكأن الوقت الذي صبَّرت نفسي لأتحمله حتى يتبدد لم يكن قط.

كيف مرت 2009 دون أن أجن؟ لا أعرف! تبدو فكرة أن تمر دون أن يصاب عقلي بخلل ما مستحيلة، لهذا أعتقد الآن أنها لم تمر، لا بد أنني نائمة أحلم بعد يوم عمل شاق لم يغير في حياتي شيئًا بعد، لا بد أن حمى ما جعلتني أهذي وأتخيل أن كل هذا العذاب قد انقضى في حين أنه لا يزال قابعًا خارج حدود أحلامي يتربص بي، وكل ما كان من إيتشيرو وحياتي الجديدة المختلفة ما هي إلا أوهام عقل مريض محموم.

كان الصداع والغثيان هو أول ما اختبرت حين صحوت، ولم أجد نفسي في الشرفة حيث نمت، بل الفراش حيث تحيط برأسي كمادات باردة، وفاحت مني رائحة عرق مزعجة، مختلطة برائحة أدوية وقماش مبتل، رائحة المرض والحمى.

كان إيتشيرو نائمًا على المقعد الأقرب للفراش، وعلى ساقيه حاسوبه المحمول، وإلى جواري شريط من دواء خافض للحرارة، وترمومتر استقر على رقم مرتفع! أنبأني الهاتف أني غبت عن العالم نصف يوم تقريبًا!

ناديته بتردد فاستيقظ على الفور، ابتسم برفق وهو ينظر إليَّ، فقلت له: "أنت حقيقي!"

هز رأسه إيجابًا وفي عينيه أسى خافت، مددت يدي إليه فنهض وجاء ليجلس جواري، شدني إلى صدره وربت عليَّ، فاستكنت، ونمت لدقائق على كتفه ثم انتبهت فوجدته ساكنًا على نفس الوضع.. شعرت بحرارة بشرته تحت خدي فابتعدت وتحسست وجهه، تمتمت: "أنت ساخن!"

داعبني: "دائمًا ما أشتعل بالقرب منك".

ضربته على ظهره ضربة خفيفة وقلت: "كف عن دعاباتك المنحرفة. أأنت محموم؟"

-"أنتِ المحمومة هنا.. كيف تشعرين الآن؟"

-"أحبك!"

-"مازلت تهذين!"

-"لا، أنا حقًّا ممتنة لوجودك، إيتشيرو، شكرًا لأنك ولدت، ولأنك في هذه الحياة".

حقًّا كنت ممتنة لمجرد وجوده في هذه الحياة، ولأنه الآن معي، ولرقته في العناية بي، ولحبه، لكل شيء، شعرت أني سأنفجر في البكاء حتى ينصهر قلبي.

جذبته من صدر قميصه وحدقت إلى عينيه أقول: "أريد أن أثبت لك امتناني".

-"اثبتي لي فيما بعد، لست متعجلًا".

-"أريد أن أثبت لك الآن".

كان متعجبًا لكنه لم يتمالك ضحكته، وسألني مقهقهًا: "هل آذى الدواء رأسك؟ ما هذا المزاج المنحرف؟"

-"أنت المنحرف ها هنا، لا تهرب مني".

لكنه أفلت من بين يدي، وتركني أسقط نائمة على الوسائد الوثيرة، أننت معترضة ثم غبت في النوم، حتى شعرت به يوقظني، فتشبثت به مجددًا وأنا أبتسم ناعسة.

أحضر لي طعامًا خفيفًا وعصيرًا، وبدأ يناولني اللقيمات على مهل وهو يخبرني بما فاتني من أحداث. أخبرني أن هناك بعض المشكلات حدثت في القاهرة، وأن بعض الأشخاص يقولون إن الجيش عمد إلى التعدي على معتصمين سلميين واعتقل عددًا من الضباط. بطبيعة الحال لم أصدق هذا ولم أرغب في التأكد من المعلومة عبر الإنترنت؛ السياسة كانت آخر شيء يثير اهتمامي الآن.

صباح اليوم التالي كنت أفضل حالًا، ولكن إيتشيرو لم يكن موجودًا بالمنزل، ترك لي ملاحظة بين دفتيّ كتاب جديد تقول إنه سيعود بسرعة، فاستلقيت في الفراش أقرأ بانتظاره، وبعد ساعة دخل الغرفة بمرحٍ يقول: "هبة تشان، لقد قررت أن أطهو لك اليوم".

كتمت ضحكة وقلت: "إلى هذا الحد تتمنى قتلي؟"

-"كفي عن دعاباتك القاسية، هبة تشان، أنا ماهر في الطهي".

-"طبعًا، بدليل قصتك عن حساء المأكولات البحرية الذي كدت تقتل نفسك به".

-"كان هذا منذ عام، لقد اكتسبت مهارة كبيرة بعد هذا الحادث. عمومًا دعك من هذا لأن هناك مكالمة مهمة يجب أن نجريها".

-"مكالمة!؟"

-"نعم. أريدك أن تثقي في نفسك، إن لغتك اليابانية ممتازة، إنك حتى أفضل مني".

انتابني الرعب ودفعت هاتفه بعيدًا...

-"بمن ستتصل؟"

ابتسم وكأنه مستمتع بهلعي: "بأبي، نحن نتحدث يوميًّا في التاسعة صباحًا، ولم تتح له فرصة تحيتك حتى اليوم، لأنني أكره إزعاجك وأنتِ نائمة".

-"ولكن... ولكن...".

-"لقد تزوجنا منذ ثلاثة أسابيع، وهي فترة طويلة للغاية لأداء تحية تقليدية. هل يمكنك فعل هذا لأجلي؟ إنه يود التحدث معك حقًّا".

كنت واجمة بفعل الإرهاق والارتباك، كيف سأتحدث مع شخص لا أعرف عنه أي شيء؟ إيتشيرو لم يأت على ذكر عائلته حتى اليوم.

-"سأفعل أي شيء من أجلك".

وكأنما كان ينتظر، رن الهاتف في الحال، فأجابه بسرعة. كان يتحدث بود، ويستعمل أعلى صيغة احترام، وألقى هذا في قلبي رهبة كبيرة؛ إذا كان الابن يتحدث بتلك الألقاب التشريفية العالية، فماذا عن الأجنبية الغريبة إذن؟

استغرقت في مراجعة ما درسته في هذا الصدد، حتى ناولني إيتشيرو الهاتف، فأخذته وأنا وجلة.

على عكس ما توقعت جاءني صوت مرحب ودود: "مرحبًا، هبة سان".

-"مرحبًا يا سيدي، تشرفت بالحديث إليك".

استخدمت بدوري أعلى ألقاب الاحترام، فابتسم إيتشيرو ونهض مغادرًا الغرفة، ومن الهاتف سمعت ضحكة مرحة فيها طيف من ضحكته.

-"لا داعي لتلك اللهجة الرسمية، إن إيتشيرو يبالغ عادة فلا تفعلي مثله. مرحبًا بك، أنا تاكاهاشي سويتشيرو".

-"مرحبًا".

لم أجد كلمة أفضل لأقولها، ثم خرست كالحمقى غير عالمة كيف أتصرف.

لكن الأب حدثني بود: "تهنئتي بالزواج. كنت أود بالطبع لو استطعت عمل شيء، لكن إيتشيرو تصرف دون أن يخطرني قبل الزفاف بوقتٍ كافٍ، وكانت حجته أنك لن تحبي المبالغة، وستفضلين زفافًا بسيطًا، لكنني آمل أن تكون هديتي اعتذارًا كافيًا عن تقصيري".

هدية؟ أي هدية؟!

ثم تذكرت البطاقة الذهبية المرعبة فانتفضت، قلت بسرعة: "شكرًا لك حقًّا، لم يكن هناك أي تقصير، لقد أحسن إيتشيرو صنعًا بتبسيط الأمور كلها".

-"يسعدني أنه يفهمك إلى هذا الحد، إيتشيرو لم يكن مهتمًّا قط بالتواصل مع الناس من قبل، حتى أنني لم أصدقه حين أخبرني بشأنك. آمل ألا يضايقك التعامل معه".

بدأت أسترخي في الحديث: "لا، إيتشيرو يتصرف كالملائكة، آمل ألا أضايقه أنا، لأنني...".

ثم توقفت كي لا أتجاوز حدود الحديث إلى الثرثرة..

-"... لأنك متقلبة المزاج؟ لا تقلقي، إنه مثلك وأكثر، لهذا يفهم هذا الجزء من طبيعتك. أنا واثق أنكما تشكلان ثنائيًّا مثاليًّا".

إيتشيرو متقلب المزاج!!!

ثم اكتسب صوت الأب حذرًا ما وهو يسألني: "أهو بخير؟"

-"نعم، إنه بخير حال".

-"هل يتصرف باتزان كامل؟"

كان السؤال غريبًا، كأنه يحاول التسلل لنقطة لا أدركها لكنها تزعجه..

-"نعم، إنه على خير ما يرام".

أكدت تنهيدته المستريحة شكوكي...

-"هذا جيد. لقد جاء زواجكما سريعًا، هبة سان، لهذا آمل أن تبدئي في استكشاف عالم إيتشيرو من جميع جوانبه، أنت الوحيدة المحظوظة التي يمكنها الوصول إلى هذا الحد معه، لقد عانى فقد شيوري حتى خلت أنني سأفقده أيضًا، ومنذ ذلك الحين انغلق في عالم ضيق لا يصله أحد، حتى عندما عاش معنا لم نستطع إخراجه من عالمه هذا، كان مصرًا على عزلته وحده، في غرفته وفي المكتبة وفي الحديقة، وفي غرفة الموسيقى وصالة السباحة وقاعة الدراسة، كان وحده دائمًا، أنا سعيد لأنه اختار إنهاء تلك الوحدة بنفسه. أرجوكِ لا تتخلي عن إيتشيرو".

-"أنا بالتأكيد لن أفعل".

-"إذن سأترككما تستمتعان بالإفطار الآن، وآمل أن نتحدث مجددًا في وقت قريب".

-"بالتأكيد، شكرًا لك".

وأنهيت المكالمة واجمة..

شيوري.. الآن تأكَّد لي اسمها بدقة..

شيوري التي قال إنه أحبها أكثر مما أحب أي فتاة في العالم، والتي يناديها في نومه، وفكر في الانتحار بسببها، وعزل نفسه عن العالم بعد فقدها...

شيوري التي يرتدي الصليب الخاص بها دون نية في خلعه...

كانت الغيرة تحرقني، ووجع الجهل يمزقني من ناحية أخرى؛ لم يحدثني قط عنها، بل لم يحدثني عن أي شيء في الواقع، أنا لا أعرف حتى أبسط الأشياء، لا أعرف أي شيء.

كنت بعد واجمة عندما أحضر لي الطعام، شكرته وناولته الهاتف، حينها سألني: "ماذا فعلتِ في الاستجواب؟"

-"استجواب!"

-"لا تقولي إن أبي لم يسألك عني مطولًا، فلن أصدق".

وقلد لهجة أبيه بالضبط: "هل يتصرف بطريقة متزنة؟ هل يبدو بخير حقًّا؟"

انفجرت ضاحكة، وعندها قال: "إذن فقد سألك".

-"لقد فعل، لكنه بدا كما لو كان يتحدث عن شخص آخر".

ابتسم وهو يرفع ملعقة الطعام إلى فمي وقال: "لأنني بالفعل شخص آخر الآن".

كانت فكي تؤلمني فمضغت ببطء، وبعدها سألته: "أخبرني عن دراستك، إيتشيرو. لماذا اخترت اللغة الكورية؟"

-"ولماذا اخترتِ أنتِ اللغة اليابانية؟ ولماذا الإنجليزية أو الإسبانية؟ في كل الأحوال ستطرحين هذا السؤال ولن تكون له إجابة".

خرست بوجه صخري؛ يا لها من إجابة سمجة!!

هل كنت سمجة إلى هذا الحد وأنا أجيب كل من يسألني عن سبب اختياري للغة اليابانية؟ تبًّا!!

سألني وهو يضحك: "هل ابتلعت السمكة لسانك؟!"

-"لا، أحاول تخيل ما سأفعله بك حين أشفى لقاء هذه السخافة".

استغرقه الضحك حتى تقطعت أنفاسه وقال: "لقد قال أخوكِ إنك تجيبين هكذا دائمًا، وطلب مني تدبير هذه الدعابة لك ذات يوم، وقد وعدته".

يا له من وعد! تبًا لكما من سمجين!

ناولني إيتشيرو ملعقة أخرى من السلطة، وقال باسمًا: "جيراني كانوا كوريين، لقد حظيت معهم بعلاقة رائعة حتى السابعة عشر من عمري، وأحببت لغتهم منذ صغري، سأجعلك تقابلين صديقي يونغ جيه ذات يوم، طالما وجد عسرًا في متابعة دروس اللغة اليابانية، وقد اعتدت أن أترجم له الرموز الصينية في دروسنا حتى سن التاسعة تقريبًا".

قلت وأنا مأخوذة بسعادة غامرة: "هذا رائع، لديك صديق طفولة استمر معك حتى اليوم!! منذ التاسعة!"

-"لقد كنا معًا دائمًا، ولدنا في الأسبوع نفسه، والتحقنا بالمدرسة نفسها، وتركناها في الوقت نفسه، ومارسنا الرياضة نفسها، وقرأنا الكتب نفسها، إن ارتباطي به أقوى من ارتباطي بأي شخص آخر في اليابان".

-"تركت المدرسة؟"

-"نعم، تلقيت دراستي كلها في البيت حتى دخلت الجامعة".

-"ولم؟"

-"كنت عرضة للاضطهاد، وكنت مرتبطًا بأمي لدرجة جعلت من العسير عليّ تركها والذهاب للخارج، لم أكن مستعدًا للتواصل مع أي شخص غيرها، وأنا على يقين أنه لولا وجود يونغ جيه في حياتي ما كنت لأغادر المنزل إلا إلى البحر".

-"كنت تعيش بالقرب من البحر؟"

-"نعم، في أوكيناوا، منزلنا كان يواجه البحر مباشرة".

صفرت انبهارًا وإعجابًا...

-"لا عجب في ابتعادك عن هذه الكائنات البشرية الحمقاء، من ذا الذي يترك البحر ليختلط بالبشر!"

-"ليس إلى هذا الحد، لقد اختلطت بهم، اعتدت أن أذهب وأمارس الرياضة مع يونغ جيه، وكان لنا أصدقاء آخرون كثيرون، لم أنعزل كالقوقعة".

-"سوف أشكر جيه آلاف المرات حين أقابله".

صحح لي ناقرًا جبيني بإصبعه: "يونغ جيه، اسمه يونغ جيه، الأسماء الكورية تتألف من مقطعين منفصلين".

-"واسم العائلة يذكر قبل الاسم الشخص أيضًا؟"

-"نعم، كما لدينا في اليابان، وكما في الصين".

-"صداقتكما تعجبني، فقد قرأت من قبل عن سوء علاقات الكوريين باليابانيين".

-"آه، تلك الكراهية القديمة".

وتنهد وسرح ببصره باسمًا، وبعد دقيقة تنهد ثانية وقال: "إنه أمر مخز، الحروب تجعل الناس يكرهون الآخرين لدرجة لا تصدق".

-"الحروب؟"

-"هل قرأت تاريخ اليابان؟"

-"ليس بعد".

توقعت أن يوبخني كالعادة لكنه ابتسم فقط وقال: "لقد ارتكبنا مجازر بشعة في كوريا، في أسيا كلها، يمكنني أن أتفهم مقدار الكراهية التي حملوها نحونا لأجيال".

-"حتى الآن؟"

أومأ برأسه ثم مط شفتيه باشمئزاز وقال: "لا يمكنني الجزم تمامًا، ولكن على المستوى الشخصي لديّ أصدقاء رائعين، وبشكل عام حتى لو كانت هناك مشاعر سلبية، فالوضع ليس كما كان قبل ستين عامًا مثلًا؛ بعد نهاية الاحتلال الياباني كان الكوريون الذين تعلموا لغتنا في أثناءه يفضلون الموت على التحدث بها. كم هو مدهش المدى الذي تبلغه الكراهية أحيانًا بين البشر!"

-"يا الله!"

-"هل تأملت الكراهية من قبل، هبة؟"

لويت شفتي وأصدر همهمة، لم أكن راغبة في تذكر هذا الشعور اللعين بوضوح، فقط أومأت برأسي، قال: "أنت تكرهين شخصًا ما فتؤذينه، فيكرهك هذا الشخص ويؤذيك، فتزداد كراهيتك له وتؤذينه مجددًا، فيكرهك أكثر ويؤذيك أكثر، وهكذا، إنها حلقة ملعونة غير منتهية، لو كان بإمكاني أن أمحو شيئًا من الوجود فسأمحو هذا الشيء".

حاولت أن أبدد الهالة السوداء المحيطة به فقلت بابتسامة: "قد تستطيع فعل هذا يومًا، قد تغير كلمة تكتبها أو تترجمها هذه الكراهية الطويلة".

-"أتمنى هذا حقًّا، هبة، لكن أخبريني، أتعرفين أفظع أنواع الكراهية؟"

-"لا أريد أن أعرف".

برغم كلمتي إلا أنني تطلعت إليه منتظرة إجابته، فأجابني: "أن تكرهي نفسك، هذه هي الجحيم بعينها".

خنجر الذكريات المروعة لـ2009 طعن قلبي فورًا، لكنني جاهدت لأسترد نفسي. ولا أعرف كيف استشعر التبدل في مزاجي.

نحى صينية الطعام جانبًا ومال عليّ: "قولي لي ما تفكرين فيه الآن".

-"أخبرني أولًا، لماذا لم تبد أي ردة فعل عندما أخبرتك أنني هجرت دراستي؟"

-"وما ردة الفعل الذي توقعته؟"

-"لا أدري".

-"لم يكن ثمة ردة فعل يناسب الشجاعة التي تصرفتِ بها، لهذا آثرت الصمت".

-"شجاعة؟"

-"طبعًا، هاتي لي شخصًا واحدًا على استعداد لترك كل شيء خلفه دون تردد ولا ندم من أجل أحلامه".

وجدت نفسي أبتسم، وارتفعت روحي المعنوية لتحلق في السماء...

وضعت يدي على خده وتمتمت: "هذا يعني الكثير بالنسبة إليّ، حبيبي. شكرًا".

ابتسم، لم يفعل أي شيء سوى الابتسام، فبدأت شروخ قلبي في الالتحام مجددًا...

-"يومًا ما سأخبرك بكل ما مررت به في 2009، لقد خضت جحيمًا كاملة، ولعل سبب سقوطي في تلك الجحيم أنني كنت فتاة باهتة لا تتوقف عندها العين، وبمجرد انحسار مشكلاتي قررت ألا أعود كما كنت، قررت عمل شيء يجعلني مميزة، يجعلني مختلفة عن كل من حولي، ويجعلني أختلف من داخلي إلى الأبد".

-"اللغة اليابانية؟"

-"نعم، كانت الشيء الذي أشعرني باختلافي، والشيء الذي يلهيني تمامًا عن كل ما حولي. لقد كنت أتألم فقررت أن أذاكر كلما أزعجني شيء، وكنت مستميتة في الهرب إليها. أردت شيئًا أنتمي إليه، لم يكن لديّ أي شخص أو شيء أنتمي إليه سواها، كانت الشيء الوحيد الذي يجعلني أشعر أنني أستحق الحياة".

قطب جبينه، ووضع يده على خدي بطريقة غريبة...

-"إيتشيرو؟"

-"كل هذا الإتقان، هبة!"

-"بل قل: كل هذه الحماقة".

-"أنتِ لست كذلك أبدًا".

-"أخبرني، هل أصبحت مميزة بما فيه الكفاية لأستحق الحب؟"

مال وقبّل جبيني، ولف ذراعيه حولي مطمئنًا...

-"نحن لا نستحق الحب لأننا مميزون، نستحقه لأننا نحن، كما نحن".

تأوهت وملت برأسي نحو عنقه، ملأت رائحة عطره صدري بألم عجيب...

-"أنت قابلت هؤلاء الثلاثة، لقد كانوا أقرب أصدقائي فيما مضى، لكنهم لم يلتفتوا لوجودي في الحياة، تمامًا كما فعل أبي وأخي، وكما فعل كل الأشخاص الذين عرفتهم تقريبًا. عندما تركوني كان عالمي كله ينهار، وأصبحت وحدي، عندها قررت ألا أكون غبية مجددًا. أتساءل ما الذي يجعلهم متشبثين بالسعي خلفي هكذا الآن؟"

-"أستطيع فهم مشاعرك، هبة. وأنا آسف لأني لا أستطيع التعبير عن مشاعري بما يكفي، وآسف أيضًا لأنني جعلتك تقابلين هؤلاء الأشخاص ثانية، يبدو أنهم آذوك إيذاءً يفوق كل ما توقعت".

-"هذا لا يهم، لا يهم، لقد كنت محقًا، فما كان يجب أن أهرب مرة أخرى".

-"مرة أخرى!"

عندما كرر الكلمة تذكرت آخر مرة سمعت فيها صوت سمير، تلك المكالمة الأخيرة بيننا، والألم الذي أورثتني إياه لدرجة جعلتني خائفة كل الخوف من لقاءهم مجددًا، خائفة كل الخوف من إيذائهم مجددًا، والوقت الطويل الذي قضيته أتجنب كل مكان كنا نذهب إليه كي لا تصطدم عيناي بهم، أو أرى أطياف الذكرى تحوم حولي فيه فتصيبني بالجنون.

حتى بعد كل هذا الوقت الطويل أزعجتني رؤيتهم، لكنني كنت سأنزعج أكثر لو هربت وبقيت مهددة برؤيتهم ثانية، لحسن الحظ أنني استمعت لنصيحته.

قلت بامتنان: "نعم، لقد هربت من قبل، وأنا ممتنة لأنك لم تسمح لي بتكرار نفس الخطأ من جديد".

-"أنت لست بحاجة للهروب، فلا شيء يهددك، ولو كان فأنا سأحميك دائمًا".

لم أجد ما يفي عبارته حقها فلذت بالصمت وأنا أمسك بيديه، كنت ممتنة له كل الامتنان، وفي نفس الوقت شعرت بالكثير من الراحة والسعادة لكوني أزعجت مروان، ولكونهم سيتوقفون عن محاولة فهم أي شيء يتعلق بي. أنا أعرف مروان، إنه مغرور ولن يقبل بالسعي خلف فتاة رفضته بهذه الحدة، وعاملته باستهانة مؤكدة أن شخصًا أفضل في حياتها، نعم، لن يبحث عني مهما كان.

بعد ما حدث لن يطاردني أي شخص من ماضيّ ليكدر حياتي، تلك الصفحة من ذكرياتي قد أغلقت إلى غير رجعة، ولم يعد لديّ الآن سوى إيتشيرو ونفسي، ومستقبل لا أعلم عنه شيئًا لكنني أوقن بروعته.

هكذا اعتقدت يا ندى، وكنت حمقاء بما يكفي لأستحق ما جرى لي بعد هذا بأسابيع.

هبة

7 يوليو 2011

اليوم الثاني عشر

وعدٌ أول

صديقتي العزيزة ندى

بعد عودتي وإيتشيرو من شهر العسل اتخذت حياتنا شكلًا جديدًا، كانت مدرسة اللغة العربية التي يدرس بها مغلقة لقربها من ميدان التحرير الذي لم تستقر أحواله بعد، فأمضينا جلَّ وقتنا في بيتنا، ننام نهارًا ونستيقظ ليلًا، وتوليت مهمة تدريس اللغة العربية له، وبدأ هو يُدَّرسني مرحلة متقدمة في المقاطع الصينية "الكانجي". وفي الوقت الذي لا ننشغل فيه بالتدريس لبعضنا كنت أنهمك في الكتابة ويستغرق هو في أعمال الترجمة التي تتم تحت إشراف جامعته، أو إعداد مقال جديد في تخصص دراسته، لينشر في الصحف الأدبية المختصة بعلم الترجمة والأدب المترجم إلى اليابانية بشكل عام.

عندما أخبرني بهذه المعلومة الأخيرة ذات صباح قلت له بإحباط: "أنت تجعلني أشعر أنني شخص تافه".

-"لماذا؟"

-"انظر إلى عدد الشهادات التي تحملها وتخيل العذاب الذي أشعر به كلما فكرت في الوقت الذي ضاع مني".

ضحك وواصل الكتابة بطريقته السريعة على حاسوبه مجيبًا: "لا تبالغي، أنا أكبر منك سنًا، عندما كنت في نفس عمرك كانت الشهادة التي أحملها هي شهادتي الجامعية فقط".

وضعت يدي في خصري واعترضت: "أنت تتحدث أربع لغات، وأنا أتحدث ثلاثًا".

-"لغة من لغاتي الأربع هي لغتي الأم، هذه لا تحتسب".

-"ولغة من لغاتي الثلاث هي لغتي الأم، هذه أيضًا لا تحتسب وتبقى متفوقًا عليّ".

تنهد بصبر وقال: "لغتي العربية سيئة، تحتسب نصف لغة، وكذلك الإنجليزية، هكذا تعادلنا".

-"وأنا لغتي الإنجليزية متوسطة، ولم أتقن قراءة اليابانية بعد، أنت مازلت متفوقًا عليّ".

زفر بيأس ونظر إليّ يقول بطريقة جادة بطريقة كوميدية: "أنا آسف لتواضعي، هبة. الحقيقة أنني عبقري، وأنت فتاة مستهترة تضيع الوقت بلا ثمن، وفاشلة".

وضعت يدي على وجهي وأطلقت آهة حسرة كوميدية وقلت: "إيتشيرو، أنت قاس جدًّا، لقد تحطم قلبي".

عاد للكتابة وهو يقول بسخرية: "أخبريني ماذا أقول لأرضيك وسأفعل".

-"لا تسخر مني، تاكاهاشي إيتشيرو".

-"أنت تسخرين من نفسك بما يكفي، هبة تشان، ولست بحاجة لجهودي".

وصوب إليّ نظرة نارية وهو يلوي شفتيه، فرجعت للخلف خطوتين، ثم انحنيت معتذرة بحرارة كوميدية: "أنا آسفة، أيها اللورد الشرير، امنحني فرصة أخرى ولا تقتلني الآن".

-"هذه فرصتك الأخيرة".

بقيت أدور حول نفسي فترة، ثم استلقيت على إحدى الأرائك وهتفت بيأس: "ماذا سأفعل؟"

-"ماذا يزعجك الآن؟"

أننت كأنني أبكي: "أريد أن أكون مترجمة أنا أيضًا".

-"إذن كوني".

نظرت له بغيظ وقلت: "يا سلااااام!!"

ضحك من قلبه وقال: "أراهن أنك لا تستطيعين ترجمتها".

-"لماذا أقولها بالعربية لو كنت قادرة على هذا إذن؟"

ظل ينظر لي قليلًا متحيرًا، ثم قال بتلك اللا مبالاة التي تبدو قاسية رغم وضوح افتعالها: "هيا، هيا، أضيعي المزيد من الوقت في البحث عن هدف واضح تمامًا أمام عينيك".

لم أفهم ماذا يريد أن يقول في البداية، لكنني أدركت أنه بدأ ينزعج حقًّا من حيرتي. برغم أن إيتشيرو يمضي معي الكثير جدًّا من الوقت، إلا أنه حقًّا يكره أن يضيع الوقت الخاص بعمله أو دراسته سُدى. كنت أتعجب عندما أستيقظ من نومي مرات عدة في الليلة الواحدة وأجده في نفس الجلسة مستغرقًا في العمل بصمت لساعات. أمر لم أتخيل مدى إرهاقه حتى رأيته وهو نائم. ينام إيتشيرو عادة بعمق شديد، ساعات قليلة نعم، لكن نومه لا يتقطع ولا يتحرك خلاله إلا نادرًا.

أغلق حاسوبه وطوى شاشته ونحاه جانبًا، وجلس بانتباه أمامي فاعتدلت.. سألني بجدية: "أي دراسة تودين البدء فيها؟"

-"قبل أربع سنوات قررت...".

-"دعك من الماضي، فيم تفكرين الآن؟"

-"الترجمة، سيكون شيئًا جميلًا لو استطعت ترجمة الأعمال الأدبية العربية المميزة إلى اليابانية".

-"عظيم، ثم...؟"

-"سأدرس اليابانية، ولكنني لا أستطيع الالتحاق بكلية الآداب أو الألسن؛ أنا مقيدة بمجموع العام الذي تخرجت فيه، والانتساب مستحيل. لهذا سأحصل على شهادة في أي تخصص آخر يخدم اللغة اليابانية، ثم...".

تقلص وجهه في نظرة نفاد صبر، وحين سكتُّ قال: "أنت لست بحاجة للسعي وراء أي شهادة لتثبتي تفوقك، إن لغتك اليابانية ممتازة، ولا داعي لانتسابك إلى كلية تبدئين فيها من الصفر. واصلي دراسة الكانجي وتدربي أكثر، وخوضي اختبار الكفاءة الدولي في اللغة اليابانية، وإذا حصلت على N1 يمكنك استكمال الدراسة في أي معهد راق بعد عودتنا إلى اليابان، وفي مستوى متخصص، مستوى مترجم محترف لا مبتدئ".

كررت مأخوذة: "عودتنا؟!"

قال بنفاذ صبر: "أتظنين أننا سنبقى هنا إلى الأبد؟"

أزعجتني الفكرة، لو كان اقتراحه هذا قبل الثورة ما ترددت لحظة، لكن الآن كان مجرد التفكير في مغادرة مصر يؤلمني، يشعرني بالخيانة لكل هؤلاء الشباب الذين ماتوا كي أعيش أنا، وأساهم مثلهم في جعل هذا الوطن أفضل.

قلت بتوتر: "دعنا لا نناقش هذا الآن، أخبرني فقط: هل هذه الخطة كفيلة بجعلي مترجمة؟ ليس كل من يتقن اللغة يستطيع الترجمة منها وإليها؟"

-"سأدرسك علم الترجمة، والضوابط والالتزامات التي يراعيها المترجم".

-"هل نبدأ الآن؟"

تبدل مزاجه لمرح مفاجئ وقال: "لا أظن، فأنت لا تملكين الحصيلة اللغوية الكافية للفهم".

وأخرج لسانه لي مغيظًا، فطوحت بوسادة الأريكة في وجهه.

كان في حديثه هذا فصل الخطاب، قررت أن أحيا حياتي على طريقته، أجتهد بشدة في كل شيء أفعله، وأضع جدولًا لكل خطوة حتى لا يضيع وقتي سدى. بدأت بمراجعة كل ما درست من اللغة اليابانية، واستغرق مني هذا أكثر من أسبوعين كاملين أنهيتهما وأنا واثقة من صحة كل معلومة وكل نطق لكل كلمة أعرفها، ثم انطلقت إلى كلية دار العلوم وحجزت في أكثر من دورة لمهارات اللغة العربية، ودورات التصحيح اللغوي والنحو والصرف، كل الدورات التدريبية التي عثرت عليها اشتركت فيها؛ فقد قررت امتلاك ناصية لغتي الأم تمامًا قبل أن أنطلق في رحلتي الطويلة مع اللغة اليابانية.

كنت متعطشة للدراسة إلى حد الجنون، كل الاشتياق الذي اختزنته طوال خمس سنوات جعلني أركض بكل قوتي للفوز بكل شيء في وقت قياسي، وصرت أجد وقت النوم خسارة فادحة لا أتحملها، فقللت ساعات نومي إلى الحد الأدنى.

"لقد حان الوقت".. كذا كنت أخاطب نفسي في كل لحظة، كنت سعيدة وأنا أستيقظ مبكرًا بعد سهر طويل، وأترنح في طريقي للاستحمام والإفاقة من غيبوبة النوم. سعيدة وأنا أركض كالمجنونة لألحق بموعد المحاضرة، سعيدة وأنا أنهار من ضغط المذاكرة.. سعيدة لأنني نلت أخيرًا ما أحلم به، الشيء الذي أورثني فقده حسرة دامت خمس سنوات.

وفي كل يوم أدخل فيه الجامعة أسير بخطوات متراقصة، وأغني بسعادة: "حتى لو ليوم واحد، حتى لو لساعة واحدة، أنا طالبة يانعة.. ذاهبة إلى الجامعة".

عندها كان المرح يستخفني فأصرخ وأغني، وأنطلق راكضة أمام الأعين التي تظن بعقلي الظنون.

ذات ليلة غفوت وأنا أقرأ على مائدة الطعام، لم أشعر بنفسي إلا وأنا أرتطم بالأرض بعدما سقطت عن مقعدي. فقال لي إيتشيرو وهو يساعدني على النهوض: "قلت لك أن تذاكري بجد، لا أن تقتلي نفسك!"

-"أنت تجهد نفسك أكثر".

-"لأنني رجل، والرجال يتحملون أكثر".

كان يومًا كاملًا قد انقضى منذ استيقظت آخر مرة، فلم أشعر بنفسي بمجرد دخول لفراش، نمت نومًا عميقًا جدًّا، واستيقظت –لدهشتي- بعد خمس ساعات! بمجرد أن رأيت الساعة ضحكت، ونظرت له حيث استغرق في النوم العميق جواري وهمست: "أنت حقًّا أفسدت كل عاداتي".

ملت وقبلت شفتيه، كتمت ضحكتي وهو يتململ بتعبير طفولي ويغير وضعية نومه.

قابلت مروان مجددًا في هذا الأسبوع..

كنت في مكتبة ساقية الصاوي أعيد كتبًا استعرتها لأجل الدراسة، وفي غمرة بحثي عن كتب جديدة سمعت من يقول: "مش قلت القدر هيجمّعنا".

لم أهتم في البداية، ثم انتبهت إلى المتكلم يقصدني أنا، ونظرت لأجد مروان على المقعد المجاور لي، مستندًا إلى جيتاره ومسندًا وجهه لظهر كفه المائل في جلسة عابثة لا تليق بالمكان، وابتسامة ثقة مزعجة على شفتيه. قال: "أديني لاقيتك، المرة دي مش هتقدري تهربي مني".

رفعت حاجبي بلا معنى، ثم تجاهلته وعدت للكتب، وواصل هو إزعاجه: "كنت عارف إني هالاقيكِ تاني، قلت لك كده. شوفتي؟"

ظل يتفوه بعبارات من هذا النوع، ويتحدث عن القدر الذي يتوهم أنه جمعنا خصيصًا، لأن ما بيننا كان أعمق من أن يفصم بالقسوة التي كانت.. أصابني بصداع على مدى دقيقتين، فرفعت رأسي وناديت أمين المكتبة: "أستاذ أحمد، الأخ اللي جنبي بيتكلم بصوت عالي ومش قادرة أركز بسببه".

وخرج مروان مطرودًا من المكتبة وهو يهمس مروان متهمًا إياي بالجنون، وكان واقفًا بانتظاري عندما خرجت، وبادرني: "أنا عارف إنك مجنونة بس أول مرة أعرف إنك بجحة للدرجة دي. بقى تخليهم يطردوني من المكتبة يا هبة؟!"

لماذا هو مزعج إلى هذا الحد؟! لماذا لا يتركني وشأني بعد ما قلته في الإسكندرية؟! زفرت ضيقًا وأوليته ظهري مبتعدة إلى الكافيتريا. طلبت بعض قطع الدونات وكوبي نسكافيه، وجلست إلى منضدة مرتفعة من تلك المتناثرة في حديقة الساقية، وذهلت حقًّا عندما جلس على المقعد المقابل لي.

تودد لي بابتسامة: "أنتِ لسة فاكرة نوعية الدونات اللي بحبها! مش قلت لك....".

جاء صوت إيتشيرو أخيرًا يقول: "مساء الخير".

وقبَّل أصابعي بخفة قبلة سريعة فابتسمت، قلت: "افتقدتك. لماذا تأخرت؟"

-"المواصلات سيئة جدًّا. آه، لديك شيء للأكل هنا".

رفعت قطعة دونات إلى فمه فقضم منها وهو يمسك بيدي، ثم لاحت منه نظرة إلى مروان فانقلبت نظرته الدافئة لتنبئ بالمتاعب، وعندما ابتلع ما يأكل سألني بالإنجليزية: "ما هذا الشيء؟"

-"لا أعرف".

ردد مروان مغتاظًا: "شيء!!"

ببرود سأله إيتشيرو: "ماذا تريد؟"

حدثني مروان متجاهلًا إياه: "قوليله اللي أنا عايزه يا هبة".

لم أنظر حتى نحوه، وقال له إيتشيرو: "انهض وانصرف، سأحذرك مرة واحدة وأخيرة: لو رأيتك بالقرب منها ثانية سأضربك".

-"أنت تضربني؟ أنا؟!"

ونظر له بسخرية، لا ينبئ مظهر إيتشيرو المفرط في البساطة عن القوة التي يملكها، وبرر هذا الاستهانة التي حدثني بها مروان: "عاجبك اللي بيقوله ده؟"

كالعادة لم أرد، فنهض وقال: "ماشي يا هبة، لينا لقاء تاني".

عندما ابتعد قال إيتشيرو بسخرية: "يظن تهديدي غير جدي، أليس كذلك؟ كم أحب هؤلاء الذين يستهينون بي ويتلقون في النهاية درسًا مؤلمًا".

ناولته النسكافيه بعد جلوسه وسألته: "أخبرني عن الرياضات التي لعبتها مع صديقك جيه؟"

نقر جبيني كما فعل من قبل وصحح لي: "يونغ جيه، اسمه سونغ يونغ جيه".

-"آه! يا لك من شرير! حسنًا، أخبرني عن الرياضات التي لعبتها؟"

ثنى كفيه تحت ذقنه كالقط ونظر للسماء مفكرًا: "السباحة رياضتي الأولى، كنت بطل اليابان الأول في السباحة لثلاثة أعوام متتالية، ولعبت التايكندو أيضًا لفترة طويلة".

-"فقط؟"

-"أليسا بكافيين؟"

-"بلى، لكنك تبدو أقوى من هذا. أعني أن عضلاتك أفضل بكثير من عضلات سباح".

-"أنت تقللين من قدر السباحة، هبة تشان. السباحة تنمي عضلات الصدر والكتفين بشكل لا تتخيليه، وتمنح الجسم مرونة وتجعل أنفاسك أقوى وقدرتك على الاحتمال أعلى".

-"أين تمارسها الآن؟"

ابتسم واحتضن كوب النسكافيه بيديه، قال: "لا أمارسها، توقفت عن ممارستها منذ أكثر من عشر سنوات".

-"أنت تمزح!"

-"لا، لقد توقفت عنها ولن أعود لممارستها مجددًا. ليست لديّ القوة الكافية للتغلب على كراهيتي للبحر".

-"سأجعلك تتغلب عليها إذن.. الحياة دون بحر جحيم".

ابتسم، لكن الابتسامة لم تصل لعينيه وبدا متضايقًا من هذا الحديث فغيَّرته: "إذن ما سر احتفاظك بهذه العضلات رغم توقفك عن السباحة؟"

-"أنا أمارس التمارين الخفيفة يوميًّا، وأذهب إلى صالة الألعاب الرياضية مرة في الأسبوع، وتمارين التايكندو الأساسية كل يومين".

ضحكت قائلة: "متى تفعل هذا؟!"

-"وأنتِ نائمة".

-"كل شيء بجدول منتظم كالعادة".

-"أليس هذا أفضل؟"

-"كل شيء ينتمي لك هو الأفضل".

وأمسكت بيده عبر المائدة وقلت ممازحة: "دعني أنضم إليك في تمرينات التايكندو، سيكون شيئًا جميلًا لو استعدت مهاراتي في تلك الرياضة".

-"لماذا؟"

-"لأحمي نفسي إذا ما تعرضت لمشكلة".

قطب جبينه وضغط بشفته السفلى على العليا مصوبًا إليّ نظرة أربكتني، سألته: "ماذا؟ هل أخطأت في شيء ما؟"

هز رأسه يمنة ويسرة وابتسم، ثم قال: "اليوم الذي سأكون عاجزًا فيه عن حمايتك، سيكون اليوم نفسه الذي نفترق فيه إلى الأبد، هبة".

طرفت بعينيّ وقد روعتني كلمة نفترق هذه، لكنه هدأ من روعي عندما فسر عبارته بلطف: "لن تكوني بحاجة للدفاع عن نفسك ما دمت أنا إلى جوارك، سأموت ألف مرة قبل أن أترك مكروهًا يصيبك".

عجزت عن الرد، وأصابني صمت عجيب وأنا أتأمل طريقته الحنون في الحديث، ثم طريقته الرقيقة في لمس يدي، فقد رفعها ليسند عليها خده، لبث صامتًا لحظات وهو ينظر إليّ، ثم أغمض عينيه وتمتم: "أنت أجمل وأرق بكثير من أن تحمي نفسك بنفسك، كيف أستحق أن أكون رجلك إذا كنت غير قادر على حمايتك بنفسي، هبة!"

وضعت يدي الأخرى على وجهي، متمنية أن يكون هذا كافيًا لكبح جماح مشاعري، ومتمنية أكثر لو أننا كنا في بيتنا، لو كنا في مكان لا يرانا فيه أحد.

تبضعنا قبل عودتنا إلى المنزل، وأعددت له طبق أسماك مبتكرًا احتفلنا به معًا، ثم قضينا وقتًا طويلًا في الدراسة مساءً، وقبل أن ننام رقصنا على مقطوعة يانّي الخلابة (حتى آخر لحظة).

خلال الأسبوع نفسه حام مروان حولي في الساقية ثلاث مرات، التزمت بصمت قاتل مهما ظل يثرثر جواري، وتجاهلته تجاهلًا كافيًا لكراهيتي إلى الأبد. في المرة الأولى تسببت في طرده ثانية من المكتبة، مع تهديد بسحب بطاقة العضوية، وفي الثانية اشتريت الدونات كالعادة من الكافيتريا وغادرت الساقية

وأشرت لأول تاكسي وركبت دون حتى أن أنظر في وجهه، أما في المرة الثالثة فقد استوقفني قسرًا خارج الساقية كلها، وفي أثناء ذهولي وتحديقي إلى يده القابضة على معصمي سألني: "لحد امتى هتفضلي تهربي مني؟"

حاولت شد يدي من يده لكنني فشلت، جالت فكرة بذهني كشفها فورًا وقال: "ما تحاوليش تصرخي وتلمي الناس، احنا كبرنا على التصرفات المجنونة دي".

لأول مرة منذ بدأ ملاحقتي سألته: "عايز ايه؟"

-"عايزك أنتِ".

-"أفندم!"

هز يدي بعنف وقال: "احنا أصحاب، ومن حقي أفهم ايه اللي كان بيحصل معاكِ الفترة اللي فاتت".

صحت في وجهه بانفعال وأنا مازلت أحاول التخلص من يده: "وأنت مالك؟"

-"قلت لك احنا أصحاب".

هززت رأسي غير قادرة على سماع الكلمة، قلت: "أصحاب؟ الأصحاب مش بيتخلوا عن بعض ببساطة يا مروان".

-"مين اللي تخلى عن مين؟"

كان غاضبًا جدًّا، للحظة شككت في ذاكرتي وظننت شيئًا قد حدث ونسيته يستحق كل هذا الغضب. قال: "احنا ماتخليناش عنك، أنتِ اختفيتِ ومحدش عرف لك سكة، لو كانت مشكلتك معايا ومع سمير ومعاذ، طب ايه مشكلتك مع ندى؟ ليه اختفيتِ من غير ما تقولي لها كلمة واحدة؟ مش هي برضو صاحبتك؟"

ألجمني الذهول لحظة، وقبل أن أجيبه ألقى يدي بعنف واستدار منصرفًا، واختفى قبل حتى أن أستجمع أفكاري للرد عليه.

أكره أن يسيطر أحد على تفكيري، وبالذات لو كان مروان، لكنه للأسف فعل. استرجعت كل الأحداث في ذاكرتي، حاولت أن أجد مبررًا يمنحه الحق في الغضب لكنني لم أجد شيئًا! كل الأخطاء كانت منهم، هم أساءوا فهمي، استهانوا بي، أطلقوا حولي شائعات لا نهاية لها، لم يحاول أحدهم أن يفهمني، وفي النهاية

سمحوا لأنفسهم بخسارتي لسبب تافه، وحتى سمير لم يمنحني الفرصة للشرح وأغلق كل سبل الحوار بيننا، ومروان فضلهم عليّ رغم أن الحق كان معي، تركوني جميعًا ولم يكترثوا بي، وعندما قررت الابتعاد عن الكل والاهتمام بحياتي التي تتحطم في كل لحظة لم يهتموا بمعرفة أخباري أو السؤال عني، برغم أنهم كانوا بعد يحتفظون برقم هاتفي، ما الذي يمنحه الآن الحق في الغضب؟ وكيف يجرؤ على الصراخ في وجهي؟

أعماني الغضب وعدت للساقية باحثة عنه لكنني لم أجده، فانصرفت وأنا أتميز غيظًا، لكن ما أغاظني أكثر كان الجزء الأخير من حديثه يا ندى، الجزء المتعلق بك أنت.

بشكل مفاجئ تذكرت وجهك في لقاءنا الأخير، هذا التعبير المتعاطف اللطيف الذي أبديته لي طوال الوقت. كنا في رمضان، و2009 تبدو ككابوس ثقيل لا يريد أن ينزاح عن صدري، مررت بيوم شاق كنت أنتظر وجبة ساخنة وفراشًا نظيفًا كمكافأة عنه، لكن المكافأة الحقيقية كانت صوتك في الهاتف، واتصالك بي.

برغم حبي لك إلا أننا لم نكن مقربتين، بالكاد خرجنا مرتين أو ثلاثًا وحدنا، وكانت آخر مرة رأيتك فيها في معرض الكتاب، كما لم تكوني طرفًا بأي شكل في خلافي معهم، لذا لم أكن أحمل نحوك أي مشاعر سلبية كالآخرين الذين عرفوني بما يكفي ولم يأبهوا لوجودي أو غيابي، علاقتي بك لم تكن قوية كفاية لتهتمي بي أو تنحازي ضدي، وطوال الشهور التي سبقت اتصالك، والتي اختفيت فيها فلم يظهر لك أثر، طوال تلك الشهور لم تبدر منك بادرة تدل على اهتمامك بي، أو أنني أعني شيئًا لك.

ربما لهذا كان اتصالك شيئًا جعلني أشعر بامتنان لا نهاية له، وأصبحت هشة جدًّا عندما سمعت صوتك، وملأني الدفء الذي يغمرنا جميعًا عندما نكتشف أن شخصًا ما لا يزال يعبأ بنا. كنت أرفض عادة الخروج مع أي شخص، لكنني لم أتردد عندما عرضتِ عليّ الأمر، شعور غريب مشئوم كان يهمس لي بأن هذه ربما تكون آخر مرة أراك فيها، أو هي آخر مرة يمكنني فيها التمتع بشعوري كفتاة عادية لديها صديقة تخرج معها.

التقينا في وسط البلد وتوجهنا إلى مطعم آخر ساعة المفضل لنا، وفي الدقائق التي سبقت الإفطار اعتذرت لي عن غيابك الطويل، أخبرتني أن عائلتك تعصف بها آلاف المشكلات وتضطرين للانتقال باستمرار بين منزلك في القاهرة

والآخر في الإسكندرية، وأخبرتني بخبر انفصالك عن يحيى. أذكر حتى الآن كيف كان شعوري بالصدمة لدى سماع الخبر، وكيف انكسر داخلي شيء آخر كبير؛ كان لديّ دائمًا أشياء قليلة أؤمن أنها غير قابلة للتحطم، أولها علاقتي بأمي وثانيها علاقتي بأخي وثالثها علاقتك بيحيى، لم أكن أتخيل أن تتحطم أي علاقة من هذه العلاقات، وخصوصًا الأخيرة، حُبك ليحيى وحبه لك كان يبدو لي خياليًّا، شيئًا أزليًا مقدرًا لا يمكن أن تنفصم عراه. عندما سمعت بالنبأ غص حلقي، وأيقنت أن شيئًا –مهما كان قويًّا- لا يمكن أن يكون بمنأىً عن التحطم.

الشيء الذي أثار جنوني هي الشبهة التي تحوم حول سمير في هذا الأمر، قلت لي: إن هناك ألف قرينة تتهمه في هذا الانفصال بشكل ما، وكان هذا شيئًا آخر لا يصدق؛ علاقتك بسمير كانت تجسد الصداقة الحنون في أجمل صورها. ومرة أخرى كرهته، كرهته من كل قلبي لكل هذا الإيذاء الذي تسبب فيه لكل هؤلاء الذي أحبوه ومنحوه ثقتهم، أنا، معاذ، أنت، يحيى، وليس لديّ سبب يجعلني أعتقد أن إيذاءه اقتصر علينا وحدنا، هذا الفتى حقًّا...

كلما فكرت فيه يتأجج شعوري بالكراهية، هذا الشعور لن يخمد أبدًا، لن أكون قادرة على نسيان كل ما فعل بنا مهما امتد بي العمر.

الكراهية كانت تتحكم بي في تلك اللحظات، بالرغم من قولك أنك تسعين لإعادة علاقتك بهم بشكل طبيعي مرة أخرى، لم أفهم هذه القدرة العجيبة على التسامح، لم أفهم كيف يمكن أن تواتيك القوة لتبتسمي في وجه شخص تعرفين يقينًا أنه آذاك! بعد كل هذا الوقت أتساءل: كيف استطعت أن تفعلي هذا؟!

لكن السؤال الأهم بالنسبة إليّ الآن: هل تستطيعين فعل هذا مجددًا يا ندى؟ لأجلي؟

لقد كنت مجرد فتاة حمقاء عمياء عامرة بالكراهية، بل بالرغبة في الكراهية والتخلي عن الجميع، ولم أدرك بشاعة أنني بدأت بالتخلي عنك إلا الآن.

لقد كنت ممتنة لاتصالك، للقائك، لمساعدتك التي عرضتها بصدر رحب، عندما كنت معك شعرت بضياء مفاجئ ينير قلبي ويقول لي: إنني لست وحدي، ولن أعود وحدي مرة أخرى ما دام لديَّ شخص واحد يهتم بي، ولكن عندما جائتك مكالمة تليفونية شغلتك عني، حاصرتني أسوأ أفكاري، وتذكرت كل شيء.. كم كنت هينة بالنسبة إلى مروان، لمعاذ، لسمير، لأمي وأبي وأخي، لم يكن هناك

ضمان بأنك لن تتخلي عني أنت الأخرى، وبدت فكرة أن أحترق من جديد بهذا الألم أكثر قسوة من أن أتحملها. فجأة شعرت بجدار يقوم بيننا جعلني بمنأى عن كلماتك الدافئة أحيانًا والمتحمسة أحيانًا، واجهتك بتلك الابتسامة الهادئة التي لا تعني شيئًا، ولكن قبل أن نفترق، وعندما كنت أعانقك تسللت لأنفي رائحة عطرك، سيطرت على حواسي، آلمتني من كل قلبي لأنها ذكرتني بتلك الأيام القديمة، وآلمتني أكثر عندما نبهتني إلى أن هذه ستكون آخر مرة أستمتع بها. عندما افترقنا سألتك: "العطر ده اسمه ايه؟"

-"إسكادا كوليكشن".

استقر الاسم في قلبي، لم أنسه قط، أردت أن أحتفظ بتلك التفاصيل الصغيرة عنك في ملف كبير داخل عقلي لا تمتد إليه يد النسيان، أردت أن يكون معي كل شيء، كل التفاصيل، كل ذكرى لأسترجعها وحدي، كل شيء لأستمتع به وحدي، وأتعذب به وحدي.

قلتِ لي بلطف وتشجيع: "شدي حيلك، كل حاجة هتبقى كويسة يا هبة".

-"آه، إن شاء الله".

-"خليني أشوفك قريب".

-"أكيد".

-"وعد؟"

ترددت قليلًا، لكنني لم أشأ إثارة قلقك وشكك، لا بأس في أن أكون كالآخرين مرة واحدة فقط في حياتي. قلت بحسم وثقة: "وعد".

سامحيني يا ندى..

أنا آسفة حقًّا لكوني نكثت وعدي الأول، والأخير.

هبة

9 يوليو 2011

اليوم الثالث عشر

طرف خيط أحمر

صديقتي العزيزة ندى

إلى متى ستتجاهلين رسائلي؟

أدرك الآن كم أنا مستحقة لهذا التجاهل، أعرف أنني كنت غبية، لكنني أريدك أن تعرفي أيضًا إلى أي درجة يعذبني ضميري لأجلك. منذ ألقى مروان عبارته الغاضبة تلك بوجهي والغضب من نفسي لا يتركني لحظة كلما فكرت فيك.

لكنني أيضًا غاضبة منك كثيرًا يا ندى، كيف كنت حمقاء لدرجة أنك لم تفهمي أنك بحاجة للبوح عن مشاعرك كي تصل للشخص الآخر؟ كيف توقعتِ مني أن أبقى معك، دون أن تخبريني بأن هذا البقاء قد يشكل فارقًا؟

وجه مروان وهو يعنفني لأجلك لا يفارقني، يثير غضبي، ولعدة مرات صرخت:"إزاي كنت هاعرف؟!"

لم تخبريني قط يا ندى أنني مهمة بالنسبة إليك، كنت أراك فتاة مبتهجة مشرقة محبوبة، يحيط بها الجميع فلا تحتاج أحدًا، فكيف لها أن تحتاج لفتاة مثلي أنا؟! فتاة منعزلة منطوية لا يحبها أي شخص؟!!

خرجنا مرات قليلة، وكانت أغلب حواراتنا تنصب على الثرثرة عن هؤلاء الحمقى، واللقاءات المرتقبة، والروايات والأفلام.. لم تخبريني قط أنك تعتبرينني صديقة لك، لم تخبريني أن وجودي قد يشكل فارقًا، أو أن غيابي قد يسبب مشكلة، فكيف لي أن أعرف؟!

كلما فكرت في هذا وجدت أني أحق بالغضب منك، لكنني في الوقت نفسه أضع نفسي مكانك، وأستطيع أن أقدر مشاعرك، أستطيع أن أتخيلها، وأتمنى لو تفعلي الشيء ذاته معي.

لو أنك أخبرتني، مرة واحدة فقط!

تُرى كم مرة اتصلت بي ووجدت هاتفي مغلقًا؟ لقد أغلقته لفترة تجاوزت نصف العام، ولم أفتحه إلا كل شهرين لأجري مكالمة تحول دون إيقافه، لماذا لم ترسلي رسالة واحدة تقولي فيها عبارة واحدة؟!!

تُرى كم رسالة أرسلتها إلى بريدي الإليكتروني القديم؟ وحساب الفيسبوك؟ أنا لم أفتحهما حتى الآن لأن كلمة المرور إحدى الأشياء التي فقدتها ذاكرتي بعد 2009 إلى غير رجعة، لكنك كنتِ تعرفين أني لا أفتحهما، أنا أخبرتك بهذا!

كم مرة وكم مرة وكم مرة، يؤلمني التخيل يا ندى، لهذا أتحمل تجاهلك لتلك الرسائل، لك الحق في هذا، أقدر شعورك حقًّا، ويمكنني أن أتحمل ما هو أقسى من هذا فقط لو تأكدت من أنك حقًّا تقرئين ما أكتب، تُرى هل تقرئينه؟ وأين أنت الآن؟

السؤال اليائس الذي أجهل إجابته يعذبني، ويضاعف عذابي أنك مررت بهذا الشعور من قبل.

أسابيع مرت عليّ وأنا أكاد أجن، صرت أبحث عن مروان بلا جدوى، اختفى الوغد بعدما حطم سلامي النفسي وراحة بالي، وتركني نهبة لتفكير مستمر، وشريط ذكريات لا يتوقف، وشعور بالذنب عكر مزاجي طويلًا.

لم أره إلا بعد شهر أو أكثر، ورغم السخط الذي شعرت به حال رؤيته إلا أنني لم أحاول الهرب، بقيت أنظر إليه وأنا غاضبة، أكبح بصعوبة رغبتي في الصراخ به تعنيفًا على اختفاءه، فبادرني: "ماتقوليش إن كلامي كان مفاجئ؟"

كرهت الاعتراف أنه فتح لي آفاقًا من العذاب النفسي مجددًا، قلت ببرود: "مفاجئ؟ مش لما أفهم قصدك أبقى أتفاجأ".

ابتسم بسخرية، لم يرد، ودعاني للجلوس والحديث فلم أعترض.

قال وهو يضع جيتاره جانبًا: "أنتِ فعلًا ما فهمتيش اللي أنا قلته؟"

-"هات من الآخر يا مروان".

-"مفيش آخر، أنتِ بترمي اللوم علينا لأننا بعدنا عنك، ونسيتِ إنك عملتِ نفس الشيء مع ندى. يا ترى عندك فكرة هي كانت هتتجنن قد ايه عليكِ؟ تليفونك مغلق ومش بتردي على رسائلها ومحدش يعرف بيتك. ليه لاقية في نفسك الشجاعة تعاتبينا من غير ما تبصي للي أنتِ عملتيه؟"

-"علاقتي بندى مكانتش بالقوة اللي تخليها تدور عليا بالشكل ده".

-"ده اللي أنتِ متخيلاه، ندى فعلًا كانت بتهتم بيكِ".

اشتعل غيظي كما لم يفعل من قبل، لو كنتِ أمامي وقتها لربما قتلتك!

سألته متظاهرة باللا مبالاة: "هي فين دلوقتي؟"

-"محدش يعرف عنها حاجة من فترة. آخر اللي عرفناه عنها إن عائلتها ناوية على الانتقال للإسكندرية، واختفت تمامًا من بعد الثورة".

-"تليفونها؟"

-"مغلق، وعنوانها اتغير، والفيس بوك والايميل مغلقين برضو".

نهضت واقفة وقلت له ببرود: "يا سلام على أخبارك! وتاعب نفسك وجاي تقول لي كل ده ليه؟"

تركته وانصرفت، كنت أحاول تمثيل البرود لأبعد مدى، ولفترة طويلة بعد تلك الجلسة لم أعد إلى الساقية كي لا أراه.

بعدما تركته عرجت على بيت أمي، فتحت صندوق الحلوى وقلبت في محتوياته الكثيرة، أخرجت ورقة تحتوي على جميع عناوين البريد الإليكتروني الخاصة بك. كتبتها لي بنفسك يومًا لأتولى مهمة تغيير كلمات مرورها، لأن الإنترنت كان مفصولًا عن منزلك، واحتفظت بها لأن الرسوم الموجودة على حواف الورقة كانت رائعة الجمال، الآن بعد ثلاث سنوات على الأقل أجدها كنزًا شديد الأهمية. نقلت العناوين، وخصوصًا هذا الذي وضعتِ تحته خطًا عريضًا يشير لمدى سريته، البريد الإليكتروني الوحيد الذي أنا واثقة من أنك لن ترميه قط خلف ظهرك، لهذا كان أول عنوان قررت أن أراسلك عليه.

لكن التردد أعجزني، ماذا عساي أقول لتتفهمي موقفي يا ندى؟

بعد يومين سافرت مع إيتشيرو إلى الإسكندرية، لأول مرة يأتي شهر يونيو بجو لطيف جميل كهذا، البحر كان هادئًا رائعًا أسرني وأنا أنظر إليه من الشرفة، منظره مختلف تمامًا عن نظيره المخيف الذي أغرقني وأصابني بالحمى منذ شهرين، أحقًّا مضى شهران فقط؟

شجعني إيتشيرو على بدء مراسلتك، رغم أنه كان يلتمس لي الأعذار أمام نفسي، مخبرًا إياي أن ما فعلته كان شيئًا منطقيًّا بالنظر لمشاعري في ذلك الوقت، ويلقي ببعض اللوم عليك لأنك لم تبدي قط شيئًا من مشاعرك، لكنه في الوقت نفسه كان يوبخني لتأخري في مراسلتك، كان يقول إن اللحظة التي تمضي ربما تقلل من فرص مسامحتك لي.

قلت له ليلة وصولنا:"إيتشيرو، هل يمكنني أن أطلب شيئًا؟"

-"هذه أول مرة تطلبين فيها شيئًا بتلك اللهجة! اطلبي ما شئت، وسأحقق لك ما تريدين مهما كان يا أميرتي".

-"أريد أن ننتقل إلى أبي قير، لو أن عائلة ندى انتقلت إلى الإسكندرية فستكون هناك بلا شك، أنا أتذكر جيدًا أن منزل عائلتها هناك".

ظل صامتًا دقيقة أو أكثر، ورأيت تروس أفكاره تهدر لتقدير الطلب وكيفية تنفيذه، ثم قال: "كما تحبين. سننتقل إلى أبي قير".

بر بوعده كما اعتاد، وبعد يومين انتقلنا إلى الشقة التي مازلنا نأتي إليها حتى الآن. لم أكن أعرف الإسكندرية جيدًا لهذا لم أتوقع أن تكون منطقة أبو قير بعيدة إلى هذا الحد، كنا معزولين عن العالم انعزالًا، العمارة التي انتقلنا إليها كانت تطل على الشاطئ مباشرة، ويبعد البحر عنها نحو مئة متر، كما كانت جديدة تمامًا فلم يكن بها سكان سوانا في الطابق الخامس، وساكنين آخرين في الطابق الأول.

قال لي وهو يقف جواري في الشرفة مستنشقًا هواء البحر: "هذا رائع! كانت فكرة جميلة أن نأتي إلى هنا".

-"نعم، البحر يبدو أجمل كلما اقتربنا منه".

-"والشاطئ صخري، لا أتوقع أنه يحظى بكثير من المصطافين".

-"صخري؟"

عندما انحسر الموج رأيت الصخور التي يلوح ظلها الأسود من تحت الماء، أثار المنظر خوفًا غامضًا في نفسي وجعلني أشيح بوجهي بعيدًا. عانقته وتمتمت: "شكرًا، إيتشيرو".

كان من المقرر أن نقضي أسبوعًا للراحة من الدراسة، ومن فترة العمل الشاقة التي مر بها خلال شهر مايو، ولكن بعد يومين فوجئ إيتشيرو بكمية عمل ضخمة ترسل إليه، وجعلته يضطر للاستغراق في العمل عليها لفترة تتجاوز أربع عشرة ساعة يوميًّا. لم يزعجني في هذا إلا إرهاقه الشديد، واضطراره لاحتساء الكثير من المنبهات ليسجل أرقامًا قياسية في فترات استيقاظه، ولم يضايقني البقاء في المنزل أغلب الوقت كما اعتقد هو؛ كان النظر للبحر في هذه العزلة متعة لم أجربها من قبل.

بدأت في تلك الفترة مراسلتك، ولم أتلق حتى الآن ردًّا واحدًا يطمئنني لكونك بخير، ولكونك تقرئين رسائلي. أمس فقط بعدما أنهيت رسالتي الأخيرة، وأمسكت جريدة "المصري اليوم" أطالع آخر الأخبار خطر لي خاطر كئيب: تُرى هل أصابك مكروه إبان الثورة؟

لقد أزعجني هذا الخاطر إزعاجًا لا حد له، وانكببت على الإنترنت أبحث عن أسماء الشهداء والمصابين في الثورة، لكن اسمك لم يكن موجودًا، هناك أسماء كثيرة غير موجودة وأرجو ألا يكون اسمك من بينها.

مهما كان غضبك مني طمئنيني عليك يا ندى، عقلي بدأ ينجرف لسلسة أفكار كئيبة لا تنتهي.

هناك اعتصام في التحرير الآن، أليس كذلك؟ لا أعرف حقًّا إلى متى سيظل الثوار مزعجين إلى هذا الحد، ولا أفهم لماذا لا يمنحون بعض الوقت للجيش كي يدير الأمور! تعبر هذه الأفكار ببالي أحيانًا لكنني أتجاهلها كي لا يطيح السخط بعقلي.

عمومًا درجة حرارة الجو بشعة هذا الصيف، حتى هنا في الإسكندرية. رغم الهواء الرائع الذي يهب على شقتنا طوال النهار إلا أن النزول إلى وسط البلد هو الجحيم بعينها، فعلتها مرة وكنت على وشك أن أفقد وعيي، لهذا لا أظن أن المعتصمين سيصمدون طويلًا.

اكتبي لي، أرجوك يا ندى..

فكرة أن أكون قد آذيتك بنفس الطريقة التي آذوني بها فكرة لا تطاق، ويزعجني أكثر أن أكون بلا قصد مني قد منحتك طرف خيط أحمر يربطك ليقين مدمر بالوحدة كالذي عذبني طويلًا.

هبة

10 يوليو 2011

اليوم الرابع عشر

لأنني كافرة

صديقتي العزيزة / ندى

مازلت مستمرة في تجاهلي إذن!

لا جديد في الفترة السابقة، فقط أديت اختبارات الدورات التدريبية التي اشتركت فيها، وتجاوزتها بأعلى تقديرات. احتفلت مع إيتشيرو بهذا، كما احتفلنا بتجاوزه مرحلة مهمة من مراحل دراسته، وبداية استعداده للمرحلة النهائية التي ستؤهله لنيل شهادة الترجمة العليا التي يسعى إليها.

بعد أسبوع أهلَّ شهر رمضان، وكدرتني أنباء اقتحام الجيش لمسجد عمر مكرم في أول أيامه، لكني تجاهلت الأمر سريعًا؛ لم يعد ما يحدث في مصر يثير اهتمامي ولو قليلًا. كراهيتي القديمة لها كانت تستيقظ أكثر مما كانت مع كل لحظة تمضي، وكل ثرثرة غبية تمر بي وتتشكك في أهداف الثورة، وتخوِّن شبابها، وتسب الشهداء منهم قبل الأحياء. صحيح أنني لم أكن مستريحة لاستمرار المظاهرات والمليونيات كل جمعة وأخرى، لكن ليس لدرجة أن أسب الشباب.. كنت أعتقد أنهم مزعجون راقتهم لعبة الثورة فاستمرأوها، ولا يريدون أن يهدءوا كي تستقيم الأمور، لكنني بالتأكيد لم أكن أعتقد أنهم مأجورون وعملاء وخونة ويريدون حرق البلد. ماذا في مصر يستحق أن تتآمر عليه بلاد الدنيا؟ اقتصاد؟ مكانة؟ مال؟ لا شيء، نحن لا نملك شيئًا يجعلنا موضع حسد من أحد كي يقرر تكدير حياتنا. الشيء الوحيد الذي كنا نفتخر به هو أخلاقنا، وروح الطيبة التي يتمتع بها شعبنا، لكن بعد الثورة توارت هذه الأخلاق في أعماق سحيقة ما.

مصر تغلي، وفي كل مكان مشاجرة، في بعض الأيام كنت أفتح عيني صباحًا لأتشاجر حتى المساء، أتشاجر مع من يفتون بغير علمٍ ويقولون علينا ما لا يعلمون، ومن يدعون علينا بالموت، ومن يشكك في شرفنا.. وبجانب هذا فالبلد منفلتة أمنيًّا لدرجة يبدو معها أن الجميع يعاقب الجميع على الثورة، بدءًا من المتحرشين في الشارع، ثم الصراصير الذي يحشرون أنفسهم في عربات السيدات بالمترو، وحتى ضابط الشرطة الذي ذهبت أشكو له غياب رجال الأمن

في المترو فقال لي: "مش عملتو ثورة؟ خلوها تنفعكم بقى. عشان تعرفوا إن أوسخ حاجة حصلت في البلد دي هي ثورتكم الوسخة".

كدت أفقد عقلي، لوهلة سألت نفسي عن عواقب صفعه، وفي النهاية قررت ألا أنحدر لمستواه، أحرقته بنظرة احتقار وبصقت على الأرض وأنا أنصرف.

لديَّ خصومة في كل مكان، فأنا أتشاجر في المواصلات مع الأغبياء الذين يشعرونني أنهم كانوا يعيشون في جنة الله في أرضه قبل الثورة، والتجار الذين لم يعد عليهم ضابط ولا رابط فرفعوا الأسعار كأن الفقراء لا يكفيهم شقاءهم، ومع زملاء الجامعة المنتمين للمرائين المنافقين ذوي الذقون، والعقول المظلمة المختفية خلف جوال أسود يغطيها من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها، إخوانية أو سلفية لا يهم، فالعقول الغبية واحدة في الحالتين.

جاءتني إحدى هؤلاء يومًا تقول: "يا أخت هبة، أنتِ عمرك ما فكرتِ تلبسي نقاب؟"

كانت تتكلم بلهجة الناصح المشفق، وكأنها امتلكت صكوك الغفران ومفاتيح الجنة.. قلت لها ببرود: "أنا مش أخت، وياريت تخليكي في حالك".

مصمصت بشفتيها وقالت: "عيب طريقتك دي، الرسول بيقول: (وخالق الناس بخلق حسن)".

لم أتمالك نفسي وقلت: "حقيقي؟ وفين الخلق الحسن ده لما كنتِ بترددي كلام "الفلوط" بتاعكم، وتقولي إن: أي بنت مش إخوانية تبقى بنت من ع الرصيف؟ ولا الخلق الحسن ليكم واحنا ولاد كلب؟".

كنت هجومية أكثر مما يحتمل الأمر يا ندى، لكنني ما عدت أحتمل هؤلاء، واسترحت عندما انتهى هذا الموقف باعتباري مجنونة يتجنبها الجميع كي لا ينال سوءًا من لسانها، صحيح أن المسلم من سلم الناس من لسانه ويده، ولكن هؤلاء لم يجعلونني أسلم من لسانهم فلا يمكنني أن أجعلهم يسلمون من لساني.

ثم كان صدع كبير بيني وبين مصر عندما كُفِّرتُ لأول مرة علنًا..

كنت في مدرج الكلية أحاول التأهب لمحاضرتي القادمة، وقربي فتاة سلفية متشحة بالسواد الكئيب من الرأس إلى القدم، وقد فتح الله عليها بحماس لم يمن به على فائز بجائزة نوبل وهي تحكي قصة متخلفة تجرأت وتصديت لها،

فرمتني بنظرات مسمومة من خلف النقاب وصاحت: "إزاي تتجرئي وتشككي في معجزات ربنا؟"

كنت بعد محتفظة بعقلي وبرودي، فقلت بابتسامة تحمل طعم السخرية: "وهي فين المعجزة؟ حضرتك بتقولي رائدة فضاء أشهرت إسلامها لأنها شافت الأرض ضلمة من الفضاء عدا مكة والمدينة، وسمعت الأذان، وأنا بقول إن الكلام ده هبل، فين المعجزة؟"

-"اللي بقوله ده حصل، ودي معجزة".

-"مع خالص احترامي، بس اللي بتقوليه ده غباء. أولًا: الفضاء فراغ، صح؟ الكلمة واضحة جدًّا، وأول قاعدة في منهج علوم رابعة ابتدائي هي إن الصوت لا ينتقل في الفراغ، لازم وسط ينقله زي الهواء أو الماء، وخارج كوكب الأرض مفيش هواء، يبقى إزاي يسمعوا صوت الأذان؟! ولو فرضنا إن الصوت ممكن ينتقل في الفراغ، إزاي قدروا يسمعوا الصوت الأذان من مكة والمدينة وهم على سطح القمر مع المسافة دي كلها! يا آنسة لو اللي بيتكلم مجنون فالمستمع عاقل، ربنا عرفوه بالعقل مش مسكوه بأيديهم".

انفعلت بصوت مرتفع جدًّا: "ربنا قادر على كل شيء، هو اللي خلق الكون ويقدر يعدل فيه أي شيء في أي لحظة".

-"ونعم بالله، بس حدود تحمل الإنسان لرؤية المعجزات محدودة يا آنسة، رائد الفضاء اللي هيشوف معجزة تحطم ثوابت العلم قدام عينيه مش هيرجع الأرض ويختفي، ويسيب الناس تضرب أخماس في أسداس إذا كان أسلم ولا لأ".

-"أنتِ تلاقيكِ علمانية أو ليبرالية، ده كلامكم كلكم، ماتحبوش سيرة ربنا في حاجة ومش بتصدقوا غير عقولكم".

-"خدي عندك المفاجأة بقى: العقول دي موجودة عشان نفكر ونصدقها".

هدوئي كان مستفزًا، ولكن ليس لدرجة: "يالا يا علمانية يا كافرة يا ملحدة، اللي زيك هم اللي رجعونا ورا ألف سنة".

-"ماشي يا ستّي.. فقد باء بها أحدهما".

ولذت بصمتٍ واجم.. توقعت أن ينطق أحد الحاضرين بشيء عاقل، ولكني صعقت عندما أسرع النفر الأكبر منهم إليها، وقال أحد ذوي المكانس المزروعة تحت الذقن: "ما تزعليش يا أخت إحسان، سيبك منها، بس برضو أنتِ الغلطانة، أنتِ مش شايفة هي لابسة ايه؟ بقى دي واحدة تكلميها عن ربنا!"

انفجرت في الضحك حتى آلمتني معدتي.

منذ خرج هؤلاء الفئران من جحورهم وكل يوم يتم تكفيري لسبب مختلف، كنت كافرة وقتما قلت: "لا" للتعديلات الدستورية، وكنت كافرة يوم قلت: إن الليبرالية ليست حرامًا، وعندما تساءلت عن مؤهلات هذا "الحازم" ليكون رئيسًا للجمهورية، لكن أن يتم تكفيرك من خلف شاشة الكمبيوتر شيء، وأن تسمعها بأذنك وعينك في عين من يقولها شيء آخر.. ضاقت روحي واختنق صدري.

خلال عودتي إلى البيت يومها وجدت واحدًا منهم في عربة السيدات بالمترو، وكانت قدرتي على الشجار مستهلكة، وقلت لنفسي إنه سيغادر في محطة السادات القادمة حتمًا، لكنه لم يفعل، وصعد حلوف آخر للعربة وعندما حاولت منعه قال بكل تبجح: "طب وده راكب ليه؟"

ناديته فلم يرد في البداية، ثم نظر لي متسائلًا، فقلت: "لو سمحت انزل اركب العربية التانية، كده عربيتنا هتتملي رجالة".

برغم اختلافي مع أكثرهم لدرجة الكراهية إلا أنني كنت أعتقد أن هؤلاء الملتحين يحافظون على مظهرهم أمام الناس، إما صدقًا حقيقيًّا وامتثالًا لتعاليم الإسلام، وإما رياءً ونفاقًا ليكتسبوا ثقة الحمقى. لهذا صعقت عندما قال لي بتبجح فاق تبجح الحلوف الأول: "أنا مش مضايقك في حاجة، يبقى مش من حقك تنزليني، أنتم مش بتقولوا عايزين دولة مدنية ليبرالية؟ هو لما تعملوا دولة زي دي هتمنعوا الرجالة من إنهم يتزنَّقوا فيكم؟"

ذهلت لدرجة أنني لم أعثر على رد فوري، فقالت الفتاة الجالسة جواري: "بس أنت كده بتتعدى على حريتنا. أنا بركب العربية دي عشان أكون براحتي، ووجود رجالة في العربية مش بيخليني مستريحة".

كانت ترتدي بنطلونًا فوقه فستان طويل، انحسر حتى ركبتها في جلستها، فأطال النظر إلى ساقها ليضاعف ذهولي ثم قال: "بلاش تخليني أقولّك ليه مش بتركبي في العربيات التانية. أنا مش عايز أتدخل في خصوصياتك".

انتبهت الفتاة لنظرته فخفضت ساقها وعدلت فستانها، احمر وجهها خجلًا وغيظًا وقالت: "مش من حقك تحاسبني أنا بعمل ايه ولا لابسة ايه، ربنا مش مكلفك تراقب الناس".

قلب وجهه ساخرًا منها، واستفز هذا امرأة تحمل طفلها: "يا راجل خلي عندك دم، في ستات بتطلع العربية دي عشان ترضع ابنها".

-"والله اللي أعرفه إن الست لو شافت ابنها جعان هترضعه في أي حتة ومش هيهمها أي حد موجود".

صمتن ذهولًا. أما أنا فكان مفعول ذهولي هذه المرة عكسيًّا. ملأتني طاقة انفجرت فيه: "تصدق بالله إنك راجل وسخ! هي مراتك اللي شايلة عيل دي بتفتح هدومها في عربية الرجالة وهي بترضعه! يالا يا شوية أوساخ".

انهالت شتائمي وكأن بالوعة وقاحة قد طفحت، وهيَّج هذا عشرات النساء غضبًا مما جعل كل العربة تبدو وكأن قبيلة من المجنونات يركبنها، ولم يكن بوسعه إلا مغادرة العربة في المحطة التالية رغم وقاحته اللا متناهية.

وفي نفس الأسبوع تشاجرت مرة أخرى مع صبي مراهق في محطة المترو. كنت قد هبطت لتوي من عربة السيدات الأولى لأجده منحنيًا يجمع بعض الرمل المنثور على الأرض التي يجري إصلاحها، ويهم بإلقائه على النسوة الجالسات جوار نافذة العربة الثانية. قدرت أنه حلوف آخر طردنه من العربة فلم يجد وسيلة للانتقام إلا هذه. أمسكت بيده وألقيت الرمل منها وأنا أقول: "بس يا بابا، أنت كبرت على الحاجات دي".

-"وأنت مالك يا روح أمك! ابعدي يا وسخة".

صفعته، هكذا بلا تفكير ولا تردد، ثم ركلته بعنف في قصبة ساقه فسقط أرضًا، ورحت أوجه ركلات مليئة بالغل لبطنه وظهره، صحت وأنا أرغب حقًّا في قتله: "تعرف ايه عن أمي عشان تشتمها يا وسخ؟"

بعد ثوان تجمع حولي عشرات الرجال كل منهم لا يستطيع سحبي بعيدًا عنه لكنهم يحاولون تهدئتي بعبارات لا معنى لها، وأخيرًا ظهر أحد مربيي المكانس هؤلاء، كان عبارة عن كرش هائل يتدحرج على قدمين، وقف يصيح في وجهي بصوت جهوري: "أنت يا بت ما تلمي نفسك.. في واحدة محترمة تعمل كده!"

-"بقولك اييييييييه!!"

هكذا زمجرت به كالمجنونة فتراجع، لاحقته بالصراخ: "اختشي على دقنك وامشي من وشي، مش الرسول بيقول إن حقوق الطريق هي غض البصر وكف الأذى وإلقاء السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مش كده؟ هو بقى لا

غض بصره ولا كف أذاه، ولا أنت بتأمر بمعروف ولا بتنهي عن منكر، يبقى تخرس وتشوف أنت رايح فين".

ببطء انفضوا من حولي، وفي النهاية وقفت لاهثة، والحلوف الأول متكور عند قدمي يئن ويبكي، عاد طفلًا من جديد إزاء جرعة التأديب هذه. هممت بالابتعاد حين سمعت من يستوقفني، كان أحد رجال الأمن في المترو، قال: "تعرفي إني أقدر أوديكِ في داهية دلوقتي؟"

وقفت واستدرت إليه، سرت نحوه قائلة: "والله؟! ليه إن شاء الله! عشان بحمي نفسي بعد ما بقيتو خواجات؟ تعرف أنت إني ممكن أوديه هو في داهية وأعمل له محضر تحرش يترمي بسببه في إصلاحية الأحداث؟ ولو مارضيتش تعمله أنا اللي أوديك في ستين داهية؟"

استجمع الفتى الراقد أرضًا نفسه، وأمام هذا التهديد نهض وانطلق يجري بخطوات عرجاء، رفعت حاجبي تحديًا وأنا أراقبه، ثم نظرت للعسكري وقلت: "ولا تزعل نفسك، أهو مشي، كده بقت الجريمة كاملة".

وضحكت ضحكة مستفزة في وجهه ومشيت، لكن عندما عدت للبيت بكيت، هذا الشجار المستمر ليلًا ونهارًا، والشعور بأنني في معركة دائمة يرهق أعصابي، والمشكلة أنني لا أستطيع أن أتجاهل كل ما يحدث، وأفعل مثل الآخرين الذين اصطنعوا أذنًا من طين وأخرى من عجين.. يشعرني هذا باحتقار نفسي، كأنني لو لم أتكلم وأقول للمخطئ إنه كذلك سأكون مثله، أو على الأقل سأكون مثل هذه البلهاوات الغبيات الراضيات عن التعدي على حقوقهن، واللائي يعشن كبقرات متخمات بالسكينة.

أكثر ما يستفزني أن أحدًا لا تزعجه نفسه بمعاتبة المخطئ أو معاقبته، وكل ما يملكونه هو "معلش يا مدام"، ولو أن ادخروا كل هذه الـ"معلش" وجعلوها صفعة أو لكمة يعاقبون بها كل من يجرؤ على انتهاك حرمة النساء، ما وصلنا لهذه الحال.

أصبحت خائفة وغاضبة طوال الوقت، وأسير متحفزة أتوقع تحرشًا واعتداءً في أي لحظة، وأرتدي ملابس تؤهلني للدفاع عن نفسي إذا ما وقعت مصيبة، وبمرور الوقت بدأت أعصابي تنهار حقًّا، والاكتئاب يتملكني.. الوضع العام في مصر يتدهور بسرعة لا تطاق، ولا أتحملها.

أصبح كل شيء حولي يستفزني، كل شيء يجعلني غاضبة، تدخل كل شخص فيما لا يعنيه وكأن هذا حقه الطبيعي. كم من جارة أو زميلة قديمة قابلتني وحين عرفت أنني لم أتزوج بعد سخرت مني، ثم حين تزوجت سخرت أيضًا لأن "المصري سيد الرجالة"، وأنا لا أعرف لماذا هو "سيد الرجالة"؟ لقد خلق الله عباده سواء، فمتى وضعت أكاليل الغار فوق رؤوس هؤلاء الحلاليف وأحالتهم إلى رجال فوق مستوى البشر؟!

كم من مرة استوقفتني الأجولة السوداء لينصحنني بارتداء ملابس داكنة لا تلفت النظر، ولما قلت: إنني أكره الكآبة. هببن فيَّ: أن الأسود هو اللون الوحيد الذي يضمن ستر الفتاة جيدًا!! وكم من مرة اعترضنني في مسجد الكلية لأنني أرتدي بنطلونًا سيفسد صلاتي، ثم يتذمرن إذا ما تجاهلتهن وبدأت أصلي دون التفات لكلامهن. وكم مرة سرت مع إيتشيرو في الشارع لنصير عرضة لنظرات الاستغراب والسخرية؟ فضول، فضول، فضول، لا شخص يتجاهل ما حوله ويلتفت لنفسه فقط، مستحيل، لا بُد من تكدير حياة كل من يقدر على تكدير حياته.

كل شيء جميل وبسيط في هذا البلد صار عرضة للتحطم يا ندى، وأنا ما عدت قادرة على تحمل أي شيء هنا، عدت من جديد أكره مصر كلها، بفسادها وخنوع أهلها للظلم، واقتصاص بعضهم من بعض. أكره ما فيها من غباء، أكره عجرفة كل شخص يبيح لنفسه التعدي على سواه ولا يقبل أن يتعدى عليه أحد ولو بتصحيح أخطاءه، وأكره كل متدين يظن أن تدينه يمنحه الحق في تحديد من سيدخل الجنة ومن يستحق الاحتراق في أعماق النار.. كيف امتلكوا ذلك التأثير المفاجئ في الشارع المصري؟ وماذا سيفعلون لو امتلكوا سلطة علينا يومًا؟ هل يفرضون على المسيحيات أيضًا الحجاب والنقاب؟ الفكرة مخيفة أكثر منها كوميدية!

لم أعد أطيق هذا المكان، صرت أرحب بحديث إيتشيرو عن العودة لليابان، وتكونت في قلبي عقدة نفسية كبيرة اسمها المواصلات، صرت أخشى التأخر خارج المنزل حتى الثامنة مساءً، كي لا أصطدم بحلوف يصر على الصعود لعربة السيدات بحجة "خلاص الساعة قربت على تسعة"، وصرت أخشى أن أعبر الشوارع ذات الاتجاه الواحد دون أن أتلفت يمينًا ويسارًا ألف مرة بسبب الأغبياء الذين يسيرون عكس الطريق دون تنبيه، وصرت أخشى ركوب الحافلات كي لا أستمع لبرامج التحليلات السياسية الغبية التي تحرق دمي،

والتي تنتهي بشجار كالعادة، حتى التاكسي صار محرمًا عليّ بسبب الحمقى الذين يرونني لقمة سائغة تقبل بالتعارف من أجل قضاء وقت طيب معهم.

هذا البلد.. أنا حقًّا أكرهه، من كل قلبي.

بحق السماء لماذا يعتقدون أن هناك مؤامرة عالمية للنيل منهم، على أي خيبة يتآمر العالم علينا يا ندى؟

مصر التي تضم جل كنوز العالم، وخرسوا وهم يرونها تسرق حتى وصلت إلى هذا الحضيض لا يحق لهم أن يحتكروا الحديث باسمها الآن، لا يحق لهم أن يسبوا الشباب الثائر بحجة أنهم يدافعون عنها، ويبكون الأمن والأمان الوهميين الضائعين. لعقود تحملوا رؤيتها تغتصب أمام أعينهم، فليس من حقهم أن يتصرفوا الآن كمواطنين شرفاء. عندما أنَّت مصر شاكية اعتبروها فاجرة، واحتقروا كل من طالب بحقه باعتباره متمردًا ومخربًا، وشوهوا سمعة كل من مات ظلمًا باعتباره بلطجيًا أو حشّاشًا. حبسوا أنفسهم في قوقعة كبيرة وأعموا أعينهم عن كل ما يجرى حولهم معتقدين أن هذا هو القضاء والقدر، ولكن... لم يكن خنوعهم قضاءً وقدرًا يا ندى، كان اختيارًا، ربما لهذا يكرهون شباب التحرير، ربما لهذا لا يطيقون رؤيتهم، لئلا يروا مدى ضعفهم وعجزهم أمام شباب في سن أبناءهم اختاروا أن يحطموا الخوف، وينثروه شظايا تحت الأقدام.

هم لا يملكون شيئًا إلا الإدعاء وتشويه الحقائق، نحن الأفضل، مصر أمّ الدنيا، احنا أحسن شعب، المصري سيد الرجالة، المصريين أجدع ناس. ثرثرة.. ثرثرة.. ثرثرة.. ثرثرة...، لا يجيدون شيئًا سوى التفاخر الغبي، وليته تفاخر قائم على حقائق!

يقولون: إنهم شعب طيب القلب، أين هذا يا ندى؟ انظري إلى الفقراء الذين يتضورون جوعًا، والمرضى الملقيين على أرصفة المستشفيات، والأغنياء الذين يستمتعون بتكالب الفقراء أمام بيوتهم صباح عيد الأضحى من أجل كيس لحم. انظري إلى المعاملة التي تعامل بها خادمة تسعى من أجل تربية أطفالها من آخرين يكنزون المال ويبخلون به، انظري إلى قطط الشوارع التي يبخلون عليها بلقمة تسد رمقها، والحيوانات الضالة التي يعذبونها بلا ضمير، وإذا اعترضت يقول لك الكل: "وأنتِ مالك؟".

يقولون: إنهم شعب متدين والدين من تصرفاتهم براء، مسرفون في كل شيء، ويهدرون الماء دون توقف، النظافة العامة بالنسبة إليهم ترفًا يستدعي السخرية، ولا تكف ألسنتهم عن سب الدين ليلًا ونهارًا، وأقل الشتائم وطأة

تدخل في باب قذف المحصنات، النميمة رفيقة مجالسهم المفضلة، والسخرية هوايتهم الأولى التي يزجون بها وقتهم، عنصريون يفرقون بين الناس بسبب مظاهرهم ودينهم، فلان الأعور، فلان المسيحي، فلانة اللي ماشية على حل شعرها.

كل هذه المآسي من السبب فيها؟ من يتحمل وزرها؟

للأسف، أهلنا تسببوا فيما نحن فيه الآن، بسبب صمتهم الطويل وخنوعهم أمام كل خطَّاء استمرأ الخطأ بسبب جبنهم. مصر كلها كانت كعربة السيدات في المترو، السيدات صامتات، يصعد الرجل الأول فينظرن لبعضهن ويصمتن متغافلات عن كون هذا تعديًا صريحًا عليهن، بعدها يصعد آخر ثم آخر وآخر، ولا يجدن الجرأة للنطق. يتعرضن للتحرش، للسرقة، للتعدي، المنحرف يبيح لنفسه أن يسترق النظر لعوراتهن لكنهن يبقين على صمتهن، يعتبرن المرأة أو الفتاة التي تصرخ مطالبة بحقها ضد من تحرش بها معدومة الأدب، ويضعن فوق رؤوسهن مبادئ احترام الرجل مهما احتقرهن الرجال، وفي النهاية صارت مقاعد العربة مغتصبة فقط للرجال، جلسوا عليها واستراحوا، وتركوا النسوة واقفات صامتات، يتلقين التحرش دون كلمة، لأن رفع الصوت حرام، كأن كل ما يجرى من الآخرين ليس حرامًا!

ويقولون: أنهم شعب متدين، هأو!

ندى..

لا تتجاهليني أكثر، أشعر أنني سأفقد عقلي سخطًا، ولن يفهمني غيرك الآن.. إيتشيرو لن يفهمني مهما شرحت، وحتى لو شرحت... كيف لي أن أتحدث في هذا معه؟ لا أريد أن أتحدث في هذا معه.

أنا أكره هذا البلد يا ندى، ولكن لماذا أتصرف بطريقة: "أدعو على ابني، وأكره من يقول آمين"؟!!

تبًا للجميع.

هبة

3 أغسطس 2011

اليوم الخامس عشر

حُلم أعيشه في يقظتي

صديقتي العزيزة ندى

مرة أخرى التقيت مروان، حدث هذا الأسبوع الماضي في ساقية الصاوي.

ككل مرة كنت مستغرقة في نقل معلومات هامة عندما سمعت صوته المزعج يقاطعني، نظرت له بصبر نافد وسألته بحدة: "عايز ايه تاني؟"

-"سألتِ عن ندى؟"

-"وأنت مالك؟"

ولملمت أشيائي ثم غادرت المكتبة، تبعني، وجلس أمامي في الكافيتريا الخالية في نهار رمضان، ثم سألته: "أنت عايز تعمل مشكلة من ولا حاجة؟"

-"أنا عايز أفهم امتى ناوية نتكلم!"

-"أنا مش عايزة أتكلم، من فضلك قوم امشي".

ظل ينظر لي قليلًا، ثم أمسك بيدي اليسرى دون مقدمات، يتأمل الخيط الأحمر الذي يخنق بنصري، وسألني: "ايه الخيط ده؟ شكله مش مريح".

ثم أمسك يدي اليمنى، ولمس الماسة الصغيرة في خاتم زواجي وقال باستهانة: "ما تقوليش إن الخاتم ده بتاعه!"

جن جنوني عندما لمس خاتمي الثمين، ضربت يده وسحبت يدي بعيدًا، وبحثت بغل عن طريقة لإيذائه، لكني قلت: "أنت بني آدم معدوم الذوق".

هنا لمست يد إيتشيرو كتفي، جعلتني أهدأ قليلًا، ولم أفهم أنه موجود حقًّا إلا عندما تجاوزني متجهًا إلى مروان، قال لي بهدوء: "اجمعي أغراضك، سنرحل الآن".

وقف مروان منحيًا جيتاره جانبًا، وتحداه بوقفة استعراضية ونظرة مستفزة. لم أر وجه إيتشيرو لكنني سمعت صوته البارد وهو يقول: "لقد أخبرتك أنني سأضربك إذا وجدتك بالقرب منها مرة أخرى. والآن أجدك وأنت تمسك بيدها، ماذا أفعل بك؟"

-"افعل ما تستطيع أن تفعله".

كان تحديًا صريحًا جعلني أتوقع الشر، خصوصًا عندما ضم إيتشيرو قبضتيه وتنفس بعمق، نهضت وجذبت يده أقول: "إيتشيرو، أرجوك لا تفعل شيئًا، دعنا ننصرف".

أبعد يدي وقال بنفس الهدوء المرعب: "لقد حذرته من قبل، وهو الآن يتحداني معتقدًا أنني غير قادر على الوفاء بكلمتي".

-"إيتشيرو، نحن صائمان، الصيام يمنعنا من إيذاء الآخرين، ويمنعنا من فقد أعصابنا".

-"أنت نفسك غاضبة، هبة".

قلت له بإصرار وأنا أنظر في عينيه: "لا ترتكب نفس خطأي إذن، تذكر أنك صائم وتجاهله".

ظل صامتًا قليلًا ثم هدأ الغضب المشتعل في عينيه، وكأن نارًا انطفأت في أعماقهما، فانتهزت الفرصة واستدرت لمروان وصحت به: "وأنت اخرس وبلاش تخليني أشوفك تاني".

حزمت كتبي وأوراقي في حقيبة الحاسوب وجذبت إيتشيرو من معصمه، للحظة تمنع، كان مترددًا ورغبة الإيذاء تتحكم فيه بوضوح، لكنه رضخ لطلبي الذي كررته مرتين ورحلنا. عندما دخلنا بيتنا كان بعد صامتًا، وبقي كذلك فترة طويلة حتى جهزت طعام الإفطار، وعندما أذن المغرب أخيرًا جلسنا إلى المائدة.

سألني قبل أن نبدأ الطعام: "لماذا يعاملك وكأنكما متحابان؟"

-"لأنه أحمق".

قال من بين أسنانه: "لو رأيته بالقرب منك ثانية سأقتله حقًا، أنا أبغض هذا الشعور المزعج بالغيرة".

نظرت له وحاولت أن أبتسم، وبدأنا نأكل.

وفي صمت رحت أفكر..

كثيرًا ما كنت أتساءل عما سيقول إيتشيرو لو عرف أنني أحببت قبله شخصًا آخر، لقد كنت أحيانًا أشعر أن مروان هذا لم يكن حبًا من الأساس، وفي أحيان أخرى أعترف لنفسي بأن ثمة حب كبير وعميق مر بحياتي من قبل،

لكن الشخص كان أحقر من أن يستحق أن يوصف بأنني يومًا أحببته، ربما لهذا لم أخبر أحدًا أنني وقعت في الحب، أتساءل عن التغيير الذي كان سيحدث في حياتي لو قلت هذا!

تُرى، أي تغيير كان سيطرأ على علاقتي بمعاذ لو عرف أنني شربت من نفس الكأس التي كان يراني أسقيه إياه دون تأنيب ضمير؟! معاذ صديقي العزيز اللطيف الذي كان أغلى شخص عليَّ من هذه الشلة الملعونة، الذي أحبني دائمًا ورفضته دائمًا بحجة أنني لا أفكر في الحب، واخترعت له عشرات الطموحات التي يجب أن أنجزها قبل أن أفكر في البحث عن شريك لحياتي، ترى لو عاد الزمان إلى الخلف هل كنت سأتخلى عن افتعال تلك الشخصية البغيضة وأخبره ببساطة أنني معذبة في حب شخص آخر، لا يشعر بي ولا يهتم، لكنني مستميتة في الحفاظ على هذا الشعور بيني وبين نفسي؟ ترى ماذا كان ليقول؟ وماذا كان ليفعل؟ يملؤني الفضول!

لكن الفضول لا يملأني بصدد رد فعل إيتشيرو لو عرف شيئًا عن مروان، مجرد رؤيته فقط تجعله مجنونًا، فماذا لو عرف أنني كنت يومًا غبية لدرجة أن أقع في حب أحمق كهذا؟ أحمق يتصرف الآن بالطريقة التي كان يجب أن يتصرف بها قبل سنوات.

بعد هذا اليوم أصبحت حريصة كل الحرص على عدم لقاء مروان، كنت أحصل على الكتب المهمة وأجلس في القاعة الداخلية للمكتبة، فإذا أطل من الباب تراجعت بمقعدي للخلف كي لا يراني، وإذا دخل أعمد إلى الهرب عبر الباب المؤدي إلى المسرح، مغامرات طفولية! ورغم هذا ظل يتعقبني بلا كلال أو ملال! ألا يملك وظيفة؟ عائلة؟ أصدقاء؟ تبًّا له.

حوَّل مروان حياتي إلى جحيم، وتوسلت إلى إيتشيرو لنهرب إلى الإسكندرية بضعة أيام ننسى فيها القاهرة وسخافاتها، غير أن مروان قبض عليَّ في آخر زياراتي للساقية، الأمر الذي انتهى بصراخي في وجهه كمجنونة، تم طردي من المكتبة. هربت منه إلى الشوارع المزدحمة في ساعة الذروة، وخنقني الزحام حتى بلغت المترو، وقبل أن أركب بلحظات رن هاتفي فصرخت عبره: "قلت لك كفاية بقى".

وأغلقت الهاتف في وجهه، وكدت ألقي به تحت المترو لولا لمحة تعقل صدتني، فتملكني غضب اضطربت له أنفاسي، ولم أتمالك نفسي من الصياح

في وجه فتاة دفعتني دون قصد إلى داخل العربة، وبعد ثوان انفجرت في البكاء، اعتذرت لي الفتاة ثانية مما ضاعف شعوري بالذنب، وقبل أن أعتذر أنا لها بهتت الدنيا أمام عيني ثم تلاشت.. فقدت وعيي لدقائق ثم ثبت على رشدي لأجدني نصف راقدة على أحد المقاعد، ونفس الفتاة تحتضنني وترش في وجهي عطرًا مزعجًا.. أبعدت وجهي لأستطيع التنفس.

كنت بعد مشوشة الذهن وهي تستجوبني عن وجهتي، وكانت من اللطف بحيث نزلت معي في محطتي وأجلستني، عندما استنشقت الهواء شعرت بأنني أعود للحياة، وعاد لي تركيزي ببطء، اعتذرت لها وشكرتها، سألتني: "أنتِ متجوزة؟"

هززت رأسي متسائلة عن مغزى فضولها، وأتت الإجابة سريعة ومرعبة: "أنصحك تروحي لدكتورة، ممكن أوي تكوني حامل".

انتفضت، لم أفهم الكلمة ولم أستوعبها. هززت رأسي وقلت:"مستحيل".

-"مفيش مستحيل على ربنا".

انقبض قلبي حتى كدت أفقد وعيي ثانية، وكررت بعصبية: "لأ، ده مستحيل".

عرضت عليّ أن توصلني لكنني رفضت بذوق وشكرتها، وعندما تركتني وحدي رحت أكرر لنفسي أن ما قالته مستحيل، بالتدريج عاد الهدوء لي، رغم أنه كان هدوءًا خادعًا تستكين في أعماقه الوساوس.

أبقاني التعب على مقعد المحطة لفترة تزيد على الساعتين، حتى اتصل بي إيتشيرو منزعجًا لتأخري في العودة.. أخبرته أني بخير ونهضت مترنحة لئلا أزيد قلقه، ومرت عليَّ قرون طويلة حتى وصلت لبوابة المحطة، كنت أترنح لدرجة خشيت معها فقدان وعيي فورًا، وتلاعب بي إجهاد لم أشعر بمثله من قبل، لكن جزءًا كبيرًا منه تبدد بفعل الامتنان وأنا أرى إيتشيرو قادمًا من نهاية الشارع، هذا الرجل! أنا حقًّا مغرمة به!

دون كلمات أخذ حقيبتي الشخصية وحقيبة الحاسوب وحملهما على كتفه اليسرى، ناولني علبة عصير باردة، وقال: "المغرب على وشك أن يؤذن، حاولي التماسك لدقائق".

صحت عندما انحنى ليحملني لكنه لم يفلتني، قال بحسم من يتجاهل اعتراضات طفل: "لا تنطقي بكلمة عن الناس، فليذهبوا إلى الجحيم، إن وجهك شاحب ومتعرق جدًّا".

استسلمت، لا أعرف كيف نمت، أو ربما هو إغماء آخر، لكن عندما استيقظت كان أذان العشاء يرتفع.

أول ما قاله إيتشيرو عند رؤيتي: "سنلغي السفر".

صحت بذعر: "لماذا؟"

-"الإجابة واضحة: أنت مريضة".

-"سأكون مريضة حقًّا لو جعلتني أبقى في هذه الجحيم. إيتشيرو، درجة الحرارة وصلت اليوم إلى 42 درجة مئوية، لو بقيت هنا أكثر سأجن".

ظل ينظر لي بارتياب بضع لحظات ثم استسلم: "ليكن، ولكن لو مرضت ثانية سنذهب للمستشفى، ولو منعوك الصيام ستمتنعين".

أربكني ذكر المستشفى، لكنني سيطرت على نفسي وقلت بمرح:"موافقة".

بعد ساعات هربنا إلى مدينتنا السحرية البعيدة، استرددت عقلي وتوازني وراحتي النفسية بمجرد دخول شقتنا التي ملأها هواء البحر بأعذب رائحة، وجهَّز لي إيتشيرو عشاءً خفيفًا وأفرط في تدليلي، ثم دخلنا إلى الشرفة لنرى القمر مكتملًا وصفحة البحر المظلمة تعكس سحره الفضي بشكل خلاب. همس إيتشيرو مأخوذًا: "البحر رائع الليلة، شديد الإغراء".

-"نعم".

كان منظر البحر يدفئ شيئًا ما في أعماقي، سألته للمرة الألف: "ألن تسمح لي بالسباحة؟"

لم يرفض بتلقائية كعادته، تردد بين إقدام وإحجام، ثم قال: "سأكون معك، سأتولى السباحة، لكن عديني أنك لن تتخلي عني".

-"كما تريد".

أبهجني الأمر، وأسرعت إلى الغرفة وارتديت ملابس ضيقة لا تعوق سباحتي، وفوقها عباءة سوداء بغطاء رأس تشبه عباءات الساحرات التنكرية، لحسن الحظ أن الشاطئ مهجور أغلب الوقت، نهارًا وليلًا، كما أن أحدًا لا يسبح في

رمضان إلا المجانين أو المفطرين كما يقولون، وسيجعلنا هذا نحظى بخصوصية كاملة رائعة.

كان للرمال ملمس دافئ مدهش، كذلك الماء وهو يلمس أقدامنا على استحياء، لكن ما سيطر عليّ كان سؤالًا هامًا: "لم لا تقول شيئًا، إيتشيرو؟"

-"عن ماذا؟"

-"عن مروان".

-"لا شيء يتعلق بهذا التافه يهمني، مادمت غير واقعة في حبه ولم تكوني".

أفلت قلبي نبضة منزعجة، لكني احتفظت بهدوئي وسألته: "لماذا أخفيت عنهم منذ البداية أنك زوجي؟"

-"لأنني أحمق".

-"ماذا تقصد؟"

لم يجب، رغم الظلام ميزت احمرار وجنتيه، وتهرب من سؤالي بوضوح بقوله: "كفى أسئلة، لا تجعليني أنتظر أكثر وإلا سأتردد".

لم أشأ الضغط عليه فتجاهلت الأمر برمته، راقبته وهو يقترب من البحر فيغمر الماء كاحليه ثم تبعته، بعد ثوان سألني: "أتعرفين لأي مدى أحبك، هبة؟"

-"سأكون سعيدة لو كان بمقدار حبي لك".

-"لقد فقدت أهم شخص في حياتي قبل عشر سنوات، وطوال تلك الفترة كنت أسيرًا لفكرة تقول إنني لن أعيش طويلًا، في الواقع لم أكن أريد أن أعيش أكثر، أوشكت على الجنون، وأقدمت على الانتحار عدة مرات، وظلت الفكرة تطاردني حتى التقينا".

طعنني الألم إذ عرفت أنه يتحدث عن شيوري هذه.. الشخص الأهم في حياته، والفتاة التي أحبها أكثر من سواها.. لا ريب أنها هي، ما الذي منحته إياه ليظل مخلصًا لها أكثر من عشر سنوات؟

رحت أصغي إليه وأنا مشتتة ما بين تكدر مزاجي، وما بين تألمي لما مر به..

-"... بالنسبة إليّ أنت صديقتي الأولى، فتاتي الأولى، حبيبتي الأولى، أنت عائلتي والشخص الوحيد الذي أنتمي إليه، مجرد وجودك بالقرب مني يشعرني

بالدفء والراحة، ربما لو استطعت تشبيهك بشيء فستكون الشمس هي أقرب تشبيه ممكن".

-"الشمس تحرق، إيتشيرو".

-"والقرب منك يفعل الشيء ذاته، هبة تشان. تفكيري في أنني قد أخسرك، وسعيي الدائم للاحتفاظ بك يؤلمني حقًّا، لا يمكنك إدراك عمق هذا الألم".

صوته كان معبرًا بصدق، ولم أفهم ما الذي يدعوه لهذا الألم وهو واثق تمامًا من حبي، واثق تمامًا من أننا سنبقى معًا إلى الأبد كما تعاهدنا، شددت ذراعي حوله، وتمتمت بحب: "لست بحاجة لهذا السعي المؤلم، إيتشيرو، أنا لن أتركك أبدًا، ليست لديّ القوة الكافية حتى لتخيل الأمر".

-"نعم".

وأمسك بوجهي، أبعدني عنه قليلًا ونظر في عينيّ، قال: "أحبيني دائمًا، هبة، دعيني أبقى الأول بالنسبة إليك، أنا باق على هذه الأرض فقط لأنك موجودة، إذا فقدتك فلا أظنني سأجد دافعًا يجعلني أستمر.. كل شيء سيعود بلا معنى، وأنا لن أتحمل فقدان المعنى بعد الآن".

لم يكن قط واهنًا كما رأيته في تلك اللحظة، شعوري به كان مختلفًا تمامًا، لمسته، وقبلته، وتلك الطريقة التي يتكلم بها، تململ شيء ما في قلبي يسألني: أهي النهاية؟ ألا تصبح الأمور في غاية جمالها قبل أن تنتهي بقليل؟

آلمتني الفكرة، جعلتني أتشبث به كأنه قد يختفي في أي لحظة.

قال لي وهو ينظر لأعلى: "هذا الفتى يزعجني، أكره الطريقة التي ينظر بها إليك كأنه يملكك".

-"لا أحد غيرك يملكني".

بسخط قال: "أعرف، لكنني في الوقت نفسه أبقى عاجزًا عن تحمل الشعور بالغيرة. أحيانًا أتمنى لو كانت لي القدرة على أخذك بعيدًا عن الجميع، وأمتلك مستقبلك وحياتك كلها لي وحدي. يقتلني تخيل أنك عشتِ قبل أن أراكِ أكثر من عشرين عامًا، لعبتِ وضحكتِ وتألمتِ وأكلتِ وشربتِ وسافرتِ بدوني.. أريد أن أملك تلك اللحظات، لو كان بوسعي أن أستردها من الزمن لأقضيها معك ما ترددت، هذه اللحظات لي وحدي، لأنني أكثر شخص يحبك في هذا العالم".

-"أنت مجنون!"

واحتضنته بقوة وضحكت...

-"أنت مجنون حقًا! هل أنت واثق أن كل أجدادك يابانيين؟"

ابتسامته أخبرتني أن عبارتي الأخيرة حيَّرته وأغاظته، فمد يده يجذب خصلتين من شعري برفق كأنه يعاقبني، وعندما فهم ضحك، ونكز خدي بسبابته يقول: "الغيرة المفرطة ليست حكرًا على الرجال المصريين، هبة تشان".

كان لديَّ ألف تعبير لاذع أردت قوله، لكنه لم يكن ليفهمني، هذه إحدى اللحظات القليلة التي أكره فيها اختلاف لغتينا.

قال إيتشيرو وهو يفكر: "ولكن في النهاية أنت محقة، عائلتي اشتهرت بقصص الحب التي تدوم إلى الأبد، ورجال العائلة معروفون بغيرتهم الشديدة على حبيباتهم".

للحظة فكرت في استخدامه كلمة "حبيباتهم" بدلًا من "زوجاتهم"...

-"أبي أحب أمي كما لم يحب أحدًا، وهيساشي وقع في حب ماريا من النظرة الأولى، ومن قبلهما كثيرون".

-"هيساشي؟!"

نظرة غريبة ظللت ملامحه عندما أجابني: "أخي الأكبر".

-"أخوك الأكبر!"

كانت تلك أول مرة يذكر فيها اسم أحد أفراد عائلته، بخلاف والده الذي تحدث عنه قليلًا جدًّا، لم يتحدث إيتشيرو عنهم قط ولم يجب أي سؤال ألقيته بشأنهم، كان دائمًا يبتسم ويغير الموضوع، كما فعل الآن تمامًا، فقد قال بابتسامة كبيرة وصوت مرح: "نعم، يبدو أننا نتوارث هذه الطباع، كما قلت لك: أنت فتاتي الأولى، وليست لديَّ أي نية في أن تكون لي فتاة أخرى سواك".

استرعت العبارة انتباهي وانتبهت فجأة لمدى غرابتها، كررت: "أنا فتاتك الأولى؟!"

-"أنت لم تشعري بهذا قط من قبل؟!"

-"بالتأكيد لا، أنت تمزح".

ماذا عن شيوري إذن؟! هل خدعتني؟

سألني متعجبًا: "ما الذي جعلك تعتقدين العكس؟"

-"طوال الثمانية وعشرين عامًا الماضية لم تصادق أي فتاة؟!"

-"لا، ليس أكثر من أسبوع".

-"هذا مستحيل! كيف؟"

تردد لحظة، ثم قال: "أنا لم أكن أنا، كما أنني لست محبوبًا كما تعتقدين، هبة تشان".

شيء ما في ابتسامته المرحة أكثر مما يجب آلمني، قلت باستغراب: "لا أفهم!"

-"أعني أن الناس عادة يكرهونني من الوهلة الأولى".

بانفعال قلت: "هذا مستحيل، من ذا الذي يستطيع أن يكرهك؟!"

-"كثيرون".

-"لماذا؟"

ضحك، ثم عبس بوجهه بشكل مشاغب وأجاب: "أما هذا السؤال فلا أستطيع إجابته، يمكنك سؤالهم بنفسك".

-"أنا لا أصدق، مستحيل أن تكون مكروهًا لأي سبب".

-"يومًا ما سيخبرك يونغ جيه بمدى فداحة الأمر، لقد كان هذا كوميديًّا لدرجة لا تصدق".

واستغرقه الضحك بطريقة غريبة، لكنني مددت يدي لصدره، وضعتها فوق الصليب المختفي تحت ملابسه وسألته: "وهذا الصليب؟"

-"ماذا عنه؟"

استجمعت شجاعتي وسألته: "قلت إنك أخذته من أكثر فتاة أحببتها في حياتك؟!"

-"وما علاقة هذا بالأمر؟"

-"هناك فتاة كنت تحبها إذن؟!"

قطب جبينه محتارًا وكأنه يحاول فهم لغز...

-"نعم ومازلت أحبها، ما المشكلة؟"

-"لا شيء".

وقطبت جبيني وتفاديت النظر إلى وجهه، حتى سألني: "كلمة "فتاة" التي تنطقينها هذه، هل تعنين بها فتاة أم امرأة؟"

تنبهت لما يقول وملأني أمل غامض، أجبته: "فتاة".

-"حسنًا، أنا أعني امرأة".

لا فارق في اليابانية الدارجة بين كلمة فتاة وكلمة امرأة، كلاهما يشار إليه بلفظ واحد، لكن هذا لم يقلل غيرتي، حتى قال إيتشيرو ضاحكًا: "إنها أمي، يبدو أنك فهمت شيئًا آخر".

بقيت أنظر له لحظة طويلة، ثم احتضنته وأنا أصيح بسعادة. للحظة أخذه صمت المفاجأة ثم ضحك ولف ذراعيه حولي يقول: "من كان يتحدث عن الغيرة المفرطة؟!"

-"اصمت، أريد أن أقتلك الآن".

اللعنة! لماذا لم أسأله بوضوح منذ البداية؟

كل لحظات الغيرة والوجع هذه! كل الألم الذي شعرت به بسبب هذه المنافسة الوهمية، وفي النهاية...

لم يبق إلا لغز شيوري إذن، شيوري فقط.

قال إيتشيرو بصوت حنون: "أمي رائعة، كنت أظن أنني لن أحب شخصًا غيرها حتى التقيت بك، وكنت أظن أن أحدًا لن يحبني مثلها حتى صرنا معًا، هبة تشان".

-"لا تتحدث هكذا، أنا لا أصدق ما تقول عن نفسك".

-"صدقي أو لا تصدقي يا أميرتي، لكن دعيني أخبرك أن هناك أشخاصًا ولدوا في هذا العالم يملكون موهبة إثارة الكراهية، إنهم يصبحون مكروهين دائمًا مهما فعلوا، ومهما قدموا من أجل الآخرين، فإن لم يُكرهوا فهم مجرد أشياء يتم استغلالها والعبث بمشاعرها دون اهتمام".

شعرت بالبرودة، ذكرتني كلماته بأشياء لا أريد تذكرها.

-"إيتشيرو!"

-"حسنًا، لن أضايقك أكثر".

رفعت رأسي ونظرت في عينيه، فالتقط إشارتي وقبلني، طالت قبلتنا كثيرًا، ثم سألني: "هل سنذهب للسباحة أم نبقى؟"

-"هل ستسمح لي بالسباحة نهارًا إذن؟"

-"مستحيل، لن أترك أي شخص يراك جميلة هكذا غيري".

-"أيها المخادع!"

أمسك بيدي ودخلنا أكثر إلى البحر، حركت قدمي في الماء بحذر، وسألته بالإنجليزية: "ألا تخاف قناديل البحر؟"

-"لا أعرف ما تتحدثين عنه لكنني لست خائفًا من شيء".

ترددت ثم قلبت كفيّ لأعلى وحركت أصابعي كساحرة شريرة، قلت: "ألا تعرف هذه الكائنات، إنها تحرق!"

راح ينظر لي محاولًا استيعاب الجنون الذي أصابني، ثم ضحك وأجاب: "تحرق؟ في الماء؟ وبهذه الحركة؟!! لا أظن الشياطين تعيش في البحر، كفي عن التصرف كالمجانين".

وأمسك بيدي وشدني للماء، كانت تلك أول مرة أسبح في الليل، طالما أخافتني الفكرة، لكن خوفي تلاشى أمام منظر القمر، كان خلابًا وأنا أراقبه وسط الظلام اللانهائي المحيط بنا، لم أكن راغبة في السباحة بنفسي فاكتفيت بمعانقته من الخلف والاعتماد على ظهره وهو يشق الماء بنعومة وبراعة. في إحدى لحظات الصمت همست له: "أتعرف، اليوم تحقق ثاني أجمل أحلامي الرومانسية".

-"أخبريني عن تلك الأحلام".

-"وأنا صغيرة كنت أحلم بأن أقضي ليلة كاملة في الصحراء أنظر للقمر المكتمل بصحبة الشخص الذي أحب، وعندما كبرت قليلًا تمنيت لو أسبح معه في البحر ليلًا ولا نرى حولنا سوى القمر".

-"أنت تحبين القمر كثيرًا!"

-"أحبك أنت أكثر".

دار بجسده لي وعانقني، قلت له بعاطفة صادقة: "أحبك، إيتشيرو، قضيت معك أجمل أيام حياتي، ولو مت الآن فلن أشعر بأنني خسرت شيئًا".

-"لا تتحدثي عن الموت، أنا أكره هذا".

أومأت برأسي، لكن عندما استدار ثانية تعلقت بعنقه وسألته: "لماذا تضايقت؟"

-"مجرد تشاؤم، ولا أطيق أن....".

قبل أن ينهي عبارته مس شيء ما قدمي فقفزت إلى رأسي صورة قنديل بحر ضخم مما جعلني أصرخ، وأفلَّت كتفه وأنا أدور بجسدي مبتعدة بقدمي وجسمي كله عن هذا المكان، كان هذا خطأ غبيًا جدًّا لأننا كنا بعيدين عن الشاطئ، فوجدت نفسي أغوص كحجر ثقيل.

غصت مسافة طويلة، لكنني لم أشعر بخوف أو خطر ما إذ أنني كنت واثقة من قرب إيتشيرو مني، ولأن نفسي طويل يتحمل الغوص لمدة لا تقل عن دقيقة، لكن صراخه تسلل إلى سمعي تحت الماء وجعلني أشعر بالرعب، كان صراخًا مروعًا بمعنى الكلمة، كأنه يوشك على فقدان عقله.

ضربت الماء بذراعيَّ صاعدة فرأيته على بعد مترين لا أكثر، وبمجرد أن رآني سبح باتجاهي وأخذني بين ذراعيه، أنفاسه كانت متقطعة كأنه توقف لتوه بعد سباق ألف ميل، ونبضات قلبه كانت مجنونة بشكل أرعبني، تعلقت بعنقه بقوة وقلت: "لا تخف، أنا بخير، اهدأ".

صرخ بي: "لقد قلت لك هذا، ألم أخبرك؟"

لم أنطق لأنني شعرت بالخوف منه لأول مرة، عناقه كان يوحي بالقسوة أكثر مما يوحي بالخوف، فقلت وأنا أختنق: "إيتشيرو، أنت تؤلمني".

أدارني وجعلني أتعلق بكتفه، واستدار سابحًا نحو الشاطئ، جعلني الصمت المرعب السائد بيننا أشعر بطول المسافة التي قطعناها داخل البحر، وكلما اقتربنا من الشاطئ أصبح الموج أعلى وأكثر قسوة، وبمجرد أن لامست أقدامنا الشاطئ ارتمى إيتشيرو جالسًا، أحاط ركبتيه بذراعيه وخفض وجهه عليهما، وعندما اقتربت ألمس كتفه ألقى بيدي بعيدًا، جعلني هذا أشد ذهولًا وخوفًا.

كنت حائرة فيما يجب أن أفعله أو أقوله، لم أعرف ما خطبه، لكنني كنت خائفة منه، إيتشيرو عادة لطيف وودود مع أصحابه، رزين ومجامل مع الغرباء، حنون ودافئ ومحب للغاية معي، وإذا غضب فإنه يلتزم الصمت والبرود، أما هذا الشخص المنفعل المخيف فقد كان شخصًا آخر لا أعرفه، لم أره من قبل!

مر وقت طويل قبل أن يتحرك وينظر إليّ، توقعت الشر عندما رأيت وجهه الشاحب لكنه على العكس ابتسم، ابتسامة صغيرة باهتة لكنها كانت كافية لأستطيع التنفس مجددًا.

قال بصوت مبحوح: "آسف لانفعالي، لكنك أرعبتني، كاد قلبي يتوقف".

-"أنا آسفة".

-"لا، لقد كان الأمر خطأي أنا، لقد تجاهلت خطر السباحة ليلًا".

-"الأمر لا علاقة له بالسباحة، لقد أصابني الذعر عندما لمسني شيء ما".

وبسبابتي رحت أرسم على الرمل قنديل بحر كبيرًا، راقبني محتارًا لكنه في النهاية ابتسم، كانت ابتسامته هذه المرة موحية بالحياة أكثر من سابقتها، قلت مدافعة عن نفسي: "أخاف هذه الأشياء كثيرًا؛ لسعني واحد منها وأنا صغيرة فبكيت من الألم أيامًا، ولم أستطع التخلص من أثر تلك اللسعة".

-"آه، هذه هي البقعة البنية في فخذك إذن! لكنك ترتدين ملابس قطنية سميكة وغير مكشوفة، هبة تشان، لا أعتقد أن اللسعة ستؤذيك مادام هناك حائل يحمي بشرتك".

حملقت في وجهه لحظة وقلت: "لم أفكر في هذا من قبل".

طرق بأصابعه على رأسي، فتأوهت ألمًا...

-"لأنك حمقاء! يبدو أننا نليق حقًّا ببعضنا".

لم أكن راغبة في العودة إلى البيت فبقينا على الشاطئ، تحدثنا كثيرًا في تلك الليلة، كانت أول مرة يستمر فيها إيتشيرو بتوجيه الأسئلة لي دون توقف، وأول مرة أشعر فيها بلذة الحديث عن نفسي لشخص يستجوبني باهتمام عن كل تفاصيل حياتي، من البداية وحتى الآن. حكيت له عن بعض مغامراتي في الابتدائية، صداقاتي الفاشلة، أحلامي الرومانسية الطفولية، حكيت له عن أخي وارتباطي به لكنني لم أحك له عن الكيفية التي فُصم بها هذا الارتباط

للأبد، أردت أن أحكي له لكن لساني انعقد رغمًا عني، وعوضًا عن الكلام رحت أنظر للخيط الأحمر.

أمسك بيدي وسألني: "أهي ذكرى حزينة إلى هذا الحد؟"

-"أتمنى لو كنت قادرة على اقتطاعها من عقلي إلى الأبد".

-"لماذا تستمرين بتذكير نفسك إذن؟"

-"لأنني لا أريد أن أنسى، لو نسيت سيتكرر الأمر".

-"لا شيء سيء سيتكرر، هبة تشان".

وعانقني، كان عناقًا غريبًا كصوته، وكأنه يحاول إقناع نفسه أولًا.

تجاوزت تلك الذكرى سريعًا، انتقلت إلى ذكريات أخرى، حكيت له عنك يا ندى، عن نزهاتنا القليلة، عن محادثاتنا الطويلة، عن أسفي لما سببته لك من ألم، وعن غيظي منك، وعن بحثي عنك كلما أتينا إلى الإسكندرية، عن تلك الرسائل التي أكتبها وبقلبي أمل كبير في أن أتلقى عليها ردًا. لقد تأثرت كثيرًا لدرجة أنني وجدت دموعي تسيل رغمًا عني، جعله هذا يبتسم ويقول لي بتشجيع: "ستعثرين عليها بالتأكيد، لأن مشاعرنا الصادقة تصل دائمًا لمن نحب".

استغرقنا الحديث خلال الجزء الباقي من الليل، وعندما بدأ نور الفجر يفصح عن نفسه كنت في أسعد لحظاتي على الإطلاق، تلك الليلة كانت من أجمل ليالي حياتي كلها، الفجر كان جميلًا جدًّا يا ندى كما لم أره من قبل، السماء صافية تمامًا، ممتدة حتى آخر مدى تصل إليه عيناي، والبحر ساحر بهدوء أمواجه، الهواء كان له طعم ورائحة رحت أخزنهما في ذاكرتي كي لا أنساهما أبدًا، ومن بعيد سمعت أصوات العصافير التي استيقظت لتوها، ووجه إيتشيرو وهو راقد جواري على الرمال كان في كمال جماله، إنها جنة أخرى أراها بعيني وأحيا فيها وأنا بعد على الأرض.

عندما أفصحت الشمس عن وجهها تألقت صفحة الماء ببريق مغري، فجذبت يد إيتشيرو وقلت: "دعنا نسبح، إيتشيرو، الماء الآن رائع".

كانت صفحة الماء شفافة خلابة، زرقاء داكنة على مدى البصر، لكن لونها ضارب إلى الخضرة بالقرب من الشاطئ، وعلى بعد أمتار قليلة إلى الداخل كان الماء مظلمًا يشف عن وجود مساحة كبيرة تغطيها صخور ضخمة. منظرها

أخافني كالعادة فرحت أسبح عرضيًا وإيتشيرو واقف ينظر إلى السماء، سألته: "ألن تسبح؟"

-"سأراقبك فقط".

-"لا تخش عليّ، أستطيع السباحة قليلًا، كما أنني ابتكرت في صغري تقنية أنقذتني من الغرق مرتين".

-"أي تقنية؟"

-"أغوص إلى أسفل وأنشب أصابعي في الرمال لأتحرك إلى الأمام".

قطب جبينه سخطًا وقال: "هذه تقنية حمقاء! كيف يمكنك تحديد اتجاهك وأنت تغرقين؟! ماذا لو كنت تتقدمين إلى أعماق البحر بدلًا من الخروج إلى الشاطئ؟!!"

لوحت بيدي وقلت بمرح: "سأشعر بهذا عندما يضغط الماء على أذني، وعندها سأغير اتجاهي، لحسن الحظ أنني أستطيع كتم أنفاسي فترة طويلة".

-"لا تحاولي إصابتي بالجنون".

ظل يعقد ذراعيه وهو ينظر لي بسخط ويراقبني كأنني بالفعل طفلة، رحت أسبح على ظهري لثوان ثم أعتدل وأسبح بطريقة الفراشة التي حاول أخي تعليمي إياها وفشل، مشكلتي الدائمة هي أنني لا أشعر بثقة كافية لأبقي ظهري مفرودًا. أخبرت إيتشيرو بهذا ففرد ذراعيه ودعاني للاستلقاء عليهما، عندما فعلت قال: "تخيلي فقط أنك نائمة، واستمري بالتركيز على إرخاء عضلاتك".

فعلت كما قال، لدرجة أنني لم أشعر به عندما سحب ذراعيه، أصابتني فرحة طفولية جعلتني أصفق وأهتف: "إيتشيرو معلم رائع، نعم، منذ اليوم سأناديك....".

تلك الحركة السريعة جعلتني أغطس لحظة، ثم وقفت أسعل طاردة الماء الذي ملأ أنفي، ضحك إيتشيرو من قلبه، صفق بيده قائلًا:

-"رائع، هبة تشان، أنت ترتكبين كل الأخطاء المحرم على السباحين ارتكابها، لهذا سأتولى تعليمك حقًا".

وفرد ذراعيه وقفز إلى الأمام، لوهلة لم تستوعب عيناي سرعة ورشاقة الحركة، وتابعته بذهول وهو يشق الماء لمسافة طويلة دون أن يثير خلفه نافورة

مائية مزعجة كالآخرين، ثم غاص لحظة وظهر رأسه وهو في طريق عودته إليّ متخذًا دورة أفقية غاية في الرشاقة. عندما وصل إليّ كنت بعد أحملق فيه، ثم صرخت بانبهار وتعلقت بعنقه، صحت بإلحاح: "إيتشيرو، علمني السباحة، لن أتركك حتى تعلمني، الآن، فورًا، حالًا".

-"اهدئي، سأفعل".

برغم مرحه إلا أن تعليماته كانت صارمة، عانيت وجعلته يعاني معي لعدم قدرتي على الاسترخاء فوق الماء، في النهاية تذمرت وألقيت نفسي للخلف قائلة بتذمر وتململ الأطفال المدللين: "كفى، لقد تعبت".

استلقيت فوق الماء وفردت ذراعي على امتدادهما، خلب لبي منظر السماء الصافية التي تسبح فيها دقائق الضوء الراقصة، دون وعي مني استرخيت، وعقد الانبهار لساني، أحاط بي صمت رائع لثوان ثم انتبهت لنفسي وتمتمت: "سبحان الله!"

بدت لي الحياة أكثر روعة مما تخيلت وشعرت يومًا حتى في أسعد لحظاتي، كيف نجد في أنفسنا الجرأة لنحزن ونبكي وقد خلق الله كل هذا الجمال اللانهائي من أجلنا؟ الله! هذا الفنان الجميل المبدع العظيم، كم أحبه!

الفكرة جعلتني أدمع وأضحك في آن معًا، ثم اعتدلت أستقبل صفحة الماء بصدري وضربت الأرض بقدميّ لآخذ دفعة إلى الأمام. شعرت بملمس زلق اقشعر له جسمي، وعندما نظرت لأسفل رأيتني في وسط المساحة السوداء الكبيرة، فوق الصخور مباشرة. جعلني الذعر أطلق صرخة، ولكن عندما ضربت قدمي الصخور ثانية هبت مستعمرة صغيرة من الأسماك تسبح في كل اتجاه حولي، أسماك صغيرة للغاية في حجم عقلتي إصبع، خضراء وفضية تعكس ضوء الشمس كآلاف الماسات الصغيرة، كانت شديدة اللطف مما جعلني أضحك، رحت أسبح معها بمرح حتى اختفت، ووصلت إلى إيتشيرو الذي استمر بمراقبتي بتلك الابتسامة المرحة اللطيفة. قال لي وهو يرفعني على ظهره ويتأهب للسباحة: "أنت مجنونة، هبة!"

-"نعم".

وانحدرت بذراعي حول صدره، احتضنته والتصقت به بقوة، ردد اسمي باستغراب فقلت بصوت ناعم: "شكرًا، إيتشيرو".

وضع يده على يدي، وترددت همهمة تساؤل في صدره، فأجبتها: "شكرًا، لأنك موجود في هذا العالم، إيتشيرو، لقد منحني الله الكثير من النعم، لكن وجودك هو أجمل وأغلى ما منحني إياه، أنا ممتنة كثيرًا لميلادك، ممتنة لوجودك معي الآن".

-"لماذا تقولين هذا فجأة؟"

-"لن أجد أبدًا وقتًا أنسب من الآن لأخبرك فيه بهذا، هذه لحظة كاملة متكاملة هربت من مجرى الزمن المألوف وحطت على أيدينا كفراشة نادرة. لحظة خارج العالم كله، هذه أكمل لحظاتنا، إيتشيرو، أريدك أن تتذكرها دائمًا، لا تنسها أبدًا، احتفظ بشعورها في قلبك كما هو الآن".

كان قلبي ينصهر، يعتصرني شعور غريب بأننا نعيش أجمل لحظاتنا على الإطلاق، لحظة لن نحظى بأخرى في مثل جمالها وكمالها وصفاءها، كنت مصرة على إخباره فيها بأجمل مشاعري كي لا ينساها أبدًا، كما لن أنساها أنا ما بقي لي من عمر.

همس دون أن يدير وجهه لي: "أنا حقًّا ممتن، هبة تشان، هذه الكلمات تعني لي الكثير".

احتضنته أكثر، طبعت قبلة على عنقه، وهمست جوار أذنه: "شكرًا، إيتشيرو، شكرًا لأنك كما أنت، ولأنك تحبني، ولأنك ستبقى دائمًا معي، ولأنك تمنحني تلك الثقة بأنك لن تفارقني أبدًا".

أدار وجهه لي، رأيت عينيه ممتلئتين بالدموع، همس: "وهل أستطيع ألا أفعل!!؟"

هززت رأسي نفيًا وأنا أبتسم فانزلقت دموعي، ألصقت جبيني بخده وشددت ذراعيّ حوله بكل ما لدي من قوة، حتى شعرت بأننا سننصهر ونصبح حقًّا شخصًا واحدًا، كان هذا شعورًا آخر رائعًا ينضم لتلك المشاعر التي لا تنسى.

أيام من الحلم أمضيناها، كنا وحدنا عند نهاية العالم، وحدنا تمامًا، وحدة لا يمكن الشكوى منها، لا يمكن الملل أو التذمر منها، وحدة أقصى أمانينا أن تستمر إلى الأبد. لو كان بوسعنا أن نفعل يا ندى ما كنا ترددنا، لو كان بوسعنا أن نستمر في الرحيل بعيدًا عن الجميع، ونبقى وحدنا كشخص واحد إلى الأبد، بعيدًا عن كل من نعرفهم، عن كل من أحببناهم، عن كل من كرهناهم، بعيدًا

حتى عن ذواتنا القديمة الناقصة التي لم ندرك مدى نقصها وفداحته إلا حين أكمل أحدنا الآخر، لو كان بوسعنا أن نترك كل هذا ونرحل إلى الأبد، ما فكرنا مرتين قبل أن نفعل.

آه يا ندى!

آآآآآه!

كم مرة أقولها؟ كم مرة قلتها اليوم فقط؟ كثيرًا، كثيرًا.

كل لحظة جميلة تمر بنا، كل كلمة أسمعها، كل كلمة أقولها، كل لمسة، كل نظرة، كل قبلة، كل ضمة، كل شيء يجعلني أتأوه من أعماق قلبي، حبًا تارة وتأثرًا تارة أخرى.

تبدو تلك اللحظات باهرة، وصف الجمال لا يفيها حقها. تبدو كاملة كمالًا مطلقًا ليس بعده سوى النقصان، تبدو أعمق وأثرى من أن تكون حقيقية فعلًا، لكن حتى الأحلام لا يمكن أن تبلغ هذا المدى يا ندى.

تُرى، أيمكن أن تبلغ الأحلام هذا المدى المستحيل؟

هبة

15 أغسطس2011

اليوم السادس عشر

الرسالة الأخيرة

ندى

اليوم أكتب لك لأطلب منك ألا تكتبي لي..

ستكون تلك أول رسالة في صندوق بريدك إذا ما فتحته يومًا، أرجوك احذفي كل ما قبلها، لا تقرائي شيئًا مما كتبت لك، حاولي أن تشعري بالغضب قدر استطاعتك من تلك الفتاة التي رفضت عونك، ورفضت أن تسمح لك بدخول حياتها، وتجاهلت اهتمامك بها أمام رغبة عمياء في التخلي عن الجميع كما تخلى الجميع عنها. تذكري كل هذا وتجاهليني كما تجاهلتك، ودعي آخر ذكرياتك عني هي ذكرى ذلك اليوم في رمضان 2009.

الآن أصبحت أشعر حقًّا أنني لن أراك أبدًا مجددًا، وربما لم يكن من حقي منذ البداية أن تكوني صديقتي. ما الذي يمنحني الحق في مناداتك بهذا اللقب مادامت علاقتنا لم تدفعك لإخباري –ولو لمرة واحدة- بأنني شخص تهتمين به؟ وسمحت لي بأن أتخلى عنك؟ ما الذي يمنحني الحق في الأمل أنك يومًا ستجيبين رسائلي لو كنت تقرائينها الآن ولا تعيرينها اهتمامًا؟ الصداقة التي تُدمر ليست صداقة ولم تكن، والحب الذي ينتهي لم يكن من الأصل حبًّا يا ندى.

أنا حقًّا آسفة لإزعاجك، كنت حمقاء بما يكفي كي لا أفهم، طوال كل هذا الوقت لم أفهم أن فتاة لم تحظ بأصدقاء، وكان التخلي عنها من قبل أهلها شيئًا هينًا عليهم، وطالما كانت مكروهة من أغلب المحيطين بها، فتاة كهذه ليس لها الحق في الحب، وليس من حقها أن تُحب.

ألا ترين أن هذا منطقي؟ ليس من العدل أن أعتقد أن كل هؤلاء كانوا على خطأ وأنا وحدي على صواب. منذ اليوم سأبدأ في التفكير بشكل عكسي، عسى أن أكتشف موطن الخلل الذي يجعل مني هذا الإنسان المثير للرثاء.

عندما كتبت لك آخر مرة كان هناك خوف كامن في أعماقي يحدثني بأن كل ما أنا فيه حلم لن يلبث أن يزول. والآن، تبدو لي تلك السعادة التي كتبت بها وعنها شيئًا خرافيًّا، لا أستطيع تخيل كيفية الشعور به، تجعلني أضحك ثم أبكي وأصرخ حتى أكاد أصاب بالجنون.

يسكن أعماقي شعور خافت أظنه يُدعى الأمل يجعلني أرجو أن يكون كل ما يحيط بي كابوسًا سينتهي قريبًا، لكنني مهما حاولت تحمل الوقت، لا ينتهي هذا الكابوس، ولا تبدو له نهاية أمامي الآن إلا الجنون أو الموت، وكلاهما لا رجعة منه.

وداعًا.

هبة

12 سبتمبر 2011

اليوم السابع عشر

غروب

صديقتي العزيزة ندى

قبل أي شيء أعتذر لك عن رسالتي الأخيرة، لقد تفوهت بكلمات فظيعة لا أعرف كيف طاوعتني أصابعي على كتابتها.. كنت على حافة الجنون بمعنى الكلمة. صحيح أنني لا أستطيع الإدعاء أنني كتبتها في غير وعيي، لكنني لم أكن نفسي يا ندى، لم أكن هبة التي عرفتها قديمًا، ولم أكن هبة المحطمة إلى أشلاء من الكراهية كما كنت في 2009 الجحيمية، ولم أكن تلك الفتاة المختلفة المشرقة التي كانت تبعث إليك رسائلي الأولى.

تلك الحياة خادعة يا ندى، لا تأمني لها، فلا شيء أقدر على الخيانة منها. هي تغريك دائمًا بالسعادة كي تتركك في النهاية محطمة ووحيدة، ثم تمنحك الأمل لتنهضي من جديد كي تتركك مرة أخرى أشد تحطمًا ووحدة.

الشيء الوحيد الذي عبرت عنه بيقين كامل في رسالتي الأخيرة هو شعوري بأنني لن أراك ثانية أبدًا، تلك الرسائل لم يقرأها أحد وهذا ما أرجوه.. أرجو ألا أكون عرضة لتجاهلك ولا مبالاتك، أرجو أن يكون هناك شخص واحد في هذا العالم لا يعرف بوجودي لكني أعرف بوجوده دون أن يشوب علاقتنا ألم التحطم. أريد أن أكتب إليك هكذا إلى الأبد، مستعيدة في عقلي ذكريات يومنا الأخير، ووعدك بأنك ستساندينني حتى أتجاوز محنتي. أريد أن أكتب إليك هكذا إلى الأبد، متخيلة أنك هنا بجواري وقادرة على منحي تلك الابتسامة المشجعة واللطيفة، وأستشعر بغير شعور حقيقي ذلك الدفء الذي تبدد إلى غير رجعة.

أنا لن أراك ثانية أبدًا يا ندى، لكن ذكرياتي عنك ما زالت حية في ذاكرتي، هي الشيء الوحيد السليم الباقي لي، وأنا أريدك أن تبقي موجودة معي، كخيال فقط، أريد أن يكون هناك شخص واحد فقط باق معي، وأريدك أن تكوني هذا الشخص.

يبدو هذا الألم غير عادل، لا يمنحني فرصة لأستوعب شيئًا، لا يمنحني الفرصة لأخزن ذكرياتي الثمينة كما يليق بها، لا يمنحني الفرصة للتذكر،

يستولي على كل شيء جميل باق بداخلي دون رحمة، ويترك لي ما يقودني إلى الجنون.

أيبدو لك كل هذا العذاب مقلقًا؟ تفكرين في الخسارة التي فجعت بها كي أصبح هكذا؟ اطمئني، هو لم يمت، ليته مات، لعل خسارته بالموت أهون من خسارته وهو على قيد الحياة.

سأقص عليك ما حدث كي لا أنسى، إذا كانت 2009 قد أخذت من ذكرياتي ما أخذت رغم بساطتها مقارنة بما حدث في الأسابيع الأخيرة، فإنني لا أود الوقوع في نفس الخطأ مرة أخرى، وسأكتب كل شيء ليبقى حيًّا في ذاكرتي إلى الأبد.

حكيت لك عن الأيام الفردوسية التي عشتها معه، إيتشيرو، يا الله! كم تبدو كتابة اسمه صعبة بقدر صعوبة نطقه!

أيامنا الفردوسية لم تدم طويلًا، أعتقد أننا عشنا في تلك الجنة أسبوعًا أو أكثر بقليل، لكننا كنا بعد في العشر الأواخر من رمضان عندما التقينا مروان من جديد. هذه المرة كانت رؤيته صدمة؛ لم نلقه في ساقية الصاوي كالعادة، ولا في المقهى المعتاد، لا، هذه المرة قابلناه على الشاطئ أمام بيتنا.

كيف جاء هنا؟ كيف عرف مكاننا؟ أرعبني التفكير في عواقب هذا التحدي، ولكن إيتشيرو لم يبد مصدومًا مثلي، بالعكس بدا وكأنه يستقبل أمرًا كريهًا يتوقعه وإن كان يأمل عدم حدوثه. عندما رأى مروان توقف، واختلجت عضلات فكه وإن بقي وجهه هادئًا، ثم شدني كأنما ندور حول جدار وواصلنا طريقنا إلى البحر.

بعد لحظات من الصمت لاحقنا مروان بصوتٍ عالٍ: "قلت إنك ستضربني لو التقينا من جديد".

تشبثت بيد إيتشيرو فلم يقاوم، ورغم هذا لم أسترح لهدوئه المنذر بأعاصير. وضعنا مقعدنا القماشي على الشاطئ وتركنا عليه ملابسنا، ثم ألقينا بنفسينا إلى الماء، وسبح إيتشيرو إلى أبعد مدى ممكن، وأنا أعتمد على كتفيه وأدندن.. صفيت أفكاري وفتحت كل حواسي لاستيعاب جمال اللحظة.

ولكن إيتشيرو لم يكن معي..

فرغت عيناه من كل شعور، وحافظت شفتاه على ابتسامة مصطنعة مضبوطة على مواقيت كلامي، وأجاب كل تعليق مني برد مقتضب مُسْكِت، حتى

استسلمت.. بصمتٍ تامٍ سبح حتى جزيرة صخرية صغيرة، وإذ صعدنا ارتمى عليها ينظر للسماء، ولم يعد معي على الإطلاق.. طال بنا الصمت، ولم يستجب لندائي له فضلًا عن الانتباه لدعاباتي.. احتضنته، وقبلته، لكنه ظل صامتًا ومصمتًا، وابتسامته المزيفة تخنقني، فنهضت وتركته.

درت على أطراف الجزيرة الصغيرة، حاولت أن أغني، أو أنظر للسماء وأسرح، لكن صمت إيتشيرو كان طعنة بلغت صميم قلبي وأفقدتني كل مرح.. استلقيت بعيدًا عنه في سكونٍ كئيب، وقد بدت السماء سخيفة والبحر مملًا والحياة لا تطاق.. فيم عساه يفكر يا ترى؟ وماذا عن مروان؟. ماذا سيحدث لو لم يتوقف هذا الحيوان عن إزعاجي ومطاردتي؟ كيف يمكنني صده وإبعاده إلى الأبد؟

لماذا لم يرد إيتشيرو إخبارهم أني زوجته منذ البداية؟ ربما ما كان شيء من هذا ليحدث.

فجأة دخل مجال إبصاري شيء ما يتحرك مقتربًا مني، أدرت رأسي وعقلي خالٍ من أي توقعات، فرأيت سرطانًا كبيرًا يتحرك حركة حثيثة على بعد سنتيمترات. للوهلة الأولى ظننته عقربًا ضخمًا ثم تذكرت أين أنا، لكن هذا لم يمح رعبي وهلعي.. قفزت مبتعدة عنه بقدر الإمكان، ونسيت إلى أي درجة تلك الجزيرة زلقة لا تحفظ توازن أي كان.

اختل توازني وسقطت بعنف توقعت أن يشج رأسي، لكنني لم أتوقع الألم الهائل الذي شق ظهري إلى نصفين، وشلَّني وكتم أنفاسي، فانزلقت عن الحافة وسقطت في الماء كالصخر.

غصت لحظة، ثم ضربتني موجة جبارة ودفعتني لأرتطم بجدارٍ صخري قاس، ومرة أخرى شق الألم ظهري بأقوى ما يمكن فصرخت، وابتلعت من الماء المالح أطنانًا، وملأني الاشمئزاز والهلع حتى كادا يزهقا روحي، وأعماني الألم عن التعلق بحافة الجزيرة حتى ضربتني موجة ثانية وسحبتني إلى الأعماق.

صدري كان ضيقًا من قلة الهواء، ومعدتي منقبضة، والألم يعجزني حتى عن الرغبة في المقاومة.. تقاذفني الموج ككرة بنج بونج لا حول لها ولا قوة بين لاعبين شرسين.. كنت في أسوأ منطقة ممكنة في البحر، لا طول لي ولا قدرة على مقاومة الأمواج، ولا أستطيع بلوغ الجزيرة مرة أخرى. في أثناء كفاحي لأبلغها ضربني الموج بصخورها فكادت قسوتها تشق رأسي وصدري نصفين، شهقت بلا

تفكير، ففرغ صدري من الهواء وانقبضت معدتي أكثر مستقبلة مزيدًا من الماء المقزز.

في تلك اللحظات أصابني ذعر مهول لم أشعر بمثله من قبل، ضربت الماء بهستيريا عاجزة عن التوازن، روعني الشعور بمدى ضعفي وهشاشتي، أنا التي ما تخيلت أبدًا كيف يمكن لإنسان أن يغرق، مادام قادرًا على الحفاظ على توازنه وأنفاسه فوق الماء، وبعد ثوان بدت كساعات برز رأسي فوق سطح الماء، شهقت لأتنفس وصرخت أناديه: "إيتشيـ...".

سحبني الموج بقسوة مرة أخرى، كأن البحر يجرجرني بوحشية إلى أعماقه وقد أقسم ألا يتركني. صراخي جعلني أبتلع من الماء كمية أكبر أصابتني بغثيان كاد يفقدني عقلي، بدأ الألم الذي يحرق صدري يجعل عقلي يغيم، تراخت ذراعاي، كنت أموت وإيتشيرو على بعد أمتارٍ مني، لم ينتبه لسقطتي حتمًا، تفكيره في مروان أعجزه عن ملاحظة الفتاة التي يصطرعان على ملكيتها.. تبًّا لهما معًا!

دفقة أمل ملأت صدري عندما تنفست الهواء فجأة، حاولت أن أناديه ثانية لكن صوتي خرج مشوهًا ضعيفًا، وقبل أن أستجمع قوتي شعرت بأن كل طاقتي نضبت وانتهت، لم أقاوم الموج وهو يأخذني لأعماق أبعد، فقط تأوهت ففاضت بقايا أنفاسي من صدري، وعندها اصطدم رأسي بصخرة كسرت مصباح وعيي لتلقيني في أعماق الظلام.

ظلام تام! ظلام كامل دامس!

الشمس الحارقة كانت تلهب وجهي عندما سمعت صوت إيتشيرو يناديني من أعالي السحاب بإصرار وعصبية، يهز رأسي، ويضغط صدري بيديه ليؤلمني ألمًا لم أشعر قط بما يضاهيه.. كفاه تضغطان ملتقى الضلوع بلا توقف، بسرعة مطردة وقوة أنا لست ندًّا لها، وكأن ثقل جسمه كله يتركز في كفيه.. أسمعه يعد بسرعة، صوته مضطرب وأنفاسه متقطعة لكنه يواصل العد، ثم يميل ويأخذ شفتي بين شفتيه وتملأ أنفاسه صدري، ويعود ليواصل ضغطه المؤلم، أسمعه يقول غاضبًا: "لا تحاولي، لا خيار لديك سوى أن تفتحي عينيك وتعودي. هل تسمعينني؟"

أريد أن أبكي، وأتوسل إليه ليكف عن إيلامي، لكني مشلولة، تلاحقني كلماته: "أنت لن تموتي، أنا لن أرى هذا الموقف مرة أخرى، لن أفقد شخصًا أحبه مرة أخرى.. افتحي عينيك، هبة.. انظري لي وتكلمي، أنا لن أتركك أبدًا، ليس لك خيار سوى أن تعودي".

ملأتني أنفاسه مرة أخرى، في هذه المرة خف الألم الحارق الذي يمزق ضلوعي، تأوهت، أردت مزيدًا من الهواء، ولعله أدرك هذا فأمدَّني بنفس جديد في الحال.. امتلأ صدري بهواء أكثر فكاد الألم يتلاشى، بقيت لحظات ساكنة ثم أردت أن أطرد كل هذا الهواء وأتنفس سواه، لكن إيتشيرو كان بعد يغلق أنفي وفمي، أمسكت بيده أدفعه فابتعد وأمالني على جانبي، ووجدتني أطرد الماء المالح الذي ابتلعته كله، بشعور هو مزيج من الراحة والتقزز والخلاص.

أخيرًا صرت قادرة على التنفس فرحت ألهث، لم أصدق أنني بعد على قيد الحياة! حركت أصابعي وقدمي، تنحنحت لأسمع صوتي، وكان شعوري بضوء الشمس الباهر يؤكد لي أن بصري أيضًا بخير.. أنا حية وسليمة!!

أرقدني مجددًا على ظهري، فاحتجب ضوء الشمس خلف ظله، ثم سمعته يقول: "افتحي عينيك".

طرفت بعينيّ حتى استطعت فتحهما، ورأيته ينظر إليّ ملهوفًا، والماء يقطر من شعره، وجبينه ينضح بالعرق، لكن القطرات التي تساقطت على وجهي كانت دموعه! أحنى إيتشيرو رأسه على صدري وانخرط في البكاء.

استجمعت قوتي بالكاد لأرفع يدي وأمسح على رأسه، دمعت عيناي واعتذرت: "أنا آسفة".

رددت اعتذاري ألف مرة وهو بعد يبكي، ثم سكن حتى خيل إليّ أنه تحول إلى تمثال، بعدها رفع رأسه، عيناه كانتا دامعتين متوحشتين وهو ينظر إلى نقطة خلفي لا أراها ثم زمجر: "وأنت!"

وهب واقفًا، تجاوزني بوثبة ثم سمعت صوت مروان المصدوم، نظرت يمينًا فصفعت الشمس عيني، ورأيت شبحين يتقاتلان، أسمع صوتيهما لكنني غير قادرة على الرؤية جيدًا؛ الشمس وشعوري بالدوار وغياب نظارتي أصابوني بشيء من العمى، حاولت أن أوقفهما لكن صوتي لم يخرج، وبقيت راقدة على الرمل الساخن يقهرني شعوري بالعجز فبكيت.

صوت الآهات واللكمات ظل مستمرًا مدة لا تقل عن دقيقة، ثم سمعت إيتشيرو يتكلم بغل: "هذه الفتاة زوجتي، لا تقترب منها مرة أخرى، أبدًا، لو فعلت سأقتلك".

كان من الواضح أنه أعقب عبارته هذه بضربة قاسية لأن مروان تأوه، وبعد ثوان عاد لي، حملني فرأيت طاقة أنفه اليسرى تنزف، وجرح غائر يشق شفته

السفلى، وتورم بسيط أسفل محجر عينه اليسرى فوق وجنته تمامًا، وحال رؤيته دموعي نهرني بعنف: "لم تبكين؟!"

رعبي قبل قليل وأنا أموت لا يمكن أن يقارن بما شعرت به أمام نظرته، نظرة باردة شريرة لا شعور فيها، لم أصدق أن عينين حنونين كعيني إيتشيرو يمكنهما أن تنظرا بهذه القسوة والبرود لشخص ما، ناهيك عن أن يكون هذا الشخص أنا، أنا نصف روحه الآخر الذي خلق له.

بقيت صامتة مستكينة على صدره حتى دخلنا شقتنا، وضعني على أقرب مقعد للباب، وتركني إلى غرفة النوم ليعود حاملًا ملابس نظيفة ومنشفة، ألقاها على حجري وحملني إلى الحمام، وعندما تركني لأقف على قدمي مادت بي الأرض، انحنيت أستند على الحوض وتقيأت، وبعث فيَّ مذاق الماء المالح هلعًا انقبضت له عضلات صدري حتى شعرت بأني سأختنق.

فتح إيتشيرو الصنبور فوق رأسي فشعرت ببعض التحسن، وتحسنت أكثر عندما نزع الحجاب عن رأسي، لكن عندما لامس أزرار قميصي ليفكها اعتدلت وابتعدت للخلف خطوات، كانت حركة غبية لكنني فعلتها دون وعي مني، وكانت هي القشة التي قسمت ظهر البعير.. تحركت عضلات فكيه وهو يصر على أسنانه، فتوقعت أن يضربني لسبب لا أفهمه، حاولت أن أنقذ الأمر فسألته: "ماذا ستفعل؟"

-"ألا تشعرين بأطنان الرمل التي تملؤك؟"

-"إيتشيرو!"

اقترب وشد معصمي، خلع عني التيشيرت ليلقيه بعيدًا، وعندما هم بنزع باقي ملابسي دفعته برفق وتراجعت، وضممت ذراعيّ حولي كأنني أحمي نفسي، رجوته من كل قلبي: "أرجوك اذهب، إيتشيرو".

-"قلت لك إنني لن أتركك".

-"وأنا قلت لك: اذهب".

لم يعرني اهتمامًا، وشدني مرة أخرى فصرخت دون وعي، وبدا أن الصرخة أفقدته صوابه، ولبرهة وقف محتارًا تائهًا وإن لم يفتقر للغضب الشديد، صرخ بدوره: "هل أنت مجنونة؟"

حاول أن يشدني مرة ثالثة لكن صرختي كانت أقوى، داهمني خوف مؤلم، ولم أجد أنفاسي لأخبره كم يبدو مختلفًا كأنه غريب لا أعرفه، كنت ضعيفة جدًّا حتى أن قوتي لم تؤهلني لأتمالك نفسي فسقطت من جديد، لحظة انعدام

توازن مرت بي ثم انتبهت لأجدني جالسة على أرض الحمام المبللة وهو يسند رأسي لصدره، ذراعيه حولي، ودقات قلبه تدوي جوار أذني بوضوح، قوية وثابتة بالإيقاع الذي ألفته تمامًا، لكنها لم تمح اضطرابي.

لم أنظر في عينيه وأنا أقول: "أرجوك اخرج، أنا بخير".

-"أنت لست كذلك".

-"أرجوك اذهب، أنت تبدو غاضبًا بطريقة تخيفني".

-"كما تحبين".

لم أتمن سماع صوته باردًا هكذا، لهذا بكيت عندما خرج وتركني، أضعفني البكاء أكثر لكني لم أستطع السيطرة عليه، كان هناك ألم مشتعل في قلبي يكاد يزهق أنفاسي، وخوف لا نهاية له.

أمضيت وقتًا طويلًا حتى استحممت، وخرجت ملتفة في معطف استحمام ثقيل، ورقدت في الفراش أرتجف كأن ديسمبر يحاصرني بعواصف ثلجية. قال وهو يجلس جواري: "أنا آسف، هبة تشان، لقد أزعجتك أكثر بكثير مما تخيلت".

كان لطيفًا كعادته، لكنني لم أكن قوية كفاية لأعلق على تبدل مزاجه، تمتمت بأسنان تصطك: "افعل شيئًا لوجهك.. سيتورم".

ابتسم، ابتسامة مفتعلة لكنها أفضل بكثير من وجهه البارد، قال: "لقد تورم بالفعل، أعترف بأن هذا الأحمق قوي".

صدق، كانت دائرة زرقاء داكنة تحيط بعينه، وكدمة صغيرة منتفخة تعلو حاجبه...

-"لماذا فعلت هذا؟ كنت تتعامل طوال الوقت ببرود!"

-"لأنني لم أعد أتحمل".

-"أحمق!"

ونمت، نومًا سيئًا مضطربًا تملؤه هلاوس لا تنتهي، وشعوري بأن الموج ما زال يضربني بالصخور، وطعم الماء المالح، وبدأت أرى كل ما حدث بشكل عكسي، وانتهت كل تلك الأحداث من حيث بدأت، بتلك السقطة العنيفة فوق الصخور.

استيقظت من هلوستي أصرخ، والألم يشق ظهري نصفين ثم ينحسر ويتركز أسفل بطني، لا أعرف كيف نهضت مترنحة إلى الحمام لأجدني أنزف، نزيف غزير كاد يفقدني صوابي رعبًا.. دم! دمي أنا! أنا لا أتحمل رؤية الدم!

ومضت أمام عينيَّ كتل الدم المتجلطة على أرض المستشفى الميداني في غمرة الاشتباكات، والتي انحنيت لأنظفها وأكشطها كأنها علكة قديمة متجمدة.. أنا لا أتحمل رؤية الدم! لا أريد رؤية أي دم ما حييت، لا أستطيع.

تجمدت كجثة من فرط خوفي، وسال عليَّ العرق غزيرًا.. ناديت إيتشيرو فلم يجبني، فتحاملت على نفسي، وبمعجزة عدت إلى فراشي وأنا أجد صعوبة في الاحتفاظ بتوازني من عنف الرجفة التي أخذت بي.. لفني برد لم أشعر بمثله من قبل، وبمرور الوقت ثقلت أنفاسي وازدادت عسرًا.. اتصلت به لكن هاتفه كان إلى جواري، فرحت أسب وألعن وانفجرت في البكاء، وانتظرت عودته أكثر من ساعة دون جدوى.

تصاعد الألم لدرجة غير محتملة، فأدركت أنني في طريقي إلى ذروة ستشلني عن الحركة حتى أموت في مكاني، بدأ الخوف يفقدني سيطرتي على نفسي، وزادني الشعور بالوحدة في غيابه ذعرًا على ذعر، لم يعد أمامي بد من أن أتحامل على نفسي وأنهض لأرتدي ملابسي، ولا أعرف كيف خرجت إلى الشارع وعثرت على سيارة أجرة.

غيَّبني الألم الشديد عن وعيي نصفيًّا، وشمس العصر تردني إلى جحيم القاهرة الخانقة الملعون، لكن كل هذا تضاءل جوار معاناتي مع السائق العصبي الذي يبحث عن الشجار بحثًا؛ سبابه الصارخ للشرطة الغائبة التي سمحت للحمير بالقيادة نصف رأسي وتعقلي، وبدأت أصرخ ثم انهرت في البكاء، فخرس مذهولًا ثم سألني عما بي برعب.. لدقائق ظل يبسمل ويحوقل، وكاد يتوقف لولا أنني صحت به أن يسرع إلى أي مستشفى، استهلك هذا بقايا قوتي وألقاني لظلام عميق، وأفقت وشخص ما يجذبني من يدي، جذبة شعرت بها مؤلمة للغاية وكأنني استحلت إلى تمثال من زجاج هش، همست لمن يجذبني أن يترفق بي ففعل، كنت بعد مغمضة العينين لكني وقفت وخطوت خطوة واحدة، بعدها ساد الظلام مجددًا، لفني بقوة أم تحمي رضيعها من الأمطار، فلم أنتبه إلا وصوت يردد كأنه يهدئني: "نامي.. نامي ماتخافيش".

نمت يا ندى، نوم من أعمق ما نمت في حياتي، وعندما استيقظت تنفست بعمق وامتنان لله، أراحني اختفاء الألم بدرجة جعلتني أتجاهل التنميل الخفيف

الذي يلفني، ورأيت طبيبة تقول بصوت شديد اللطف: "نامي يا هبة، هدي أعصابك ونامي".

ابتسامتها أشعرتني براحة مضاعفة وتمتمت: "الحمد لله، أنا كويسة".

أمسكت يدي ورفعتها تفحص نبضي، فرأيت تلك القطعة البلاستيكية الصغيرة مثبتة لظهر يدي، فاضطرب عقلي باحثًا عن اسمها.. كالينولا؟ كاولونا؟ لا.. "كانيولا".. جاء الاسم مصحوبًا بمشاهد لا تنسى للشباب المصابين في مجزرة موقعة الجمل، وبأذن الخيال سمعت صوت الطائرات المخيف فهزتني انتفاضة شديدة، حاولت أن أنهض لكن مجرد رفع رأسي جعل الصداع يداهمني.

هدأتني الطبيبة: "اهدي يا هبة، حاولي تنامي وتريحي أعصابك دلوقتي، هتكوني كويسة لو استريحتي".

أغمضت عينيّ، تركت الصمت والهدوء يلفانني، وفي اللحظة الأخيرة قبل سقوطي في هاوية النعاس سمعتها تطمئنني: "ما تخافيش، البيبي بخير".

أخافتني كلمتها الأخيرة، رددتها دون أن أستوعبها، وغاب عقلي وأنا أحاول فهمها لتطاردني في أحلام مضطربة، نمت وصحوت مرتين وأنا إلى الذعر أقرب لكن كانت هناك ممرضة دفعتني لأنام ثانية، وفي المرة الثالثة استيقظت تمامًا، كان الليل قد خيم، ورائحة الجو الطبية تختلط برائحة البحر الحبيبة.

وجاءت الطبيبة لتفحصني، فقلت لها: "أنا كويسة، الحمد لله".

-"عملتِ ايه عشان توصلي للمرحلة دي؟"

هززت رأسي وتنهدت، تجاهلت برودة السماعة والرائحة الطبية التي تعيد لي ذكريات بلا حصر، ثم أخبرتها عما حدث لي في الصباح، قالت: "ده كله مش كفاية، في حاجة مضايقاكِ؟ جوزك مضايقك مثلًا؟"

-"لا، خالص، ده أحسن راجل في العالم، بس الحياة في البلد دي تجنن يا دكتور، الواحد من ساعة ما بيصحى لحد ما ينام وهو بيتخانق".

ابتسمت وأعادت يدي إلى جواري، قالت: "بس لو فضلتِ كده هتتعبي أكتر، وممكن تخسري البيبي".

حدقت إليها طويلًا، طاردتني أطياف أحلامي التي اضطربت لتلك الكلمة، وبصوت كأنه لغيري سألتها: "أنا حامل؟"

-"ايه؟ مش فرحانة ولا ايه؟"

رسمت على وجهي ابتسامة مصطنعة انهارت سريعًا أمام خفقة قوية ضربت قلبي، هزني شعور غريب وشديد بالاضطراب، ولم أجد ما أقوله سوى: "أنا عايزة أروح".

-"اتصلي بحد ييجي ياخدك، بس تلتزمي بالعلاج والراحة، أي تعب أو إجهاد أو ضغط عصبي هتكون نتيجته وحشة عليكِ وعلى البيبي".

لم أتحمل الكلمة مجددًا.. هززت رأسي وتمتمت: "أنا كويسة جدًّا دلوقتي، أقدر أروح لوحدي".

-"يستحسن حد ييجي يوصلك".

هززت رأسي رافضة.. كانت تجربة لقاء إيتشيرو في مثل هذا الموقف آخر ما أشتهي، أفضل الموت على أن أسبب له تلك الحالة المخيفة من الذعر التي سأصاب بها لو اتصل يطلب مني الحضور إليه في مستشفى، كنت أخشى عليه من ذعر قد يجعله يسير في الشارع كالمجنون معرضًا نفسه لألف حادث.

يكفي ما رأيته اليوم.. يكفي ويكفي.

أصررت على موقفي أمام الطبيبة التي لم يكن بيدها شيء سوى احتجازي ساعتين أخريين حتى تتأكد من قدرتي على الرحيل وحدي، رافقتني إلى باب المستشفى الصغير وقبل خروجي منحتني حافظتي الصغيرة وقالت: "أنا آسفة إني فتحتها لأننا كنا بندور على بطاقتك، وحاسبت سواق التاكسي الطيب اللي جابك هنا، أنا شفت إن معاكِ فيزا كارد والحاجات دي مش بنتعامل بيها في مستشفانا المتواضع.. تقدري تروحي دلوقتي وابقي ارجعي تاني في أي وقت سددي التكاليف، المستشفى خيري على كل حال وده مش هيسبب لحد أي مشكلة".

-"مش هانسى أبدًا اللي عملتيه معايا يا دكتور..".

-"شيماء".

-"شكرًا يا دكتور شيماء".

كان الله رحيمًا بي إذ أرسل لي سائقًا عجوزًا طيبًا أوصلني سريعًا دون أن يعرضني لقيادة متهورة تؤلمني، كنت قلقة وأنا أنظر كل لحظة للساعة التي أشارت لما قبل منتصف الليل بدقائق قليلة، ورحت أتساءل عن الطريقة الأسطورية التي سأخبر بها إيتشيرو عما حدث.

ثم استحال قلقي إلى ارتياع عندما نزلت من السيارة الأجرة لأجد مروان أمامي، تلفت حولي بذعر لم يكترث به وهو يحييني: "اتأخرتِ يا هبة".

لولا تعبي وضعفي لخرج صوتي صراخًا وأنا أقول: "تاني يا مروان!؟ أنت مش معقول!"

وجهه كان مختلفًا تمامًا، ليس بالكدمات والجروح التي ملأته، ولكن بتلك النظرة النادمة التي ينظر بها إليّ، هزتني وجعلت حدتي تخفت وأنا أقول: "مش كفاية مشاكل يا مروان، لسة مازهقتوش من كتر المشاكل اللي مريت بيها بسببكم!"

-"هو جوزك فعلًا؟"

-"أيوة".

هز رأسه باستسلام، وبهدوء قال: "أنا آسف يا هبة، لو كنت اتشجعت إني أكلمك من بدري ماكنش كل ده حصل".

لم أجد ما أقول، وهو أيضًا صمت فترة طويلة، ثم كرر: "أنا آسف، عايزك بس تعرفي إني هفضل طول حياتي...".

لم يتم عبارته، ازدرد لعابه مع الكلمات فتكورت حنجرته لحظات داهمني فيها الدوار، تمتمت: "أنا آسفة، بس مش هاقدر أستنى أكتر من كده".

واستندت إلى أقرب سيارة، كنت راغبة في الابتعاد لكني عاجزة عن الحركة، تصبب العرق عليّ بغزارة مفاجئة، ودعوت الله من كل قلبي ألا أضعف الآن، لو انتهى العالم فلا أريد أن أكون بحاجة لمساعدة هذا الشخص، مهما حدث.

وجاءت النجدة بصوت إيتشيرو البارد: "مساء الخير".

كنت أخشى ظهوره خشيتي الموت، لكن قلبي استراح لسماع صوته، نظرت أبحث عنه فوجدته يحدق في وجه مروان بكراهية لم أتخيل يومًا أن أراها في عينيه، كراهية أرجفتني وجعلتني أناديه، لكنه تجاهلني، وأرعبني هذا أيما رعب. ناشدته من قلبي: "إيتشيرو.. أرجوك".

نظر لي ولم يبال بما أقول، وخطا خطوة نحو مروان، لم أتحمل رؤية قتال آخر فنسيت نفسي ووثبت أحول بينهما، وكان هذا خطأ غبيًّا، ضربني ألم مزلزل

أفقدني إحساسي بنفسي لحظة، لكنني على الأقل أمسكت بذراعه وحفظت توازني في آخر لحظة، توسلت إليه: "أرجوك لا تتقاتل معه، أرجوك".

تحدث مروان بالإنجليزية: "جئت فقط لأعتذر، لقد سببت لكما المشكلات بلا قصد، لكنني سأذهب ولن ترياني مجددًا".

كان إيتشيرو يشتعل غضبًا رغم بروده، رأيت هذا في عينيه وفي اختلاجة فكيه، شعرت به في صمته المنذر بالخطر، وأخيرًا قال: "اذهب".

-"إذن، وداعًا".

كررها مرتين، وبعد ذهابه بدقيقة قال إيتشيرو: "هيا بنا".

سرت إلى جواره خطوات معدودة ثم توقفت، كنت أجاهد لأنظم أنفاسي المضطربة، ووقف هو يراقبني بوجه لم أرغب في النظر إليه كي لا يدرك مدى تعبي، بعد قليل تحاملت على نفسي وواصلت السير، تقطعت له أنفاسي رغم قصر المسافة، وفي مدخل العمارة أعلنت استسلامي: "لا أستطيع، سوف...".

وغلبني ضعفي فارتميت جالسة على أولى درجات السلم، وأسندت رأسي للدرابزين، وأمامي جثا إيتشيرو على ركبتيه وأمسك بيدي، وجهه كان بعد مغلقًا لا يشي بأي مشاعر وهي علامة غضبه الأولى، لكنني شعرت بقلقه في لمسة يده التي جففت عرقي وربتت على رأسي، وصوته وهو يقول: "أنفاسك مضطربة.. ترى هل آذى ماء البحر رئتيك؟"

-"أنا بخير".

-"لا، لست كذلك".

وحملني، لم أكن أتمنى أكثر من هذا في تلك اللحظة؛ كان شعوري بالإعياء يتضاعف مع كل لحظة تمضي، فأغمضت عينيّ وتمنيت أن يزول الألم، أن يرحل ويتركني لأعود كما كنت، كيف لا تبدو الصحة غالية إلا في لحظات كهذه!

وسمعته يقول: "أنا إيتشيرو".

انتبهت له بصعوبة، وتمتمت باسمه وأنا شبه نائمة فأجابني: "نعم، أنا هو، لا تخطئي بيني وبين هذا الأحمق مهما كان قرارك".

صوته البارد أشعرني بالخوف، فتحت عيني ونظرت له لكنه كان مشغولًا في إخراج حقيبة الظهر خاصته من الدولاب، ووضع الملابس فيها، للحظة

استغربت وصولي لفراشنا دون أن أشعر، ثم انتبهت له وسألته: "ماذا تفعل؟ أنا غير قادرة على السفر الآن!"

-"سأعود وحدي".

-"ماذا!!"

-"ابقي هنا ما شئت، وخذي قرارك بحرية، أنا لن أعارض قرارك مهما كان، فقد سئمت هذا القتال العقيم".

-"قتال ماذا؟"

-" هذا الشيء المدعو مروان".

لولا تعبي لطار صوابي غضبًا وأنا أسأله: "مروان مرة أخرى؟ هل حاول الشجار معك ثانية؟"

التفت لي ورماني بنظرة نارية جمدتني، ثم تكلم بكل برود: "لا أعني هذا القتال، أعني قتالي اليائس لذكرياتك القديمة معه، هبة".

-"هه!!"

-"لقد أخبرني سمير بكل شيء".

-"ماذا؟"

أطار الغضب صوابي حقًّا، لم أتمالك نفسي وصحت: "أخبرك سمير بكل شيء؟! ومنذ متى يتحدث هذا القذر بشيء غير السوء! لقد أخبرتك بما كان منه معي من قبل، إيتشيرو، هل استطعت تصديقه في أي شيء بعد كل ما قلته لك؟ تُرى بم أخبرك؟"

أجفل لصياحي غير المتوقع، ولاذ بالصمت قليلًا ثم تكلم ببطء: "لكنك كذبت، هبة. كذبت حين سألتك عما إذا كنتِ أحببته من قبل أم لا".

لم أعرف بم أرد، ألجم الغضب لساني، ولم يمنحني إيتشيرو الفرصة لأنه انفجر بدوره: "قلت لك إنني لا أطيق أن يكذب عليّ هؤلاء الذين أحبهم وبرغم هذا كذبت، ما الذي يدفعك للكذب إذا كان هذا الشخص لا يمثل لك شيئًا؟"

صرخت به: "وأنت تظن أنه يمثل شيئًا؟! لقد رأيت بنفسك لأي درجة أزعجتني رؤيتهم، ورأيت كم مرة تشاجرت معه ليكف عن مطاردتي، فلم تقبل الآن بكلام شخص أخبرتك عن هول كذبه وفحش قوله؟"

خطا نحوي وأخذ بذراعيَّ يهزني: "لأنك كذبت، لماذا فعلتِ، هبة؟ إذا لم يكن يمثل لك شيئًا فلم كذبتِ؟"

صرخت فيه بكل قوتي: "لأني أحبك".

شد ذراعي إليه أكثر، وجهه كان مشوهًا بغضب جعله غريبًا عني، ولم أكن أقل عنه غضبًا وأنا أواصل صياحي: "لأنك الأول بحياتي، ولأنه لا يرقى للمقارنة بك، لأنهم لا يعنون لي شيئًا وكأنهم لم يكونوا قط، هل تفهم؟ إنهم لا شيء، جميعهم لا يمثلون لي شيئًا".

ساد بيننا صمت غريب استمر دقيقة، ثم ترك إيتشيرو ذراعي وجلس على حافة الفراش، راح ينظر للأرض نظرات تائهة آلمت قلبي، أعادت غضبي إلى مكمنه المظلم في صدري، وأطلقت عنان الوجع والألم الكاسح معًا، كافحتهما بصعوبة لأقول: "أنا أحبك، لم أحب قط أي شخص مثلما أحببتك، فلماذا تتصرف وكأنني أنوي خيانتك، إيتشيرو؟"

-"لقد فعلتِ".

كذا تمتم بصوت منكسر لم أصدقه، تمنيت لو خدعتني أذناي لكنه كرر بصوت أوضح: "كذبك لا يقل سوءًا عن الخيانة، هبة، كلاهما سواء".

لم أعرف كيف أفكر، ولا كيف أجيب ما يقول، فقط رحت أحدق إليه شاعرة بنفس الفراغ الشاسع وهو يردد صوت تحطم قلبي، أغمضت عينيّ وضممت ذراعيّ حول صدري، واستسلمت لموجة الوجع المخيفة وهي تسحبني لأعماق أسود من أي سواد اختبرته من قبل.

سمعته يقول: "يمكنك البقاء وحدك كيفما شئتِ، هبة، أو البقاء معه، وعندما نلتقي أخبريني بقرارك، وأنا لن...".

تمتمت: "اخرس".

-"ماذا؟"

-"اخرس، أنت تقتلني قتلًا الآن".

نهض، شعرت بحركته وهو يلملم أهم متعلقاته في حقيبته، ثم شعرت به يضع يده على رأسي فأجفلت وابتعدت، ثم فجأة انفجرت أضحك وأنا أقول: "أتظنني أخونك بالتفكير في رجل آخر؟ أحقًّا فكرت في هذا الأمر؟ مضحك، حقًّا، يمكنك أن تصبح مهرجًا بهذا العقل، تاكاهاشي إيتشيرو".

طالت نوبة ضحكي حتى كاد قلبي يتوقف، وعندما هدأت لألتقط أنفاسي تحولت لنوبة بكاء حادة، كانت الدموع تسيل من عيني وكأنها تشق قلبي كالسكين، شعوري بالوجع جعلني أتمنى الموت فورًا.

غادرني إيتشيرو، راحت خطواته تبتعد بانتظام، فتوقفت عن البكاء وناديته: "إيتشيرو، عد إلى هنا، لا تذهب".

توقعت أن يعود لكنه لم يفعل، فواصلت النداء: "لا تذهب، إيتشيرو، أرجوك، أنا بحاجة إليك".

كنت خائفة من الألم الذي راح يكتسحني ساحبًا وعيي وقوتي وقدرتي على التنفس، خائفة من البرد الذي ضرب جسدي كله فجأة وجعلني أرتعش وكأنني مبتلة في قلب الشتاء، خوفي من برودة وألم الموت جعلاني أتوسل له ليعود، كنت أريده أن ينقذني، أن يفعل شيئًا يخفف ما أشعر به، كنت قادرة على أن أغفر له غباءه لو عاد، لكنه لم يعد، تركني، وسمعت باب الشقة يغلق بقوة، فانتفضت وكأن قبري يلتئم فوقي حية.

ناديته بصوت لم أسمعه جيدًا: "عد، أرجوك، أنا أتألم حقًّا، أنا خائفة".

رددت كلمتي الأخيرة كثيرًا، كانت هي كل ما أشعر به، وبدا لي أنني سأظل أشعر بها إلى ما بعد الأبد.

لقد تركني، بعد كل شيء عدت مرة أخرى وحدي، مرة أخرى محطمة ومتروكة بلا اهتمام، لو مت الآن تُرى متى سيعرف بهذا؟ هل سيهتم بأن يعرف؟

حبيبي إيتشيرو كان ليهتم، لكن هذا الرجل كان مختلفًا، لم يكن هو، لم يكن يمت لإيتشيرو الذي أحب بأدنى صلة، ما كان إيتشيرو ليشك فيَّ لحظة، ما كان ليكذبني، وما كان ليتركني.

بكيت من الألم والوجع الهائلين، صرخت أناديه لكن صوتي لم يخرج، وبسرعة شديدة انحدرت إلى هاوية مظلمة، سحبت قلبي إلى الأعماق.

لم أنتبه إلا وهو يناديني بذعر، تأوهت من شعوري بلمسته، رفعه لي، تربيته على وجهي، محاولة إفاقتي، كل حركة كانت عذابًا فوق احتمالي وفوق قدرتي على النطق، فتحت عينيّ ونظرت له وأنا لا أكاد أراه، وجهه كان قريبًا مني لكنه

بدا غريبًا، خطر لي أنني لا أعرف هذا الرجل، لا أفهم لماذا وثقت به وعشت معه، ولا أعرف لماذا تمنيت يومًا أن أنتهي معه، متى كان هذا؟ كان أمس، أحقًّا كان هذا بالأمس فقط؟ يا للحياة سريعة الغدر!

حاولت الاستغاثة من شعوري بالبرد لكن لساني لم يتحرك، والرجفة كانت تهزني هزًا، حاولت أن أتشبث به لكن يدي لم تطاوعني، وضمته القوية لم تحدث فارقًا، توغل فيَّ البرد حتى سحقني، وسمعته: "تماسكي، هبة، اهدئي، الإسعاف قادمة".

غبت عن وعيي، وانتبهت وهو يرفعني ويسند ظهري إلى صدره، ويلفني بغطاء الفراش متأهبًا لحملي لكني تشنجت رعبًا؛ كان العالم مصبوغًا بلون الدم ففقدت صوابي، صرخت: "ندى!"

مرة أخرى خرج صوتي لا يكاد يسمع، لكن لوعتي مزقتني صدري نصفين، كنت أموت، تتمزق روحي إلى أشلاء، كل كياني يتلاشى، صرخت مرارًا بالاسم، وخرج صوتي مدويًا مرة واحدة فقط، أردت أن يسمع العالم صراخي، أردت أن يعرف الجميع مدى ألمي وضياعي، وأردته أن يعرف أنه قتلني حقًّا.

-"ندى!!"

وطال صراخي بالاسم يا ندى، طال.

منذ خمنت فتاة المترو الأمر وزرعت الشك داخلي والاسم كامن في أعماق قلبي ككنز ثمين، قرار اسم ندى كان دفينًا في قلبي، نويت أن أصرخ به فقط عندما أراها وأحملها للمرة الأولى، لكنني إذ صرخت به في تلك اللحظة عرفت أنني لن أحمل أبدًا طفلتي التي أحببتها كثيرًا، وأنني فقدتها إلى الأبد.

جعلني هذا اليقين أضع يدي على صدري وأبكي، تمنيت لو كنت قادرة على شق ضلوعي والقبض على قلبي لأعتصره ليخرس، أو أغرق في ظلام لا أرى فيه شيئًا وأضيع إلى الأبد، لكن ظلمات الغيبوبة لم تترفق بي، بل لفتني بوجع فاجر ساحق، ألم محرق كغطاء ثقيل أسرني ومنعني العودة إلى العالم.

خمس شموس بزغت وغربت وأنا أحترق يا ندى، وعندما عدت لنفسي وجدت أنني لا أعرفها، ولم يبد أنني سأعرفها قريبًا.

هبة

15 سبتمبر 2011

اليوم الثامن عشر

الإيمان الأول

صديقتي العزيزة ندى

لم أر إيتشيرو إلا بعد إفاقتي بيومين على الأقل، كما أظن.

قضيت الوقت في صمت شارد، عندما استيقظت وجدت ممرضة بالقرب مني تنتبه لي، ثم تنهض بتأهب كأنها تستعد للسيطرة على حريق وشيك.. تجاهلتها ونهضت لأجلس، وعندما حاولت مساعدتي أبعدت يدها، وقفتْ صامتة لا تبدي حركة حتى جلستُ مستريحة ورحتُ أنظر ليديّ، كان منظرهما غريبًا بالنسبة إليّ وكأنني لا أعرفهما.

-"مدام هبة؟"

لم أرد لأنني لم أعرف المقصودة بالنداء، فتركتني وخرجت، وبعد قليل عادت مع طبيب أمسك معصمي وضغط عليه فآلمني، ووجه مصباحًا صغيرًا لعيني فأعماني.. عشرات التصرفات الصغيرة المزعجة التي تشتتني عن التركيز، لم أكن أعرف فيم أركز، إلا أنني كنت منزعجة من تصرفاتهم التي تصرف انتباهي، عندما انتهى من فحصي عدت أنظر ليديّ ثانية، بدتا مألوفتين أكثر قليلًا مما أراحني.. نظرت إليهما لساعات.

عندما تركوني عدت لأغمض عينيّ وأتظاهر بالنوم كي لا يزعجونني.. شرعت في تخيل بحر أسود صامت، أغوص فيه وأتلاشى، وبمرور الوقت صرت جزءًا منه، وعندها تحركت يدي بتلقائية لتضغط صدري المحترق بالوجع، ثم انحدرتُ بها إلى بطني، أحطتها بذراعي برفق كما فعلت من قبل سرًّا وأنا آمل، وببطء هزمتني الدموع قطرة بعد قطرة، وانتحبت بصوت خافت: "ندى!"

آلمني الاسم، أشعرني بخسارة لم أتخيل يومًا فداحتها، وبندم مزق أوصالي.. تُرى هل فقدتها عقابًا لي لأنني لم أفرح عندما عرفت بوجودها؟ كنت تائهة ومضطربة، لكنني لم أشعر بالتعاسة أو أتذمر، فهل يعاقبني الله لأنني أتقبل هديته بفورة من السعادة؟ أو لأنني لم أتمن طفلًا من قبل قط؟

كنت خائفة، لم أكن مستعدة لفكرة وجودها، لكنني أحببتها، وانتقيت لها اسمًا هو الأحب إلى قلبي، دون حتى أن أتيقن من وجودها.. كنت بحاجة إليه

ليمسك بيدي ويطمئنني، وأن يؤكد لي أن كل شيء سيكون على ما يرام، لكنه لم يمنحني الفرصة لأخبره شيئًا، ببساطة أدار ظهره ورحل، تركني وأنا أناديه لينقذني.

سحقني الوجع مرة أخرى، لكنه كان وجعًا مختلفًا عاد ليكتسحني بجنون لم أعهده.. التهمت الكراهية قلبي، وودت لو أنني لا أراه أبدًا، وودت أيضًا لو أراه لأقتله، لأمزقه إربًا.

رحت أفكر في ألف طريقة لتعذيبه، لكن أفكاري لم تسعف رغبتي في الانتقام، ثم قتلته بكلمة واحدة عندما رأيته مساء اليوم التالي: "سأكرهك إلى الأبد، تاكاهاشي إيتشيرو".

نطقتها وأنا أعنيها من صميم قلبي، لكن شيئًا كالندم وخزني إذ رأيت تلك النظرة في عينيه، كان واقفًا عند باب غرفتي مترددًا بين إقدام وإحجام، ويبدو متألمًا كمن يحترق ببطء.

ناداني فلم أستجب، فقط لاحقته بشراسة: "لماذا أنت هنا؟ ألم تقل إنك ستذهب؟ هيا اذهب، أنا لا أريدك".

-"هبة...".

-"لماذا عدت؟ كان من الأفضل لو ذهبت إلى الأبد".

تقدم نحوي فلم أمهله ليخطو خطوة ثانية، زجرته: "اخرج، أنا لا أريد رؤيتك".

-"أنا لم أتركك، هبة، لقد عدت خلال دقائق، ولكن..".

-"كاذب".

-"أنا لا أكذب، هبة، أنا وأنت لا نفعل".

-"حقًا؟ وماذا عن "كذبك كخيانتك سواء بسواء"؟"

-"كانت لحظة تهور وغضب".

-"حقًا؟ وما الذي يفترض أن أشعر به الآن؟ ما تقوله لا يعزيني، فأنت تركتني بعد كل شيء، لقد ناديتك، توسلت إليك أن تعود لكنك ذهبت، أتدرك لأي درجة كنت أتألم وأنا أناديك؟"

هرب من النظر في عينيَّ، لم أسمع صوته لكنني قرأت حركة شفتيه: "أنا آسف".

-"آسف؟"

وسخرت منه بقسوة: "آسف؟ على أي شيء بالضبط؟ تكذيبك لي أم اتهامك الغبي أم تركك لي وحدي؟ أم لعلك تعتذر عن...".

لم أستطع الجهر بأنني فقدتها حقًّا، ابتلعت المرارة ولاحقته: "عن أي شيء تعتذر، تاكاهاشي إيتشيرو؟"

-"عن كل شيء".

-"حقًا؟ إذا كانت مصائب الدنيا قابلة للزوال بكلمة "آسف"، فلماذا خلق الله جهنم السوداء؟ ولماذا وضع البشر القوانين واخترعوا الشرطة والسجون والمشانق وأدوات التعذيب؟"

-"هبة...".

-"أنا أكرهك، سأكرهك طيلة حياتي، ولن يجدي أي اعتذار منك لتغيير هذا، اخرج من هنا ولا تجعلني أراك أبدًا بعد الآن".

اكتست عيناه بطبقة من الدموع كثيفة، وبرد فعل سريع زم شفتيه ونظر للسقف، رأيت حنجرته تتكور مرتين، فطعنني الألم من حيث لم أتوقع.. وخزتني فكرة ذهابه وخزًا لا يقل قوةً وإيلامًا عن الكراهية المستعرة في قلبي، وللحظة ارتج عليّ ولم أدر ماذا أفعل.

لا أريده أن يذهب، ولا أطيق بقائه..

أطلت النظر إليه كأنها أول أو آخر نظرة.. كل ما فيه كان كما عهدت، بحثت بعيني حتى رأيت أصابعه الطويلة الرشيقة التي طالما سلبتني عقلي، وها هي تسلبني قدرتي على النطق والتفكير، تفقدني حتى القدرة على الشعور بنفسي.

-"إنه لم يكن أنت، أليس كذلك؟ اكذب وقل لي "لا" وسوف أصدقك".

-"أنا آسف، أنا آسف".

كنت على وشك الجنون يا ندى، شعوري بكراهيته كان مروعًا لا أستطيع وصفه، نار حارقة تنطلق كقطار طائش لتحرق كل ذرة مني، لكن أكثر ما عذبني كان اليأس.. يقيني بأن ما حدث كان حقيقيًّا كان عذابًا لم أقاس مثله من قبل،

كنت أنام متمنية لو استيقظ من الكابوس الذي أحياه، لكن كل شيء ظلَّ واقعًا يفوق قدرتي على التحمل والصمود. آه يا ندى، لشد ما قتلني العجز!

يأس الجنون من الاستيلاء عليَّ بعد أسبوع مرير، وحشد جيوشه راحلًا عن عقلي، تركني محطمة تمامًا، وأصبح قلبي فارغًا، وليس في نفسي أدنى ثقة بقدرتي على مواصلة الحياة، لا أعرف أهو فقد طفلتي، أم كلماته الفظيعة، أم تفكيري في حياتي التي ظننتها مثالية لدرجة الكمال وقد انهارت دون مقدمات؟ لا أعرف، والمحصلة النهائية هي أنني لم أعد راغبة في شيء قدر رغبتي في الموت، أريد رقادًا طويلًا ساكنًا لا تقطعه كوابيس ولا ذكريات مؤسية.

فقط كان يطاردني سؤال واحد وأنا أشرد بعيني في المجهول: ماذا أفعل؟ ملأني عجز ووحدة عسيرٌ وصفهما، شعرت أني عارية ووحيدة أمام إعصار يوشك أن يقتلعني.. إلى أين أذهب؟ ماذا أفعل؟ إلى من ألجأ ليكون جواري الآن؟ ليس لديَّ أحد، لن أعود لعائلتي، ولا أصدقاء لي، ولا شخص أتحدث إليه، ولا ملجأ أهرب إليه، أنا وحدي تمامًا، كل من أحب يمثلهم شخص واحد لا أطيق رؤيته، لم أعد أحبه، ولعلي سأعجز عن حبه ثانية حتى مماتي.

كان النوم مهربي الوحيد، الظلام الكثيف الذي يحجبني عن أفكاري كان يحميني، لكنه لم يدم طويلًا، فقد انخفضت جرعة المسكنات، وراح وعيي يتحسن في كل مرة أستيقظ فيها، ثم انتظم نومي وصحوي، وخف ألمي وأصبح جسدي أفضل.. ثم جاءت اليقظة التامة، وطلبت من الممرضة أن تتصل "به".

عندما رأيته أخذني الذهول، كان ذابلًا، شديد الشحوب، ذقنه كثيفة وكئيبة، وعلى عينيه نظارة سوداء تخفي شيئًا أسوأ بالتأكيد.. للحظة ارتج قلبي، ماذا أصابه بسببي؟ ماذا فعلت به كلماتي التي تعمدت بها قتله؟

لم تكد الفكرة تجول بعقلي حتى انبعث الغضب من قلبي مختلطًا بالكراهية.. لماذا أتعامل مع الجميع بتفهم وإنصاف لا أمنح نفسي ربعهم؟! فلتذهب مشاعره إلى الجحيم، هو لم يكترث لمشاعري عندما استسلم لتفكيره الأحمق، وليس من حقه أن يطمح لتفهمي وإنصافي.

-"لو أردت أن أذهب...".

-"لا. أأنت بخير؟"

ابتسم، واختفت ابتسامته بعد لحظة.

أمسك يدي بلطف وكأنه يخشى تحطيمها، استجبت له تلقائيًّا وتشبثت بيده، وعندما فعلت أدركت أنني لا أستطيع أبدًا الابتعاد عنه، لن يكون لديّ شخص غيره أحبه بهذا القدر أو أحتاجه لدرجة التمزق.. لم يكن لديّ قبله أحد، ولن يكون لديّ إذا تركني أحد، أنا وحدي تمامًا دونه، ولا أعرف كيف لم أر هذه الحقيقة بوضوح قبل اليوم! لقد اعتدت منذ صغري ألا أتعلق بأي شخص؛ كنت مؤمنة أن لا أحد يبقى، ولم أتخيل يومًا أن تتوقف حياتي على وجود شخص جواري، وها أنا اليوم أجد نفسي متورطة تمامًا، عاجزة تمامًا، ولا أملك شيئًا سوى الاستسلام لمزيد من التورط، ومزيد من العجز.

دفع هذا الإدراك اليائس بالدموع تملأ عينيّ، أخذت نفسًا عميقًا وكابرت لأتمالك نفسي، بعد دقيقة نظرت له مباشرة، لم أر عينيه لكن شحوبه بات أكثر وضوحًا، لم أعرف ماذا أقول، وتمنيت لو يقول شيئًا، أي شيء، لكنه ظل صامتًا، ونظراته التي لا أراها مركزة عليّ، أشعر بها، وأتساءل فيم يفكر وبأي شيء يشعر.

-"أأنت بخير، هبة؟"

-"لا".

هز رأسه، تقبل الإجابة كما لو كان يتقبل تحية الصباح من جار لا يعرفه جيدًا، وأراحني هذا، كان شعورًا غريبًا من الراحة لم أفهمه.

بعد صمت طويل آخر قال: "أنا لن أغفر لنفسي أبدًا، أبدًا".

أومأت برأسي، كنت بدوري أتقبل كلماته كتحية صباح لا تعنيني، إلا أن أصابعي تقلصت قليلًا حول يده، نظر لها إيتشيرو وقال: "لا أعرف فيم تفكرين، ولا ما تنوين فعله، لكنني سأقوم بأي شيء قد يجعلك أفضل، أي شيء مهما كان عسيرًا عليّ أو شاقًا، أي شيء يجعلك قادرة على منحي مغفرة لن أمنحها لنفسي".

جف ريقي، ولم أجد كلمات تقال.

-"أنا أحبك أكثر من أي شخص أحببته في حياتي، وقد تجاوز حبي لك كل حدود المنطق والعقل. أحيانًا، عندما تراودني فكرة خسارتك، أصاب بالجنون، أفقد نفسي وأغدو بائسًا يبحث عن سبيل واحد للنجاة، هذا الجنون هو ما جعلني أقول ما قلت، هبة".

-"..................".

-"أريدك فقط أن تعرفي هذا".

برودة غريبة كانت تنسل من أصابعه إليّ، أصابتني بالخوف، راودني شعور غريب بأنه سينهض الآن ليذهب دون رجعة، وأن تلك هي اللحظة الأخيرة بيننا. رغم كل الغضب النائم في قلبي، والحزن الذي يصهر ضلوعي صهرًا، لم أتحمل تلك الفكرة، لقد انتزعتني من كل مشاعري المتناقضة نحوه لتلقيني في خوف بارد، تمتمت أناشده: "لا تذهب".

-"أنا معك، هبة".

لكن صوته كان مهتزًا مترددًا، ولا يعني ما يقول، جعلني هذا أدمع..

-"أنت غير واثق مما تقول، إيتشيرو".

غادر اسمه صدري كزفرة حارقة، وعندما وضع يده على رأسي وبكيت بكاءً لم أبك مثله في حياتي، مجرد الذكرى تجعل عينيّ تحترقان بالألم.

كان صوتي مشوهًا بالدمع وأنا أقول: "أنا لم أفكر قط في مروان...".

-"أعرف، لا تتحدثي عن هذا الأمر ثانية".

-"أنت قلت إنني...".

-"ماذا أستطيع أن أفعل لأمحو كل ما حدث؟!"

-"لو قتلتك آلاف المرات وأحييتك فلن تجعلني أنسى ما حدث أبدًا، إيتشيرو، لن يكون هذا كافيًا".

كنت قادرة على الشعور بالأسى والألم في لمسته، وعذبني هذا كثيرًا، عذبني أن جزءًا مني ظلّ منفصلًا عني ليشعر به ويقدر مشاعره، جزءًا خائنًا رأى في ألمي مبالغة، ويتجاهل الجرح النازف في قلبي بدعوى الحب.

بعد صمت ثقيل قال: "أنت حبيبتي الأولى، صديقتي الوحيدة، أمي وطفلتي، زوجتي، الشخص الأهم في حياتي، الشخص الوحيد الذي أثق أنني أمثل له ما يمثل لي، وأن حبي له يساوي حبه لي، الشخص الوحيد الذي أنتمي إليه بأكثر مما أنتمي إلى نفسي، والذي أضيع تمامًا دونه.. كل منا هو الأول والأخير بالنسبة إلى الآخر، كل منا سيموت في نفس اللحظة إذا ما فرقنا شيء. هل بإمكانك تخيل الجنون الذي أصابني وأنا أشعر أنك تتسربين من بين أصابعي، وأنا عاجز عن فعل شيء؟"

-"شعورك بتميز علاقتنا يتناقض وشكك، يتناقض وشعورك بأي شيء خلافه أصلًا".

-"الحب أكثر المشاعر تناقضًا، في الحب تفقدين نفسك وعقلك، وتصبح قدرتك على التفكير المنطقي ضربًا من المستحيل".

الجزء الخائن مني أكد لي ما يقول، فأنا لم أكن أبعد عن المنطق مني في تلك اللحظة، سواء المنطق الطبيعي لمشاعر البشر، الذي يفرض عليّ الانحياز لمشاعري دون أخذ ما يشعر به في الاعتبار، أو منطق الحب الذي يفرض عليّ تفهم ما فعل وتجاوز المشكلة. ترى أيهما المنطق الصحيح؟

-"أنت غبي، تاكاهاشي إيتشيرو".

وارتفع مجددًا الصمت الكريه الثقيل ليحول بيننا، وجعل كل شيء يبدو بلا معنى.. اختنقت، أردت أن ينتهي هذا الموقف بأسرع ما يمكن. كان في قلبي رجاء ضعيف ما انفك يزداد قوة ويحثني على أن أغفر له، لكن جزءًا شيطانيًّا مني استشاط غضبًا.. ما المعنى من المغفرة الآن؟ المغفرة لا يقدر عليها سوى الأقوياء، ليس من حقي أن أغفر أو أفكر في المغفرة وأنا ضعيفة محطمة أحترق بنار مجنونة طوال الوقت، بسببه.

وكأنما قرأ أفكاري قال: "قولي ما شئت، هبة، فأنا مستحق لأي شيء يقال، ولكن فكري قليلًا فيما قادني لقول ما قلت".

لم أستطع ردًا، الجزء الخائن الذي يتوسل المغفرة أخرسني لأستمع...

-"أنتِ كذبتِ عليَّ، سألتك إن كنت تحبينه فنفيتِ، وأنا لست غبيًّا، منذ رأيته أول مرة عرفت أنه يحبك وأنه لم يكن صديقًا عاديًّا لك، نظراتك ونظراته شفت عن هذا، لكني أردتكِ أن تضعي حدًّا للأمر، وضغطت على مشاعري وهو ينظر إليك بتلك الطريقة المستفزة فقط لترفضيه بنفسك، حتى لا يستمر في مطاردتنا طوال الوقت".

-"كان هذا خطأك منذ البداية، كان بوسعك إخبارهم أنني زوجتك".

-"نعم، كان خطأً فادحًا، لكنني أردت أن تكون كل الخيارات في يدك، لئلا تواصلي حياتك معي وأنت تنظرين إلى الوراء وتتساءلين: ماذا لو...".

-"اخرس، اخرس...".

-"أعرف، لكن هذا ما كنت أفكر فيه".

ارتفع الصمت ثانية بيننا، وهو لا يزال يحني رأسه ناظرًا إلى دبلة زواجنا في بنصره الأيسر..

-"صديقكما الآخر كان يحدثني كل فترة، أخبرني الكثير عنك، انطوائك الذي ضايقهم زمنًا، وغيابك الطويل الذي لا يعرفون سببه، وهالة الكآبة التي كانت تحيطك وشعورك باليأس دائمًا. كان كلامه غريبًا كأنه يتحدث عن فتاة لا أعرفها، لكن حديثه عن حبك لمروان كان الأكثر إزعاجًا. قال إنه كان يعرف بهذا طوال الوقت، ومروان أيضًا كان يعرف، لكنه لم يختر أن يأخذ خطوة إلا عندما اختفيت. بحث عنك كثيرًا بلا جدوى، لكنه استمر يأمل أن يلقاكِ مصادفة، وعندما حدث هذا كنتِ فتاة أخرى أفضل بكثير من هبة الأولى، فقرر أن يسعى خلفها محطمًا علاقتها بهذا الأجنبي الذي لا يستحق حتى أن يلمسها".

كنت خليقة بتهشيم رأسه لو امتلكت القوة لهذا، وصحت غضبًا: "هذا سمير، لقد أخبرتك أنه يكذب حتى في تحية الصباح والمساء، فكيف...".

-"لم يكن يكذب، هبة، كل ما قاله رأيته بعيني، مروان استمر في مطاردتك ولم يأبه لتحذيري، حتى عراكنا جعله أكثر إصرارًا على ملاحقتك، وأخيرًا اختفيتِ، يوم كامل بحثت فيه عنك ولم أجدكِ، وعندما عدتِ رأيتكِ معه، كنتُ على وشك الفتك به لكنك وقفتِ بيننا، هل يمكنك تخيل ما شعرت به وأنت تدافعين عنه؟"

-"أدافع عنه؟ هل كنت أدافع عنه أم عن الأحمق الذي توعد بقتله؟"

-"الآن فقط أفهم".

-"أنت أحمق وأعمى ومجنون، ماذا أفعل بك لقاء ما فعلت؟!"

-"أي شيء".

كان الغضب يستبد بي لأنني فهمته، تفهمت الغيرة التي تلغي العقل لدرجة العمى، لقد سبقته في الشعور بها لهذا أفهمه، لكن الفهم لم يمح شعوري بالخسارة، ولم يصلح الكسر الذي ضرب صميم قلبي. أردت أن أواسيه، أن أعتذر، أن أقر بأن الأمر منذ البداية خطأي، لأنني كذبت –ولو بحسن نية- وجعلت كل تلك الأفكار البلهاء تتراكم في عقله، لكن في نفس الوقت أردت أن أوذيه بكل قوتي، وأن أسبب له ألمًا يفوق ألمي، رغم ثقتي أن الذنب يأكله حيًّا.

اشتعلت أفكاري كحرب طاحنة تدور رحاها في جمجمتي، ثم تحركت، وضعت يدي على شعره ثم جذبته إليّ فمال دون مقاومة، أسندت رأسه إلى كتفي، قلت: "أريدك أن تعرف شيئًا واحدًا، تاكاهاشي إيتشيرو، أنا لن أغفر لك أبدًا قلة ثقتك فيّ، ولو عشت ألف سنة سأموت وفي قلبي جزء من هذا الألم، وسأكرهك لهذا دائمًا".

تأوه كأنني طعنته بخنجر في قلبه، ضم ذراعيه حول صدره وحاول أن يبتعد عني لكنني تشبثت به، وضعت ذراعي الآخر حوله، قلت: "أنت لن تهرب مني، إيتشيرو، أنت قلتها بنفسك، كلانا لا يملك سوى الآخر، أنا لن أستطيع مفارقتك، لكنني لن أستطيع أن أكون الفتاة التي عرفتها دائمًا، أريدك أن تعرف أني سأجعلك تعاني، سأجعلك تعاني كثيرًا حتى أستطيع أن أتقبل فكرة أن أغفر لك".

-"سأتحمل هذا".

تقبله قراري دون نقاش أثلج صدري، في اللحظة التي نطق بها بتلك الكلمة ابتسمت يا ندى، ربما لهذا بقيت متشبثة به، كي لا يرى ابتسامتي، رغم استمرار الألم إلا أن تفهم دوافعه قلل عذابي كثيرًا، وتقبله المعاناة التي سألحقها به جعلني أغفر له الكثير، والتئم جزء من الشرخ الموجود في قلبي، نعم، كان شرخًا في طريقه إلى الزوال.

غادرت المستشفى بعد يومين، وعندما وصلنا إلى شقتنا في القاهرة أخذت حقيبتي إلى غرفة أخرى، وأغلقت الباب خلفي بالمفتاح وارتميت على الفراش لأنام، وعندما صحوت خرجت لآكل دون أن أظهر أي بادرة على شعوري بوجود شخص قربي. لم يحاول إيتشيرو أن يعلق أو يلفت انتباهي، كأنه قرأ أفكاري وأدرك أن فترة معاناته قد بدأت.

لقد جرحت كثيرين يا ندى، لعقابهم تارة أو للانتقام تارة أخرى، ولكن قلة آذيتهم لأنني أحببتهم، وكان معاذ من هؤلاء. في فترتنا الأخيرة، وقبل قطيعتنا النهائية، كان يتألم ألمًا بلا نهاية، وكان ألمه يجرحني لأنني عاجزة عن فعل أي شيء له، لم يكن بوسعي أن أجبر نفسي على حب أفضل أصدقائي، ولم يكن بوسعي أيضًا أن أقتطع من قلبه الجزء الأحمق الذي اختار أن يحبني. كثرة خلافاتنا أنبأتني بأن صداقتنا في طريقها للنهاية، فهي –أولًا وأخيرًا- لم تكن صداقة حقيقية، ولم تكن حبًّا حقيقيًّا، تلك العلاقة التي جمعتني بمعاذ كانت

أغرب علاقة حظيت بها في حياتي، صداقة من طرف واحد وحب من طرف واحد، كل منا كان عاجزًا عن التخلي عن الآخر، عاجزًا في الوقت نفسه عن الاستكانة مع الآخر، وفي النهاية أصبح كل شيء ينبئ بالتحول إلى رماد، ولم أجد ما أفعله إلا أن أجعل معاذ بنفسه يقرر التخلي عني، فجعلته يعاني كثيرًا يا ندى.

افتعال تلك الشخصية الطموح البغيضة كان يؤذيه، وحديثي الدائم عن سفاهة ما يدعوه "الحب"، ومضيعة الوقت التي تعنيها المشاعر، ثم بدأت أختفي أيامًا وأعود لأتحدث بهدوء ومرح، حديث يفتقر لتوهج البهجة الذي أدفأ علاقتنا سنوات. حاول أن ينصحني، أن يبين لي أي خطأ فادح أرتكبه في حق نفسي، لكنني تظاهرت بالاستهانة، حتى جاء اليوم الذي حذفني فيه من قائمة أصدقائه، وقطع كل اتصال بيننا. وقتها ابتسمت واغرورقت عيناي بالدموع، في خلافاتنا القديمة كنت أنا من يغلق سبل الحوار ويعلن النهاية، وطالما فعلت هذا لأنني خائفة من ألم الهجر، ودون تفكير في الإهانة التي قد يشعر بها بسبب تصرفاتي المتهورة، أما في تلك المرة فقد اخترت أن أمنحه هو هذه الفرصة، تركته يختار بنفسه أن يتركني إلى غير رجعة، وأن يكون هذا قراره هو بمطلق الحرية، ليستطيع أن يكرهني وينسى وجودي، لأن الكراهية –بدرجة ما- غالبًا ما تريح يا ندى.

الآن أنا أوذي شخصًا آخر يعني وجوده حياتي كلها، ورغم أن هذا الإحساس مدفون بدرجة ما في قلبي إلا أن عقلي كان حذرًا، كنت أتعمد مضايقته بتجاهله، والانعزال في غرفتي بمجرد دخوله المنزل، والخروج دون سابق إنذار والعودة متأخرة، وتجاهل الرد على الهاتف.. مضايقات طفولية لكنها كانت بوابة خرجت منها شياطين الغضب، وبمرور الوقت صرت أكثر تهورًا.

لم يحدث أي احتكاك مباشر بيننا قبل التاسع من أكتوبر، أنت تعرفين ومصر كلها تعرف المجزرة التي وقعت أمام ماسبيرو في تلك الليلة السوداء.

كنت أقرأ والتلفزيون ينقل بثًا مباشرًا لمظاهرة المسيحيين السلمية المتوجهة إلى ماسبيرو، ثم اندلع الصراخ كأن أجواء جمعة الغضب المشئومة تحل على مصر ثانية.. لوهلة لم أصدق ما أراه على شاشة التلفزيون فصرخت، أن تري إنسانًا مثلك يُدهس تحت عجلات المدرعات أمامك فهذا مشهد لا يمكن التعقل أمامه، أعتقد أنني جننت تمامًا في وقفتي المذهولة أمام الشاشة، ولم أسترد شيئًا من نفسي إلا عندما شعرت به يضع يده على عيني ويجلسني قسرًا محتجزًا

إياي بين ذراعيه.. استمر الصراخ القادم من التلفزيون لحظات ثم انطفأ، وساد صمت مرعب.

كانت تلك هي البداية الحقيقية يا ندى.

طوال الشهور الماضية كنت في عالم آخر غير منتبهة لما يحدث حولي في مصر، مستكينة لاعتقاد ورديّ وهمي هو "الجيش حمى الثورة"، حتى استيقظت بمشهد الجيش يسحق مواطنين مصريين تحت مدرعاته.

في أيام الثورة الأولى ونحن منعزلون معزولون في ميدان التحرير، يتربص بنا البلطجية بالخارج والشائعات بالداخل، كنت أخرج مع أطباء المستشفى الميداني ليلًا إلى شارع القصر العيني لنرى احتياجات ضباط الجيش والجنود، كنا نحبهم حقًّا، نشعر بانتماء متبادل بيننا وبينهم، إنهم جنود منّا يقضون فترة مؤقتة في التجنيد، وأقرب إلينا وإلى مشكلاتنا من عصابة الكلاب البوليسية التي تعتقل من تشاء وتقتل من تشاء في صمت، ولم يكن يسعدنا شيء قدر تصريح بعض الضباط لنا سرًا: "الدنيا متلخبطة ومحدش عارف آخرة الارتباك ده ايه، بس الجيش عمره ما هيضرب مصريين بالرصاص، واحنا متفقين إن لو جت أوامر بضرب المتظاهرين مش هننفذها".

أتذكر النقيب إيهاب، أحد أشجع من قابلت، وأسمع بأذن الخيال كلامه: "الجيش المصري بيعتنق ميثاق شرف عسكري يستحيل يلوثه بدم مدني، خصوصًا لو كان المدني ده مصري. طول سبعتلاف سنة الجيش عمره ما ضرب مواطن مصري، ومش هيعملها دلوقتي".

لكن الجيش فعلها يا سيادة النقيب! تُرى أين أنت الآن؟! ماذا تقول؟ وماذا تفعل؟! هل كان وجودك جوارنا صادقًا؟ أم خدعة كتلك التي صدقناها عندما آمنا أن جيشنا حمى ثورتنا؟!

اتشحت أيامي بالسواد يا ندى، ولم أركب المترو مرة إلا وتشاجرت مع غبية تهاجم المسيحيين لأنهم اعتدوا على الجيش، حتى مرت أيام وظهرت حقيقة جهاز التلفزيون المصري الفاجر الداعر وفضيحته، أول جهاز إعلامي يشعل فتنة طائفية ويدعو لحرب أهلية على الهواء مباشرة، ويحرض على قتل مواطنين أبرياء.

ثم ظهر في حياتي مينا دانيال..

هذا الفتى الذي لم أعرفه قط لكن صورته عذبتني وطاردتني في كل ركن، وحين حضرت جنازته لم يدهشني لقاء عدد كبير من أصدقاء الميدان الذين انفرط عقدهم بنهاية الثورة. عندها عرفت أننا عدنا للمربع صفر، وأن العودة إلى التحرير قريبة. شممت رائحة الاشتعال المقبل في الأجواء، وانقبض قلبي كأنني أرى الغد في اللوح المحفوظ.

صار الغضب رفيقي في تلك الأيام، واستيقظت على الخديعة التي شربناها حتى الثمالة لشهورٍ طويلة. أصبحت أمضي أغلب وقتي مع رفقاء الثورة نتحدث عمّا حدث وعمّا قد يحدث. وقد استقر في أعماقنا شعور بغيض بالعري.. كنا عراة من كل أمن ممكن. بيننا وبين الشرطة ما صنع الحداد، والشارع يشتعل ضدنا وكأننا المسؤولون عن خطايا البشرية منذ فجر التاريخ، والآن الجيش يستدير ليرفع أسلحته في وجوهنا. فأين المفر؟

ثم يأتي أولاد المنافقة من الإخوان، الشوكة القذرة المسمومة التي انغرست في ظهورنا باعتبارهم شركاء في الثورة، والآن يديرون لنا ظهورهم ليتركونا نحترق وحدنا. توقعت منهم بعض الدعم والمساندة، فقد مات بعضهم جوارنا ليلة موقعة الجمل ولكل منا ثأر مع النظام، لكنهم فجعونا ببيانهم الوقح المتبجح: "نطالب الإخوة الأقباط بالتعقل- علينا بالصبر حتى تتسلم حكومة مدنية البلاد"! لم نُخدع في بيان مكتب الإرشاد لحظة، وقرأناه بترجمته الصحيحة في التو: "اخرسوا حتى تتم الانتخابات، ونغتنم فرصة كوننا الجهة السياسية الوحيدة المنظمة لنسيطر على البرلمان كاملًا".

أمَّا السلفيون وشيوخهم الأفاضل فقد اختفوا بقدرة قادر من الصورة، ولعلهم تذكروا أن على الفئران الجري لجحورها قبل مجيء البيادة، ولكن بعد يومين من المجزرة خرجوا ليندوا باستخدام لفظ "الشهيد" لوصف "هؤلاء الأقباط"، ينطقون "الأقباط" وكأنهم ينطقون سُبة قبيحة، متجاهلين حقيقية أنهم أيضًا أقباط، أو لعلهم يجهلون هذا حقًّا، فالجهل لهم عنوان.

تُرى، هل كانوا سيتخذون نفس الموقف لو كان هؤلاء الشهداء مسلمين؟ هل تعاموا عن رؤية الدم لاختلاف الدين أم اختلاف الرؤى السياسية؟ هل تركوا دمهم يسيل لأن كل شهيد يدق صليبًا على معصمه؟ أم لأنه يدق في قلبه مبدأ اسمه الكرامة؟

أيًّا كانت الإجابة، فهي تزيدني كراهية لهم.

في تلك الفترة بلغت الحرب الإلكترونية أشدها على مواقع التواصل الاجتماعي، وكان السباب المتبادل بين جميع الأطراف ضد جميع الأطراف يجعلهم كمجموعة مجانين في عنبر لا نهائي، وكل منهم يقف على فراشه وينبح بلا طائل. كان صوت العقل يقول لي إن لا أمل في نقاش عاقل في هذا البلد، ولا مجال للتفاهم مع أشخاص رفعوا القرآن بيننا وبينهم سلاحًا وصوبوه نحونا، واضعين تفسيرهم الشخصي فوق وضوح النص المقدس، ورغم هذا آمنت بالاشتباك الفكري، وبالنقاش الذي قد يفتح الباب للتلاقي بين أقطابنا الفكرية المتنافرة إلى حدٍ حزين، لعل وعسى.

لكنني تخليت عن هذا الرأي إلى الأبد، برسالة جائتني من شاب سلفي يريد مني نقاشًا حول أحداث ماسبيرو، ولمّا رحبت به هاجمني فورًا:

-"ويا ترى اللى ماتوا من الجنود يبقوا شهداء ولا لأ من وجهة نظرك؟"

-"اللي مات وهو بيحمي الناس وبيقوم بواجبه أكيد شهيد مهما كان رأيي، واللي بسبب حد بيدافع عن نفسه، ماظنش إنه شهيد".

-"هي الشهادة على نية مين اللى مات ولا اللى حركه؟! وبعدين هي الشهادة بقت للكل؟ مش دول مسيحيين برضه؟"

-"أولًا: الشهادة موجودة من قبل رسالة محمد صلى الله عليه وسلم. ثانيًا: الشهيد شهيد القضية ما دامت قضية صحيحة تقبلها الفطرة، وطبعًا الفطرة موجودة برضه من قبل الإسلام. ثالثًا: حديث النبي (صلى الله عليه وسلم):"مَن مات دون نفسه، ماله، عرضه، إلخ" قال: "مَن؟"، وهي للشمول، وظنّي في الله أن كل إنسان يموت في سبيل شيء من هذه الأشياء هو شهيد. رابعًا: ظني في الله أن المسيحي الذي مات من أجل حماية نفسه أو أهله، أفضل عند الله وأكرم من أي جندي يقتل دون وجه حق، لأن الإسلام لا يقبل قتل النفس التي حرّم الله إلاّ بالحق، ولا أظن أن دهس مدرعات الجيش للمتظاهرين يمكن أن يكون حقًّا. خامسًا: عليك قبل الحديث عن قيمة المسيحي في الإسلام، وهل يكون شهيدًا أم لا، أن ترى مَن المجرم ومَن الضحية، ثم تنصف المظلوم ولو كان كافرًا، وتعاقب الظالم ولو كان مسلمًا، ولا تخرج عن قضية القتل العمد للمسيحيين إلى قضية "خايبة" هي قضية "هل يُعتبرون شهداءَ أم لا"، لأن في هذا تفريغًا للموقف من حقيقته".

-"أولًا: أنتِ من فرّع القضية لأنني أرد على كلامك باعتبار ضحايا مذبحة ماسبيرو جزءًا لا يتجزأ من شهداء ثورتنا، وبعدين الشهادة أو الدين ليسا بالظن وإنما بالنقل، كما أن الشهادة كانت موجود قبل الإسلام لمن كان على الحق فقط، والآن لا حق إلا مع الإسلام".

-"يا أخي اتقِ الله، كيف تقول "لا حق إلاّ مع الإسلام" وكثير من المسلمين على باطل؟ وكيف تقول لا حق إلا مع الإسلام وقد مات من أجلك ومن أجل نفس أهدافك غير مسلمين؟

أنا بالفعل أعتبرهم من شهداء ثورتنا، لأن ثورتنا لم تكُن حربًا من المسلمين ضد الكفار، بل كانت ثورة من مظلومين مسلمين ومسيحيين، ضد ظالمين مسلمين ومسيحيين أيضًا".

-"أنا بقول لا حق إلا مع الإسلام وليس إلا مع المسلمين، أنا بتكلم عن الإسلام وأنتِ بتكلميني عن المسلمين، وأكيد اللي مات من غير المسلمين دفاعًا عن قضية ليه ثوابه وجزاءه، لكن لا أعتقد أن له الشهادة، أنا أختلف معك في توصيفهم بالشهادة ليس إلا".

-"أولًا: الموقف اللي بنتكلم فيه هو موقف أفراد، يعني مسلمين ومسيحيين، فإذا قلت"لا حق إلاّ مع الإسلام" فأنت تؤيد بهذا موقف المسلمين. ثانيًا: الشهادة في معناها الأصلي تعني كل مَن مات من أجل قضية حق، ومعناها الاصطلاحي هو ما تعنيه هنا، والمعنى الاصطلاحي دائمًا يخرج بالكلمة من رحابة معناها إلى ضيق ما استُخدمت من أجله. ومثلها كلمة "الإسلام" التي تعني التسليم لله، التي أصبحت تعني نطق الشهادتين، إلخ. ومثله كلمة "المرحوم" التي تعني في معناها الأصلي كل كائن حي لأن رحمة الله وسعت كل شيء، ولكن الاصطلاح جعلها تعني الميت فقط. ولكن في كل الحالات، يبقى المعنى الأصلي أعمَّ وأشمل من المعنى الاصطلاحي".

-"أنا شايف إن احنا دخلنا في قضية لغوية فرعية لكن أنا عند كلامي بأني (أعتقد بأنهم ليسوا شهداءً)".

-"لا يا فندم، دي مش قضية لغوية أصلًا، دا الواقع، الاصطلاح يطغى على المعنى الأصلي للكلمة في كل شيء، مش في اللغة بس. فلو كنت تعتقد إنهم مش شهداء لقضيتهم، فأنا مختلفة معاك تمامًا، ولو كنت تعتقد إنهم مش شهداء مسلمين، فدا طبيعي لأنهم مش مسلمين".

-"أنتِ إيمانك مخلخل ومنهار، وعقيدتك فاسدة لا صلاح لها.. الله ينتقم من أمثالك".

ثم.. هوب.. البلوك المتين!

تجمدت لدقائق، وبذهول تامٍ رددت: "يا ابن الوسخة!"

ومنذ تلك الساعة أيقنت أن لا جدوى من التواصل مع هؤلاء، فمشكلتهم ليست الغباء فقط، بل انعدام المشاعر وموات الضمير. يتركون الدم يسيل ثم يتساءلون إن كان صاحبه شهيدًا أم لا؟!، ويجهدون أنفسهم في التساؤل: "هو هيدخل الجنة عشان مات من أجل قضية، ولا هيروح النار عشان هو مسيحي؟"، حاشرين أنفسهم حشرًا في غيبيات يعلمها الله وحده، والذي قرروا أنهم وكلاؤه على الأرض غصبًا واقتدارًا.

مظاهرات، شجارات، مشادات، عراك واشتباك بالأيدي مع بعض المنتقبات، هكذا مرت تلك الفترة المشئومة من أكتوبر عليّ، أكتوبر الذي أحبه كثيرًا لكن البهجة كانت عليّ حرامًا فيه بعد كل هذا الدم.

وعاد الشعور بالكراهية ورفض الواقع يستولي عليَّ..

بدأت كراهيتي لمصر تزهو وتفور كأعنف ما يكون، كرهت الأعين المصرة على العمى عن رؤية أوضح الأمور، ومعرفة الحق والإصرار على عكسه.. مواقف جعلتني أختبر عصور الجاهلية، ورفض قريش لاتباع الدين الجديد المخالف لما وجدوا عليه آباءهم وأجدادهم!

لقد صرنا نعيش في مرتع الوساخة الأول في العالم يا ندى.

لا أطيق صبرًا على مغادرة مصر، لكن لي ثأرًا معها، أريد إيذائها بقدر ما آذتني، أريد أن أحرق دم هؤلاء الذين يحرقون دمي، أريد أن يفهم الجميع ما يحدث، أريدهم أن يفكروا، ما الذي يضير من التفكير؟ لماذا يعتقدون أن الله منحنا العقل إذا كان التفكير حرامًا؟ أي تفكير هذا الذي قد يكون حرامًا وقد حثنا الله على التأمل وإعمال العقل؟!

لماذا يخضع المصريون لأصنام المفترض أنهم يعتنقون دينين لا يقبلان بها؟ لماذا تبدو مهاجمة الشيخ فلان أو علان لأخطاء ارتكبها أو تصريحات غبية تفوه بها، كفرًا وتجديفًا يستحق صاحبه أسوأ أنواع التنكيل والتشهير؟ ما الذي يمنح أحد مشايخ السلفية الذين يبثون السموم في عقول البسطاء حصانة ضد

مهاجمة أخطاءه؟ في الوقت الذي يهاجم فيه أي تفكير مستنير بضراوة؟ لماذا تُهاجم نوارة نجم بسُبة شهيرة هي (بنت الحشاش) ونصف المصريين يدخنون الحشيش؟ ولو فرضنا أن هذا صدق، فلماذا تُسب بذنب أبيها من الداعين لدين ينص على أن (لا تزر وازرة وزر أخرى)؟ ولماذا يقال إن باسم يوسف فاجر عدو للإسلام لأنه يعمل في قناة يملكها شخص تصادف أنه مسيحي؟ هل كان سيصبح داعية للخيرات لو قال نفس الكلام في قناة أخرى يملكها مسلم؟ ماذا عن بلال فضل الذي كفروه علنًا؟ وأسامة غريب الذي يسبونه ليلًا ونهارًا؟ وخالد البريّ الذي يسخرون من شَعره بوصفه (بني آدم كانيش)؟ ويتجرأ أحد السفلة على التعليق على مقال بديع له بعبارة (نفسي أشوفك راجل)، لأنه هاجم أحد أصنام السلفية!

أريد أن أحرق مصر كلها يا ندى!

لماذا لا يمنحني الله القدرة على غسل العقول لأستريح من هذا الجنون؟! لو كانت لي تلك القدرة لبذلت حياتي في تعديل أدمغة كل هؤلاء الحمقى. أعرف أن الحق ليس بالضرورة ما أراه أنا حقًّا، لكنني على الأقل سأغسل أدمغتهم لأمنحهم النعمة الإلهية المُسماة الاعتراف بالحق، وشجاعة التراجع عن الخطأ.

آآآآه!

لا أصدق أنني سأعود للاهتمام بهذا المجتمع المزعج مرة أخرى، لكنني أشعر أن دينًا معلقًا بعنقي يجب أن أفي به، فلو كنت ذكية بما فيه الكفاية لأفهم أن نظامًا فاسدًا كالذي حكم مصر لعقود يستحيل أن يسقط في ثلاثة أسابيع، وبقيت وحاولت أن أجعل الآخرين يبقون في الميدان بعد تنحي مبارك، لو بذلت جهدًا لأجتمع والثوار على هدف واحد، ونفرض كلمة واحدة تطالب بمجلس رئاسي ثوري يدير شؤون الثورة، لو كنت قد فعلت هذا ما وقعت كل تلك المجازر التي تلت رحيلنا من الميدان. ما كان الاعتصام الباقي فُض بتلك الوحشية في 9 مارس، وما كانت سميرة إبراهيم تعرضت وزميلاتها لجريمة كشف العذرية المروعة، لم يكن ضباط 8 إبريل سيحاكمون لتهم باطلة، وما كانت مجزرة السفارة الإسرائيلية ومسرح البالون والعباسية وماسبيرو ستتم. أنا وكل من صمتوا وتجاهلوا الثورة باعتبار شبابها مزعجين راقتهم لعبة المظاهرات والاعتصامات، وأخذوا يندبون حظ مصر التي توقفت عجلة إنتاجها المزعومة رغم أن كل شيء في حياتهم يسير على ما يرام، أنا وكل من فعل مثلي معلق بأعناقنا دماء عشرات من الشباب البريء يا ندى، لهذا أنا مستميتة من أجل

أن أفعل شيئًا، حتى لو كان هذا الشيء شجارصا حادًا مع أحد "خواجات" اللجان الإليكترونية، سواء التابعة للفلول أو لأصنام العصر الحديث ذوي المكانس.

رغم الوقت الضائع في تلك المهاترات، فإنني لا أستطيع منع نفسي، فإن لم أستطع دحض حججهم الغبية فعلى الأقل سأكدر حياتهم، ولن أتركهم يبثون سُمَّهم في نفس شخص بدأ اليأس يتسلل إليه ويجعله على وشك الاستسلام.. يجب أن يعلم الكل أن ثورتنا مستمرة، وأنه حتى وإن تهاون الإخوان الذين لا خلاق لهم، والتلفيين الذين اعتنقوا مبادئ مكيافيللي ببراعة يحسدون عليها، في المطالبة بحق الشهداء، فسيبقى في مصر ملايين الشباب الذي لا مصلحة له ولا غرض إلا العدل، شباب صغير السن حقًّا لكنهم فهموا بفطرة نقية ما لخصه أمل دنقل في عبارة عظيمة لن تسقط بالتقادم: (لا تصالح على الدم حتى بدم).

لديّ كراهية كبيرة يجب عليّ أن أفيها حقها، ودينًا يجب أن أسدده، وربًّا يجب ألا أترك حفنة أغبياء تشوه صورة دينه الحنيف، أشياء كثيرة يجب أن أفعلها يا ندى، وما كنت لأدرك أهميتها لولا شاب يماثلني عمرًا، جاهد دون يأس، وكانت ابتسامته نورًا يهتدي به عشرات من أصدقائه في ظلام طويل، لم يستسلم بعدما تخلى الجميع عن الثورة، وظل مُصرًا على الانحياز لها قبل أي شيء آخر؛ لأجل المستقبل الذي سيجني ثماره هذا الشعب الذي اتهمه وزملاءه بالبلطجة، وحين استشهد لم يصرخ شخص لينصر قضيته العادلة، بل صرخ لينزع عنه لقب الشهادة متوعدًا إياه بالجحيم ولعنة الله.

لقد عدت إنسانًا مرة أخرى يا ندى، والفضل في هذا عائد لبراءة ابتسامة شاب صغير جميل اسمه مينا دانيال.

هبة

20 أكتوبر 2011

اليوم التاسع عشر

دقات قلب أورفيوس

صديقتي العزيزة ندى

مرت فترة طويلة وطيف إيتشيرو يهت في عالمي، يصير شبحًا غير واضح المعالم، لا ألمحه ولا أراه إلا نادرًا، قليلًا ما أتذكره، وإذا فعلت أخطط لشيء أزعجه به دون أن يبدو هذا متعمدًا، كنت مستمرة في إيذائه يا ندى ولم أكتشف مدى فداحة هذا الإيذاء إلا متأخرًا جدًّا.

كنا في نهاية أكتوبر حين تعرض إيتشيرو لوعكة صحية شديدة، غير أن أفظع ما حدث هو أنني اكتشفت هذا بالصدفة، كان يتجنبني ليترك لي مساحة شخصية كافية، وأنا باردة فاترة ساردة في تباعدي، فلم أعرف بمرضه إلا حين استيقظت ليلًا لأشرب فوجدته فاقد الوعي على أرض المطبخ، والدم ينزف من أنفه.

داهمته حمى عنيفة لازمته يومًا وليلة، وأمضيت الوقت أضع له الكمادات الباردة، وأضغط صدره المنتفض بالوجع، وأصغي لهمهمة لا تمت لأي اللغات بصلة، ومن حين إلى آخر أسمع اسم "شيوري" البغيض فيُعتصَر قلبي، وأراجع تعليمات الطبيب للعناية به، ثم أغيّر الكمادات بأخرى أكثر برودة، وأسمع فحيحه المتأذي من ملمسها.

بهدوء بدأت حرارته تخفت، وهدأ تشنج عضلاتي الذي أورثني ألمًا في جانبيَّ وأسفل وظهري، وتباعدت فترات تغيير الكمادات فرحت أتأمل الغرفة التي لم أدخلها منذ سافرنا الإسكندرية، وبدت لي حميمة بشكل مريح، وجوار الفراش من الناحية التي ينام عندها إيتشيرو إطار لم أره من قبل فيه صورة طريفة لنا أخذناها عند قلعة قايتباي. كان المدى الأزرق اللا نهائي يمتد خلفنا، والسماء تزينها سحابة متألقة حوافها بضوء الشمس، أنا ألوح بيديّ للكاميرا بسعادة وهو خلفي، ذراعاه ملتفتان حول وسطي ورأسه جوار رأسي لكنه ينظر لي ويبتسم، جعلتني ابتسامته جعلتني أفكر في صباحات مشمسة عديدة استقبلناها بقبلات ناعسة في فراشنا، هنا.

وكالمخدرة ملت نحوه، قبلت جبينه ثم وضعت خدي عليه، بقيت هكذا لحظات طويلة، ليس من أجله بل من أجلي أنا، كانت أنفاسه المنتظمة تلامس

عنقي فتثير بي قشعريرة غير معهودة، أمل، خوف، تردد، احتياج، ألم، ووخز عميق احترت في تسميته حتى أدركت –وكأنني أستيقظ فجأة- أنه الحب!

كان الإدراك بطيئًا لكنه عميق، كمن يكتشف بعد ضلال طويل أنه يؤمن حقًّا بشيء انتظره طوال حياته دون أن يعرف ما هو.

بقيت على هذا الوضع لا أستطيع حراكًا، أردت الاقتراب أكثر لكن قبضة الكبرياء أحكمت نفسها حول قلبي، واستمر هذا القلب يتمرد ويطالب بالاقتراب، لم يبد أن لهذا الصراع نهاية حتى تحرك إيتشيرو، حرر ذراعه اليسرى وأحاطني بها، ثم سقطت وهي لا تزال ملتفة حولي، جعلني دفئها المألوف أشعر باسترخاء طال افتقاده، وضعت خدي فوق خده وأغمضت عينيّ، خدرت رائحة بشرته المألوفة أعصابي فلم أشعر بنفسي.

-"هبة..".

وانتفضت لسماع اسمي كأني ضبطت في وضعٍ مخل.

طار النوم من عينيَّ أمام نظرته المتهالكة، وتحسست بشرته فكانت مريحة البرودة. تمتمت برفق: "واصل النوم، إيتشيرو.. ستكون بخير".

تشققت شفتاه الجافتان إذ انفرجتا، قال: "اخرجي معي في موعد".

-"هه!"

-"اخرجي معي، سأجعلك تقعين في حبي مجددًا".

كان بائسًا إلى حدٍ كسر قلبي، وأردت القول: "أنا لم أتوقف عن حبك قط"، لكن لساني اللعين سأله: "من تكون شيوري؟"

رمش بعينيه، تمتم: "أمي".

أحسست بتوقف لحظي في قلبي. سألته: "شيوري تشان هذه هي نفسها أمك؟"

هز رأسه تعبًا، وكرر: "اخرجي معي".

واصل لساني اللعين تجاهله: "هل من المنطقي أن ينادي المرء أمه باسمها وهو نائم؟"

-"كنت أناديها باسمها دومًا.. كانت صديقتي الوحيدة، وصغيرة السن كأنها أختي الكبرى، ولم تعاملني قط كأنني ابنها، لقد حسدت نفسي عليها في كل يوم من عمري".

-"وأين هي الآن؟"

كنت أتوقع الإجابة، ورغم هذا آلمتني بعمق: "ماتت".

استسلامه الخاوي منحني فكرة عن الوقت والمعاناة التي مر بها ليستطيع تقبل تلك الحقيقة، وتذكرت مكالمة أبيه فارتج قلبي بوجعٍ عميق. أمسكت بيده دون مكابرة، واحتويت أصابعه العاجزة عن التشبث بيدي.

طال إغماضه لعينيه فظننته نام، لكنه فتحهما بتركيز ونظر إليَّ مباشرة: "غرقت أمامي.. هي التي علمتني السباحة وشجعتني على احترافها. وأنتِ أيضًا كدتِ تغرقين أمامي يا غبية.. سقطتِ في البحر على بعد أمتار مني دون أن تناديني. مهما كان الألم الذي مررتِ به بسببي، ويصدك عني الآن، فلن يقارن بإحساسي وأنا أخرجك من الماء".

-"إيتشيرو، أنا آسفة لخسارتك".

-"ومثلك أيضًا، كانت غبية، تصلي وتدعو، غير أن الإيمان لم يحمها من ميتتها البشعة، فأي نفع فيه إذن؟"

-"إنها الآن في الجنة".

-"لا أريدها في الجنة، لقد أردتها معي وحسب".

مسحت على شعره حتى لان ألمه، وأغمض عينيه وراح في النوم، وعندما استيقظ في آخر اليوم لم يبد متذكرًا تلك المحادثة. كنت أكثر لطفًا وودًا، وكان كئيبًا كما يليق بمحمومٍ منهك، وأطعمته على مضض وهو ينظر بعيدًا في بؤسٍ طاغٍ. اتصل بيننا صمت عميق هادئ، واستشعرت تضاؤل النقطة السوداء في قلبي نحوه، وتزعزعت كل رغبة راودتني من قبل في إيذائه؛ بعد ما أخبرني به عن شيوري أصبح لتمسكه المجنون بي معنى أعمق بكثير مما حسبت، ووضعت هذا العامل ضمن قائمة العوامل التي تجعلني أتفهم سبب تصرفه بغباء الغيرة والتملك.

هل سبق وشعرت بشيء كهذا يا ندى؟ بالغضب من شخص آذاك، مع القدرة على تفهم أسباب ما فعل؟ لا أشعر بأي غرابة عادة عندما أتقبل رأيي

ورأي شخص آخر مع تفهم أسباب تعارضهما، ولكن أن أتفهم أفكارًا قادت لإيذائي مع العجز عن غفرانها فهذا ما أوجعني بالحيرة ليالٍ طويلة. سحقتني رغبة كاسحة في احتضانه، ورغبة أشد عمقًا في الشعور بيديه حولي، لكنني لم أتحمل فكرة الإقدام على هذا، كأن جدارًا غير مرئي قائم بيننا.

لا أعرف كيف أهدم هذا الجدار، ربما لهذا وافقت على مواعدته حين تماثل للشفاء؛ لعلي أستطيع استرداد هبة المُحبة التي تتحرك حياتها في محور يدور حوله، كأنها كوكب يدور حول نجم.

وخرجنا إلى مقهى جميل أحبه، وطالما أسرتني إضائته الخافتة، ورائحة القهوة المخدرة السارية في الجو لترخي الأعصاب المشدودة كقلوع السفينة، طلب لي قهوتي الإيطالية المفضلة فجاءت لي وفوقها طبقة كثيفة من الرغوة.

بمجرد أن كففت عن النظر حولي ونظرت في وجهه ابتسم لي إيتشيرو، شعرت أن ابتسامته تلك غابت عني دهرًا، وأمسك بيديّ عبر المائدة وقال: "أنت جميلة للغاية اليوم، هبة تشان، كنت دائمًا كذلك، وستظلين إلى الأبد أجمل فتاة رأيتها، والوحيدة التي أحببتها".

توترت أصابعي بين يديه، لا قلقًا كما توهمت لحظة، ولكن –لدهشتي- خجلًا. زاد إيتشيرو من ضغطه على يديّ وأصبح صوته أكثر صدقًا وهو يقول: "أعرف أننا نمر بأزمة، لكنني أريد أن أتكلم معكِ وكأن شيئًا لم يحدث، لأول مرة أتمنى لو كنا نتكلم لغة واحدة لأخبرك كم أحبكِ، لأعبر لك عن عمق هذا الحب الذي لا تصفه كلمات، أريد أن أخبركِ أنكِ تملكينني تمامًا كأنني جزء منكِ، وأنك جزء مني لا أستطيع الاستغناء عنه إلا لو استغنيت عن قلبي، أريد أن أخبرك كم كنت ضائعًا وتائهًا حتى وجدتكِ فأنرتِ لي ألف طريق، وأريد أن أخبركِ أنكِ يومًا ستكونين عجوزًا وضعيفة، وربما قبيحة، لكنني سأبقى دائمًا أحبكِ كما أحبكِ الآن، وكما أحببتك دائمًا".

أومأت برأسي عاجزة عن أي رد.

بادرني دون مقدمات: "لديّ مشكلة، وسأقدر دعمك لي فيها".

-"أي مشكلة؟"

-"يجب أن أسافر قريبًا".

-"تـ.. تسافر؟!"

-"نعم".

-"ألهذا جئنا هنا؟ أهذه هي طريقتك في توديعي؟"

ضغط يدي وقال ببساطة: "هبة، لا يستطيع أحدنا هجر الآخر".

نظرت في عينيه فهدأت نبضات قلبي الموجوعة، أردت أن أبكي وأحتضنه، لكن الجدار المرئي اللعين ظل قائمًا بيننا، وربما شعر به إيتشيرو، ربما لهذا لم يحاول مواساتي إذ أخرجت منديلًا وجففت دموعي قبل أن تغادر عينيّ.

-"يجب أن أكون في كوريا مطلع فبراير المقبل لأجتاز آخر اختباراتي، ثم أعود إلى اليابان لأصفي بعض القضايا العالقة مع عائلتي، وسيقتضي هذا سفري قبل الخامس والعشرين من يناير لتفادي أي إلغاء للرحلات كما حدث من قبل، لهذا سيتوجب عليك أن تتخلي عن فكرة المشاركة في تلك الثورة القادمة لنسافر معًا، أما لو اخترت البقاء فسوف أطلب منك وعدًا قاطعًا بأنك لن تغادري المنزل حتى لو اشتعلت مصر كلها".

ابتسمت لنبرة الغل في آخر عبارة، وكأنه تذكر ما جعلته يمر به من قبل.

-"سآتي معك".

دهش وكأنني نطقت بأكثر الأمور استحالة، واستوثق: "أحقًّا؟"

-"بالتأكيد، فأنا لا أستطيع قطع هذا الوعد، ولن أتركك تسافر وحدك...".

تجمدت عبارة "لأنني سأفتقدك" على لساني لكنه حلَّقت في الأجواء بوضوح، وأحنقني هذا أيما حنق. قلت: "لقد صرت مهملًا في صحتك".

قبل أن أرشف القهوة رأيته يتطلع لي بنظرة لطيفة ملائكية، سعلت وكدت أسكب الفنجان لولا أني تماسكت، ودق قلبي بعنف.. ماذا؟ ما هذا الوجه الذي ينظر إليّ به؟!

سألته بحدة: "ما هذه النظرة؟"

هز رأسه واتسعت ابتسامته، قال:"لا شيء، فاجأتني إجابتك وحسب، ظننتك ستعارضين الفكرة خصوصًا وأنك تتطلعين لتلك الثورة بشوق".

-"أي ثورة التي أتطلع إليها بشوق واحتمالات سقوط ضحايا خلالها قائمة؟"

هكذا زمجرت فأجفل، اتسعت عيناه لكنه ظل يبتسم، قلت بحدة: "كل ما في الأمر أن مستقبلك عندي أهم من أي شيء. هل كنت تريد أن أعتذر لك وأطلب منك أن تسافر وأتفرغ أنا للعمل الثوري؟ هل تريد إصابتي بالجنون؟"

أشار بيده مهدئًا وقال بابتسامة كوميدية: "أنتِ لن تصابي به أبدًا، هبة تشان".

"....لأنك مصابة به بالفعل"، هذا ما أحجم عن قوله لكنني فهمته، ولهذا زمجرت مرة أخرى وعدت لقهوتي، لم أنظر إليه كي لا يقع لي حادث ما بنظرة أخرى.

تنحنح وقال: "بما أننا نتحدث عن المستقبل...".

ومد لي يده ببطاقة لامعة مطبوع عليها باللغة اليابانية كلمة خفق لها قلبي... JLPT...

-"هذا رقم جلوسك في اختبار الكفاءة في اللغة اليابانية، المستوى N2، لقد ذهبت وسجلت اسمك في أثناء..... حسنًا، لقد سجلت اسمك منذ فترة، وحصلت على هذه البطاقة أول أمس. الاختبار سيكون في الرابع من ديسمبر، وإذا اجتزته بنجاح فستكونين قادرة على تدريس اللغة اليابانية، إنه مستوى متقدم جدًّا".

رددت كالمذهولة: "N2".

-"أعرف أنك كنت تتطلعين لN1، لكنني لم أشأ الضغط عليك في الفترة الحالية، بقدر معقول من الدراسة ستجتازين هذا المستوى، واتركي المستوى الأول للعام القادم، فالرموز الصينية في تلك المرحلة ستكون أصعب مما تتوقعين".

-"إيتشيرو.. هذا كثير، شكرًا لك".

أخرج علبة مجوهرات صغيرة من جيبه، والتمعت على بطانتها الداخلية سلسلة ذهبية بها قلب صغير انعكس عليه الضوء الخافت ببريق خطف قلبي.

وضع العلبة في يدي، وطوى يديه فوقها. قال: "إنه قلبي، هبة تشان، أتمنى أن تقبلي به للمرة الثانية".

نظرت له بابتسامة حائرة، قال: "اليوم، يكون عام قد مر على لقائنا الأول".

-"شكرًا، إيتشيرو، إنها جميلة جدًّا".

-"أنا سعيد لأنك قبلتها، فمنذ رأيتها تمنيت أن أراك بها، فقط".

براءة عبارته جعلتني أتساءل إن كان قد قصد ما فهمته أم لا، ولم يمنحني بادرة تدل على أنه قصد تلك الدعابة الجريئة، أم لعلها دعوة؟!

الفكرة جعلتني أناديه بغيظ: "تاكاهاشي إيتشيرو!"

قطع حديثه مع النادل منزعجًا، سألني: "ماذا؟"

كان أكثر براءة مما توقعت، قلت: "لا شيء، ظننتك تريد أن أزور قبرك غدًا".

كانت سهرة لطيفة عدت منها وأنا في غاية السعادة، ولم يعكر سعادتي تلك سوى وخز ضئيل في قلبي عندما قبل جبيني فور دخولنا البيت، وهمس لي: "شكرًا لأنك خرجت معي".

ابتسمت عاجزة عن الرد، وأخرج هاتفه لتبدأ أغنية لم أعرفها، تصاعدت ألحانها سريعًا ليأتيني صوت ميانو مامورو فصرخت. تعلقت بعنقه وصحت: "الأغنية الجديدة!!"

-"نعم، أورفيوس".

-"أنت رائع.. أنت عظيم".

رفع يدي وأدارني حول نفسي، وجلجلت ضحكتي لأول مرة منذ زمن عندما أخذني بين ذراعيه، وانطلقنا في الرقص مع الأغنية.. ولأربع دقائق ونصف خلا العالم من كل هم، ومُحيت كل ذكرى مؤلمة، وتلاشى كل حزن. رقصنا مع الأغنية مرارًا، ومع كل إعادة تنطلق روحانا أكثر، وتزداد سعادتنا رسوخًا، حتى بلغنا درجة من السعادة لم يكن بعدها سوى أن نتوقف لنلتقط أنفاسنا، وفعلنا، بمجرد أن انتهت النغمة الأخيرة كان إيتشيرو يستقبلني في حضنه ويطبق ذراعيه حولي، أنفاسه متهدجة مثلي، سعادته تماثل سعادتي، في روحه ذلك الاضطراب الممتع لنشوة بلغت ذروتها. لفنا الصمت الجميل لحظات ثم ابتعد وهو لا يزال يمسك بذراعيَّ، ونظرت له بعاطفة كبيرة لم تصمد أمام عاطفته هو، تمنيت لو ينطق بكلمة واحدة سحرية تبدد ما حدث، وتجعلنا نعود بالزمن إلى لحظة تلي لحظتنا الفردوسية وسط البحر، ليصبح كل ما حدث بعدها وهمًا لا وجود له.. تمنيت أن يفعل أي شيء مجنون يأخذني من نفسي الجديدة القاسية التي لا أعرفها.. تمنيت وملأني الأمل لأنني رأيت اضطراب مشاعره في عينيه، وملأني شبه يقين أن مشاعره ستهزمه، لكنه –كالعادة- كان أقوى مما ظننت، خفض رأسه لحظات فأخفى شعره وجهه عني، فلم أر كيف سيطر على بركان عواطفه، ولكن عندما نظر إليّ مجددًا كانت نظرته دافئة كعادتها، في أعماقها اعتذار أحجم عن النطق به لئلا يشوه تلك اللحظة بالأخرى المشئومة التي حطمتنا.

طغى على نظرته حب جارف كاد من حرارته يذيبني، ووضعت يدي على خده فمال كعادته ليتوسدها، تنهد وتنفس عميقًا ثم قبل كفي.

قبلني على خدي، قال: "ليلة سعيدة، هبة تشان".

وبطريقة غير متوقعة تركني، دون حتى أن يمنحني الفرصة لرؤية وجهه، اتجه إلى غرفتنا الأولى وأغلق الباب خلفه. فتململ في قلبي ألم وأسى وتأنيب ضمير، وللحظات شعرت بثقل الوحدة حتى كدت أناديه أو ألحق به، لكن شعورًا غبيًّا كبّلني في مكاني.

على أن علاقتنا صارت أفضل بقليل بعد هذا، فرغم استمرار الجدار الشفاف في حجبي عنه، إلا أنني لم أعد عاجزة عن الابتسام في وجهه، وهو لم يعد حذرًا في الاقتراب مني، كان يربت على رأسي أحيانًا، أو يقبل جبيني كقطة مدللة، وبرغم أن هذا يتفق مع ما طلبته منه إلا أنه كان يغيظني قليلًا.

اقترب عيد ميلاده، وخططت لمفاجأة تطيح بعقله، ولكن قبل يومين من احتفالي قررت شرطتنا وجيشنا العظيم إهدائي احتفالًا آخر أكثر إثارة، واندلعت مجزرة شارع محمد محمود.

يومها كان إيتشيرو في السفارة وأنا في البيت أذاكر، وبنظرة عابرة للإنترنت فوجئت بالكارثة التي تحدث في ميدان التحرير، كنت أتوقع كارثة في يناير لكن ليس الآن.

غادرت البيت خلال دقائق، وكان مئات غيري قد سبقوني إلى الميدان، ويتوافد مئات آخرون، وشحن الغضب الأجواء، والثوار يردون على الشرطة بسلاحهم الوحيد: الهتافات المدوية، المهينة والساخرة، وشرعوا في إغلاق شارع محمد محمود بجسارة، بعد هجوم ضارٍ جعلني أشعر أن مغاوير داخليتنا الموقرة يحاربون جيش إسرائيل.

ظل هاتفي يرن كالمجنون لكنني تجاهلته، كان بعضها من رفاق الثورة، لكن أغلبها كان من إيتشيرو.. تهيبت من الرد في البداية، ثم فعلت عندما بدأت رسائله تنهمر.

كان أول ما نطقه: "عودي إلى البيت، هبة".

"عودي إلى البيت" لفظة واحدة فقط نطقها بصوت صارم أصابني بقشعريرة خوف، ولكن الغرابة كانت الفكرة التي داهمت عقلي هي: كيف

تمكنت اللغة اليابانية –لغتي الثانية الحبيبة الرقيقة- من هذا الاختصار المرعب؟!

تهت لحظات مع فكرتي العجيبة ثم انتبهت، وسمعت صوتًا مدويًا من بعيد فعنفت نفسي.. كيف أشعر بالخوف منه أكثر من الموت والخطر المحيط بي؟!

-"لن أفعل".

بتصميم يضاهي تصميمه أجبته، كرر ما قال فكررت إجابتي، فأغلق الهاتف في وجهي.

تنفست لأسيطر على ضربات قلبي، وتظاهرت بأنني على ما يرام، هذا أفضل.. لقد عدنا لنقطة الصفر مرة أخرى.

تكوَّن المستشفى الميداني سريعًا بعد ارتفاع الإصابات، كان أكثر الأطباء مختلفين عن رفقاء يناير، لكن تعاوننا كان ممتازًا وقاتلنا بكفاءة لإسعاف المصابين، واستمر سقوط قنابل الغاز المسيل للدموع طوال المساء كأننا في حرب، فاستعنا عليه بأقنعة الخل، ولكن بدأ الأمر يفلت من أيدينا، وسقط بيننا عشرات المختنقين، وراقبت الأطباء يفقدون أعصابهم واحدًا تلو الآخر مع استمرار تدفق المصابين.

سألت محمد عبد الواحد بقلق وأنا أختلس النظر إلى مدخل المستشفى: "تفتكر ممكن يهاجمونا هنا؟"

-"لا ماظنش، صحيح إنهم ولاد كلب بس مش لدرجة ضرب مستشفى. هاتي الأكسجين".

تعاوننا على تركيب القناع لصبي مراهق أصابه الغاز بتشنجات مرعبة، ثم جاء المتطوعون بآخر في غيبوبة كاملة، وقبل أن ننادي طبيبًا وضع آخرون شابًا ثالثًا، نظرت حولي باحثة عن مساعدة فلم أجد أحدًا متفرغًا.

تمتم محمد متوترًا: "الغاز ده مختلف.. شكلهم غيَّروا الغاز".

-"يا أخي بطَّل تشاؤم! مش وقتك يا محمد!"

ووقفنا وسط المستشفى نراقب أكثر من خمسين شابًا جاء بهم المنقذون وهم في حالة يرثى لها، معظمهم أفاق بعد إسعاف سريع، ولكن بمرور الوقت

ازدادت الإصابات حدة، وقال أحد الشباب وهو يفيق من إغماءه: "ضربوا غاز جديد، ريحته مقرفة أكتر، والخل بيزوِّد مفعوله".

أسقط في يد محمد إذ تأكَّد تخمينه، ولأول مرة رأيت في عينيه نظرة من فوجئ بحصاره في ركن ضيق. تمتم: "احنا لازم نخلي المستشفى، بالشكل ده هيكسبوا أرض ويقربوا منّا بسرعة".

-"أنت مش لسة قايل...".

بووووم!

دوى الانفجار على بعد أمتار، وعمَّ الهواء غاز كثيف رائحته لا تطاق، كتمت أنفاسي بالكوفية وركضت كالعميان نحو الفتى المراهق وسحبته من تحت إبطيه صوب مخرج المستشفى الآخر. ألقيته إلى الشارع وأخذت نفسًا متوسط النقاء ثم عدت لبحر العمى، واصلت سحبي لمن استطعت إليه سبيلًا وأنا مغمضة العينين مكتومة الأنفاس، متخبطة في عشرات يفعلون مثلي لإنقاذ المصابين فاقدي الوعي من الموت اختناقًا بالداخل.

سمعت صراخ محمد، وتوجيهات طبيب آخر، ولم أصغ لهما في غمرة كفاحي لبلوغ الهواء. لا شيء أكثر وحشية من أن تفقدي الرؤية وتسلبي الحق في التنفس يا ندى، لا شيء.

أخلينا المستشفى الميداني فتركت الكل وجريت صوب الميدان، خارت قواي وعيناي تحترقان بألم لا يحتمل، وتقيأت من هول طعم الغاز الذي ترسَّب في حلقي، وحملتني أيدٍ مكترثة لتجلسني وتجفف فمي، وطبطبت عليَّ برفق، ثم غُسل وجهي برذاذ مريح تسلل إلى عيني محاولًا السيطرة على احتراقها. ردد منقذي مرارًا: "افتحي عينيك عشان الدموع تنضفها، لو قفلتيها هتتعبي أكتر".

كنت أعرف هذا لكنني عجزت عن التنفيذ، وبعد قرون هدأ احتراق عيني لدرجة جعلتني أفتحهما، فغسلهما منقذي بقطرة ملطفة، وتركني بعدما شكرته دون أن أراه.

انتقل المستشفى إلى مسجد عمر مكرم، وحتى ظهر اليوم التالي لم يخف توافد ضحايا الغاز الجديد. في التاسعة صباحًا توصلنا إلى دواء يحد من أثره عند إذابته في الماء، ولكن بعد ساعات نفد الدواء من صيدليات وسط البلد

كلها، أهذا بسبب كثرة الطلب عليه أم أن هؤلاء الكلاب سحبوه من السوق؟! لا أعرف.

خلال ساعات توصلنا إلى حل جديد، كانت الخميرة المذابة في الماء تقضي على تأثير الغاز بشكلٍ ممتاز، وجربناه جميعًا محتفلين بهذا الانتصار، ثم خرجت مع محمد عبد الواحد إلى مدخل شارع محمد محمود لنكون وحدة إسعاف مصغرة للإصابات البسيطة، شاعرين بثقة أكبر ونحن نضخ رذاذ المحلول السحري الجديد في وجوه العائدين من جحيم الحرب الدائرة بالداخل.

قال محمد: "تقريبًا كده الفقرة الوسخة هتبدأ".

استغربت استخدامه للشتائم، سألته: "فقرة ايه؟"

-"الرصاص والخرطوش".

-"يا أخي فأل الله ولا فألك".

-"ياريت".

هدأت المعركة قليلًا قرب المغرب، وعدنا لمسجد عمر مكرم متأهبين لفترة هدوء وراحة بعدما أنهكنا العمل منذ مساء أمس، وبدأ البعض في الاستعداد للصلاة التي سيرتفع أذانها بعد قليل، ثم اندلع الصراخ من أعمق أعماق شارع محمد محمود، سمعناه بوضوح وكأنه يتردد داخل جدران المسجد، وران صمت مرعب على الميدان كله، والتفت الآلاف صوب مدخل الشارع. للحظة بدت كتلة المتظاهرين راكدة ساكنة، لكن موجة بعيدة كانت تأتي من عند خط النار، كتلة هائلة من الشباب تجري صوب الميدان مكتسحة كل ما ومن يقف في طريقها، والصراخ يشتعل، ثم ميزنا صوت الرصاص المتتابع.

ومن خلف أمواج الشباب ميزنا موجة غاشمة تلاحقهم في أزياء مموهة، وأطبقوا عليهم من شارعي الفلكي وطلعت حرب ليحاصروهم وسط الميدان، ملأ صوت الرصاص الدنيا، وتأكدنا أن أعيننا لا تخدعنا، كان رجال الشرطة العسكرية يطاردون الهاربين أمامهم بمطرقة الرصاص وسندان العصي، فإما أن تنسف رأسك بطلقة أو تسقط لتهرسك العصى وتطحن عظامك بالأرض.

شدني محمد وصاح: "أحّا! اجري يا هبة".

بدا الكل يصرخ: "هجوم.. اخلوا المستشفى حالًا.. العسكر جايين".

عسكر! لسعتني الكلمة برنين مؤذي، وومضت أمامي صور متفرقة من مجزرة ماسبيرو، اجتاحتني القشعريرة والاشمئزاز.. ما كانت كلمة "صهاينة" لتثير في قلبي قرفًا وبغضًا كهذا!

تراجعت إلى داخل المسجد لأحزم أهم أدواتنا الطبية لكن الصراخ لاحقني: "اخلوا المستشفى بسرعة، سيبوا كل حاجة واهربوا، خرجوا البنات الأول".

سحبني محمد بقوة كاسحة، وجرر معي زميلتنا سارة ليلقينا بالخارج إلقاءً، صاح بنا: "بسرعة من الشارع ده، اوصلوا لميدان سيمون بوليفار واخرجوا على الكورنيش، خدوا أي مواصلات وامشوا من هنا".

لم تسر الأمور بالبساطة التي تمناها، فقد كان بعض العسكر قادمين من الشارع المنشود، وبصرخة رعب غيرت اتجاهي معها وانطلقنا نجري وبعضهم يطاردنا، ولحسن الحظ أننا لم نكن نحمل شيئًا، وجعلنا الذعر أسرع وأخف حركة فأخذنا دورة طويلة أوصلتنا إلى كوبري قصر النيل، ومرقنا عليه حتى لم نشعر بنفسينا إلا ونحن في الدقي.

ارتمينا على أقرب رصيف نلهث، ولفترة طويلة جلسنا كالتماثيل، ثم سرنا في الشارع بمنظر مثير للرثاء حقًّا جعل البعض ينظر لنا بدهشة، والبعض الآخر بإشفاق، وآخرون رمونا بنظرات احتقار. كنا صامتتين، الخوف يخرسنا ويتركنا فريسة هينة لخيال جامح أسود يخلق آلاف السيناريوهات الكئيبة لما يمكن أن يحدث لرفاقنا. مرت علينا ساعات من الصمت الكئيب دون أن نشعر!

العسكر! سمعت الكلمة آلاف المرات في كل مكان..

العسكر.. ضباط جيشنا، الذين حملناهم تيجانًا على رؤوسنا، ومنحناهم ثقة عمياء، هؤلاء يقتلوننا الآن، لم يكن ما حدث في ماسبيرو سوى بروفة لمهزلة ستستمر لفترة يعلم مداها الله.

العسكر.. الأعداء.. جنود جيشنا صاروا أعداءً، كيف حدث هذا بحق رب السماوات؟

عدنا إلى الميدان في الثامنة مساءً، هدأت الأجواء برحيل العسكر وتوقف الشرطة عن التقدم في محمد محمود، وبدأ رفاق الثورة يتوافدون بأعداد أعظم مما سبق. بحثت عن المستشفى فوجدته انتقل إلى كنيسة قصر الدوبارة، وفي الطريق عرفت أن العسكر عاثوا في الميدان فسادًا، وقتلوا العشرات في

اقتحامه وجرجروا جثثهم ليلقوها في القمامة. فرغ قلبي من كل شعور وأنا أتلقى الأخبار من كل مكان.

أصيب محمد عبد الواحد خلال الاقتحام، وغطت الضمادات رأسه كعمامة ضخمة وملأت وجهه الكدمات. جلست جواره ولم أتكلم، ولم يتكلم، لم يتكلم أحد.

ظهر إيتشيرو عند العاشرة مساءً، مبعثر الهيئة مبتلًا بالعرق، على عينيه نظارة سباحة عريضة لتحميها، وعلى أنفه وفمه قناعًا للأمن الصناعي يُصفّي الهواء.. التوى قلبي لرؤيته ألمًا، ثم داهمني فزع عميق إذ انتبهت إلى أنني نسيته تمامًا طوال النهار. اقتربت منه صامتة، فأمسك بيدي وسحبني لنخرج.. لم أقاومه ولم أعترض.

ظللنا الصمت طيلة عودتنا، وإذ دخلنا البيت ألقى القناع وركض إلى الحمام، وسمعت أشياء تتحطم وتسقط أرضًا فأسرعت خلفه متوجسة. كان جالسًا على الأرض وبين يده تتأرجح بخاخة صغيرة، والعرق يغمره حتى ليمكنني أن أعصر ملابسه عصرًا. ناديته فنظر نحوي مشتعلًا، وصاح بعبارة لم أفهمها، ثم مد ساقه ليصفق بها الباب في وجهي.. ودون أن أحول عيني عنه تراجعت حتى دخلت غرفتي.

أكلني الذنب أكلًا طوال الليل، وأصبحت بخبر اقتحام الأمن للميدان وارتكاب مجزرة جديدة، وحين بلغت التحرير استقبلتني قصة البطل أحمد حرارة، تناقلها الجميع بفخرٍ أول الأمر، ولكن حين استوعبناها ملأتنا الكآبة والعار.. ما هذا الذي يحدث لنا؟! ولماذا؟!

سألني محمد في إحدى استراحاتنا: "في حاجة مضايقاكِ يا هبة؟"

ذهني كان مع إيتشيرو بعكس ما حدث أمس، لكنني كذبت: "موقف الإخوان والسلفيين حارق دمي!"

-"تبقي حمارة".

-"أفندم!!"

-"لو مستنية خير من طُلاب السلطة تبقي حمارة. كبري دماغك. لو قلبهم ع الناس كانوا اتحركوا وقت ماسبيرو".

وقلب صفحة جريدته، وقال: "شوفي حرقة الدم بجد بقى.. الحكومة بتقول إن استخدامها للغاز ضد المتظاهرين مجرد شائعات".

-"أحّا!"

-"خدي دي كمان، وزير الداخلية بيقول: احنا ماعندناش رصاص حي ولا مطاطي ولا خرطوش".

-"كفاية يا محمد الله يكرمك".

-"يا ستي خلينا نضحك.. أجمد تعليق انهاردة على الفيسبوك (وزير الداخلية بيقول احنا ماعندناش رصاص، ماعندناش قناصة، ماعندناش دم)، وفي واحد نشر كاريكاتير رائع عنوانه (تعليق وزير الداخلية على وجود قناصة في جهاز الداخلية) جايب فيه صورة لمنصور العيسوي وهو رافع إيده زي ما يكون بيحلف ومركبين له بالون كلام مكتوب فيه (عليا الطلاق الداخلية ما فيها رجالة)، دخلت كتبت له (ما احنا عارفين يا معلم إن الداخلية مافيهاش رجالة، الداخلية فيها خواجات)".

تبدد غيظي مع كلمته الأخيرة وضحكت من قلبي، ثم دخل الكنيسة مجموعة شباب يحملون زميلًا لهم، صارخين: "مسرحية مسرحية، والداخلية بلطجية".

تبادلت ومحمد النظرات وانقضت ضحكاتنا، نهضنا لجولتنا الميدانية باحتياطاتها الضرورية: كمامات جديدة بعدما فسدت أقنعة الأمن الصناعي من كثافة الغاز المسيل للدموع، ونظارات غوص مدعمة بأسلاك لتحمينا من الغاز وطلقات الخرطوش، ثم كتلة من المناديل الغارقة في الخميرة المذابة في الماء، وضعناها في الكمامات، ولففنا حولها الكوفيات، كان منظرنا على كوميديته بائسًا لأبعد درجة.

وقفنا على ناصية محمد محمود نستقبل العائدين من الحرب الدائرة بالداخل، ونسعفهم بقطرات العين والماء والخميرة، واستمر عملنا هذا فترة طويلة جدًّا حتى سحبني شخص من ذراعي، وجف الدم في عروقي إذ أراه أمامي، بنفس الشحوب والتعرق واحتقان الوجه الذين لازموه أمس.

كان يشتعل غضبًا، وأمرني بعنف: "تعالي".

-"إيتشيرو".

رغم قناع الأمن الصناعي كانت عيناه داميتين تذرفان الدمع دونما توقف، وقال بصوتٍ أجش: "تركتني وذهبت اليوم أيضًا! تعالي معي".

-"انتظر".

صرخ في وجهي: "أنا لن أتركك هنا، اكرهيني إذا شئت، أو اقتليني لأتوقف عن حمايتك".

-"أنت من يحتاج حماية.. كم مرة سأخبرك أن وجودك هنا خطر؟ ألم تتعلم مما حدث لك من قبل؟"

أمسك بكتفي وهزني، صاح: "وأنت؟ هل تعلمتِ شيئًا مما حدث من قبل؟ لماذا تعودين إلى هنا؟ لقد وعدتني ألا تعرضي نفسك للخطر، فلم قطعتِ وعدًا لا تنوين الوفاء به؟"

-"ألا ترى ما يحدث؟"

-"هذا لا يعنيني.. ماذا سيحدث لي لو أصابك مكروه؟"

-"إيتشيرو!"

-"انتهى الجدال، أنت لن تبقي هنا".

صرخت مقاومة يده التي سحبتني مجددًا: "ليس من حقك...".

ترك يدي واستدار إليّ، حمتني الكوفية الملفوفة حول وجهي من قسوة الصفعة التي هوت عليَّ، لكن الذهول سمَّرني في مكاني، وأمامي وقف إيتشيرو دون حراك، يده ثابتة في الهواء، عيناه مرعبتان، لكن لحظة الجمود التي تلت صفعته انقضت واسترد شعوره بنفسه، نظر ليده، ثم نظر لي وقد صار الغضب في عينيه نارًا أخافتني وأخرستني.

دبت موجة من التراجع بين جموع الشباب التي تحول بيننا وبين الصفوف الأمامية التي تواجه قوات الداخلية، حاولت الإشارة لهم بالثبات، ولكن بخلاف المرات السابقة لم يستجيبوا. ومرت بنا نسمة باردة بددت سحب الغاز لحظة فرأيت أمواجًا تجري نحونا في عمى كامل.. شدني إيتشيرو لألتصق بالسور الحديدي الفاصل بين الرصيف والشارع، والتصق بي يحميني من الاحتكاك العنيف في أثناء اندفاعهم هاربين من خطر لم نره بعد، وبعد دقيقة ساد هدوء نسبي، وبدأ الضحايا في التوافد تنقلهم عشرات الدراجات النارية.

تأهبت لبدء إسعاف من يصل منهم إليّ حين غامت الدنيا أمام عيني، غشاوة بيضاء كثيفة ارتفعت أمامي، ولم أعد قادرة على التنفس رغم مزيج الماء والخميرة الذي صمد معي لساعات، واندلع التهاب محرق في كفيّ ووجنتيّ.. تولاني الخوف، ثم استحال الخوف رعبًا عندما تنفست أخيرًا لتجتاح صدري نار محرقة، ومن بين غشاوة الدموع رأيت موجة جديدة من الشباب الهاربين تندفع نحوي، يصرخون وهم عاجزون عن الرؤية والتنفس، سرعتهم وعماهم ورعبهم يقولون أنهم لن يشعروا بي إذا دهسوني تحت أقدامهم.

حاولت أن أصرخ من جديد ليثبتوا وأنا أدرك أن ما أفعله بلا جدوى، لا أحد يستطيع الصمود في وجه هذا الموت الحارق الذي لا نراه، جنونهم بدا طبيعيًّا، لكن ما منعه عني كان الغضب الأعمى، من مكاني رأيت أشباحًا في الخلف تسقط، نسيت نفسي، اندفعت ضد التيار، ومكنني الغضب وحده من شق الموجة الأخيرة لجمع الهاربين، وعندها شعرت كأني خرجت لساحة معركة خالية تترصدني فيها رصاصة غادرة، شتتني هذا الشعور لثوان.

جريت إلى أعماق شارع محمد محمود، وجثوت عند أول الشباب المتناثرين أرضًا، كان في آخر مراحل وعيه، ويده ترتجف على صدره كأنما يسد المجرى الذي تجتاحه نيران الغاز، أمسكت يده فتحرك بعنف محاولًا رؤية من يلمسه ثم تهالك، طمأنته بعسر متمسكة بكتمان أنفاسي: "ماتخافش، أنت مش لوحدك".

فككت الكوفية عن وجهي وغطيت بها أنفه، ثم أمسكت بذراعه لأنهضه فسحبت نفسًا عميقًا رغمًا عني، غامت عيناي وتأوهت، وأنقذني صوت إيتشيرو: "سيبيه".

وحمل الشاب فأسرعت للتالي، كان أكثر انتباهًا بقليل فأنهضته بشيء من الجهد، وناديت بعض الشباب العائدين بحثًا عن أي مصابين، أخذوه مني، وجريت مع آخرين مخترقين ظلمة الشارع.. لا أعرف أين ذهب خوفي من الموت، ولا رعبي من أن أصاب أو أتشوه، كل ما كنت أفكر فيه هو رعبي على هؤلاء الملقيين بلا حيلة، في نفق مظلم يغشاه ضباب حارق قاتل.

كلما تقدمت شعرت بأني أغوص في بحر من النار، وقاتلت مع رفاقي المجهولين لنحمل المصابين ونرفعهم على الدراجات النارية، وكلما تقدمنا نقص

عددنا، حتى صرت في النهاية وحدي مع شاب واحد فقط طلب مني العودة لأننا على مرمى حجر من قوات الداخلية، لكني لم أرضخ لطلبه الأقرب للتوسل.

وعلى البعد رأيت شبحًا غامضًا يسير جيئة وذهابًا بعرض الشارع، ومع حركته يتحرك علم مصر، وعلم يحمل صورة مينا دانيال.

ناديته بأعلى صوت أملكه: "ارجع ورا، كده خطر عليك".

اهتاج صدري حد الموت، وسرت كالعمياء صوب أربعة شباب تناثرت أجسادهم أرضًا، أسرع رفيقي لحمل أحدهم وانحنيتُ على الآخر، لم تبق في وجهه بوصة لم يمزقها الخرطوش، لكن عينيه بقيتا سليمتين خلف نظارة الغوص المدعومة بالسلك.. حاولت تنبيهه فلم يصدر إلا أنّة خافتة، ففككت كمامتي وقلبت المنديل المبتل بالخميرة على الوجه الآخر، وكتمت به أنفاسه، واصلت محاولاتي لإفاقته حتى أيقنت من عجزي الكامل، فغامرت بالصراخ لأطلب النجدة، ولأول مرة استنشقت الغاز دون عازل فكاد الألم يذهب بوعيي.

دوى انفجار تبعته موجة مروعة من الغاز الحارق، وتوارى غضبي خلف ذعر أعمى، وللحظة تساءلت عما أفعله هنا وما دعاني للمغامرة بحياتي! قاومت رغبتي في الهرب، ونزعت النظارة عن وجه الشاب وصفعته، دلكت حاجبيه، وأتت محاولات إسعافي الهستيرية المجنونة أُكُلها ففتح عينيه ونظر لي، استغرقت نظرته لحظة لكنها بدت مألوفة بشكل مقبض، وحجبتني عن إدراك الخطر القريب، رفعت الكمامة عن وجهه، وأبعدت النظارة تمامًا فرأيت مروان.

صحت بغل: "ايه اللي جابك هنا يا حمار!"

وانهارت مقاومتي، رغمًا عني نضبت أنفاسي فشهقت لأبتلع طنًّا من الغاز، احترقت ضلوعي وأنا أضع ذراعه حول كتفي وأنهض، وعنفته: "قوم يا مروان، المصري مايقعش بالسهولة دي، يالا قوم".

تحرك معي ونهض، لكن بمجرد أن فعل صرخ وسقط ثانية، وسحبني ثقل جسده فسقطت جواره، وحين ارتمى على وجهه رأيت إصابتين في ظهره يتفجر منهما الدم، وميزت جراح الرصاص الحي الدقيقة.. مروان!!

انفجرت قنبلة أخرى أقرب..

العالم أسود ويدور، لكن آلام صدري اختفت، وعيناي تذرفان الدمع دون أن أشعر بهما.. كنت ممددة جوار مروان أنظر للسماء دون أن أرى، كلانا يموت الآن.. أي سخرية في انتهاء كل شيء هنا، بهذه الطريقة..

مرقت فوقي كتلة ألوان انفجرت في السماء الكئيبة لتصنع مهرجانًا ضوئيًّا مباغتًا، تبدد الموت المحيط بي وأفقت من غيبوبتي النصفية متسائلة إن كان هذا هو الانتقال للعالم الآخر، لكني سمعت أصواتًا مرتبكة تبتعد إلى داخل الشارع، وأصوات أخرى تتقدم من الميدان، ثم انشقت سحب الغاز عن مئات الشباب المحصنين بنظارات عريضة، وأقنعة سميكة، وكمامات محشوة.. انطلق عشرات منهم حاملين أشياء مشتعلة لم أتبينها، لكني رأيت وهجها إذ تطير ناحية قوات الأمن، ثم تنفجر في الهواء لتصنع بحرًا من الألوان.. ألعاب نارية تصلح لإحياء مهرجان عاطفي لا لمقاومة شرطة مسلحة وقاتلة.. من هؤلاء المخابيل؟!

انبعثت أغنية هادرة "مش ناسيين التحرير يا ولاد الوسخة". فشقت وجهي ابتسامة ذهول مع كلماتها، غير أني لم أستطع الضحك.. وانقلبت على جانبي أتابع الشباب، ورأيت على كتف بعضهم قائدهم، سافر الوجه دون أقنعة، يضحك ساخرًا ويطلق صاروخًا جديدًا، ألحقه بصرخة: "الألتراس هنا يا ولاد الـ******".

اقتحموا سحب الغاز الكثيفة في اتجاه رجال الأمن، أما الموجة الثانية فقد اندفع بعض أفرادها ليحملوا مروان والشباب الآخرين المصابين، وهرع إليَّ أحدهم يسألني: "أنتِ كويسة؟"

وأطلق رذاذ الماء بالخميرة في وجهي، فاشتعل الألم في عيني وبشرتي من جديد، وانبعثت آلام صدري، رحت أسعل وأتأوه، وأجفلت عندما شعرت بشخص يحتضنني، لكن إيتشيرو طمأنني: "اهدئي، هذا أنا".

تشبثت به، حاولت الوصول إلى رائحة عطره لتنقذني، لكنه أبعدني ثم ألصق قناعه بوجهي، بقيت لحظات لا أصدق أن بإمكاني تنفس الهواء النقي، وبشوق رحت أعبه عبًّا. مسح إيتشيرو جبيني وتمتم: "لا تخافي، سأحميك".

الهواء! ما أثمنه بعد تلك الدقائق العصيبة! تنازعتني رغبة مميتة في البكاء وقد أدركت مدى بشاعة الميتة التي كادت تقتنصني، وأحكم إيتشيرو لف سيور القناع حول رأسي، وحملني وشق جموع الشباب العائدين إلى الشارع، كنت أقرب للغيبوبة مني للوعي، لكني لم أنتبه من تهالكي إلا عندما سمعت سعاله،

وأصغت السمع لصفير لم أسمعه من قبل في أنفاسه، ناديته خائفة: "إيتشيرو!!"

خنق القناع صوتي فلم يسمعني، ولكن بعد لحظات تأوه، واختل توازنه لكنه تمالك نفسه ومال ليتزلني أرضًا، وتحولت تأوهاته إلى ما يشبه الصراخ.. سقط إيتشيرو على ركبتيه يسعل ويضم ذراعيه على صدره متألمًا.

أنبأني تهيج بشرتي بانفجار قنبلة غاز جديدة، أخذته في حضني محاولة خلع قناعي لكنني فشلت، وعندما انتبه إيتشيرو أمسك بيدي يمنعني، ثم تسرب الغاز إليَّ فجذبته لينهض، ورحنا نجد السير مغادرين الشارع، ثم سمعت نفس الصراخ المرعب يأتي من خلفي، ودب الهرج والمرج من جديد، ثم عمت الهواء موجة الغاز الحارقة فتشتت الشباب هاربين.

واصلنا الجري، لكن موجة العائدين من جحيم الشارع بلغتنا، وشدني إيتشيرو جانبًا نحو السور الحديدي، واحتضنني ليتلقى عني صدمة التدافع، وللمرة الأولى في حياتي أدرك خطورة التكالب على مهرب واحد، كنا نسحق، وشعرت بالضربات العنيفة على ظهره، وسمعت شهيقه المختنق، ولم يستطع أينا نطقًا ونحن محاصرين، مضغوطين بين مئات الشباب، والكل يقتل الكل محاولًا النجاة.

ووسط الموت المحلق، ابتعد عني جسد إيتشيرو، وإذ استدرت رأيت موجة المتدافعين تسحبه معها، وثبت نحوه فلمست ذراعه، ولكن لم يبد أنه شعر بي أو اهتم أو استجاب، وبعد لحظة اختفى من أمامي، سقط تحت الأقدام.

صرخت كالمجنونة، وضربت كل من يعترض طريقي، وأصرخ في الكل أمنعهم من المرور فوق موضعه، حتى أنقذني شاب وقف في وجه المتدافعين وصرخ "اثبت مكانك"، ثم عاونني على فتح فجوة أوصلتني إليه، سحبته مع الشاب لنوقفه، وعندما انتبه لنا الآخرون ساعدونا، وحملوه خارجين من موضع الموت هذا وأنا خلفهم.

غرق إيتشيرو في غيبوبة تامة، بوجه أزرق وشفتين يابستين داكنتين، واستحالت أنفاسه أزيزًا متحشرجًا ومخيفًا، وتثلجت أصابعه، وشحبت كل صلة له بالحياة.. لساعة أو أكثر ظل على الحال نفسها، حتى أثمرت جهود الأطباء وانتظمت أنفاسه، وبدأت الزرقة تزول عن شفتيه، عندها جلست جواره وأغرقت في البكاء.

أخبرني محمد عبد الواحد أنه مصاب بحساسية صدر شديدة، تجعل تعرضه لأقل قدر من الدخان انتحارًا مؤكدًا.

أفاق إيتشيرو جزئيًّا مرتين، وناداني بانزعاج فأمسكت بيده وهمست: "أنا هنا، لن أذهب إلى أي مكان".

وفي السادسة صباحًا فتح عينيه.

ظل محدقًا إلى السقف فترة في صمت، حركت يديَّ أمامه فلم يستجب، ناديته، هززته، حوَّلت رأسه إليَّ دون أي بادرة تشي أنه يشعر بي، ثم نظر في عينيَّ وأمسك يدي.. كانت أصابعه بقوتها المعتادة، وصوت أنفاسه ونبضات قلبه كما ألفتهما، لكن البرود في نظراته كان مرعبًا ومميتًا، وأفظع ألف مرة من كل فكرة واحتمال راودني في ساعات الليل. مسني الهلع وأنا أنظر إلى وجه لم أره من قبل ولم أتخيله للرجل الذي أحب.

-"أأنت بخير، إيتشيرو؟"

نهض جالسًا، ورفع القناع الطبي عن وجهه، وأغلق أزرار قميصه، استرد أنفاسه لساعة أو أكثر قليلًا، ثم غادرنا الميدان، سرت جواره ويده تقسو على معصمي لترغمني على مجاراة خطواته. مررنا بميدان سيمون بوليفار حيث يتسكع ثلاثة شباب لهم سمت المدمنين، صاح أحدهم بغل وهو ينظر في عيني: "ده أنتم هتموتوا والعين يا خاربين البلد".

ومضت أمامي صورة أحمد حرارة فانخلع قلبي..

قال إيتشيرو بقسوة: "أرأيت؟ هؤلاء من تموتون وتفقدون أبصاركم لأجلهم.. ما رأيك؟"

-"أنا لست...".

-"اخرسي.. لقد كدت أموت بسببك الليلة".

واصل سحبي معه سحبًا، وبمجرد دخولنا البيت جرجرني إلى غرفة نومنا الأولى، وأتى لي بملابسي من الغرفة الأخرى، وأخذ ملابسه من الدولاب وخرج، ثم عاد ثانية حاملًا كيسًا أسود فتحه وخلع قميصه وألقاه فيه، ثم اتجه إليّ، تراجعت للوراء مفسحة له الطريق لكنه كان يقصدني أنا، وقف أمامي وأبعد ذراعي ليفك أزرار معطفي، أمسكت بيده أمنعه فضربهما بغضب ونهرني: "لا تتصرفي بغباء".

بعدما فك الأزرار علق سحاب المعطف رافضًا أن يفتح، تمتمت: "هذا ما أردت قوله".

توقعت أن يسخر مني أو يتركني لأفتح السحَّاب بنفسي، لكنه أمسك جانبي المعطف وشقه ممزقًا إياه إلى نصفين، وإزاء ذعري انفجر فيّ: " لا تتصرفي وكأنني أنوي إيذائك".

انفجرت بدوري: "ماذا تتوقع مني وأنت تتصرف هكذا إذن؟ أنت تبدو شخصًا آخر، إيتشيرو!"

صرخ بدوره: "لأنك تتصرفين بنفس الطريقة أيضًا".

بقينا لحظات ننظر لبعضنا، ثم زم شفتيه كأنه يمنع نفسه من المزيد من الكلمات، أبعد عينيه عني وشق نصفي القميص الذي أرتديه تحت المعطف ونزعه عني بعنف ليلقيه في الكيس ليلحق بحجابي وكوفيتي وكمامتي ونظارتي الواقية، كل شيء، وعندما انتهى ناولني كيسًا آخر وقال: "استحمي جيدًا، وتخلصي من ملابسك الباقية.. هذا الغاز ليس كسابقه".

وأشار لعنقه وذراعيه فانتبهت إلى أن الاحمرار الذي يعلو وجهه ليس غضبًا، وإنما التهاب طفر على بشرته التي تعرضت للغاز، بعكسي أنا، اقتصر الالتهاب على ظهر كفي ووجنتيّ اللتين أشعر فيهما باحتراق خفيف حتى الآن.

قال ببرود: "بشرتي أيضًا حساسة. أشكرك على الإثارة الممتعة التي مررت بها بفضلك، ستكفيني للقضاء على ملل حياتي لمدة عشر سنوات. أترقب ما ستسببينه لي من متاعب في المرة القادمة، فقد صار هذا نمط حياتنا مؤخرًا".

صوته أخافني إلى أبعد الحدود، وتكلمت دون تفكير: "مازلت مصرًا على التصرف بتلك القسوة، إيتشيرو! أنت تبدو كذلك الرجل الذي آذاني كثيرًا من قبل، وأنا أكره هذا الرجل".

عندما نطقت بتلك الكلمة الأخيرة شعرت أنني أصبحت قادرة على رؤية الجدار الشفاف القائم بيننا إلى حد ما، كان أكثر وضوحًا بقليل فاستطعت لمسه، لكن لمسته آلمتني وعذبتني كأنني ألمس سلكًا عاريًا. رغمًا عني ارتجفت وأنا أقول له: "أحيانًا أتمنى لو أستطيع قتله، أو محوه من ذاكرتي إلى الأبد كي تعود لي".

ملامحه اختلجت بشعور غريب للحظة، ثم شدني نحوه متمتمًا: "أحيانًا أتمنى هذا أيضًا، هبة".

هدأت آلامي بلمسته، وانتظرت العناق الوشيك، لكنه أوقفني قبل أن يلمس رأسي صدره ببوصة أو أقل، وأبعدني بحدة، وأشاح بوجهه يقول: "أنتِ جعلتِ هبة حبيبتي تختفي، ثم هبة زوجتي، والآن صديقتي في طريقها أيضًا للاختفاء. في كل يوم أفقد جزءًا جديدًا منك، ولا أعرف كيف يمكنني استرداده لتعودي لي، من منا أحق بالغضب؟"

لم أرد، وتساءل جزء مني عن سبب عدم ردي فأجابه جزء آخر كذوب في أعماقي أنني أحاول استيعاب ما يقول، لكن بعد ثانية واحدة عدت صادقة مع نفسي وعرفت أنني لا أملك إجابة، حقًّا.

استدار لي وفي وجهه تعبير سخرية قاس وجارح، وتهكم عليَّ: "أنت لا تتحملين رؤيتي، ولا تطيقين اقترابي منك وكأنك فقدت كل ثقة فيّ، حتى لمستي صارت شيئًا مكروهًا يخيفك. صدقيني، أنا لم أعد مهتمًا بالاقتراب منك، هبة".

كلمته الأخيرة قتلتني، شعرت بسهم يصيب صدري حتى نفذ من ظهري، تمتمت ودموع الصدمة توشك على السقوط من عيني رغمًا عني: "لو كنت تعني هذا فأنت تبدل الأمور كلها، إيتشيرو".

سرت بملامحه رجفة خاطفة، ثم استدار ليغادر، عندها طعنتني كلمته ثانية بوضوح أشد، وتأوهت، دون وعي وثبت خطوة وأمسكت بيده، سألته: "أهذا حقيقي، إيتشيرو؟ أحقًّا تعني ما قلته الآن؟"

استدار وأدار يده ليقبض هو على معصمي، شدني إليه شدًا حتى صار وجهي على أدنى مسافة ممكنة من وجهه، ورأيت الغضب ينطلق كالنار من عينيه. ظل صامتًا لحظات ثم تجعد جبينه بتقطيبة مخيفة، تمتم: "أنتِ غبية، حقًّا غبية".

ثم دفعني بعيدًا عنه وانفجر يصرخ: "هل أنتِ حقًّا بهذا الغباء؟"

سقطت فوق الفراش، ناديته، لكنه خرج ساحبًا الباب معه، ثم سمعت المفتاح يدور، جريت أطرق الباب حتى كدت أحطم كفيّ، توسلت إليه أن يفتح، أن يعود، ولم أتلق ردًا.. صرخت، بكيت، لكنه تجاهلني تمامًا، وانتهى بي الأمر جالسة على الأرض أبكي كالمجنونة.. بقيت وحدي لأيام لم أتصل فيها بأحد.

حطمت تلك المشاجرة شيئًا كبيرًا بيننا، وزاد من عذابي شعوري المفاجئ بأن كل ما حدث الفترة الماضية كان خطأي وحدي: لماذا طاوعته ولم أخبرهم أنني

زوجته؟ لماذا لم أصرخ في وجه مروان عندما طاردني لأسبب له فضيحة تجعله يبتعد عن طريقي إلى الأبد؟ لماذا لم أتصل به من المستشفى ليأتي لاصطحابي؟ لو أن شيئًا من هذا حدث ما كنا الآن في هذا الوضع.

مضت أيام كئيبة يا ندى، سأذكر إلى الأبد أن نوفمبر 2011 كان من أسوأ شهور نوفمبر في حياتي، وعندما انتهى كانت الخسائر تحيط بي من كل صوب، خسائر على الصعيد الوطني عندما اكتشفت أن مصر فقدت إنسانيتها، وأهلها يتهمون شهداءها بالبلطجة، يرون الحق ويسفهون منه ويشوهونه، ويرون الخطأ ويلتمسون لمرتكبيه الأعذار، وحين تحدثهم عمن فقد عينيه لأجله يقولون لك "ومين طلب منه يضحي!".

خسائر على الصعيد الفكري، وأنا أصدم في هؤلاء الذين احتكروا الحديث باسم الدين، وارتكبوا كل ما يتناقض معه. كان محمد عبد الواحد يتصل ليخبرني بما يحدث في الميدان، وما يقوله عنا الإخوان والسلفيين فأبكي، يحدثني عن الانتخابات التي تتم على دماء شباب التحرير بمباركتهم فتسود الدنيا في عينيَّ.. كرهت أنهم مصريون مثلي، ثم شعرت بالعار لأننا نشترك في دين واحد، نعم يا ندى، كرهت كثيرًا جدًّا أنهم –للأسف- مسلمون مثلي.

لقد تركونا وحدنا في محمد محمود، وخاضوا في أعراضنا، واتهمونا في شرفنا الوطني، وسخروا ممن فقدوا أعينهم، ونزعوا صفة الشهيد عن قتلانا بحجة "مش كل واحد ينزل يحدف له طوبتين بقى شهيد". وحين طال صمودنا وكاد المجلس العسكري ينهار، تواطئوا معه ومنحوه قبلة الحياة، وقد كان بوسعنا الإطاحة بطغيان العسكر إلى الأبد.

إنهم يسعون لمصلحتهم وحسب، لا يعنيهم دم ولا وطن ولا دين، وإنما البرلمان والسلطة، تبًّا لهم، وتبًّا للبرلمان، ولكل السلطة. لا شيء أهم من الدم البريء المسفوك.. سحقًا لهم جميعًا.

كانت الليالي تمر بي وأنا أجن، وتومض أمامي كوابيس ما رأيت في الميدان فأنهض وأردد: العسكر أعداء، لقد قتلونا حقًّا، ألقوا بنا في القمامة حقًّا، لم يمزحوا، كانوا يقصدون ذبحنا فعلًا.. ولم نعن لهم أي شيء.

كنت أتألم للكلمة، العسكر أعداء، جيش بلادي الذي أحببته طيلة طفولتي وبهرني، لقد صاروا بالفعل أعداءً، ولن يتورعوا عن قتلي لو وقفت في وجوههم مجددًا. ولكن رغم الألم يمكنني أن أتفهمهم، هؤلاء وحوش احتكرت السلطة ستين عامًا وأكثر، لكن الكارثة في الآخرين، الإخوان والسلفيين الذين عانوا

الظلم ما عانوا، وبمجرد أن لاحت لهم انفراجة ظلمونا بالمثل، وأعانوا الظالم علينا، أعانوه بإخلاص لا يبرره أي شيء.

آلمني الأمر نفسيًّا حتى خشيت على نفسي، وحين بلغت روحي الحلقوم من فرط المرارة والغضب، أقسمت ألا أثق فيهم إلى الأبد، أقسم ألا أتعاون معهم أو أصدقهم إلى الأبد، ولشد ما أتمنى أن يحول الحول عليهم فتتبدل المواقف، لشد ما أتمنى أن يكونوا في موضعنا، يقتلون ويذبحون ويراق دمهم دون رحمة، عندها –أقسم بالله- أني لن أحرك إصبعًا، عندها –أقسم بالله- سأذكرهم بما فعلوه فينا أيام محمد محمود، وأضحك لهم وأقول: هذا ما تستحقون، ألم تعلموا أن من أعان ظالمًا سلطه الله عليه؟

ودعوت الله كل ليلة وأنا ساجدة: "يا رب، اكتب عليهم ظلم أكبر من اللي اتظلمناه، يا رب اكتب عليهم هوانًا أكتر من اللي مرينا بيه واحنا بنشوف أصحابنا بيترموا في الزبالة، يا رب مد في عمري لحد ما أشوفهم في يوم تحت بيادة العسكر، بيدوقوا من اللي احنا شفناه، يا رب مد في عمري واكتب لي أشوف فيهم يوم أسود لا حصل زيه قبل كده ولا هيحصل بعده، اللي حصل ده ظلم، يا رب أنا مش مسامحاهم، وأنت ماترضاش بالظلم، عجل لهم بالهوان والذل في الدنيا يا رب، خليهم يشوفوا الدم ويستغيثوا ويلاقوا الدنيا كلها ضدهم".

وكالعادة بكيت، في تلك الفترة بكيت حتى جفت عيناي كالصحراء.

وأخيرًا –والأكثر قسوة- خسائر على الصعيد العاطفي، كنت أشعر في كل لحظة تمضي أنني أخسر إيتشيرو، الرجل الوحيد الذي أحب، الرجل الوحيد الذي أحببت.. نعم، كلما مر الوقت وأنا معزولة في غرفتي اكتشفت أكثر من أي وقت مضى كم كان شعوري نحو مروان تافهًا وطفوليًّا.. لم يكن حبًّا حقًّا يا ندى، لو كان كذلك ما كنت لأشعر بالعار منه وأحرص على إخفاءه عن الجميع، لو كان كذلك لاعترفت به ببساطة، لو كان كذلك لتمسكت به بقوة، ولطاردته طوال الوقت لأفهمه، لأتقرب منه.

هذا هو ما دعاني للكذب على إيتشيرو.. في قرارة نفسي كنت أعرف دائمًا أن مروان لا شيء، حتى تذكري له وحنيني لأيامنا القديمة لم يكن افتقادًا له بقدر ما كان افتقادًا لهبة الصغيرة الساذجة. كان الأمر برمته قصة مراهقة عابرة وانتهت، لا يصلح ولا يصح أن أقارنها بقصتي الخيالية التي أحياها مع إيتشيرو، أنا لم أرغب في إجابته بصراحة لأنني كرهت حتى أعماق قلبي من أن أرفع شأن أحمق تافه كهذا إلى مستوى الرجل الذي يملكني تمامًا.

مروان.. إيتشيرو.. مجرد كتابة الاسمين متجاورين تبدو لي إهانة، فماذا عن إجابة قاطعة تقول "نعم، كنت أحبه" في حين أن قلبي لا يؤمن ولا يعترف إلا برجل واحد هو بالنسبة إليّ الماضي والحاضر والمستقبل والعالم بأسره؟

هبة

5 ديسمبر 2011

اليوم العشرون

اللحظات الأخيرة

صديقتي العزيزة ندى

استمر إيتشيرو في حبسي حتى الرابع من ديسمبر، ثم أخذني لأخوض اختبار اللغة اليابانية، وعدنا ليحبسني ثانية. كنت قد اعتدت الأمر فكففت عن دق الباب كالمجنونة، وبقيت أقرأ الكتب التي أدخلها لي وأشاهد بعض الأفلام بعدما يئست من العثور على كلمة السر الجديدة للإنترنت.

لم أعلم ما حدث في البلد طوال هذه الفترة، ولشد ما أراحني هذا من ناحية، لكنه تركني نهبة لذكريات محمد محمود المؤلمة، كانت لديّ ساعات طويلة استلقي خلالها صامتة أحدق إلى السقف، وأسترجع كل ما حدث بأدق التفاصيل، وأهب من نومي مفزوعة وصوت القنابل يدوي في أذني، وصدري يختنق بغاز غير موجود.

لا أعلم كم بقيت في تلك العزلة، إحساسي بالوقت كان مختلفًا عن ذي قبل، كان يبدو بطيئًا وسريعًا في نفس الوقت، لا أعرف كيف أشرح لك. على أن عزلتي هذه انتهت ذات ليلة بسبب قطة!

كنت نائمة بعد حمام ساخن رائع حوَّلني إلى القتيلة النائمة، وسمعته يناديني، ويهزني بإصرار لأصحو، ولمّا نظرت له سألني: "هبة تشان، قلتِ إنكِ ربيت قططًا من قبل؟"

-"هه!"

-"قطة، قطة، هل ربيت قطة من قبل؟"

-"إنها الثالثة صباحًا، إيتشيرو.. أريد أن أنام".

ارتفع صوت مواء حاد أطار النوم من رأسي، وهببت جالسة لأجده يقول: "إنها تموت، هلا أخبرتني كيف أعتني بها؟"

على كفه رأيت قطة صغيرة للغاية، طولها لا يتجاوز سبابته، وتموء مواءً يمزق القلب، أخذتها منه، ثم صدمني إدراك شيء آخر فصحت به: "ابتعد أنت...".

قرأ أفكاري وتذمر: "ليست لديّ مشكلة مع الحيوانات الأليفة، والآن هلا ساعدتها؟"

-"إنها تتجمد، من أين أتيت بها؟"

-"كانت ملقية أمام العمارة، هل يمكنك مساعدتها؟"

كنت مشدوهة بالنظر في وجهه وهو مشغول تمامًا بالقطة كأنها طفلة ضائعة، سألني: "كيف نساعدها؟"

-"سنغسلها أولًا، فتلك الحشرات تمتص دمها طوال الوقت وقد تقتلها، وسنحتاج بعض الحليب الدافئ".

-"سأذهب لأشتريه إذن".

-"الآن؟"

هكذا صحت به فقال: "نعم، إلا لو كان الحليب بالشيكولاتة يصلح، هل يصلح؟"

ضيقت عينيّ وزممت شفتيّ، كنت مستغربة ومغتاظة ومستمتعة في الوقت نفسه، ثم قلت باستسلام: "أحضر حليبًا منزوع اللاكتوز من الصيدلية إذن، فالحليب العادي قد يقتلها".

اختفى في لحظة، وتجمدت بمكاني غير مصدقة ما يجرى، كنت أظنني أكثر الناس هوسًا بالقطط لكنه تفوق عليّ.

غسلت القطة بماء دافئ، وبقطنة نظيفة مسحت أسفل ذيلها المرتعش أساعدها على التخلص من فضلاتها، التي لا تستطيع أن تتخلص منها وحدها في تلك الفترة المبكرة من العمر.. كانت صغيرة جدًّا، ربما تبلغ من العمر يومين فقط، أي حيوان استطاع إلقاء هذا الشيء المسكين الهش في العراء والبرد دون تأنيب الضمير؟

جففتها برفق، وجلست قرب التكييف وقد وضعتها على وسادة فوق ركبتي، ورحت أنظفها من الحشرات التي تجري في فراءها القصير، كانت ترتجف بعد لكن جسمها صار أدفأ ومواءها أقل حدة. هتف إيتشيرو بسعادة: "آه، أنت جميلة، جميلة جدًّا مومكو تشان".

قفزت مترين في الهواء، ثم التفت أصرخ: "أنت.. لا تباغتني بالدخول هكذا! خطواتك الصامتة هذه ستصيبني يومًا بسكتة قلبية".

-"آسف".

وناولني علبة الحليب التي يحملها ثم جثا على ركبتيه ينظر لها بانبهار، قال: "أذنها جميلة جدًّا، أليس كذلك؟ إنها صغيرة وناعمة، آه".

هكذا أجفل عندما تحركت القطة للمسته، ثم ضحك، سألته: "أنت تخاف القطط؟"

-"لا، لكن القطط الصغيرة هشة لدرجة أنني أشعر بأنها ستتحطم في يدي".

تذكرته وهو يحملها على كفه المفرودة كأنه يقدم لي كوب شاي، ابتسمت وواصلت عنايتي بها، أما هو فنهض وأحضر طبقًا صغيرًا من اللبن وقدمه لي، قلت بسخرية: "هل تعتقد أننا سنحملها من عنقها ونقربها من اللبن لتشرب؟ سيكون من الأسهل أن نلقيها في طبق الماء ونتركها تغرق ببساطة".

-"إذن؟"

-"أحضر حقنة من صيدلية الحمام".

ولمدة عشر دقائق انهمكت في إرضاع القطة بالحقنة، وعندما انتهيت وضعتها على وسادة أكبر بجوار زجاجة ماء دافئة ملفوفة في كوفية صوفية، سرعان ما التصقت بها القطة وسكنت. همست: "سيجعلها هذا أفضل، القطط الصغيرة لا تستطيع تنظيم حرارة أجسادها وتعتمد على أمهاتها في هذا الأمر، هذه الزجاجة ستؤمن لها الدفء فترة كبيرة، وستنام لساعات".

-"هذا جيد، أنا سعيد من أجلها".

تأملت رقة ملامحه وهو يتأملها، قلت: "أنت رحيم للغاية، إيتشيرو".

-"وأنتِ خبيرة بالقطط".

-"لقد اعتنيت من قبل بقط وجدته في نفس الظروف، وبسببه تعلمت طريقة العناية بالقطط الصغيرة".

-"وأين ذهب؟"

-"اضطررت لتركه في رعاية أمي وأخي وقت اندلاع الثورة، وبعدها بفترة هرب، عاد مرة واحدة بعدها ثم اختفى".

-"إذن، فقد كان أول من حرمته الثورة منك، هبة تشان".

نظرت إليه فوجدته يتأملني بابتسامة باهتة، وجهه على سنتيمترات من وجهي، كتفه يلامس كتفي بخفة ويده المستندة إلى الأرض بالقرب من يدي، نظراته خدرتني، وهمست باسمه، عندها أغمض عينيه ومال نحوي ففعلت المثل، لامست أنفاسه وجهي، وقبل لحظة من القبلة المرتقبة فارقني دفء أنفاسه فاجتاحني برد مفاجئ ارتعشت له.

شعرت بالغدر عندما نظرت له لأجد وجهه قد استرد ذلك التعبير اللطيف الرحيم وهو يلامس رأس القطة بسبابته، ثم يغطيها وينهض، وكأن اللحظة الماضية لم تكن، حتى عندما حياني متمنيًا لي ليلة سعيدة كان صوته عاديًّا كأن شيئًا لم يكن.

لم أره إلا ظهر اليوم التالي، دخل الغرفة بمرح وهو يقول: "صباح الخير، كيف حال موموكو تشان؟"

-"موموكو؟"

صفق بيديه بمرح وقال: "أليس اسمًا مناسبًا؟ إنها بلون الخوخ".

ابتسمت، وعدت لقراءة كتابي وأنا أقول: "إنها نائمة، لقد أكلت منذ قليل فلا تزعجها".

جثا على ركبتيه ينظر لها تلك النظرة الجديرة بطفل يتأمل لعبة جديدة، هززت رأسي وفتحت عينيّ على أقصى اتساعهما لأستوعبه في هذا الطور العجيب.. هذا الرجل لا يمكنني أبدًا التنبؤ بتصرفاته أو أفكاره، في كل يوم أكتشف أن له وجهًا آخر لم أره من قبل، إلى متى سيستمر هذا؟

أشحت بوجهي متظاهرة بالقراءة وهو يستدير لي، وتظاهرت بالمفاجأة عندما جلس جواري وقال: "هبة تشان، اخرجي معي".

كنت أنوي التظاهر بالبرود مهما كان ما سيقوله، لكن عبارته جعلتني أغلق الكتاب وأنظر له أحاول –بجدية- فهمه، لهجته المتوددة كانت تتناقض تمامًا ولامبالاته خلال الفترة الماضية، وتتناقض أكثر وبشكل صارخ جدًّا مع ما حدث فجرًا. رددت من بين أسناني: "هل تعبث بي، إيتشيرو؟"

-"لا".

مر بنا صمت طول وهو ينظر في عيني، ابتسامته بدأت تكتسب ذلك الطيف العابث اللعوب، سألته: "هل بإمكاني الرفض؟"

بكل بساطة أجابني: "لا".

-"إذن، لماذا تزعج نفسك بسؤالي؟"

أمال رأسه قليلًا إلى اليسار، صار وجهه عابثًا ونظراته مغرية ثم مال نحوي ببطء، أجفلت ورجعت برأسي إلى الخلف حتى التصقت بظهر الفراش، وواصل هو اقترابه، أصبحنا بنفس القرب الذي كنا عليه ليلة أمس وهو يقول بصوت هامس: "حتى وإن كنت سأجبرك في كل الأحوال على مرافقتي فيجب أن أخبرك، لتكوني مستعدة بصدق أو لترفضي بصدق، هكذا يفعل الرجال، هبة".

تجمدت بأعين متسعة وأنا أنظر في وجهه، وواصل اقترابه حتى همس في أذني: "وأنا رجل، هبة تشان، مازلت تذكرين هذا قطعًا، أليس كذلك؟"

صار قلبي خارج قدرتي على السيطرة، راح ينبض بجنون، وازداد جنونًا عندما سمعته يبتسم، اللعنة! أي صوت هذا الذي يتحدث به؟ هل يريد إفقادي عقلي؟

لكنه نهض ليغادر، وعاد صوته لمرحه الأول: "استمتعي بوقتك، واهتمي بوموكو تشان".

ذهلت لدقائق، ثم صرخت: "تاكاهاشي إيتشيرو، أريد أن أقتلك".

أجابني الصمت، لكنني كنت واثقة من كونه بمكان ما من المنزل يضحك. ولكن هل يضحك مرحًا؟ سخرية؟ استهانة؟

بعد هذا الموقف بيومين تقريبًا عاد إلى المنزل بعد منتصف الليل حاملًا حقيبتين أنيقتين، ولسبب ما شعرت بالغيرة وسألته بعدوانية: "رائع! هل عاملتك الفتاة التي اشتريت منها تلك الأشياء بلطف؟"

ظل ينظر لي برهة مدهوشًا، ثم ابتسم بسخرية ودفع الحقيبتين إليّ، أخرجت من أولهما حذاءً عالي الكعبين رائع الجمال، سألته بانبهار: "رائع! لمن اشتريت هذا؟"

عض شفته السفلى ورفع يده كأنه يهم بتهشيم رأسي فأغمضت عينيّ، ثم فتحتهما عندما نكش شعري بعنف وقال بسخرية: "أنا لست بحاجة لمزيد من الطول، ولست منحرفًا لأرتدي أحذية النساء".

-"إذن فهو لي؟"

السعادة فقط جعلتني أقول هذا، لكنه استدار مبتعدًا وهو يقول بسخرية أكثر: "لا فائدة، أنا حقًّا بدأت أيأس منك".

ألقيت الحقيبتين جانبًا، ولحقت به أحتضنه، وضعت رأسي على ظهره وتشبثت به بقوة أقول بحرارة: "شكرًا، إيتشيرو، شكرًا".

-"اييييه!"

الصوت المدهوش والساخر في آن واحد نبهني لتهور تصرفي فابتعدت، واستدار يضع يده على رأسي، ونكش شعري ثانية، وتهكم عليّ: "أتمنى أن يساعدك على مجاراة طولي يا قصيرة".

-"أنا لست قصيرة، طولي 162 سنتيمترًا، هذا لا يجعلك أطول مني بكثير، عشرون سنتيمترًا لا تصنع فارقًا ضخمًا".

-"ثلاثة وعشرون سنتيمترًا، يبدو أنك بدأت بنسيان كل تفاصيلي، هبة".

احتججت: "هذا ليس صحيحًا، أنا فقط تجاهلت التدقيق لأختصر الحديث".

ازداد تهكمه قسوة: "إذن، هل أعتبر هذا كسلًا خارقًا، أم رغبة في التخلص مني؟"

لم أرد، ليس لأنني لم أجد ردًا، أو لأن الهراء الذي قاله يحتمل أقل قدر من الصحة، ولكن لأنه كان غريبًا حقًّا، لم يبد أن أي رد –مهما كان- سيحدث أثرًا أكثر من السخرية، وأنا أكره سخريته حقًّا، أكره قسوتها ودقتها.

خرجنا معًا عصر اليوم التالي، ارتديت الحذاء العالي والفستان الصوفي الأسود.. أمَّا هو فارتدى بذلة سوداء وربطة عنق فضية، وقميصه مشدود قليلًا على كتفيه، وشعره مصفف ثلاثة أرباعه لليمين وبعض خصلاته الأمامية تغطي عينه اليمنى، والربع الباقي كان مصففًا إلى اليسار وخصلاته محتجزة خلف أذنه اليسرى لتبدو أطرافها ممتزجة بخصلاته الخلفية التي تلامس كتف بذله، عندما رأيته سألته فورًا: "هل سنذهب إلى الأوبرا؟"

توقف عن ضبط ربطة عنقه ونظر لانعكاسي في المرآة وابتسم.

منذ ما يزيد قليلًا على العام عشنا يومًا يشبه الذي سنقضيه اليوم، كان يرتدي نفس الملابس ويصفف شعره بذات الطريقة، وأسر قلبي بنفس

الابتسامة، الشيء الوحيد المختلف في المشهد كان أنا. فكرت في هذا فترة ثم سألته: "لماذا لم تطلب مني ارتداء نفس الملابس؟"

كان ينظر عبر نافذة التاكسي إلى الشمس التي تستعد للغروب وهو يجيبني: "بحثت عنها في دولابك ولم أجدها، فاشتريت ما يشبهها".

-"مستحيل، أنا لم أمتلك قط فستانًا أسود؛ أكره هذا اللون".

هز رأسه نفيًا، قال بصوت حالم: "كنتِ ترتدين فستانًا أسود طويلًا، قماشه لامع، وأكمامه قصيرة ومزينة بشريط دانتيلا رفيع على شكل ورود صغيرة متداخلة، وذيل الفستان وصدره كانا أيضًا من الدانتيلا، وحجابك كان مرفوعًا للخلف وبدا رأسك كأنه زهرة تتفتح، كنتِ في غاية الجمال".

تذكرت الفستان الذي ارتديته في حياتي مرات تعد على أصابع اليد الواحدة، ابتسمت، وواصل هو حديثه دون أن ينظر لي: "مكياجك كان يغلب عليه اللون الوردي الخفيف، ومن الغريب أنك استعملت نفس اللون اليوم! إنه دائمًا يلائمك، لكن...".

-"لكن ماذا؟"

وتنهد، ألقى رأسه للخلف ولاذ بالصمت حتى وصلنا إلى دار الأوبرا، وعندما وصلنا إلى مركز الإبداع الفن كان دخولنا لافتًا لأنظار الجميع، وبعد دقائق من تحية الأصدقاء دخلنا إلى قاعة العرض، وتركته يأخذ بيدي إلى نفس المقعد وجلس هو إلى يميني، وألقى الضوء عليه نفس الظلال التي حركت مشاعري في المرة الأولى. نظر لي فارتبكت، أيضًا كما كان الأمر في المرة الأولى.

سألته بسرعة: "هل شاهدت الفيلم الذي سنراه الآن من قبل؟"

-"لا، إنه فيلم حديث نسبيًا".

-"وكيف يعقل أنك لم تره من قبل؟"

-"لست مهتمًا بالسينما اليابانية كثيرًا، أهتم بالكورية أكثر".

-"ماذا؟ هذه خيانة!"

بطريقة مشاغبة قال: "حقًا؟ ماذا عنك إذن؟ أنا لم أرك قط تشاهدين أي شيء يتحدث بالعربية بخلاف نشرات الأخبار".

لويت شفتيّ وقلت بتذمر: "أفضل السينما اليابانية".

بسخرية كرر نفس عبارتي: "ماذا؟ هذه خيانة!"

زفرت وأشحت بوجهي ساخطة، ضحك، وعدت بعد ثوانٍ أتأمله.. الطريقة التي يسند بها رأسه لظهر المقعد المرتفع، وابتسامته، حتى الطريقة التي يتنفس بها جعلتني أشعر أننا عدنا بالزمن حقًّا للعام الماضي، كل شيء كان كما هو كأن شيئًا لم يتغير.

سألته بصوت خافت: "فيم تفكر؟"

-"أتذكرك".

نطق الكلمة متنهدًا، واختلج صدره بالتنهيدة لتهتز الظلال التي تصنعها تجعدات قميصه، ومال برأسه فازدادت الظلال على ملامحه عمقًا، تمتم: "كنتِ كيانًا بعيدًا، يراقب الناس من ركن قصي ويعود لعزلته، وقد وددت لو أعرف فيم تفكرين، وكنت مخدرًا وغائبًا عن الشعور بنفسي وأنا أقترب منك لأتأكد أنك حقًّا نفس الفتاة".

-"وبعد؟"

ابتسم، رحت أنتظر إجابته لكنه لم يجب، نظر لي وقال بلهجة مختلفة: "مكياجك اليوم مزعج".

-"هه!"

هذه المرة تشوه وجهي بالاستنكار، حقًّا كنت ساخطة لأنه يفسد تلك اللحظة المليئة بالمشاعر، وللحظة أردت بالفعل أن أوجه له ضربة تؤلمه!

أنقذ نفسه قائلًا: "شفتاك مغريتان لدرجة لن تجعلني أتردد في ضرب من يطيل النظر إليك".

ابتسمت وكتمت ضحكتي، ومددت يدي إلى اصابعه فلم يمانع: "هل أخبرتك من قبل أنك ألطف شخص عرفته قط؟ أنا آسفة للغاية، إيتشيرو.. لقد قابلت لطفك بما لا تستحق".

-"أتعرفين فيم فكرت أيضًا منذ عام؟"

-"آه يا منحرف!"

وبلا تردد مد يده نحوي، أسند بها مؤخرة عنقي وشدني إليه، وللحظة توقفت كل أفكاري عندما التقت شفاهنا في قبلة قليلًا ما تبادلناها، وأسميها أنا

القبلة اليابانية، وأنت قطعًا لم تسمعي عنها يا ندى. إنها كالأحلام، كلمس الفراشات، شيء شديد الرقة يجمع شفتيك بشفتيّ من تحبين، برفق ودون امتزاج مجنون، فقط لمسة خفيفة تومض للحظات، ثم تتوقف لتتركك محلقة فوق السحاب.

انطفأت الأضواء في تلك اللحظة، ولم تفارقني أنفاسه حتى عندما توقفت قبلتنا، ظلت تتردد قريبة مني وهو يسند جبينه لجبيني، تنهد مرارًا ثم همس: "أنا أحبك، لن أتوقف أبدًا عن هذا".

-"لا تفعل".

تشابكت أصابعنا في أثناء مشاهدة الفيلم، وهو ما تاق إليه كلانا سرًّا منذ عام، وكان للمسة أصابعه مذاق ممتع محبب، أقصى عني نكد الفيلم ومرارة أحداثه حتى النهاية. تبادلنا حديثًا عابرًا حتى دخل مخرج الفيلم لتبدأ ندوته، فتأوهت دون أن أتمالك نفسي: "آآآآه، إنه وسيم جدًّا!"

نظر لي وعلى شفتيه شهقة استنكار، وقال بحدة: "إنه يقارب والدك عمرًا!!"

-"هذا ما يجعله وسيمًا إلى هذا الحد".

لم أقصد مضايقته لكنني سعدت برنة الغيرة في صوته: "شيء جميل! سأختنق من السعادة!"

واصلت تغزّلي الصريح: "آآه، صوته رائع! ولغته! يا للجمال!"

-"حقًا! يا لك من مسكينة! نادرًا ما تستمعين إلى اليابانية!"

كتمت ضحكة لم يرها إذ أشاح بوجهه بعيدًا، وبقيت أستمتع بالندوة إلى درجة الانصهار التام في مقعدي، حتى إذا انتهت نهض ومد يده لي يقول: "هل ننصرف، أم أذهب لأطلب منه أن يعينك مساعدة له؟"

-"لو كنت أمتلك المؤهلات ما ترددت".

-"كفي عن مزاحك السخيف!"

جبينه المجعد غضبًا وشفتاه المضمومتان منحاه شكلًا طفوليًا افتقدته منذ فترة، أمسكت بيده وقلت: "هل سننصرف بهذه السرعة؟"

أجابني متذمرًا: "نعم، لا بُد أن موموكو تشان جائعة جدًّا الآن".

خرجنا، وكان الجو باردًا بشكل عذب تحول بسرعة إلى عذاب! شعرت بالهواء مثلجًا وكأنني ألبس حريرًا لا صوفًا، ثم لفني الدفء عندما خلع سترته ووضعها على كتفي.. اقشعر جسدي وأنا أشم عطره المفتقد، وأخذت منه نفسًا عميقًا وتمتمت: "آآه، كنت أرى هذا المشهد دائمًا في الأفلام الرومانسية وأتساءل متى سأعيشه حقًا".

-"ها قد رأيته، هل هناك مشهد آخر؟"

-"هناك آلاف المشاهد".

-"أخبريني عنها".

صوته كان يدعوني بصدق لإخباره، لكنني لم أعثر على شيء لأخبره به.. لقد قضيت معه ليلة في الصحراء، وسبحت معه تحت ضوء القمر، وكان زفافنا وقت الغروب، واستقبلنا عشرات الصباحات الرمادية والمشمسة بقبلات حارة وأخرى ناعسة، لم يكن هناك شيء باقٍ لأخبره به، في أقل من عام عشت كل أحلامي معه.

الجدار الشفاف الملعون القائم بيننا صار أكثر وضوحًا لعيني في تلك اللحظة، كنا وحدنا في ساحة خالية شبه مظلمة، تعلونا سماء تلمع نجومها، ويسطع قمرها بضوء حنون، تمامًا كتلك النظرة البادية في عينيه لكنني عاجزة عن أخذ خطوة واحدة إليه، أريده بعمق لكن شيئًا ما يشلني عن الاقتراب منه.

اللحظة المشئومة نفسها كانت بعد قائمة بيننا، كنت بحاجة لنسيانها حتى أعود نفسي مرة أخرى، أريد أن أحطمها وأنثرها إلى شظايا لكنني لا أعرف كيف، ظننت إيذاءه سيكون كافيًا، أو أن تجاهله سيكون مُجديًا، لكنني كنت مخطئة، لم يمح هذا ما حدث، لم يُشفني إيذاؤه وإنما جرحه بعمق، وصار الشرخ العميق في قلبي أفدح مما كان، والآن، في لحظة رائعة كهذه كان من الممكن أن تكون لحظة كاملة أخرى تنضم للحظاتنا الفردوسية، أجد نفسي عاجزة عن النطق بكلمة تصلح كل شيء، عاجزة عن لمسه، وعاجزة عن إخباره بأنني لست بهذا الغضب الذي يفلت من سيطرتي أحيانًا.

عيناه بقيتا تنظران لي بترقب تبدد رويدًا رويدًا وصار هدوءًا محبَطًا مستسلمًا، وجعلني هذا أشعر أنني أستمر في خذلان ثقته بي، ولعلني أقضي ببطء على إيماننا ببعضنا، ذلك الإيمان الذي لا أعرف كيف ستكون حياتي دونه.

عندما خفضت رأسي اقترب مني خطوة وأمسك بيدي، قال لي بمرح: "هل تذكرين عندما ودعتك في المرة الماضية؟ لقد تركتك لأعود مشيًا، هل تريدين أن نفعل هذه المرة؟ معًا؟"

-"نعم".

رفع يديّ لأعلى فنظرت له، كانت عيناه مغمضتين وهو يقبلهما، قال برفق: "لا تقلقي أبدًا بشأني، مهما حدث سيظل إيتشيرو هو إيتشيرو، مادامت هبة ستبقى هبة، هل تفهمين؟"

أومأت برأسي ممتنة، فضحك وشدني: "دعينا نشرب شيئًا، ما رأيك بتجربة عصير لم نشربه من قبل؟"

اشترينا عصير كرز غريب الطعم، وسرنا طويلًا على الكورنيش دون أن يرهقني الكعب العالي، ربما لأنه كان يلف ذراعه حول وسطي ويسندني إليه بدرجة كبيرة. مازحني عندما كدت أتعثر: "لقد أحضرته لك لتستطيعي مجاراة طولي لا لتكسري عنقك".

-"كان بوسعك أن تجد حلًا أفضل: قم بتقصير نفسك".

-"نعم، سيكون هذا مناسبًا أكثر لأتخلص من دهشة الجميع".

-"دهشة؟"

-"نعم، كل المصريين الذين أتعامل معهم يتصرفون وكأنني كائن فضائي، لديهم اعتقاد لا أفهم سببه أننا جميعًا قصيرو القامة".

ضحكت من قلبي، لم أرد إخباره عن الحمقى الذين يعتقدون بجدية أن الشعوب الآسيوية تتمتع بأعين ضيقة وبشرة شاحبة بسبب الانفجار النووي في هيروشيما وناجاساكي، فإذا أخبرتهم أن عدم تجانس شعبنا لا يلغي تجانس بعض الشعوب في أماكن كثيرة من العالم، كالسود في أفريقيا، والبشرة البيضاء والشعور الشقراء التي تميز الجنس القوقازي، والبشرة السمراء المميزة لشعوب أمريكا الجنوبية، والملامح التي لا تخطؤها عين لأبناء الهند، إذا أخبرتهم بكل هذا يسخرون منك ويؤكدون أن الآسيويين لديهم هذه الملامح بسبب تشوههم من القنبلة الذرية، فإذا أريتهم القطع الفنية واللوحات الأثرية القديمة التي تبين تمتعهم بنفس السمات من قديم الأزل يخرسون، ثم يدمدمون بكلمات غير مفهومة لم يخالطها الاقتناع ولو بنسبة صفر في المائة!!

سألني مدهوشًا من ضحكي: "هل يثير الأمر المرح إلى هذا الحد؟"

-"نعم، فأنا أحاول أن أتذكر يابانيًّا واحدًا أقصر مني ولا أستطيع".

-"آه، نعم، لكن هذا لا يعني أن كلنا طوال القامة، أعني...".

-"أفهمك، لكن هذا هو شعب مصر، إنهم لا يكفون عن قولبة كل شيء وإخضاع الآخرين لمقاييس ما أنزل الله بها من سلطان، فإذا خالفتها صرت متخلفًا أو غبيًّا أو منحرفًا أو كافرًا".

انقلبت سخريتي فجأة إلى مرارة، وتداركت نفسي: "تظاهر بعدم سماع هذا، لا تجعل يومنا يفسد".

ابتسم، وواصلنا المشي والليل البارد يغدو أكثر جمالًا كلما أوغل، ووصلنا إلى بيتنا قبل أن تدق الساعة معلنة الثانية بعد منتصف الليل بقليل، ألقيت نفسي على الأريكة وتأوهت بإرهاق واستمتاع، قال: "كان عليك إخباري أنكِ تعبت من المشي مبكرًا".

-"بالعكس، أكثر ما أريده أن أظل أمشي معك هكذا إلى الأبد".

حملني وهو يقول بتهكم: "لن أمنعك، ولكن افعليها بحذاء رياضي في المرة القادمة".

-"أنت اشتريت لي هذا الحذاء".

-"هل ينبغي عليّ الاعتذار؟"

وضعني في فراشي وأنا بعد أبتسم، أردت أن أنام وعقلي عامر بالأحلام كما هو الآن، وسمعته يهمس: "عن أي شيء يجب أن أعتذر أولًا، هبة؟ لقد ارتكبت آلاف الأخطاء".

لم أرد سماع هذا الصوت المتألم، أخفيت رأسي في الوسادة وتنفست بعمق ثم ناديته، عندما شعرت به يصغي إليّ تمتمت: "رائحتك، إنها عالقة بكل شيء".

كانت يده الباردة وهي تلمس جبيني آخر ما شعرت به، ونمت.

خلال الأيام التالية ملأني الأمل في انهيار الجدار القائم بيننا، كان في فترة راحة من عمله فصار يمضي الوقت معي، لعبنا الأيغو عشرات المرات التي انتهت بهزيمتي، وكنت أثأر لنفسي عندما نلعب الشطرنج.. استمعنا إلى عشرات الأسطوانات الموسيقية، وشاهدنا مسلسلًا كوريًّا قتلني ضحكًا، وخرجنا ذات

ليلة إلى المقهى الذي أحبه وشربت قهوتي الإيطالية المفضلة، واتفقنا على قضاء يوم الجمعة في جولة طويلة تبدأ بنزهة تسوق في وسط البلد وتنتهي بدخول السينما، كان هذا تشجيعنا الصغير ليوم المنتج المصري الذي يُعلن عنه في كل مكان.

وأتت الجمعة المرتقبة لتندلع أحداث مجلس الوزراء، واستيقظت عصرًا لأجده متجهمًا يعلن أن نزهتنا ألغيت، حاولت استيعاب جهامته فلم يخطر ببالي إلا سببًا واحدًا، تأكدت منه عندما منعني من فتح التلفزيون، وأمسك بيدي كأنه يتوسل لي ألا أطلق عليه النار، فلم أزد على قولي: "لن أذهب مهما حدث".

تركني على مضض، وفتحت التلفزيون لأتابع المهزلة التي تجري عند مجلس الوزراء، كل لحظة يذاع خبر، ثم يُكذَّب، ثم يذاع ما هو أسوأ.. نقلت الكاميرات مشاهد منحطة، وتعليقات أكثر انحطاطًا، لكن المشهد لم يكن واضحًا.. لجأت إلى اليوتيوب فرأيت فيديوهات الكر والفر بين الجيش والمعتصمين، والجنود يقذفون الناس بالحجارة والماء من فوق مجلس الشعب، وتحت أقدامهم تلمع كلمة "الديمقراطية" في مشهد هزلي، لكن الدموع ملأت عينيّ.

تابعت الموقف عبر صفحة المستشفى الميداني على الفيسبوك، وكانت التفاصيل القليلة دليلًا لا يدحض على سوء الأحوال هناك؛ كنا نحرص دومًا على نشر أخبار الميدان أولًا بأول، ونبث استغاثاتنا وطلبات المستشفى كل ساعة تقريبًا، ولم يكن هذا الصمت يعني شيئًا إلا عنفًا شديدًا يمنعهم الاستقرار بمكان واحد.

انحدر جيشنا العظيم إلى مستوى جديد من الدناءة، وبال جنوده على وجوه المعتصمين، ورجموهم بالطوب، وسحلوهم، ثم قتلوا علاء عبد الهادي، طبيب شاب من رفاق المستشفى صرعته رصاصة في الرأس وهو يسعف أحد المصابين.. ورغم مجزرة ماسبيرو التي لم تمح من رأسي، وما رأيته بعيني في محمد محمود، إلا أن صدمة ما أراه الآن أخرستني وكأنها المرة الأولى، وسحبت غطاء فراشي فوقي لأختبئ من العالم.

إنه الصدام الفعلي والصارخ بين الثورة والجيش.. من خلفنا يتربص النظام القديم، وفي مواجهتنا العسكر، والشرطة تحاصرنا، والإخوان والسلفيين تخلو.. لا، لم يكونوا معنا يومًا ليتخلوا عنا.. نحن وحدنا، الثورة الآن عارية ووحيدة، فماذا سيحدث لنا؟ لا نملك نفوذًا في الدولة ولا تغلغلًا فيها، ولن نحمل سلاحًا،

ولا نمتهن الدين لنؤلب العالم ضد من يصادمنا.. هل سننتهي إذن؟ أتكون تلك صخرة تتكسر عليها كل الأحلام؟

انقضى الليل في طرفة عين..

ارتفعت الشمس سريعًا كأنها تتعجلني، ووقفت أمام المرآة وعيناي معلقتان بالسلسلة التي أرتديها، والماسة الصغيرة في خاتم زواجي.. لا أريد أن أموت، لا أريد أن أفقد عينًا أو أتشوه، ولو أصابني مكروه فلن أعدم من يسخر مني ويشوهني ويطعن في شرفي، لكن هذا لا يخيفني، فقط لا أريد خسارة هذا الخاتم وتلك السلسلة.

ارتديت ملابسي، وخرجت بخطوات حذرة لم يكن لها معنى لأنني إيتشيرو كان يجلس على الأريكة بالخارج، وحال رؤيتي أغمض عينيه وتحركت حنجرته بتلك الطريقة التي تفضح توتره، قال: "لقد قلتِ إنكِ لن تخرجي مهما حدث".

امتلأت عيناي دموعًا: "أنا آسفة".

نهض واستبقني إلى باب الشقة، سد الطريق أمامي وقال: "لقد وعدتني أنك لن تجعليني أمر بذلك الموقف مرة أخرى، هل ستحطمين وعدك مجددًا؟"

-"أنا آسفة".

-"هبة، ألِى هذه الدرجة لا أعنيك أبدًا؟"

لم أتمالك دموعي، لكني تمالكت نبراتي بالكاد: "لا يعنيني سواك، لكن ما أشعر به ليس خيارًا، إيتشيرو.. أنا لست غير راغبة في البقاء، لكني غير قادرة.. لا أستطيع".

-"هذه الثورة ستوردك حتفك".

-"هذا أهون من البديل".

-"أي بديل الذي يهون الموت جواره؟"

-"أن ندفن أحياء.. دون هذه الثورة نحن مجرد موتى. أنت لا تفهم، ولن تفهم أبدًا، الثورة هي خلاصنا الوحيد، ولو فقدناها سيستوي الموت بالحياة".

أفسح لي الطريق، فسحقني ألم لا يطاق؛ جزء مني تمنى لو أنه أوقفني بوحشية، أو جرني جرًّا ليحبسني، أن يمنعني قسرًا من إلقاء نفسي للموت، ولمدة ثانية تردد خوفًا من فتح الباب، ثم تخيلت كم الاحتقار الذي سأشعر به لو

تراجعت فمددت يدي. قبض إيتشيرو على معصمي وسحبني بعنف، واشتعل غضبه حقًّا: "أنت تقتلين نفسك لأجل أشخاص لا يستحقون.. هل تذكرين ما قالوه لك عند خروجنا من الميدان آخر مرة؟"

-"نعم".

أمسك معصمي بقوة أكبر، ودمعت عيناه لكنه زم شفتيه بقسوة، قال: "أنتِ تستمرين في الاستهانة بمشاعري، ولا تهتمين بما ستسببين لي من أذى، وأنا لم أعد قادرًا على تحمل هذا. لو خرجتِ الآن، لو تركتني مرة أخرى، فلن نعود معًا إلى الأبد، هبة".

-"إيتشيرو!"

لم تبدر منه بادرة، وتسمرت أنظر في عينيه فترة، ثم أبعدت يده برفق وتمتمت: "إيتشيرو، أنا آسفة".

وللحظات لم أصدق أنني فعلت ما فعلت، ثم خطوت خارجة من الباب، وقبل أن أغلقه أمسك بيدي وسمعت صوته: "وداعًا، هبة تشان".

لمعت ذكرى قديمة بعقلي.. في نهاية موعدنا الأول ودعته بكلمة "سايوونارا" هذه، فاكتسب وجهه تعبيرًا طفوليًّا متذمرًا واحتج: "لا تقولي وداعًا، قولي إلى اللقاء، نحن سنلتقي ثانية فلا تستخدمي كلمة الشؤم تلك".

الآن ألقى إيتشيرو بوجهي تلك الكلمة المشئومة، وأغلق الباب خلفي.. بدا الموقف غير حقيقي، ورغم هذا فهمت مشاعر من احترقت كل سفنه.. إيتشيرو يعني هذه الكلمة، وبالتالي فلا شيء يعنيني بعد الآن في العالم.

كان المترو مزدحمًا، مشتعلًا بمشاجرات حادة بين مؤيدي الثوار ومهاجميهم، لم أتورط في الحوارات لكنني رحت أغلي غضبًا وغيظًا، وأتأهب لاستقبال الجحيم المقبلة –على خلاف العادة- دون خوف! كلمة إيتشيرو الأخيرة جعلتني أشعر بأن الموت ليس مخيفًا كما كان يبدو من قبل، ولم يكن خوف الألم –مهما كان- ليردعني عن رحلتي الأخيرة تلك.

وأخيرًا وصلت، إلى ميدان التحرير، ميداني، أرضي، الانتماء الجليل الخاشع له قلبي.

الصباح الجميل تلوث بدخان أسود كثيف يا ندى، شعرت بأن الدنيا تحترق وأنا أرى تلك السحابة المرعبة تغطي سماء الميدان، وحولي كان كل شيء

محطمًا.. أجساد ملقاة تنزف يحاول إسعافها عدد من الشباب، وخيام محترقة يتصاعد الدخان منها إلى عنان السماء، خيمنا الطبية التي تضم كل الأدوية والمعدات التي تخفف عذاب ضحايا القتلة.

جريت، كنت وحدي في صينية الميدان أبحث عن شخص أعرفه، أي صديق من رفاق الليالي العامرة بالخوف والأمل، لكن لا أحد، الكل غائب، وبعيدًا عني بأمتار مئات الشباب يجرون على غير هدى في كل الاتجاهات، رحت أجمع أكياس القطن التي نجت من التحطيم الذي دك المكان كإعصار غاشم، والمحاقن المتناثرة في كل مكان، ثم جريت إلى الناحية الأخرى من الميدان، ناولتهم عبر السور لشاب نقلهم لطبيب منهمك في علاج ساق شاب مصاب.

وعدت أجري، بصعوبة سمعت شابًا يناديني ويلحق بي، قال: "استني أنا هاساعدك".

جرينا معًا، واخترقنا ساحة مجمع التحرير إلى خيمة طبية أخرى يكاد الحريق يقضي على كل محتوياتها، ناولته صندوقًا مليئًا بالشاش، وكيسًا به زجاجات من البيتادين، وآخر به أربطة ضاغطة.. أخذهم وانطلق يجري عائدًا إلى الطبيب، وعدت أواصل بحثي عن أي شيء، أي شيء، بلا جدوى.

الخيام ممزقة وتحترق بسرعة، والنار تحيط بي، كل شيء يُفقد بسهولة، ولا يثير جنوني أنني أفقد أدوات طبية، بل أفقد روحًا قد تنقذها هذه الأدوات.

شتت أفكاري صوت الرصاص المدوي، لا يمكنني أن أخطأه من مسافة قريبة كهذه، لكن شيئًا من الخوف لم يعد موجودًا فيّ، فقط الغضب اشتعل في قلبي كالنار، أحرق مشاعري وأعصابي مع كل رصاصة أتخيلها تقتل إنسانًا مثلي، روحًا كروحي لها آلاف الأحلام والمشاعر والآمال الطيبة.

صرخت بغل: "يا ولاد الكلب".

وفي قلب الميدان، كنت وحدي كما لم أكن من قبل، يعجزني الغضب عن الصراخ بما فيه الكفاية لأستريح، لكنه يستمر بالتردد في قلبي: "أنا هنا يا مصر، نحن هنا، أفضل شبابك يموتون هنا، اشعري بنا، اسمعينا، حاولي أن تفهمينا، حاولي أن تحبينا كما نحبك، فإن لم تقدري على هذا اكرهينا، اكرهينا واصرخي بكراهيتك لنيأس، لنرحل، ارحمينا من عذاب انتظار رحمتك".

ولكن لم تأت إجابة، لا رد، لا صوت، لا شيء إلا نظرات ساخرة من ببغاء يمر بالقرب مني مغادرًا الميدان.. كان يرى الحريق الذي أجري وسطه، ويسمع صوت الرصاص القريب، ويرى الدم الذي أغرق الأسفلت، لكنه لم يقل إلا عبارات عن "الشباب الفاضيين اللي خربوا البلد". ساعتها شعرت بالغضب يدفعني للبكاء، جلست على الأرض أبكي من أعماق قلبي وكأنني لم أبك قط من قبل. وفي تلك اللحظة عرفت أكثر من ذي قبل معنى أن أكره شيئًا بقدر ما أحببته يومًا، اكتسحني ألم الكراهية العميق، تلك الكراهية المجنونة التي تنطلق في قلبي كقطار محترق يجرف أمامه كل شيء ويسحقه، كانت تؤلم يا ندى.. تؤلم أيما ألم، إنها الجحيم نفسها!

استحثني رفيقي لاهثًا: "بسرعة يا أختي، دول محتاجين أي حاجة نلاقيها".

استرددت روحي إذ وجدت أن ما أفعله ذا جدوى، وإن كانت تافهة.. جريت معه إلى الخيام لنبحث مجددًا، وقتلني اليأس عندما وجدتها خالية، لكنه شجعني: "تعالي ندَّور في الصينية تاني".

جرينا، وقبل أن نغادر ساحة المجمع بلغنا صراخ مرعب هادر من جهة شارع قصر العيني، فغيرنا اتجاهنا إلى هناك، وقبل أن نصل رأيناهم قادمين، أمواج الثوار الهاربين من أمطار الرصاص في نهر الطريق، وحفنة من العسكر يلاحقونهم، وآخرون يبرزون من ساحة المجمع قربنا. صرخ بي الشاب: "اجري".

وجذبني من ذراعي ودفعني أمامه، أفقدني صراخه المذعور صوابي، وأدركت أن وقوعنا في أيديهم سيكون أسوأ من أي رصاصة طائشة تنهي حياتنا. جرينا وجرينا، لكنهم أدركونا، وبشعور فظيع بالألم سقطت أرضًا.. لا أعرف لمن كان الصراخ في تلك اللحظات، هو أم أنا، لكن الألم كان جارفًا يحيط بي من كل ناحية، يملأ الهواء كدخان أسود آخر يفرزه حقدهم وغلهم.. لم يضربوننا بكل هذا الجنون؟ الجيش الذي هتفنا له قبل شهور بفخر وفرحة أننا وهو يد واحدة، كان ضباطه الآن يتكالبون علينا بغية قتلنا!

كان الشاب ملقيًّا فوقي يتلقى أغلب الضربات عني، توسل لهم في البداية، ثم أطلق عنان لسانه بشتائم تمس رجولتهم التي استباحت حرمة فتاة، ولم تحرك الشتائم فيهم إلا مزيدًا من الغل. اشتممت نيتهم في القتل وصرخت، أردت إبعاده عني، لا أريد أن يحميني أحد، لا أريد أن يمنعني أحد عن الفتك بهؤلاء الذين صبغوا أجمل أيامي بسواد الأسى.. كنت أرى المدرعات التي تدهس

الشباب أمامي، ووجه القناصة، ووجه أخي المشوه بشظية، ومينا دانيال المبتسم ثم جثته الغارقة في الدم، وعينيّ أحمد حرارة المفقودتين، وآلاف الشباب الذين سقطوا أمامي بالغاز يختنقون، وأطفال الشوارع الذين وقفوا معنا ببسالة حقدًا على القتلة "الظَلَمة" فصيَّروهم بلطجية بعد اغتيالهم غدرًا، وأهالي الشهداء المسحولين، والمصابين المُهانين، والطبيب الشاب الذي أخذته يد آثمة في لمح البصر. سجل طويل من الكراهية. لا أطيق أن يمنعني أحد من الاقتصاص له الآن.

كنت أصرخ، أسب وألعن، وفي كل لحظة أقول إنني سأنهض بعد هذه الضربة، لكن ضربة أخرى تداهمني، سحقني سيل جارف من الركلات واللكمات، لا يرون أصلًا أنهم يضربون إنسانًا، فضلًا عن كوني فتاة.

تمزق حجابي فلم يأبهوا، وجرجروني من شعري والركلات لا تتوقف، وطارت نظارتي عن وجهي وسمعتها تسحق، فلم أعد أرى رفيقي الذي تصاعدت صرخاته كأنه يُسلخ حيًا، وابتعد صوته عني.. لم أر إلى أين يأخذونني، وكنت أسمع من يشتم فأشتم بالمثل فيكون نصيبي مزيدًا من الضرب، حتى أصابتني صفعة طحنت لساني بين أسناني، وملأ الدم فمي فبصقت، فتلقيت ضربًا أزهق وعيي، وارتميت في شبه غيبوبة، أشعر بالألم وكأنه في جسد آخر.

أفقت على أرض متسخة بالتراب والدم، وتحركت فلامست أجسادًا أخرى أطلقت أنينًا يعبر عن آلام أعنف من آلامي، اعتذرت، وجلست فسال الدم من أنفي إلى ركبتي دون أن يحرك الفوبيا الكامنة في قلبي منه.. لقد فعلت كل ما أقدر عليه، لن يأتي يوم أقول فيه: إني تهاونت، واستحققت مستقبلًا مظلمًا في بلدٍ ضائع.

اقتربت مني فتاة ومنحتني منديلًا مسحت به وجهي، وبقيت جالسة حتى أمرونا بالوقوف، وفتشونا بعنف مُذل وأخذوا كل ما نحمل من أموال ومتعلقات، عندها حمدت الله لأنني تركت خاتمي وسلسلتي. الصمت المخيم علينا كان يعدنا بالويل لو جرؤنا وحطمناه، لكن ما كان أحدنا قادرًا على تحطيمه، التعب والألم كانا أقوى بكثير من الغضب والرغبة في الاستفزاز الآن.

لا أعرف كم بقيت هناك يا ندى، ساعات كما أخبرني سطوع الشمس بعد خروجي، لكنها مرت كسنوات من الألم والإهانة المفرطة والتعذيب، لقد كنت أسمع من يتعذب في مكان غير بعيد، وأسمع أن هناك أشخاصًا حولي يُضربون

بوحشية، لكنني كنت غارقة في بركة آسنة من رعب مقزز استولى عليّ وعلى فتيات غيري من تهديداتهم القذرة بعمل "حفلة" علينا. لم أُهن في حياتي كما أُهنت في ذلك اليوم، وكانت الشتائم التي لحقت بي كفيلة بجعلي أنتحر لو من شخص أستطيع الرد عليه، لكنني استسلمت حفاظًا على جسدي من عبثهم وانتهاكهم الذي يهددون به.. هذا الجسد ملك لرجل واحد فقط، وما كنت قادرة على إيذاءه أكثر وبهذا الشكل المُهين، يكفي ما تسببت فيه من أذى لن يغفره لي، ولو فعل فأنا لن أغفره لنفسي؛ لن أغفر لنفسي أبدًا أنني عرضت نفسي للضرب والخطر والموت لأجل مستقبل أبناء حثالة كالذين ضربوني وأهانوني، غضبي على مصر وكراهيتي لها في تلك اللحظات أعمياني عن رؤية كل ما غادرت منزلي لأجله، ولم أسترد وعيي بنفسي إلا عندما رأيت صليبًا موشومًا على يد تمسك بيدي لتطمئنني، فأعادت إليّ ذكرى ابتسامة مينا دانيال.

بقيت هناك حتى أنقذني أصدقائي من المستشفى الميداني، فعلى غير توقع جاءوا لرؤية الجرحى، وأصروا على اصطحابي معهم، ورفضوا الانصياع لأوامر ضباط الجيش التي تتوعدهم إن لم يتركوني. هؤلاء هم رجال مصر الذين لم نرهم من قبل قط يا ندى، إنهم يظهرون في تلك الأوقات فقط توطئة للاختفاء مجددًا عندما تهدأ الدنيا. كم أنا حانقة عليهم! حانقة لأنهم يظهرون ليخاطروا بحياتهم ثم يذهبون، وفي كل مرة يظهرون فيها يقل عددهم باستشهاد بعضهم. حانقة لأنهم لا يستحقون الموت لأجل الببغاوات الحُثالة الذين يطعنون في شرفهم وكرامتهم في حواراتهم التافهة بعد المباريات. نعم يا ندى، أنا حانقة على رجال مصر الحقيقيين كثيرًا، ولم أعد أتحمل فقد المزيد منهم.

هؤلاء هم خير الأجناد.. ليس شرطًا أن ترتدي زيًّا مموهًا لتكون كذلك.

تلك كانت عودتي الأخيرة للمستشفى الميداني، في هذه المرة لم أكن مسعفة بل مصابة، وجسدي يتألم من كدمات لم تسفر عن نفسها بعد، لكنني على قيد الحياة والفضل للشاب الباسل الذي تلقى أغلب الضربات عني. مازحني أصدقائي الأطباء فخورين بلساني السليط الذي لم يدخر سبة، لكن شعورًا بالعار اعتراني لأني انتهكت خلقًا طالما تمسكت به، فطلبت منهم أن يكفوا، وتلقيت تهنئات النجاة بابتسامة مزيفة مرهقة، ثم انعزلت بعيدًا يملؤني شعور حاسم بأنني لن أعود إلى هنا ثانية.

عند العصر جاء محمد عبد الواحد، حياني بضحكة كبيرة وابتسامة مشرقة فخور: "يخرب بيت فقرك، ما تجيش غير منك أنتِ!!!"

-"أمرك لله، المرة الجاية يكون الدور عليك إن شاء الله".

-"لا، أنتِ نسيتِ العلقة اللي فاتت ولا ايه؟"

ثم منحني بعض التمر، صديقنا المخلص في أيام الثورة الأولى، الذي ساعدنا على الصمود أيامًا دون طعام حقيقي، قال معتذرًا: "آسف لأني مقدرتش آجي أشوفك من بدري، كان معايا ناس بتموت".

-"تسلم يا محمد، أنا كويسة".

-"وجوزك؟"

-"ماله؟"

-"فينه دلوقتي؟"

قلت وأنا أبدل مكان كيس الثلج الموضوع خلف عنقي: "في أي مكان إلا هنا يا محمد، كل الناس معتقدة مصر جنة الله في الأرض ولو شافوا أجنبي في التحرير هيقتلوه فورًا".

-" الحمد لله".

هكذا قال وهو يهز رأسه، أما أنا فشعرت بالتوتر لتلك الإشارة لإيتشيرو، وفكرت فيما سيحدث لو عدت إلى البيت الآن، تُرى، هل يطردني؟ لا، ليس إيتشيرو من يفعلها، لكنه حقًّا لن يسامحني، ماذا سأفعل لو لم يسامحني؟!!

قال لي محمد وهو يبتسم كأنما أدرك أفكاري: "الشاب ده شجاع، أنا مش قادر أتخيل نفسي مكانه".

-" بجد؟!"

-" تخيلي نفسك مكانه".

بالرغم من بديهية الجملة إلا أنها بدت وكأنها أتت من سماء صافية، حاولت أن أفعل لكن التخيل أرعبني، وقلت: "أنا لازم أمشي".

ودعني محمد وبعض زملائي بابتسامات تحمل آلاف المعاني، كأنما أدركوا نيتي في عدم العودة.

بمجرد ركوب المترو فتحت أزرار معطفي وأحزمته، ورغم تمزقه في مواضع كثيرة إلا أنه كان متماسكًا، وتحت ملابسي كانت متعلقاتي القليلة آمنة بعيدًا

عن أعين الحُثالة وأيديهم، أخرجت هاتفي واتصلت بإيتشيرو لكن هاتفه كان مغلقًا، فتضرعت إلى الله من قلبي أن يكون غاضبًا، لا مصابًا في مكان ما بعدما لحق بي إلى الجحيم.

بلغت المنزل لأجده مبعثرًا، مزهرية مكسورة، وحاسوب ملقي على السجاد، وأريكة مقلوبة.. لم أر إيتشيرو من قبل غاضبًا لدرجة تحطيم شيء، وملأني هذا بالرعب، لكنه زادني إصرارًا على تحمل نتيجة ما فعلت.

ناديته فلم يرد، دخلت إلى غرفة نومنا فوجدتها كما تركتها في الصباح، دخلت إلى الغرفة الأخرى فوجدتها تحمل سمة الفوضى الثائرة كغرفة الاستقبال، ثم صدمتني حقيبتا سفر ضخمتان مفتوحتان على الفراش، امتلأت الأولى منهما بكتبه وأوراقه، والثانية امتلأ نصفها ببعض ملابسه، وجوارهما حاسوبه المحمول الصغير، وهاتفيه، وكاميرته، وألبوم صورنا، وصورة زفافنا.

أخذني ذهول عميق أقعدني أرضًا، لم أتوقع قط أن يفكر إيتشيرو في تركي.

ثم اقتحمني السؤال المجنون: أين هو؟

جريت أفتح الغرف باحثة عنه، وعندما لم أجده اقتحمني سؤال آخر: هل ذهب ليشتري تذكرة الطائرة التي ستعيده لبلاده؟ ليفصم –إلى الأبد- ارتباطنا؟

اقشعر جسمي للفكرة، وكالمجنونة أفرغت حقائبه ورتبت محتوياتها كسابق عهدها، ثم رتبت المنزل كأن شيئًا لم يكن، وركبني شيطان الإصرار على إعادة كل شيء كما كان.. من قال إنه سيذهب؟ أحمق لو ظنني سأتركه، أحمق لو فكر في تركي، أحمق لو قرر شيئًا يناقض اتفاقنا ووعدنا الأول.

جريت إلى غرفتي، وجدت خاتمي وسلسلتي في علبتهما فارتديتهما دون تفكير، ولفني الدفء كأن جزءًا منه عاد إليّ، وبسرعة مجنونة خلعت ملابسي الممزقة المتسخة وطوحت بها تحت الفراش، وجريت إلى الحمام، أصابني الماء الساخن بجمود اتسقت خلاله أفكاري وانتظمت خططي، وعندما خرجت من تحته وقفت أمام المرآة أتأمل البخار المحلق بعيدًا عن بشرتي، وأشكر الله لأن الضربات التي أشعر بألمها لا تبدو آثارها على جسدي بعد؛ لو وصل الأمر إلى إقناعه بأن كل ما حدث في الصباح محض وهم، سأفعل.

جففت شعري بعناية، وشرعت في ارتداء ملابسي حين رن الهاتف، جريت إليه جريًا وشعرت بجسدي يبرد انفعالًا وقلقًا وأنا أرى اسمه يتألق على

الشاشة، قبلت المكالمة بسرعة وحييته بلهجتي المرحة المألوفة: "حبيبي، لقد تأخرت في العودة!"

-" أيوة يا هبة، أنا محمد".

كأن دلوًا من الثلج سكب عليّ في أثناء نومي، لم أفهم ما يحدث، ولم أعرف ما أقول.

كرر الصوت الذي أصبح فجأة مألوفًا: "هبة، مش أنتِ هبة؟ أنا محمد عبد الواحد، ردي عليّ".

طرفت بعيني، ترنحت، وجلست على طرف الفراش شاعرة بهبوط شديد، غمرني عرق غزير، وشعرت أني سأفقد وعيي. تمتمت بصوت لم أسمعه: "محمد، إزاي....".

-"أنا آسف، أنا بجد آسف، بس ماكنتش متأكد إنه هو وقلت أجرب رقمك، أنا آسف".

-"حصل ايه؟"

لم أسمع نفسي؛ دوى عبر الهاتف صوت انفجار مألوف خفيض، فعرفت ما حدث.

-"ما تخافيش، هو لسة عايش، بس قوليلي هو عنده حساسية من مركبات طبية أو بنج أو...".

صوت انفجار آخر بعيد جدًّا، أصبح خلفية لفيلم أرى فيه وجهه الشاحب، وعينيه الملتهبتين من أثر الغاز، وصوت أنفاسه المتألمة، انهياره، غيبوبته واللحظات التي كاد الموت يختطفه مني، ثم عبارة محمد "هو لسة عايش".. إذن ما زال حيًّا، هذا كل ما استطاع أن يطمئنني به، "لسة عايش"، ولكن على أي حال هو "لسة عايش"؟

دوار، دوار شديد، غثيان، شعور مرعب بالخوف لدرجة جعلتني غير قادرة على الوقوف، ثم ظلام، وعندما فتحت عينيّ وجدت ثلاث مكالمات لم يرد عليها، فتحتها فرأيت اسمه، لكنه لم يكن المتصل هذه المرة.

عشت عمرًا من الرعب والفزع حتى عدت وصلت إلى المستشفى الميداني وعثرت على محمد، وإذ رآني اضطرب لرؤيتي، وقال وكأنه يخشى على عقلي: "أنا آسف يا هبة، أنا...".

-"فينه؟"

-"نقلناه المستشفى، كان صعب ننقذه هنا؛ واضح إن عنده مشكلة في صدره".

-"الحساسية، الـ...".

وسقطت على ركبتي، وانخرطت في البكاء، سمعته يحاول مواساتي، لكني بقيت أبكي لأسترد هدوء نفسي، لكن نفسي لم تهدأ، كانت على وشك قتلي بتأنيب الضمير، لو أن شيئًا أصابه سأقتل نفسي فورًا؛ لن أعيش وحدي حاملة وزر دمه وذنب إفقاده حياته بغبائي.

لم أعرف على وجه التحديد إلى أي مستشفى نُقل، الطبيب الذي أشرف على نقله لم يكن موجودًا، ولم أتحمل البقاء فقررت الكفاح وحدي في رحلة طويلة للبحث عنه، بعينين ضعيفتين لا تريان جيدًا، وأطراف مثلجة من فرط الخوف، أتخبط في زحام البشر قاطعة الطريق جريًا إلى المترو، لم تكن هناك مواصلات سريعة، ولا طرق آمنة، لكن مخاطرتي كانت أقل شيء أفعله لأجله، أقل شيء سيجعلني أقول لنفسي أنني حاولت فعل ما عليّ لأجله.

كان هاتفه معي، لكن الجنون المُستبد بي جعلني أستمر في الاتصال به كل دقيقة وأخرى، وصوت الرنين يشعرني أنه يومًا سيجيبه، عندما أجده، عندما يعود لي.

لكني استرددت عقلي فكففت عن محاولات اتصالي اليائسة البائسة، وصار جنوني عاصفة من البكاء.. عندها فقط أمكنني فهم ما كان يعنيه تمسكه المجنون بي، ورعبه، وهلعه، ورأيته أمامي بوضوح كما في تلك الليلة في محمد محمود، بوجه شاحب متعرق، يتحدى حساسية صدره الخطيرة لإنقاذي، وصفعته التي لم أستشعرها يومذاك أحرقت خدي الآن.

العالم كله ما عاد له معنى بدونه، كل شيء سيفقد معناه إذا لم يكن موجودًا، أنا، ذكرياتنا، متعلقاتنا الصغيرة، مشاعرنا التي لا تصدق، حتى البيت الجميل سيصير مقبرة باردة سوداء. ترعبني فكرة البقاء فيه وحدي إلى الأبد لو

أصابه مكروه، إلى الأبد؟ لا، لن يكون هناك أبد لو تركني.. كم من الوقت سأستطيع قضاؤه وحدي إذا رحل؟ وكم سأصمد قبل أن أصاب بجنون تام؟ وماذا لو نجوت من الموت أو الجنون وبقيت وحدي؟ ماذا لو بقيت طيلة حياتي أعرف أنني كنت سببًا في موته!

كلمة موته جعلتني أصرخ بصوت مبحوح في أثناء جريي، وأنفجر من جديد في البكاء: "غبية".

تحمل أفكاري كان فوق أي قدرة لي على الاحتمال، جاهدت للاحتفاظ ببقايا عقلي لأفكر في أي مستشفى آخر قد يرسلونه إليه، ثلاث مستشفيات أذكر أننا نرسل إليها الجرحى: قصر العيني، الدمرداش، المنيرة، وكان أول اختياراتنا دائمًا مستشفى قصر العيني.

غادرت المترو في محطة السيدة زينب، ولم أحفل بكل الحمقى الذين دفعتهم في أثناء جريي، ما كنت مهتمة بمقدار الضرر الذي سأسببه لأي شخص في سبيل اطمئناني إلى أن عالمي أنا لم ينهر بعد. في قصر العيني الفرنساوي انكببت على طاولة الاستقبال أسأل الموظفة عن استقبال أي مصاب أجنبي اليوم فأجابتني بالنفي، رحت أتوسل إليها لتتأكد من الأمر فراجعت سجلاتها ثم أصدرت جوابًا قاطعًا بالنفي. تكرر نفس الأمر في مستشفى قصر العيني التخصصي، والمستشفيات القريبة من ميدان التحرير كلها، وفي مستشفى المنيرة، كنت أقترب من انهيار عصبي وأنا أقطع المسافة إلى مستشفى الدمرداش، مرعوبة، خائفة، يائسة، يعجزني نظري الضعيف عن الرؤية جيدًا فأتخبط في أثناء سيري بالأشخاص تارة، وتكاد السيارات تسحقني تارة أخرى. أقف حائرة بين التقاطعات وأنا أبحث عن الاتجاه الصحيح فأنظر للسماء، أكاد أسأل النجوم التي لا أراها عن مكانه، أتمنى لو كان ينظر لنفس السماء الآن لعلنا نتصل ببعضنا البعض وأعثر عليه. قلبي لا يتحمل الصبر أكثر لكن ساقيّ تتخاذلان من شدة الجهد، وجزء مني خائف من بلوغ المستشفى خشية الموت. لا أتصور ما سيصيبني لو وجدته، ولا أتحمل ما سيصيبني لو لم أجده، صارت حياتي كلها تعتمد على كلمة واحدة سيلقيها بوجهي موظف استقبال، لكن الله كان رحيمًا بي، فبمجرد دخول المستشفى وجدته أمامي في طريقه للخروج.

توقفت، وتوقف قلبي معي، لم أر ملامحه جيدًا فترددت، ثم عاد قلبي للنبض بمجرد أن التقت نظراتنا، جموده وتلك الحركة العصبية لحنجرته أكدت لي أنه هو، كان هو بلا شك، عرفته رغم المسافة البعيدة ورغم الضباب الذي يعميني،

رددت اسمه بغير تصديق، ثم أخذني صمت تام سمعت خلاله ضربات قلبي العنيفة، وبعد ثوان سقطت أبكي، بدأت أخيرًا أتنفس، وعدت مرة أخرى للحياة.

عندما وضع يده على كتفي انتفضت، ألقيت نفسي عليه، كاد توازنه يختل من الصدمة ثم تماسك، ورحت أنا أشدد ذراعيّ حوله وأردد اسمه كالمجنونة، وأضغط أذني فوق صدره لأسمع نبضاته.. كانت كل نبضة توجه سهمًا قاتلًا لفكرة عذبتني خلال ساعتي البحث المرعبتين، وتوجه ضربة قاضية للجدار الشفاف الذي انهار متناثرًا لألف قطعة تحت قدميه.

كنت أتأوه وأنا مستمرة في تطويقه متشبثة به، آهات ألم شديدة مبعثها أفكاري الواضحة تمامًا عما كنت سأشعر به لو فقدته، وأي جنون كان سيمزقني لو رحل عني أبدًا.. كان الألم فوق قدرتي على التماسك، فوق قدرتي على التعقل، شرعت في تقبيله بشوق ولوعة، وسمعته يناديني مرتبكًا ومحرجًا، ثم طوقني بدوره لينهضني، واحتفظ بيديه حولي عندما تبين له عجزي الحقيقي عن التماسك.

بعد دقائق توقف بكائي وكأن مصباحًا انطفأ، ابتعدت عنه وشرعت أتأمل تفاصيله وكأن عامًا مضى منذ رأيته آخر مرة، كل شيء كان كما اعتدت، لكن عينيه بهما أثر احمرار خفيف، وفي بشرته شحوب لا يكاد يلحظ، الاختلاف الحقيقي كان في البرود الشديد في مسلكه ونظراته؛ لم يحاول قط أن يرد قبلاتي، ولم يبد قلقًا بشأني كأني عدت من التسوق.

لم يقلقني هذا بعد ما عانيته في الساعتين الأخيرتين، كنت مستعدة لتحمل أي شيء، سألته: "ماذا أصابك، حبيبي؟ أأنت بخير؟"

-"هذا ما يجب أن أسألك إياه".

صوته كان خاويًا، كأنه يحيي شخصًا لا يعرفه، أما نظراته فرغم برودها كانت متفحصة، تعريني بلا اكتراث باحثة عن حقيقة لا أدركها.

بعد لحظات من التحديق البارد قال: "هيا، وقفتنا هذه ليست لطيفة".

سحبته من يده وجريت إلى الخارج، ألقيت نفسي أمام أول تاكسي لأوقفه كأني قاطع طريق محترف، ثم جذبته ليجلس جواري وأنا أهتف بالسائق لينطلق، وعندما استدرت إليه كانت عيناه قد فقدتا برودهما وتنظران لي كأنني

قد جننت تمامًا، قال مذهولًا: "التاكسي كاد يرتكب حادثًا بسببك! لقد ألقيت نفسك أمامه إلقاءً!"

باندفاع مجنون قلت: "فلتذهب الدنيا كلها إلى الجحيم، تعال هنا".

وجذبته إليّ، عانقته بقوة ملصقة خدي بخده، قبلته أسفل أذنه، ثم انحدرت بقبلاتي إلى عنقه، هذا العطر الخافت العالق ببشرته جعلني أشعر – مجددًا وبعمق- أنني على قيد الحياة.

ناداني سائق التاكسي كالمصعوق: "يا آنسة، يا آنسة احنا في طريق عام، الله يكرمك....".

صححت له بحدة: "مدام من فضلك، أنت مش شايفه قدامك يعني ولا ايه؟"

-"لا مؤاخذة، بس احنا في طريق عام وعيب كده".

قال إيتشيرو بهدوء لطيف: "أنا آسف، من فضلك كَمِّل طريقك".

شَدَه السائق لفرط دماثة ورقة أسلوبه، ثم تمتم: "آه، طبعًا، طبعًا".

بقيت صامتة أضغط أعصابي بكل قوتي، لكنني انتفضت من دوامة انفعالاتي مع رنين الهاتف، فأخرجته ومعه هاتفه، أجبت مبادرة المتصل بالهتاف: "خلاص يا محمد، أنا معاه دلوقتي، شكرًا".

وأغلقت المكالمة، فسألني إيتشيرو ببرود: "هل تحاولين إقناعي أنك قد سمعت كلمة واحدة من المتصل؟ ثم كيف عثرت على هذا الهاتف؟"

دق قلبي كما لم يدق من قبل وأنا أتأمله، كنت أسترد شعوري بنفسي الحقيقية التي أعرفها الآن، وأنا أتلمس وجهه بأصابعي بسعادة، مقاومة الصراخ بأعلى صوتي، حتى بعدما أبعد يدي وأشاح بوجهه.

أخيرًا وصلنا، وفور خروجنا من التاكسي وقفت أتنفس بعمق، ثم أمسكت بيده وجذبته معي، لم يكن في ذهني إلا قرار واحد أعرف كيف أنفذه، لهذا تجاهلت كل ما يقول، لم أرد على أي من عباراته المستنكرة حتى دخلنا شقتنا، في نفس المكان الذي شهد افتراقنا صباحًا أوقفته، ووقفت أمامه، قلت بحزم صبغته مشاعري الجارفة: "تاكاهاشي إيتشيرو، أنا أحبك، وأرغب في قضاء حياتي كلها معك، هل تقبل بمنحي فرصة أخرى؟"

رمش بعينيه متفاجئًا، بقي لحظات ينظر إليّ ثم سألني: "وهل أستطيع الرفض؟"

اقتربت منه بسرعة، وقلت وأنا أتهيأ لإلقاء نفسي على صدره: "بالتأكيد لا".

فرد ذراعه أمامه، أوقفني، هز رأسه مرتين وقال: "آسف، هبة، لكنني أرفض".

كان ألم الصدمة عميقًا وموجعًا، إلا أنني ذكرت نفسي بقرار تحمل مسؤولية ما حدث، لا يجب أن أستسلم للصدمة الآن؛ لا أعرف ماذا يخطط له، ولن أقبل بقرار رحيله.

مر بجواري متجهًا إلى غرفته، وتوقف عند الباب، لم أر وجهه لكن ظهره أوحى لي بمشاعره، الحركة العصبية لعنقه، حركة ذراعه، والطريقة التي فرد بها قامته، كلها شفت عن تفاجئه باختفاء حقيبتيه، وعودة النظام للغرفة كأن شيئًا لم يكن، مرت لحظات من الصمت بعدها نظر لي من فوق كتفه قليلًا، ثم دخل الغرفة وأغلق الباب بالمفتاح، وقفت صامتة وقد شُل تفكيري حتى سمعت صوت حركته بالداخل، قلت بصوت عالٍ: "أنت لن ترحل، إيتشيرو، لن تخرج من هذا المنزل إلا إذا قتلتني".

مر نحو نصف ساعة، وعندما خرج ساحبًا حقيبتيه وحاملًا الثالثة على كتفه وجدني بانتظاره حاملة سكينًا، وباستغراب من وجد طفلًا أحمق سألني: "ماذا تفعلين؟"

-"أنت لن تذهب، سأختطفك لو اقتضى الأمر".

-"ابتعدي عن طريقي، هبة. لست متفرغًا لألعابك بعد الآن".

-"أنا لا أمزح، ولن أتركك تذهب، سأقتلك وأقتل نفسي قبلها".

ترك أولى حقائبه ومده يده نحوي، لم أتحرك، فقط شهقت عندما أمسك معصمي بسرعة ولواه، كانت الحركة قاسية مؤلمة لم أصدق أنه يفعلها معي، وفي لحظات كان يطوح بالسكين إلى آخر الردهة، ودفعني دفعة جافة بعيدًا عنه وقال: " ابتعدي".

أمسكت بيد الحقيبة وحاولت سحبها، لكنني فشلت، قوتي لم تكن ندًا له ولو قليلًا، وباءت كل محاولاتي لأخذ الحقيبة منه بفشل تام، وقف يتأملني ببرود وأنا ألهث فاهتز قلبي، بدأت أعصابي تنهار؛ لم يكن يمثل، لم يكن يحاول تأديبي

أو تعذيبي، كل شيء فيه يقول: أنه حقًّا جاد في قراره، إنه ينوي الذهاب وتركي وحدي.

بغضب ويأس صرخت به: "إلى أين ستذهب؟"

-"سأعود إلى بلادي".

-"وماذا عني أنا؟ أنا زوجتك".

-"لم تعودي كذلك، هبة".

أعمتني الدموع، كدت أصرخ من مغزى عبارته التي انغرست في قلبي كرمح كبير مسموم.

سمعته يقول بنفس البرود: "زوجتي اختفت منذ شهور، لم تعد هنا، لعلها غرقت في البحر".

-"أنا...".

-"بل هي غرقت بالفعل، حاولت إنقاذها لكنني فشلت، والآن يجب أن أعود لبلادي".

-"لن تذهب".

هكذا صرخت واستبد بي الغضب، وقفت أمامه ورفعت ذراعيّ أمنعه، كررت: "قلت لك إني سأقتلك لو اقتضى الأمر، وأنا لا أمزح".

-"ابتعدي، لا تغامري بإفقادي صوابي أكثر من هذا".

-"افقده إذن، افعل ما شئت، لكن لا تذهب، إيتشيرو، أرجوك".

أزاحني جانبًا مرة أخرى، وشد حقيبته مارًا بجواري، بمجرد أن فعل طعنني وجع هائل جعلني أصرخ، ومنحني قوة شديدة مكنتني من أخذ حقيبته عنوة، طوحتها جانبًا وركلت الأخرى، وسحبت المعلقة فوق كتفه لألقيها أرضًا، احتضنته وبكيت، بقيت أطوقه بمزيج من الألم والحب، وفي قلبي شعور كبير بالخوف منه، ربما لهذا لم أكن راغبة في تركه يستدير لي، كنت خائفة من رؤية وجهه مجددًا، وجهه البارد القاسي الذي لا يبالي بي.

سمعته يقول بقسوة: "قلت لك: لا تغامري بإفقادي صوابي أكثر، وأنت مازلت مصرة على إثارة غضبي، إلى متى ستستمرين بفعل كل الأشياء التي من شأنها...".

-"سأستمر بفعل كل ما يجعلك تبقى، سأمنعك بكل قوتي كما تمنيت أن تفعل أنت معي".

تملص مني واستدار لي، ورأيت للمرة الأولى شياطين غضبه. زجرني: "لا تلقي أخطائك عليّ، وللمرة الأخيرة آمرك أن تبتعدي عن طريقي".

-"لن تذهب، لن تخرج من هنا إلا إذا قتلتني".

ابتسم، ابتسامة باردة صلدة مؤلمة، وهمس كأنما يستمتع بالعبارة: "وأنا لن أبقى مهما فعلتِ".

وتركني، حمل حقيبته وسحب الأخرى، وبحث بعينيه عن الثالثة وأنا أراقبه، أحاول استيعاب عبارته الأخيرة ولا أقدر، وفي لحظة ما التقت نظراتنا، نظرة عابرة لم تستغرق ثوان، ولم تنقل إليه مشاعري، لكنها نقلت إليّ بروده الصادق ولا مبالاته. ومضت في عقلي فكرة ملعونة تقول: إن هذه هي نظرتنا الأخيرة، وهذه آخر ذكرى بيننا، فشعرت بالجنون يدهس بقايا تعقلي، لم أتحمل مشاعري وركضت خلفه، مرة أخرى احتضنته، ومرة أخرى تملص مني وصرخ: "لا تفقديني صوابي أكثر".

سمعت صرخته فتوقف قلبي رعبًا، ثم رأيت جزءًا من وجهه المشوه بالغضب وهو يستدير لي، بعدها لا أعرف ماذا حدث، تداخلت الأصوات والمشاهد، ثم فتحت عيني فرأيت البساط أمامي تعلوه شظايا متناثرة، وعنق مزهرية نصف محطم على بعد بوصات من وجهي، والعمود الخشبي الذي يحمل المزهرية واقعًا فوقي، لم أشعر بثقله إلا بعدما انزاح عني، أزاحه إيتشيرو وجثا على ركبتيه جواري.

رأيت الرجل الذي أحب مرعوبًا، يرقدني على ظهري ويتحسس وجهي، يفحص رأسي وذراعي وكتفي، شفتاه تنفرجان وتلتقيان مرارًا لتعبرا بصمت عن اضطراب تام، ثم يحني رأسه ليستقر على صدري، وسمعت تنهيدة خلاصه.

سألني متألمًا: "إلى متى تريدين الاستمرار في تعذيبي، هبة؟ إلى متى؟"

ردد سؤاله كثيرًا، ولم أجد إجابة إلا الدموع، وقبل أن أتكلم رفع رأسه وطوق عنقي، أنهضني لأجلس واحتضنني، تمتم: "أنا آسف.. لم أقصد دفعك، لكنه غضبي، أنا غاضب للغاية، هبة".

تشبث بذراعه ورجوته: "امنحني فرصة أخرى، إيتشيرو، قدر مشاعري هذه المرة فقط".

-"وماذا عن مشاعري أنا؟"

بقيت متشبثة بذراعه؛ جلسته غير المستقرة منحتني شعورًا أنه سينهض ويركض مبتعدًا عني، رغم أن سؤاله المتألم شف بوضوح عن انحسار غضبه، وأن الحديث الصريح معه لم يعد مغامرة خطرة.

رحت أعاتبه وأؤنبه وأعتذر إليه في نفس الوقت بقولي: "لا أريد أن أذكرك بما حدث في الإسكندرية، ولكن وقتها أنا لم أفكر في تركك ولو للحظة، إيتشيرو، رغم أن قلبي انكسر وقتها كسرًا ما زال يؤلمني، وأنت الآن تريد أن تذهب وتتركني، أنت...".

-"هل حاولتِ تخيل مشاعري وأنتِ تخاطرين بنفسك دون قدرة على منعك أو حمايتك؟"

-"نعم، الآن فقط أفهم، وأنا آسفة لهذا أبد الدهر، ولكن كان بوسعك منعي وإيقافي بأي وسيلة تريد، ولكن ليس بوسعك تركي.. لقد وعدتني، لقد تعاهدنا على هذا".

-"أنتِ أيضًا تركتني، غادرتِ المنزل غير مكترثة بأن...".

-"أرجوك لا تذكرني، أنا سأعتذر دائمًا لتنسى ما حدث اليوم، إيتشيرو".

لم يرد، و أنبأتني أنفاسه باضطرابه، وفكرت فيما سيحدث لو رفض اعتذاري، أرعبني الظلام الذي اكتنف مستقبلي بدونه فازددت به تشبثًا، خشيت إجابته لدرجة أنني أجفلت عندما سمعت صوته.

لكن صوته أتى دافئًا، مخنوقًا ومبحوحًا من أثر الدمع، لكنه على الأقل كان صوته المألوف: "أي نوع من الرجال يكون، هذا العاجز عن حماية من يحب؟ هل فكرت لحظة فيما أجبرتني على مواجهته، هبة؟ هل فكرت مرة واحدة بعقلي أنا لتشعري بما أشعر به؟ لو كانت هذه وسيلتك الوحيدة لعقابي فأنا...".

روعني ما يفكر فيه فقاطعته: "أقسم لك أن هذا لم يكن ما قصدته، سامحني، إيتشيرو، أنا آسفة".

ظل صامتًا فترة تجدد خلالها رعبي، وعندما أوشكت على الانفجار مجددًا في بكاء الخوف قال: "لا تعتذري، فقط قولي إنك ستتغلبين على ذكرى ما حدث في الإسكندرية، وستعودين كما كنت، أنا لم أعد قادرًا على تحمل غيابك أكثر، ولم أعد قادرًا على تحمل تعذيبك وتجاهلك لي أكثر، لن تتخيلي أبدًا لأي درجة أفتقدك، ولأي درجة يؤلمني افتقادك".

مشاعري تحررت عندما تلاشى خوفي، الحب الذي كبحته كبريائي من قبل، وهلعي وعذابي وأنا أبحث عنه في المستشفيات، امتناني للفرصة الثانية التي يهديني إياها لنبقى معًا، وشعوري المدهش بوجوده، كل هذا جعلني أضحك، أحلق في سماوات علا من السعادة، لكن السعادة لم تمح الألم، اختلطا معًا فأصبحا مزيجًا مجنونًا من المشاعر.

تحررت من عناقه واستدرت إليه، بحركة لطيفة مسحت دموعه، وجذبته إليّ أقبله، قبلة بدت وكأنها سلبته عقله، إلا أنه سرعان ما استسلم لها وبادلني إياها. فأصبحت حرارتي في تقبيله أقرب للجنون، سمعت أفكاره التي تظن بعقلي الظنون لكنني تجاهلتها، ولم يعد يهمني شيء سوى شعوري أنا بمقدار حبي له، وصار أهم شيء في هذا العالم بالنسبة إليّ الآن أن أعبر له قليلًا عن عمق هذا الحب، كانت هذه أول خطوة يجب أن آخذها لأستطيع إصلاح كل ما دمرته بتهوري وغبائي الأعمى.

كنت بعد غائبة معه في قبلة طويلة حارة عندما مددت يدي إلى أزرار قميصه فأمسك بها، أبعد وجهه وسألني: "أتدركين حقًّا ما تفعلين، هبة؟!"

نظرته كانت تشبه تلك التي أذابت قلبي في ليلتنا الأولى، وكما أجبته وقتها أجبته الآن: "أدرك فقط إلى أي درجة أحبك".

وجذبته ثانية لأغمره بقبلات حارة، وعدت لأفتح قميصه بسرعة يحدوها اشتياق مجنون، أصابعي راحت تستكشف كل التفاصيل التي افتقدتها دون أن أشعر قبل الآن بعمق هذا الافتقاد، عضلات صدره، السلسلة المحيطة بعنقه، تلك الندبة الغائرة في كتفه، عشرات التفاصيل الصغيرة اقتحمت مشاعري وقلّبت عواصف أوجاعي، بدا فجأة ألم فراقه أشد فداحة مما كان، عذبني إدراكه، لكن امتناني لنجاتي منه كان أشد تعذيبًا.

على أن الوجع هدأ بلمساته المألوفة التي تسللت إليّ بلطف معلنة امتلاكي التام، وإن كان شعوري باسترداد نفسي الأولى أسعدني، فشعوري باسترداده هو كان ذروة السعادة.. كنت أنصهر للمساته المعبرة عن اشتياق يفوق اشتياقي، قبلته التي أصبحت فجأة أكثر عمقًا وحرارة من أي قبلة أخرى تبادلناها قط، وتمسكه بي بقدر رغبتي في التمسك به، كل شيء كان يعود ببطء كما كان، وشظايا الجدار الشفاف المحطم آخذة في التلاشي إلى غير رجعة.

هل يعقل أننا حقًّا التقينا منذ عام واحد؟ لا يمكنني أن أصدق هذا، يمكنني الآن أن أصدق أساطير تناسخ الأرواح، وأن أصدق الأساطير العديدة التي تتحدث عن المخلوق الذي انشطر إلى نصفين افترقا، وأصبح قدرهما أن يبحثا عن بعضهما البعض، وأن أصدق أي أساطير تفسر هذا الكمال المطلق للعشق الذي نتحدى فيه، الكمال الذي يبدو نقصانه مؤلمًا حتى الموت.

كنت أتأوه، ليس من النشوة أو المتعة بقدر ما كنت أتأوه ألمًا، اقترابه كان يشعرني بتلك الخسارة التي خسرتها من حياتي مع كل لحظة مضت بعيدًا عنه، في إحدى اللحظات استبد بي هذا الإحساس الشاق بالحاجة إليه، غرست أظفاري في كتفه كأنني أتشبث به لئلا يهرب، تأوه، عندها فكرت أنها ليست أول مرة يتألم فيها بسببي، لقد تألم كثيرًا، كم أنا محظوظة لأنه تحمل هذا الألم، وتجاوزه قادرًا على حبي، كم أنا محظوظة لأنه ما زال نفسه، يحبني لتلك الدرجة، يشتاقني بهذا الجنون. رفعت رأسي وقبلت موضع الخدش، لكنه بهذا الرفق المؤذي رفع ذقني لأعلى، مس شفتيّ باستغراق بطيء ممتع ما لبث أن تحول إلى توهج حار، ثم إلى جنون ساحق، جارف.

ما عدت قادرة على تحمل هذا الشعور الذي يهدر في قلبي، ناديته، مرارًا فعلت كأنها فرصتي الأخيرة، وبيديّ احتضنت رأسه ونظرت في عينيه، وضع يده على خدي، انحدر بها على عنقي وهز رأسه، تمتم برفق: "لا تنطقي بهذا، أبدًا".

-"إيتشيرو!"

ابتسم، هز رأسه مرة أخرى، أنفاسه كانت بعد مضطربة وهو يهمس: "قولي فقط إنك تحبينني، هذا هو الشيء الوحيد الذي سيصلح كل ما حدث".

كنت أرتعش، لا بفعل الحب، بل بفعل تلك الدقات التي تكاد تخترق ضلوعي، دقات صادقة تود لو عانقته بالقوة التي عانقته أنا بها، وهمست بإصرار: "أصغ إليّ جيدًا إذن لأنني لن أكف عن إخبارك بهذا كل يوم: أحبك،

إيتشيرو، لم أحب سواك أحدًا، ولن أحب سواك أحدًا، وسأبقى معك ولك وحدك إلى الأبد".

لامس بظهر كفه سلسلته النائمة على صدري وهمس: "وأنا أقبل بهذا، كما قبلتِ بقلبي".

قبلته، قبلة طويلة دافئة، ثم احتضنته، واستكنت لشعور مطمئن رائع يهمس لي أن الشرخ العميق في قلبي قد اختفى.

سماء الفجر كانت بعد حائرة بين سواد الليل المدبر وإشراق النهار المقبل عندما استيقظت، رؤيتي كانت ضبابية ناعسة لكنني رأيته في الضوء الشاحب وهو يتوسد صدري، وخصلات شعره منثورة بنعومة على بشرتي، ويده اليسرى مرخاة جوار يدي.. قبلتها، ألصقتها بخدي وتنفست بحرية كمن عاد ثانية للحياة.

رفعت رأسي أتأمل نومه الهادئ، رحت ألعب بشعره، أزيحه بإصبعي وأنثره وألفه وأصنع منه أشكالًا، ولم يمض وقت طويل حتى فتح عينيه، نظر لي وابتسم ابتسامة طفل ناعس، وتمتم باسترخاء وهو يتثاءب : "هاااي".

أصدرت صوتًا خافتًا مُحبًّا لتحيته، وواصلت العبث بشعره، حتى رفع رأسه واستند لقبضته المضمومة، ولمس السلسلة النائمة على صدري وقال: "أرأيتِ؟ لقد أخبرتكِ أنكِ ستبدين جميلة جدًّا وأنت ترتدينها فقط".

صوته كان بالمرح الدافئ الذي عهدته، وشعرت بأن هذا تصريحًا لي لأتصرف كما اعتدت معه دائمًا، فطرقت برؤوس أصابعي على رأسه وقلت: "إذن، فقد كنت تعني هذا حقًّا أيها المنحرف!"

-"آآه! أنا لست منحرفًا، أنتِ التي كنتِ تمثالًا من الثلج".

إدراكي الجديد والمختلف والمدهش لوجوده جعل تذكر تلك الأيام قاسيًا، ناشدته بخفوت: "لا تذكر هذا حتى".

-"لا بأس، الأمر على ما يرام".

ومس خدي بظهر كفه مؤكدًا: "لا بأس، أستطيع أن أفهم".

أمسكت يده وبقلق تحسستها، كانت مربوطة برباط ضاغط من الكف وحتى منتصف المعصم، قال لي: "لا تقلقي، إنها إصابة تافهة".

-"ماذا حدث؟"

ظل صامتًا فترة طويلة وهو ينظر لي، وعندما أجاب كان أقرب للسخرية منه للتوبيخ: "لم أستطع البقاء بعد مغادرتكِ.. بالطبع كنت أشتعل لأنك ذهبت دون تردد، ولأنك تجاهلتِ ما يعنيه كلامي، غضبت وقررت حزم أمتعتي لأرحل، ولكن في النهاية لم أتحمل".

-"إيتشيرو...".

-"لحقت بك إلى المستشفى الميداني فلم أجده، وكل ما تبقى منه مجرد ركن صغير جوار الجامعة يعالجون فيه بعض الجرحى، عندها وقع هجوم، في البداية لم أتوقع أن يكون هجومهم حقيقيًّا على أطباء، لهذا وقفت لا أعرف ماذا أفعل، يا إلهي! لا أصدق حقًّا أنني مررت بهذا! كيف تتحملون هذه الحياة؟!"

-"ماذا حدث لك إذن؟"

-"من الجيش؟ بالتأكيد ظنوني جاسوسًا ولاحقوني، كانوا على وشك القبض عليّ لولا أن شابًّا أدركني وشتتهم عني، فاستطاع آخرون تهريبي. أتمنى أن تتحسن حالته قريبًا فإصاباته فادحة".

-"تبًّا!"

-"بعد ساعة تقريبًا عدت ثانية لأبحث عنك في نقطة طبية أخرى، ومر النهار في كر وفر بين الشباب وقوات الأمن، وفي النهاية لم يكن أمامي سوى الاقتراب من منطقة الاشتباكات للبحث عنك؛ فهي المنطقة التي منعوني من الذهاب إليها من قبل، بالطبع كانوا محقين في تحذيرهم، لأنني بمجرد أن اقتربت سقطت قنبلة بالقرب مني".

-"وماذا بعد؟"

-"لا أعرف، احترق صدري لثوان ثم فقدت وعيي، وأفقت في المستشفى وسط الشباب المصابين".

وأربد وجهه لحظات، فتساءلت عما يجول بعقله.

-" لا أعرف كيف تفكر حكومتكم، لكن ما يحدث قتل عمد، هذه جريمة ضد الإنسانية، لقد مات العشرات".

-"هؤلاء الأبرياء الذين قتلوا غدرًا هم من يستحقون أن يموت المرء لأجلهم، أما الباقين على قيد الحياة فالبعض منهم يستحق الموت، والبعض الآخر يستحق أن يجلد ليستحق الموت".

-"لا أفهم".

-"هذا أفضل، فالفهم في بعض الأوقات يؤذي، إيتشيرو".

نظرة طويلة أجابني بها، ثم قال: "لا تعتقدي أن هذا سيجعلني أسامحك".

قاومت نفسي وابتسمت، قلت بثقة: "ستفعل".

استراح قلبي عندما نظر لأعلى وابتسم، بقي كذلك لحظات فقلت له: "أنا آسفة حقًّا، إيتشيرو، لقد مررت بساعتين يعادل ألمهما كل ألم آخر شعرت به في عمري كله، ولو كانت لهما فائدة فهي أنني أدركت كما لم أدرك من قبل ما تعنيه لي، وسأسحق أي شيء قد يحول بيني وبينك بعد الآن. أرجوك، أنا آسفة".

-"ماذا لو كان أنا؟"

-"لا أفهم!"

-"ماذا لو كنت أنا من أحول بيني بينك؟"

ألمه كان عميقًا رغم أنه اجتهد لينطق الكلمة بهدوء وبساطة، وطعنتني غشاوة الدموع في عينيه، وضعت يديّ على خديه، وجذبته هامسة: "تعال هنا".

التقينا في تلك القبلة الحميمة المستغرقة، وعندما أبعدني مسح وجهي وتمتم: "لا تبكي، هذا يؤلمني أكثر".

-"لقد كنت غبية...".

-"أنا لا ألومك، أعرف جيدًا أنني ارتكبت خطئًا بشعًا يجعلني مستحقًا لكراهيتك، وكنت وما زلت مستعدًا لمزيد من الألم لو كان سيرضيك، لكن غيابك المستمر جعل الشك يتسرب إليّ، وبدأت أفكر فيم سيؤول إليه الأمر لو جعلتك تلك الحياة تنسين وجودي؟ ولو عوضك الانشغال بالثورة عني؟ أحيانًا كنت أستسلم لإحباطي وأقول لنفسي إنني أستحق هذا، ولا يجب أن أعترض مادام ما تفعلينه يشفي ألمك ولو قليلًا، ثم أعود وأتساءل عن مصيري أنا، كيف يمكنني الاستمرار في حياتي لو تركتني؟ هذه أنانية جعلتني أكره نفسي، لكنني ما

كنت قادرًا على تخيل نفسي بدونك، كل شيء حينها يبدو ناقصًا لدرجة تشعرني بالضياع".

-"إيتـ...".

-"قلت لك إنني لا أشكو، أريدك فقط أن تفكري بمشاعري لتفهمي لماذا بدأت أزعجك في الفترة الأخيرة، كنت أريد أن أعرف نهاية هذا الوضع المزعج، وبرغم أنني أقسمت على منحك الوقت الذين تحتاجين، إلا أنني لم أعد قادرًا على الصبر وتلك التساؤلات تعذبني. لقد قضيت ليلة من أجمل ليالي حياتي عندما أخبرتني أنك ستسافرين معي، وجعلني هذا أسترد الأمل في عودتك لي، لكنك برغم هذا كنت تبتعدين في كل يوم أكثر مما قبله، ولم أعد أفهم شيئًا. كنت بعيدة جدًّا، هبة، بعيدة، ولم أعرف كيف يمكنني استعادتك مرة أخرى".

هززت رأسي نفيًا، ولامست صدره، النبضات الغالية لا زالت تخفق بأمان وانتظام، وصوته لا يزال حنونًا ومتألمًا: "لو كان هناك شخص يحول بيننا لكنت سحقته، لكن أنتِ التي تحولين بيني وبينك. هل يمكنك تخيل ما كنت أشعر به وأنت تتجنبين النظر في عيني؟ وعندما تبتعدين إذا مررت جوارك؟ لو كنت تفعلين هذا غضبًا لتحملت، لكنك كنت خائفة مني، وكان هذا مؤذيًا وجارحًا لأبعد مدى. أردت وقتًا طويلًا لأعتذر، وفرصة أخرى لنعود كما كنا، لكنك رحت تعرضين نفسك للخطر، وتركتني نُهبة لشعور مشئوم ما انفك يلح عليّ بأنك لن تعودي أبدًا".

لم أستطع ردًّا..

-"لا أريدك أن تكوني غاضبة، لقد كنت متهورًا وأعمى، لكنني أُحببتك دومًا، أنت صديقتي والفتاة التي أُحب، وأنتِ أيضًا عائلتي، والشخص الوحيد الذي أملكه وأنتمي إليه في هذا العالم.. حُبي لك أنانيّ للغاية، هبة، ولن يمكنك تصوره إلا لو حاولت تخيل حُب شخص ما مريض وضعيف معلق بين الموت والحياة، لأسطوانة الأكسجين التي تعني وجوده أو نهايته، لو تخيلت حُبًّا مريضًا وهشًّا كهذا ستفهمين كيف شعرت وأنا أجرك من بين سحب الغاز، وبأي شعور صفعتك، وبتأثير أي ألم نطقت بتلك الكلمات الفظيعة التي قلتها لك صباحًا".

-"كان هذا أمس".

ثم وضعت إصبعي على شفتيه، وابتسمت: "لا تقلق، أسطوانة أُكسجينك لن تزعجك مرة أخرى".

ابتسم دون أن يجف البريق اللامع في عينيه، سحب خصلة من شعري وقربها من أنفه، وللحظات استغرق في استنشاق رائحتها، ثم رتب خصلات شعري ببطء حتى استقرت فوق رأسي، ثم انهمرت ثانية على وجهه.. وأسرني بنظرة مُحبة تشع دفئًا، وقال: "لا تتركيني ثانية أبدًا".

-"أبدًا، إيتشيرو، أبدًا".

-"حسنًا، ليكن هذا وعدنا الجديد".

وجذب وجهي برفق نحوه، ومرت لحظة صمت ثم قبلني، قبلة لطيفة خدرتني واستمتعت بها دون استجابة، كأن أي استجابة مهما كانت لن تكون بمثل روعتها، ثم انسحبت يداه لتتزلقا على ظهري.. أحاطني تمامًا وشدني إليه أكثر، صارت لمسته أكثر قوة وحرارة وتطلبًا، عندها أيقنت تمامًا أن كل شيء، حقًّا، قد عاد كما كان.

كان الوقت ظهرًا عندما فتحت الستائر فاستيقظ وضوء الشمس يحرق عينيه، وهتف: "ماذا حدث؟ أغلقي الستائر، هبة تشان".

زمجرت وأنا أطرق برؤوس أصابعي فوق رأسه بغيظ حقيقي: "استيقظ واستعد لموتك، تاكاهاشي إيتشيرو".

-"بهذه السرعة؟ لماذا؟ آآآه! أنت تؤلمينني!"

-"كيف تجرؤ على هذا؟"

-"ماذا؟"

-"لم تخبرني أن وجهي مشوه إلى هذه الدرجة".

نظر لي بأعين شبه مغلقة، وعندما رآني فتحهما على اتساعهما، ضرب الضوء عينيه فأغلقهما ثانية، صاح مجيبًا: "ما هذا؟ لا، لم تكوني هكذا أمس، ولا حتى في الصباح".

-"كاذب!"

-"اقسم لك".

بشكل غريزي نظرت إلى المرآة الكبيرة، ولم أر إلا شبحًا طويل الشعر يرتدي معطف استحمام، لم أتبين الكدمات التي أفزعتني رؤيتها خلال استحمامي لكن آلامها اجتاحتني، باسوأ مما أشعر في جسدي كله.

قلت شاكية: "هؤلاء الأوغاد شوهوا وجهي، كيف سأعيش هكذا؟"

-"ستعودين كما كنت خلال أسبوعين، لا تتصرفي كالأطفال".

-"كيف تحملت النظر إليّ طوال الوقت وأنا بهذا الشكل؟"

-"لأن شيئًا من هذا لم يظهر، وحتى لو كان فلا مشكلة لديّ، لقد أخبرتك بهذا من قبل، هل تذكرين؟"

نظرت له متذمرة، قال: "يوم احتفالنا بلقائنا الأول، أخبرتكِ أنك يومًا ستكونين عجوزًا ضعيفة وربما قبيحة لكني سأبقى أحبكِ كما أحبكِ الآن، فلم أتذمر من كدمات تافهة إذن؟"

لمست وجهه بأطراف أصابعي ممتنة لكنني بقيت كاسفة البال، شدني من معصمي لأجلس جواره وكشف كتفي وظهري، ثم قال بلهجة تأكيد: "كما قلت لك، كدماتك تزداد وضوحًا بمرور الوقت، أنا متأكد تمامًا أنني لم أر هذه الكدمات من قبل".

-"أهي سيئة جدًّا؟"

كتم ضحكة، وقال بمواساة ساخرة: "أنصحك بتأجيل عمل نظارة طبية لمدة أسبوعين حتى لا تنهار أعصابك. ولا يمكنكِ الشكوى، لقد نصحتكِ لكنكِ عاندتني وذهبتِ، لن أقول إنك تستحقين هذا ولكن.. أنتِ تستحقين هذا".

-"إيتشيرو، لا تقل هذا، سأنتحر الآن".

-"أليست الحقيقة؟"

وشد اللحاف على صدره وعاد لرقدته، أمرني: "أغلقي الستائر واتركيني أنام يا مزعجة".

-"لقد صرت قاسيًا يا رجل".

-"نعم، أنا شرير وأريد أن أنام. عودي لنحيبك واتركيني".

-"إيتشيرو!"

رحت أناديه بتلك الطريقة الطفولية اللحوح وأنا أهزه لينهض، حتى هب جالسًا مرة أخرى، سألني: "ماذا تريدين؟"

-"نظارة جديدة".

-"ماذا عن جراحة لتصحيح الإبصار؟"

دفعته في صدره ليسقط وسط الوسائد، وألقيت اللحاف عليه وأمرته: "عد لنومك".

ظل يضحك وأنا أغلق الستائر وأغادر الغرفة لأكمل استحمامي.

كان موضوع جراحة تصحيح الإبصار هذا مثار جدل دائم بيننا، نصحني به مرارًا لكنني رفضته لرعبي من الأطباء وكل ما يتعلق بهم، ولكن في هذه المرة ظل يلح عليَّ دون يأس من رفضي، حتى اصطحبني إلى كشف طبي في مستشفى متخصص. بقيت غاضبة ومكتئبة كالبومة طوال الفحص، ولم أخرج من مزاجي العكر إلا عندما قال الطبيب: "مفيش مشكلة في إجراء الجراحة، الموضوع بسيط جدًّا".

قال إيتشيرو بحماس: "كويس، امتى نقدر نعملها؟"

-"بكرة لو تحب".

صرخت قافزة عن مقعدي: "نعم! مستحيل طبعًا".

وكانت ليلة ليلاء بكيت فيها كما لو أنه يريد أخذي إلى منصة إعدام، كلما حاول إقناعي رددت ببؤس طفلة يتيمة تائهة: "لا أريد سوى نظارة واحدة، سأتنازل حتى عن نظارة الشمس الطبية".

-"أنتِ تجعليني أبدو وكأنني أتسلى بتعذيبك!"

-"أنا أكره الأطباء وأخاف المستشفيات!"

-"طبعًا، أنا أتذكر المستشفى الميداني جيدًا".

-"أنت تعاقبني، إيتشيرو، لكن هذا عقاب قاس".

-"أنت حمقاء، لديك فرصة لتستردي نظرك سليمًا لكنك تختلقين أوهامًا حمقاء".

-"أنا لن أخاطر بفقد عينيّ".

-"هل سمعت قط عن شخص فقد بصره في جراحة بسيطة كهذه؟"

-"لا أعرف، لكنني سأكون هذا الشخص المنحوس".

-"ستجرين الجراحة، هبة".

ونفَّذ ما وعد –أو توعد- به، ورأيت وجهًا آخر لشخصيته التي لا تكف عن التبدل.. وجه الرجل المستبد في تصميمه، والذي استطاع أن يجعلني أذهب معه للمستشفى كقطة مطيعة وأخضع للجراحة بأدب.

كان صادقًا فيما قاله عن سرعة الجراحة، وأنها بلا ألم، لكنه لم يكن قد أخبرني عن حساسية الضوء التي سأصاب بها، فالتوهج البسيط في الأضواء كما وصفه كان بالنسبة إليّ مهرجانًا من الأضواء والألوان، وأصابني الهلع وأنا أشعر بأنني أحدق إلى آلاف الشموس. طلب مني أن أغمضهما، وليومين مظلمين استكشفت معنى جديدًا للحب كنتِ قاصرة عن رؤيته، وذبت في سحره حتى سكرت، وأعدت اكتشاف صوته ولمسته، ورائحة عطره، ثم تلقيت هديتي الكبرى: أن أرى وجهه بوضوحٍ كامل حين أفتح عينيّ في الصباح.

قبَّل عينيَّ وقال: "الآن تتحقق أمنيتي، وترين العام الجديد بعينين جديدتين".

اقتربت رأس السنة، ورغم أن الكنيسة المصرية أعلنت إلغاء الاحتفالات به احترامًا لدماء الشهداء، فإننا قضينا وقتًا رائعًا في الاستعداد له بشراء شجرة كريسماس صغيرة وعدة ألعاب مضحكة.. كنا نبحث عن أكبر قدر من البهجة ونحن نتأهب للسفر الذي تحدد موعده بعد ثلاثة أسابيع تقريبًا. وصار بيتنا أكثر دفئًا كقلعة قصية عند حافة العالم، وروح الحب تحوطنا، والمرح والسعادة يغمراننا ونحن نرى قطتنا الصغيرة تتبعنا في كل مكان بخطوات ما زالت مرتعشة مترنحة.

بدأت الكدمات المنتشرة في جسدي تصفر ببطء، وهدأت التورمات المزعجة خلف أذنيّ، وبدت أن كل اثر سيختفي من قلبي إلا الكراهية والخوف.

وبقدر ما سأظل أتذكر ليالي الميدان الأولى، وأجتهد في استعادة تفاصيلها، سأجتهد أكثر في محاولة نسيان هذا يومي الأخير في التحرير. ليس للإهانة الوحشية والقسوة الفاجرة التي تعرضت لها، بل لأنني أكره أن أسترد إحساسي بعذاب الفقد الذي كاد يقضي عليّ بضياع إيتشيرو مني.

لكنني عدت إلى الميدان ثانية، وكان هذا بطلبٍ منه.

في اليوم السابق لرأس السنة جاء إليّ بباقة ورد كبيرة حمراء، قدمها لي وهو جاث على ركبتيه وقال: "هبة تشان، أرجوك اخرجي معي".

هذه المرة ضحكت كما لم أضحك من قبل، وجثوت أمامه أحتضنه، قلت بمرح: "موافقة، لكن يجب أن يكون مكانًا هادئًا".

-"أما هذا فلا، سيكون أكثر احتفال صاخب يمكن أن تريه في حياتك".

لم يكن لديّ أدنى علم بهذا الاحتفال الشعبي الذي سيقام في الميدان بمناسبة رأس السنة، لكن إيتشيرو كان على علم بالتفاصيل، وخرجنا في هذا اليوم مبكرًا من المنزل، بملابس ثقيلة تناسب البرد الأسطوري غير الطبيعي المخيم على مصر هذا العام، تناولنا غداءنا في مطعم بيتزا يطل على الميدان، وكنت منشغلة أكثر الوقت بالنظر للخارج والابتسام، فسألني: "الكثير من الذكريات؟"

-"نعم".

-"يمكنني أن أشعر بهذا، للمكان روح تكاد تكون أكثر دفئًا وثراءً من أرواحنا".

-"أنت محق".

قضمت قطعة بيتزا على مهل ثم رحت أشير بيديّ في اتجاهات مختلفة: "انظر، في هذا المبنى تلقيت أول دروسي في اللغة اليابانية، ولولاها ما كنت لأستطيع محادثتك الآن، وبائع الجرائد هذا اشتريت منه عشرات الكتب ووقفت عنده محتارة بين مئات أُخر، وفي المبنى المجاور مقهى كنت أذهب إليه مع زملاء اللغة اليابانية، وأمام مطعمنا هذا وقفنا ذات ليلة نغني أغنية طفولية بلهاء فنظر لنا الشارع كأننا مجانين، وفي مطعم مجاور جلسنا يومًا نمزح ثم نطقت أميرة بعبارة صادمة جعلت أحمد سينباي يصرخ فلفت لنا أنظار الجميع. أمَّا الممر الواقع خلف المطعم فهو مدخل المستشفى الميداني الأول، وحوله قطاعات كبيرة كأنها محلات بلا أبواب، علق الشباب أمامها حصيرة لتكون بابًا ساترًا لي ولفتيات غيري لننام فيها، ووقفوا يحرسوننا أيام الثورة الأولى، ومنحني أحدهم سترته لأجعلها وسادة لي. وهنا على هذا الرصيف جلست ذات فجر أحاور رجلًا متواضعًا وعظيمًا من الإخوان المسلمين ترك زوجته وابنتيه في بيت معزول على أطراف قرية من قرى الزقازيق، وجاء يناصر الثورة حتى لا يكون كمن فرَّ من الزحف، وعلمني الكثير عن الإيمان والثقة بالله مادمت قد أديت كل ما عليّ".

رغمًا عن سعادتي تساقطت دموعي شجنًا، رحت أمسحها بسرعة وأبتسم، وأكملت: "قابلت أول أساتذتي في اللغة اليابانية هنا بالصدفة ذات يوم،

وأخبرني أنني كنت من أفضل تلاميذه، وكنت أخرج من مؤسسة اليابان لأطوف بالمكان كأن الوجود فيه بحد ذاته هدف، من الغريب أنني لم أنتبه لهذا قط قبل الآن! هنا كنت أقف لأجادل محمد عبد الواحد ودعاء عن اللغة اليابانية التي لا يفهمان أبدًا كيف يمكن لأهلها أن يقرؤوا رموزها، وهنا سهرنا نغني حول صديقنا ماندو عازف الجيتار الماهر وهو يعزف (حلوة يا بلدي)، وفي نفس المكان رأينا الموت يأخذ منا شبابًا كالورد، ورأينا آخرين يرفعون أحذيتهم ملوحين بها لشاشة عملاقة عبارة عن ملاءة فراش ممتدة بين طابقين في هذه العمارة، كانت هي صلتنا الوحيدة بالعالم الخارجي الذي يحاصرنا بالبلطجية ويلقي علينا كرات اللهب من علٍ".

-"هذا مؤثر".

-"نعم، حتى ذكرياتي الأبعد تطوف حول هذا المكان.. هنا كنت ألقى الحمقى الذين اعتبرتهم يومًا عائلة لي، وعندما تنتهي نزهتنا كنا نفترق هنا وأركب المترو وعينيّ معلقتين بمروان، وأظل أنظر إليه حتى يختفي من أمامي، لفترة اعتقدت أنني معجبة به وكانت تلك طريقتي في تعذيب نفسي. وهنا التقيت ندى عند بائع الجرائد الآخر وأنا أتأمل كتابًا يعجبني فوعدتني أنها ستعيرني إياه في لقاءنا القادم، لكن هذا كان لقاءنا الأخير".

-"ستلقينها مجددًا".

-"أتمنى، أريد أن أسألها عما كانت تعتقده عن صمتي، ولم لم تنزعج منه كالآخرين؟!".

أمسك بيديّ عبر المائدة وقال بتأكيد: "أنا واثق أنك ستقابلينها مرة أخرى، وسيكون هذا قريبًا".

-"أتمنى.. أنا مدينة لها بتفسير الكثير، ولا أريد أن يتحول وجودها إلى حلم مرّ بحياتي واختفى".

-"حتى لو تحول، الأحلام قد تغدو حقيقة في لحظات، هبة تشان".

-"حقًا؟"

-"أترين حياتنا كلها شيئًا سوى حُلم كبير رائع؟"

ومسح الدموع الباقية على خدي، ابتسمت له وقلت: "أنت مُحق".

مع هبوط الظلام بدأ الميدان يمتلأ بأعداد غير عادية من البشر، كم أتمنى لو أنكِ كنتِ هناك في ذلك الوقت يا ندى! لقد كان احتفالًا خرافيًّا، رأيت فيه ما لم أره من قبل من التلاحم والحب القادرين على بث الدفء في آلاف البشر الواقفين في العراء، ويجمعهم أمل واحد. سمعت أُنشودات وأغاني صوفية بديعة اغرورقت لها عيناي بالدموع، وجعلتني أفهم الهيام الصوفيّ الروحانيّ الصادق، وسمعت ترانيم كنسية لها رهبة تقودك ببطء إلى حقيقة كونية مبهمة تعدك باطمئنان لا يقدر شيء على تبديده، ورأيت أجمل الألعاب النارية، وتلقيت مئات التهاني من آلاف الأشخاص المجهولين الذين غمروني بالابتسامات والتمنيات الطيبة، من أجل العام الجديد، ومن أجلي وإيتشيرو.

ليلة كالأحلام كانت، بدأت في عام وانتهت في عام آخر استقبلت أول لحظاته بقبلة مُفعمة بالمشاعر مُمتلئة بالوعود، بعدها أمسكت بيده وطلبت منه إغماض عينيه، ووضعت حول معصمه الأيسر الساعة الفضية التي تأخرت كثيرًا في منحها له، عندما رآها ابتسم فقلت له: "إنها هدية متأخرة للغاية، لكنه أفضل وقت أقول لك فيه: عيد ميلاد سعيد، إيتشيرو".

-"مازلت تذكرين!"

احتضنته، همست في أذنه: "لن أعتذر؛ لأن كل الكلمات لن تفيك حقك، فقط أريد أن أقول لك إن ميلادك هو أهم مناسبة في حياتي، لأن وجودك منحني أهم أسباب وجودي وأكبر أسباب سعادتي، أنا ممتنة كثيرًا، إيتشيرو".

-"شكرًا".

-"أحبك، تاكاهاشي إيتشيرو، طالما أحببتك ولسوف أحبك إلى الأبد. لن أمنحك الفرصة لتنسى هذا أبدًا، سأستمر بتذكيرك كل يوم فأصغ إليّ جيدًا".

بقينا متعانقين فترة طويلة بابتسامات سعيدة، ثم عدنا لننتبه للأغاني المرحة التي صبغت الجو بغلاف وردي كالحُلم، مرة أخرى كان إيتشيرو مُحقًا، الأحلام قد تتحول في لحظات إلى واقع يجرفنا وينسينا أنفسنا.

عدنا إلى البيت في الرابعة فجرًا، ثملين بضحكات ازدادت مرحًا وقطتنا الصغيرة تستقبلنا بموائها وخطواتها الكوميدية، بدلت ملابسي وانهمكت في العناية بها، وجاء إيتشيرو يراقبني ثم قال: "هناك شيء مهم طالما أردت إخبارك به وأحجمت، لكنني لم أعد أتحمل كتمانه أكثر".

ضحكت، وسألته: "ما هذا الشيء الخطير؟"

-"رغم استمرارك بالحديث عن الأطفال بطريقة مصاصي الدماء، إلا أنني واثق أنك ستكونين أمًّا طيبة".

قبل أن أرفع عينيّ لأنظر إليه، جذب رأسي وأبقاه في حضنه دقيقة، وما كان هذا إلا اعتذارًا عميقًا أدفأ قلبي، ومن الغريب أن الأسى الذي كان يجتاحني كلما تذكرت هذا الأمر كان بعيدًا عني في تلك اللحظات، ورفعت يدي أربت على ظهر كفه بحب، أزيح الأسى الكامن في قلبه هو.

عندما أبعدني أمسك بيدي اليمني، وضع فيها دبلة ذهبية رفعتها لأرى بحروف إنجليزية عبارة صغيرة منقوشة داخلها: (أُحبك).

عانقته، فهمس لي: "عام سعيد، حبيبتي".

بالغت في قوة عناقه، وعندما ابتعدت عنه ناولته الدبلة ليلبسني إياها، فلم تناسب إلا سبابة يمناي، قال لي: "يجب أن تستردي وزنك بسرعة، ستكون مشكلة إذا فقدت خاتم زواجنا بسبب نحولك المستمر".

-"لن أفقد أبدًا شيئًا كهذا".

-"جيد، فلو فعلتِ....".

-"ستقتلني؟"

-"مممممممم، أعتقد هذا".

ولمس الماسة المثبتة في الخاتم، ظهر عليه تردد لم أره من قبل، ثم قال: "إنه خاتم أمي".

صحت بذعر وأنا أشعر بثقل مفاجئ في يدي: "هل تمزح؟ لماذا لم تخبرني من قبل؟"

-"لأنك ستشعرين بالرعب وترفضين ارتداءه، أو ستحتفظين به في المنزل وتلبسين آخر، وأنا أريد رؤيته في يدك طوال الوقت".

-"لكن! هذه مسؤولية مرعبة، أنا لا أستطيع تحريك يدي الآن".

-"أريدك أن تشعري بهذا دائمًا إذن".

تأوهت شاكية: "أنت متوحش، كيف تسعد بتعذيبي هكذا؟"

-"أنا لا أعذبك، كل ما في الأمر أنه مهم للغاية بالنسبة إليّ، إذا كنت أنتِ أهم شخص في حياتي فهذا الخاتم أهم شيء".

-"نعم، أفهم هذا".

كان على وشك النهوض، لكن عندما سمع تلك الكلمة تردد وعاد ليجلس، قال: "ليس لمجرد أنه خاتم أمي، بل لأن أمي عاشت حياتها كلها تتمنى لو أنها ارتدته".

-"أحقًّا؟"

-"نعم، فأمي لم تتزوج أبي".

كان ينظر في عينيّ وهو ينطق عبارته بتركيز وترقب كأنه يبحث عن انفعال ما، لكن هذا الانفعال لم يأتِ، سألني باستغراب: "ألا يعني لك الأمر شيئًا؟"

-"نعم، لا يعني أي شيء، ماذا توقعت مني؟"

-"حسنًا، هذه أول مرة أسعد بإحباطك لي".

وضحك، غمرت وجهه راحة غريبة كأنه تخلص من عبء ثقيل، ربت على يده وقلت: "إيتشيرو هو إيتشيرو، لا يعنيني سواه، ولا يهمني ما كان عليه قبل أن نلتقي، ولا من أين أتى ولا لماذا فعل أي شيء، ثق بهذا".

ابتسم، سرح بعينيه في السقف وراح يحكي: "أمي أحبت أبي كثيرًا، طالما أحبته منذ صغرها، ونظرت إليه باعتباره رجل أحلامها الوحيد. كان قريبها، لكنه كان متزوجًا وأكبر منها بعشرة أعوام أو أكثر، لكن كل هذه العوائق لم تجعلها تكف عن حبه، بمرور الوقت بدأ تمسكها المهوَّس به يلفت نظره، حبها كان شيئًا غير مألوف في حياة رجل حركت تقاليد عائلته الباردة عالمه كله، دراسته، وزواجه، وعمله، كل شيء كان مقدرًا سلفًا، وفي لحظة سخط اختار أن تكون مبادلتها الحب أفضل قرار يتخذه لنفسه".

-"ممم! لا يمكنني الجزم بنتائج قرار مبني على انفعال أقرب لانفعالات الأطفال العابرة!"

-"هو ما تقولين، انفعال طفوليّ عابر في لحظة سخط جعله يندفع في علاقة عاطفية مع فتاة صغيرة بريئة.. لا أريد تصوير الأمر كأنه غرر بها؛ أمي بالتأكيد كانت تدرك ما تفعل، لكن أبي كان أحمق، ويتحمل الجزء الأكبر من مسؤولية

ما حدث لها، ليس لأنه اندفع خلف عواطفه؛ ولكن لأنه لم يُقَدِّر العواقب، ولم يكن مستعدًا لتحملها بشجاعة، وهذا شيء لا يجب أن يفعله الرجال".

برغم المأساوية الكامنة خلف القصة التي يحكيها، إلا أنني كنت مستمتعة بالتركيز فيما يقول، طريقته في الحديث، صوته، انفعالاته المراوغة، كل شيء كان يوضح لي عشرات التصرفات الصغيرة والكلمات التي صارت –فجأة- تحتمل عشرات المعاني المختلفة تمامًا عما تبدو عليه.

-"عواقب علاقتهما كانت أكبر بكثير من مجرد غضب عائلة أرستقراطية تخشى أن تمس الأقاويل سمعتها، العواقب كانت تمتد لزوجته التي تنحدر من عائلة قادرة على تحطيم العائلة الأولى، وفي لحظة وجد نفسه مضطرًا للاختيار بين عائلته وبين الفتاة التي يحب، وكان الاختيار الصحيح واضحًا بالطبع".

-"هذه قسوة! هل تخلى عنها بهذه البساطة؟"

-"لم يفعل، هي التي فعلت، لقد اختارت أن تتركه هي بدلًا من أن تتحمل ألم الهجر مضاعفًا؛ بخسارته الحتمية أولًا، وبأن يتركها هو بهذا الشكل المهين ثانيًا. أعادت له الخاتم الذي منحها إياه مع وعد بالإخلاص الأبدي، وبهدوء غادرت، تركت المدينة كلها وذهبت بعيدًا، إلى البحر. وهناك ولدتُ أنا، ولم يعرف بميلادي إلا مصادفة بعد عامين على الأقل".

كنت أرتجف وأنا أحكم يديّ حول يديه، قلت بصوت مرتعش: "أنا حقًّا لا أريد وضع نفسي مكانها، إنها تمتلك قوة غير طبيعية!"

-"نعم، وكان لديها من القوة ما يكفي لتنكر وجودي كله، ثم لتنكر أُبوته لي كي يبتعد عني، لكنها فشلت؛ أنا أشبهه جدًّا، وحتى اليوم أتساءل إن كان هذا الشيء قد عذبها أكثر، أم واساها في عزلتها الاختيارية الطويلة".

وتنهد ناظرًا إليّ، وابتسم، ابتسامة كبيرة رائعة، صوته كان أشبه بالغناء وهو يسألني: "أتعرفين، أنت قلتِ لي أكثر كلمة تمنيت طوال حياتي أن أسمعها".

-"أي كلمة تلك؟"

-"عندما أخبرتني أنكِ ممتنة لوجودي. كما قلت لك من قبل أمي كانت الشخص الأول الذي انتميت إليه، وأنا واثق أنها أحبتني أكثر من نفسها، لكنني أعرف أنها لم تكن ممتنة لوجودي، أعتقد أنها كانت نادمة طوال الوقت".

-"أي هُراء تقول؟"

-"ليس هُراءً، لقد تمنت وجودي في البداية وحافظت عليّ لأنني الجزء الوحيد الباقي من الرجل الذي أحبته، لكن بعد ميلادي أظنها شعرت بالندم لأنها اكتشفت أي معاناة ستسببها لطفلها المحبوب. لقد اعترف بي أبي فور علمه بوجودي، لكن اعترافه الشرس الذي واجه به عائلته لم يترك لي عندهم أي رصيد من الحب، طالما كرهوني، وحتى عائلة أمي نبذتني، وكان عليّ أن أتحمل الصدام مع مجتمع لا يبارك علاقة كتلك طوال حياتي. زملاء مدرستي طالما سخروا مني، وكنت أخرج من البيت صباحًا لأتعارك حتى المساء، لم أكن أشكو إلا لأجل أمي، التي كان عليها أن تواجه نظرات الاتهام من عشرات الأغبياء.. هي لم تكن سعيدة برؤية كل هذا يحدث لي، لا أعتقد أنها كانت ممتنة لوجودي، أعتقد أن الفرصة لو أتيحت لها من جديد فلم تكن لترتكب هذا الخطأ وتقبل بي".

-"أنت أحمق".

-"أعرف".

وربت على رأسي برفق وقال: "لا تقولي شيئًا، فكل الردود المنطقية على تلك الأفكار أعرفها جيدًا، وكانت جزءًا من العلاج الطويل الذي خضعت له بعد موتها. لقد غرقت أمامي، وأنا من أخرجها من البحر، وحين سكن قلبها تحت يدي استسلمت فورًا، وملأني صمت عجيب مريح، وشعور صافٍ بالسلام.. أدركت أنها لن تكون مضطرة للقتال مجددًا، ولن تكون مضطرة للصلاة والبكاء راجية الرب أن يسامحها لما فعلته بي، لن تكون مضطرة لحمايتي ممن يضايقونني، ولن تكون مطالبة باصطحابي إلى الكنيسة والصلاة معي ولأجلي.. صار من حقها أن تمضي بعيدًا عن طفل أثقلتها مسؤوليته، وأن تُسلم قلبها لهدوء فارقها منذ غرقت في الحب أول مرة.. وفي جنازتها كان كل ما فكرت فيه هو أن هذا الأمر قد تأخر كثيرًا، وأنني أخيرًا سأستريح".

-"إيتشيرو!"

-"لكن دماري الأول والحقيقي بدأ بعد عودتي، وبمجرد إغلاق باب البيت عليَّ اكتشفت لأي مدى أنا وحيد دونها، عندها صرخت، وحتى اليوم تخيفني ذكرى تلك الصرخة.. كان الألم كانصباب الحمم في دمي".

-"وماذا حدث بعدها؟"

-" قالوا إنني حاولت الانتحار مرارًا، لكنني لا أذكر شيئًا.. العام الثامن عشر من حياتي كان غيبوبة طويلة بأخرى بعد لحظات وعي معدودة ومؤلمة".

وحدق إلى باطن معصمه الأيسر، نظرت معه فرأيت ندبة طويلة يبدو أنها كانت يومًا غائرة، لم أنتبه لحقيقتها من قبل، وظننت دائمًا أنها خط من تلك الخطوط العرضية التي تعلو المعاصم ويسميها قارئو الكف (أساور الحياة)، لمستها شاكرة الله لأنه أنقذه، وحفظه لي حتى التقينا.

سألته برفق: "ثم ماذا حدث؟"

-"أخذوني قسرًا إلى طوكيو".

مرارة صوته جعلت حلقي يغص. قال: "لا أكره مكانًا في العالم مثلما أكره طوكيو، لقد سجنت فيها لسنوات مريرة غير قادر على مغادرتها، حتى هربت إلى هنا".

-"ولم لم تعد إلى أوكيناوا؟"

-"لأنني خائف".

وغامت عيناه بدموع كثيفة رغم ابتسامته: "البيت القديم لا يفارق أحلامي ليلة، لكن ذكرياته ترعبني، وليست لديّ فكرة عما قد يصيبني لو دخلته مجددًا".

-"حبيبي!"

أخذت رأسه في حضني وربت عليه، وقلت: "إيتشيرو، كيف لم تخبرني بهذا من قبل؟"

-"لأنني كنت سعيدًا بحبك لي رغم أنكِ لا تعرفين عني شيئًا، وأكثر سعادة لأنك لم تطلبي معرفة أي شيء.. كنتِ مكتفية تمامًا بإيتشيرو الحاليّ وهذا أكثر مما حلمت به".

-"لكنني سأصير فضولية الآن وأطلب منك أن تخبرني عن عائلتك".

-"لا شيء مميز، مجرد مجموعة من الأشخاص تجبرني على البقاء معها. لا يحبونني لكنهم مصرون على أن يجعلونني أبدو في أفضل مظهر، ويوفرون لي أي شيء أريد. تزعجهم آرائي ويثقون أننا لن نتفق أبدًا في أي شيء، لكنهم يواصلون إجباري على أن أكون مثلهم، وأنا لا أكف عن الشجار معهم طوال الوقت.

أعمامي وجدي وأخي الأكبر هيساشي يشكلون جبهة الحرب الرئيسية ضدي، وأبي يكتفي بمشاهدة ما يحدث كأنها مباراة لكنه غالبًا ما يدعمني، ولا يمكنه إخفاء فخره بتمردي، وربما يعوضه هذا عن تخاذله أمامهم فيما مضى. أخي الأوسط تاكومي هو استثناء من كل التقاليد، شاب لعوب يدير أعماله بنفس البراعة التي يوقع بها الفتيات في حبائله، وأختي ميدوري هي الشخص الوحيد الذي يؤيدني علنًا وينحاز إليّ، لكن هذا لا يشكل فارقًا كبيرًا بالنسبة إليهم لأنهم يعتبرونها مجنونة. هي تكبرني بعامين فحسب، وهي من ساعدني على الالتحاق بجامعتي، عندما تآزر الجميع ضدي لأنخرط في أعمال العائلة. يومها أيقظتني لتسحبني معها إلى المطار، وسافرنا مدة يومين مررت خلالهما باختبارات القبول في الجامعة، وعدنا لنوهمهم أننا كنا نتزلج في الجبال".

ضحكت بمرح وقلت: "لقد أحببتها".

-"ثم هيساشي.. وهو يكن لي كراهية عميقة وغير مبررة، والأغرب أن أمه تعاملني بلطف، ولا أذكر قط أنها عبست في وجهي أو ضايقتني، ولم تتحدث قط عن أمي بسوء.. يبدو أن هيساشي استولى على كراهيتها المفترضة لنفسه".

-"ربما للأمر علاقة بالمال؟"

-"لا أعتقد، لقد عاش حياة أكثر ترفًا مني بمراحل، ويملك من المال أضعاف ما يملك أبي نفسه".

-"إذن فهو يغار منك".

-"يغار؟ هذا مضحك! ما الذي أملكه ويجعل هيساشي يغار؟ هيساشي يملك كل شيء".

-"من يملكون كل شيء يتعلقون أحيانًا بأشياء قد لا تعني لنا أي شيء، إيتشيرو".

-"لا أفهم!"

-"ربما لم يمتلك الفرصة لتغيير مصيره مثلك، ربما لم تكن لديه شجاعة تحدي الكل كما تفعل أنت الآن".

-"وأي تحدٍ! رغم تشوقي للعودة إليهم إلا أنني أشعر بالبرد وأنا أتخيل ما سيقابلون به كل ما فعلت خلال العامين الماضيين.. هربت من اليابان، وواصلت

الدراسة التي رفضوها، وتزوجت، وأعود لهم بعمل جديد، ومستقبل لم أستشرهم فيه.. إنها الحرب قادمة تتبختر بغرور، هبة تشان".

-"هل تحاول إغرائي بتركك تخوضها وحدك؟"

-"وكأنك قادرة على هذا!"

عبارته المداعبة جعلتني أبتسم، وغلفنا الصمت قليلًا ثم سألته: "هل تحبه، إيتشيرو؟"

-"من؟ تاكاهاشي سويتشيرو؟ نعم، أعتقد هذا، كيف يمكنني ألا أحبه وقد قضيت كل طفولتي مع امرأة مُغرمة به، تتقبل كل ما تعانيه بسببه كاختبار لصدق حبها! اختبار هي مستميتة كي تنجح في اجتيازه. نعم، أحببته وامتننت له لأنه تركني أعيش معها، ولم يسحبني إلى طوكيو كما أرادوا منذ عرفوا بوجودي. بالطبع كرهته لفترة بعد موتها، وكنت سعيدًا لرؤيته يعاني بسبب فقدها، وبسبب رؤيتي وأنا أُجن، لكن عندما استعدت عقلي أمكنني تقدير ما مر به. بالطبع مازلت أرى أنه أحمق، ولا عذر له في أشياء كثيرة فعلها، لكنني فهمت أن كل البشر لا يملكون نفس القوة ووضوح الرؤية، أستطيع أن أسامحه، وأتركه لذلك الألم الرقيق الذي يشعر به عندما يراني أتصرف أو أتكلم مثلها. يقول إنني أملك الطيف الطفولي اللعوب لابتسامتها، والمرح الجامح لسعادتها، ونفس النظرة المتأملة التي كانت تنظر بها للأشياء قبل أن ترسمها.. شيوري كانت رسامة مذهلة، ولا أنسى أبدًا وجهها الشارد في تأمل التفاصيل، وابتسامة إدراكها لأدق دقائق الأشياء، كانت لها نظرة خاصة لا تخطئ أبدًا".

-"أنا آسفة لأنني لم أتمكن من لقائها".

ربت على يدي كأنما يلفت انتباهي لأكثر الأمور أهمية، قال: "ربما لم تفعلي، لكنك تملكين أحلامها كلها في يدك. قبل أن آتي إلى هنا منحني أبي هذا الخاتم، لم أفهم السبب الذي يدعوه لهذا، ولم أكن راغبًا في أخذه لكنه ضغط عليّ لأفعل، قال إنني قد أحتاج إليه، وإن الفرصة قد لا تسنح لنا لنلتقي ثانية، وهكذا انتقلت مسؤوليته لي. كنت أقضي ساعات طويلة أنظر إليه، أرى لمعة عينيها في تألق تلك الماسة، وأحلامها التي ظلت تدور في فضاء استدارته بلا أمل، وحين وضعته في يدك كنت أدرك أن تلك الأحلام ستتمكن أخيرًا من الاستقرار والاستكانة".

لم تكن أي كلمات لتقدر على التعبير عما أشعر به، فرحت أربت على رأسه محاولة إيصال تلك العاطفة المتوهجة في قلبي، مال عليّ معانقًا، وهمس في أذني: "شكرًا، هبة، لأنك كنتِ قادرة دائمًا على أن تحبيني بهذا الصدق دون أن تعلمي شيئًا".

وقبل جبيني، ثم خرجنا إلى غرفة المعيشة واستلقينا على أريكتنا نراقب النجوم المتألقة في ثوب الفجر، وصمت رائع يغلف العالم كله، كأننا بالفعل عند حافة الوجود، عندها قلت: "أتعلم، أظن أنني أفهم سبب كراهية هيساشي لك".

-"ماذا؟"

-"لديّ ظنون كثيرة بأن والدك أحبك أكثر مما أحب باقي إخوتك".

-"وكأن ميدوري تتحدث!"

-"إذن هذا يُكسب استنتاجنا الكثير من المنطقية".

-"ربما، لا يمكنني الجزم".

غلفنا الصمت الرائع فترة أصبحت خلالها السماء زرقاء داكنة، وتصاعد صوت العصافير.. كان بعد غارقًا في أفكاره ثم كرر: "ربما، من يمكنه أن يفهم تاكاهاشي هيساشي على أي حال؟ الأمر غير مهم".

أبقيت أصابعي مشتبكة بأصابعه، بعد قليل فاجأني صوته بإحساس خالص من البهجة: "لقد خف الألم".

-"أي ألم؟!"

-"ألم الإحساس الذي كنت أسترجع به تلك الذكريات، لم أكن أشعر به وأنا أحكي لك، وبعدما انتهيت أشعر بأنه قد خف كثيرًا، أصبح كأنه يتردد من بعيد، كأنه يناديني عبر شاطئ واسع فلا يصل إليّ صداه بوضوح، أشعر وكأنه أصاب يومًا شخصًا لا أعرفه".

-"هذا يجعلني سعيدة، إيتشيرو".

-"أنا أكثر سعادة، هبة، أنت منحتني إيمانًا هو أجمل ما شعرت به في حياتي".

-"الإيمان؟"

-"نعم، الإيمان بحبك، بالسعادة، والأمل، وبأن أي حياة مهما كانت تعسة، فسيكون بيد صاحبها أن يعثر على القدر الرائع المخبأ له، سواء كان قريبًا لا يراه أو بعيدًا عليه أن يفتش عنه".

همست له: "بالنسبة إليّ، قدري الرائع هنا بين ذراعيك".

-"إذن، ابقي بالقرب، دائمًا".

-"ومن قال إني سأذهب؟!"

وفتحت عينيّ، أدرت وجهي ونظرت في أعماق عينيه الداكنتين، قلت بثقة: "أنا باقية".

قبلني، ثم أسند جبينه لجبيني، وبثقة أعمق همس: "وأنا أيضًا باقٍ، حبيبتي".

احتضنته، وفي سكون الفجر عند حافة عالمنا البعيد لذت بالصمت أستمع لدقات قلبه، وانتظر –بشغف- النهار الجديد.

هبة

3 يناير 2012

اليوم الحادي والعشرون

أول النهار

صديقتي العزيزة ندى

أكتب إليك قبل ساعات من سفري، وأرجو أن يكون لرسالتي تلك حظ أفضل من سابقاتها.

أمس كنت أقلب في أطلال جهازي، وعثرت على مجلد مليء بمحادثات احتفظت بها من أيام شلتنا القديمة، قرأت منها الكثير وضحكت، قرأت جزءًا من محادثات سمير وقت كان يسعى لاكتساب ثقتي، وبعضًا من محادثات مروان التي امتلأت بعبارات ناعمة مجاملة صورتها لي خيالاتي القديمة الجموح مشاعر حُب متسترة. وقرأت جُل محادثاتي مع معاذ التي أثارت شجني، وجعلتني أتمنى من كل قلبي لو يغفر لي كل ما سببت له من ألم.

ثم قرأت محادثاتي معك، كل كلمة، كل أغنية تبادلناها، وقصائد نزار التي كنتِ ترسلينها إليّ، قصيدة "صديقتي وسجائري" التي تقززت منها في البداية، ثم بُهرت بدقة تعبير نزار عن مشاعر تلك المرأة المهوَّسة برجل تعشق حتى دخان سجائره، وقصائد أمل دُنقل، ومقطع من قصة كتبتها أنتِ رثاءً لشخص أحببته.. كل شيء، لحظاتنا الجميلة القليلة كانت باقية بعد، لم تمتد إليها يد الزمن بالغدر يا ندى، فقط أضفت عليها لمسة جمال وشجن.

تلك اللحظات ستبقى، مادامت واحدة منا تذكر فلا بأس بأي شيء، لا بأس بالفراق الطويل، ولا بأس بأي ألم عانته أي منا وتحملته وحدها. لو أنكِ منحتني فرصة أخرى، سأعتذر لك طوال حياتي بأن أبقى معكِ، وألا أفعل ما فعلت ثانية أبدًا.

اليوم نحن في الإسكندرية، ودعنا أصدقاءنا قبل أسبوع وأتينا لنودع المكان الذي شهد أكمل لحظاتنا وأجملها.. لقد صارت الإسكندرية مدينة الحب بالنسبة إليَّ بفضل إيتشيرو، لكن وجهك يراود عقلي كلما سمعت اسمها، وأتذكر دائمًا حديثك عنها، وعن نساء عائلتك، والتحدي الذي تباهيت به مع محمد حسين، والذي أتمنى أن نخوضه معًا في أول لقاء.

أنا واثقة أننا سنلتقي يا ندى، ليس لديّ أي شك في هذا.

سأغيب مع إيتشيرو شهرين بالخارج أو أكثر، لا نعلم أي شيء عما سيكون عليه الغد إلا أننا سنبقى معًا، وأننا حتمًا سنعود من جديد، وبالنسبة إليّ فأنا واثقة أن أول شيء سأفعله بعد عودتي هو البحث عنك، ما لم تظهري وتقولي إنك سامحتني. سأحتفظ بالأمل طوال سفري، وأعلم أنني سأفوز بتحققه.

أظنك الآن تعرفين كل شيء، تفهمين من تلك الفتاة الصغيرة الهشة المنطوية على نفسها، ولماذا كانت غريبة الأطوار وبعيدة إلى هذا الحد، تعرفين الآن أنني لم أتخل عنك إلا لخوفي من الهجر مجددًا، وكان جبني الغبي هذا يجعلني مستحقة لعذاب كبير، عذاب أعتقد أنني مررت به في تلك الأيام التي تملكني فيها الإحساس بأن وجودك ما عاد إلا مجرد طيف خياليّ أتشبث به كي لا أكون وحدي. صديقتي العزيزة ندى، أرجوك اقبلي صداقتي، ولا تتركيني وحدي ثانية ، ولا تسمحي لي بالتخلي عنك وتركك وحدك مجددًا.

أرجوك اقبلي اعتذاري، أقولها من قلبي، وبعينين دامعتين آملتين.

مصر اليوم تبدو غريبة، كل شيء ما زال كما هو.. تجار الدين الذين أخذوا السلطة زورًا أو دون عدل ما زال أتباعهم يكفرونني كل يوم، الجيش لم يعتذر - ولا يبدو أنه سيفعل- عن سقوط كل هؤلاء الشهداء في العام المنصرم، ومحاكمات هزلية تجرى في كل مكان وتبدو نهايتها المخزية والمضحكة واضحة لأعين الجميع، وشباب الثورة كما كانوا دائمًا.. عامرين بالأمل والغضب والحب في الوقت نفسه لهذه الأرض. برغم كل هذه المتناقضات ثمة جو غريب يخيم على مصر كلها.. سكون حذر من جميع الأطراف، هناك من يخشى ضياع كعكته البرلمانية، ومن يخشى مصير مخلوع سابق، ومن يخشى سقوط شهيد جديد جواره برصاصة كانت تستهدفه هو، ومن يخشى تكرار أيام الثورة الأولى فينقطع عمله ويجوع أطفاله، ومن يخشى اهتزازات البورصة على استثماراته إذا اندلع عنف جديد.. الكل خائف، والكل في الوقت نفسه يشعر بالأمل. من يراهن على جهل البسطاء، ومن يراهن على آفة النسيان التي تتغذى علينا مع كثرة التفاصيل وتلاحق الأحداث، ومن يراهن على الأمل، ويثق أن الله سينصر الحق ويحقق العدل، ومن يراهن على أن "بكرة أحلى"، ومن يراهن على أن أموالًا بلا حصر في طريقها إليه، ولن يفصل بين كل هذه المقامرات إلا الخامس والعشرين من يناير الحالي.

الجو يعبق برائحة غريبة يا ندى، هل تشعرين بها؟ هل تشعرين بالأمل والحماس المشبوبين بحذر محب يخشى إيذاء محبوبه؟ كل يوم كنت أتابع

الأخبار وأشعر بتلك الرائحة تحيط بي أكثر، فتجعل العودة إلى التحرير شيئًا مُحببًا، ثمينًا، وتمنحني حنينًا لا يخالطه الخوف الذي ترسب في أعماقي من المكان الذي يجسد في قلبي حياة كاملة، ثرية بتفاصيل بعضها مؤلم وأكثرها رائع، لكنها في مجملها أعظم ذكرياتي.

لكنني لن أعود، ولا أريد أن يحدث ما يجعلني أفكر في هذا، لأنني حتى ولو فكرت فلن أعود، قسمي لإيتشيرو ولنفسي يمنعني من خوض تلك التجربة ثانية، كما أنني أريد أن تظل صورة ميدان التحرير في قلبي هي صورته في تلك الليلة الأخيرة من عام 2011، والتي لن أنساها أبدًا، وقد غسلت بلطفها ودفئها كل شيء مرير في قلبي.

لكن عدم عودتي لن تعني أنني سأتجاهل أي شيء قد يحدث، فأينما كنت سيظل ثمة ميدان تحرير صغير في قلبي، وسأفعل أي شيء لأجمع حول هذا الميدان الرمزي أُناسًا آخرين يؤمنون بقضيتنا حتى ولو كنت في آخر العالم. حتى ولو كنت في آخر العالم سأظل مصرية يا ندى.

مازلت حانقة على كل شيء هنا، النسوة الفضوليات، الشباب المتحرشين، الرجال الحلاليف، الصبية الوقحين، الفتيات المزعجات المتظاهرات بما ليس فيهن، كل شيء ما زال يثير سخطي، لكن هذا السخط لا يمنعني من الشعور بأن هؤلاء الناس يستحقون فرصة أفضل، ولو حظوا بها سيصيرون شيئًا آخر. عندما أعود من الخارج سأكون قد فكرت في شيء يجعلني أقدم لهم فرصة ما، لم أفكر بعد في ماهيتها، لكنني سأبذل جهدي لأقدمها بإخلاص وحب.

برغم إزعاجهم المستمر لي إلا أنني مدينة لهم، مدينة للسيدة الجدعة التي وصفت لي كيف أدخل الميدان، وللشاب الذي تلقى عني جُل ضربات ضباط الجيش، لفتاة المترو، للطبيبة التي أنقذت طفلتي، لزملاء المستشفى الميداني الذين علموني الكثير من الشجاعة والتعاون، وأنقذوني مما هو أسوأ من الموت.. لكل شخص ابتسم في وجهي ذات صباح بعفوية جعلتني أتفاءل بيومي، لكل من تمنى لي حياة سعيدة مع إيتشيرو ليلة رأس السنة. سأتذكر كل هؤلاء الأشخاص الطيبين دائمًا وأفكر فيهم كلما ضايقني شيء.

أهم شيء بالنسبة إليّ الآن، ألا يظهر رجال مصر الحقيقيون مجددًا ثم ينقصون، فقلبي لم يعد قادرًا على تحمل ألم فقد المزيد منهم. سوف أصلي لهم

من كل مكان ليحفظهم الله، وأتمنى أن تشاركيني تلك الصلاة يا ندى، دعيها تكون أول شيء نجتمع عليه.

إيتشيرو يستمر بالصلاة معي لأجلهم، وقد ذهبنا معًا إلى المستشفى وشكرنا الشاب الشجاع الذي أنقذه من ملاحقة ضباط الجيش، وزرنا عشرات آخرين قدمنا لهم احترامنا لكل ما فعلوه، وكانت تلك الزيارة شيئًا مؤثرًا جدًّا بالنسبة إليه، وعندما وصلنا الإسكندرية توجهنا لنشكر الطبيبة التي أنقذتني وطفلتي في تلك الليلة، وسددت بامتنان دينًا كان معلقًا في عنقي نحوها.

بعدها صرنا وحدنا، الزمن ملكنا، ونحن في نفس الشقة التي شهدت أسعد لحظاتنا، ولحظة مؤلمة صارت الآن دخانًا في أفق بعيد لا يكاد يُرى.. قضينا الوقت أمام النافذة الكبيرة متأملين البحر الثائر والسماء الرمادية، نرقص، نعيد استكشاف المتع الصغيرة التي بدأت بها علاقتنا، والتي تضاف إليها متع جديدة في كل لحظة تمضي.

مع كل شروق أجدد له وعدي، أطلب منه أن يصغي جيدًا فيفعل، ولكن صباح اليوم كنت بحاجة لتسديد آخر دين في عنقي له، اقتربت منه بعدما رفعت طعام الإفطار، وبهدوء أمسكت بيده وفتحتها، ووضعت في راحته الخيط الأحمر الذي أبقاني في دوامة من الوحدة لأعوام ثلاثة.

قلت له بهدوء: "احتفظ به، أو تخلص منه، فلم يعد له أي معنى بعد الآن".

-"إذن؟"

للمرة الأولى خلعت خاتم زواجنا من يدي اليمنى، لم أضعه في اليسرى قط لأنني لم أرغب في أن يتشوه بمجاورة الخيط الأحمر، ولم أكن قادرة أيضًا على التخلص من هذا الخيط. ناولته الخاتم ومددت له يسراي فوضعه في بنصري، استراح قلبي راحة لم أشعر بمثلها من قبل.

قال لي وهو يفتح راحتي ويبتسم: "بهذه المناسبة....".

أخرج بيده اليسرى الصليب الفضي الطويل من جيبه، كان أكثر لمعانًا وجمالًا مما عهدت، ونام على كفي كتحفة فنية أضناها التنقل بين عشرات الهواة حتى بلغت أخيرًا موطنها الأصلي. قال لي وهو يضم أصابعي فوقه:

-"احتفظي به، أنا واثق من أنك ستقدرين قيمته أكثر مني".

وعدته بثقة: "سأفعل".

ونظرت للصليب الذي افتقدت رؤيته على صدره منذ يومين، وجعلني لمعانه أفكر في الذكريات الكثيرة التي يحملها، والمعنى الكبير الذي يمثله له، والذي يهديني إياه الآن كما أهداني الخاتم الأغلى من قبل.

كررت بثقة أكبر: "لا تقلق، أنا بالتأكيد سأحافظ عليه".

ابتسم لي، ثم وقفنا أمام البحر ننعم بلحظة كاملة أخرى، وقف خلفي وشدني إلى حضنه معانقًا، وبرفق أنزل حمالة قميصي عن كتفي الأيسر وطبع قبلة عليه، تلك الحركة الحميمة المألوفة جعلتني أشعر بأنه سيبقى دائمًا نفسه، سيبقى إلى الأبد إيتشيرو الذي أحببت، استسلمت، طويت ذراعيّ على ذراعيه، وبقيت أستمع لأنفاسه، وأشعر بنبضاته كأنها تنبض في صدري أنا. وقتها أيقنت بأن شظية أخرى وأخيرة قد عادت لمكانها في قلبي فلم يعد مكسورًا أبدًا بعد الآن.

صديقتي العزيزة ندى

حين أسترجع ذكرياتي القليلة عنك أجد أنك أيضًا عانيت من كسر الوحدة، تمامًا كما كنت أنا، لكنني أريدك أن تثقي بأن الوحدة، والألم، والجرح، والانكسار، مجرد ندوب نختار بأنفسنا أن نزيد عمقها، أو أن نداويها لتختفي إلى الأبد. أريدك أن تثقي أن تلك الندوب جوهرية لوجودنا، فإن لم تعلمنا الحذر، وتربي ثقتنا واعتمادنا على أنفسنا، فهي على الأقل تشعرنا بمدى أهمية الشخص الذي سيداوينا منها. أريدك أن تثقي بأن هذا الشخص موجود في مكان ما، صديقًا كان أو حبيبًا، أو صديقًا وحبيبًا في آن معًا، هذا الشخص ينتظرك حتمًا، ويجمعك به قدر رائع ينتظر منك أن تمدي يديك لتلتقطي نجوم سعادته المدهشة، فلا ترددي.

لو كنتِ وحيدة الآن، لا تبقي كذلك أكثر، عودي للعالم ثانية، وثقي أن لديك أشخاصًا سيكونون أفضل أصدقائك أنت غير قادرة على رؤيتهم الآن، وأحبة سيخلصون لك إخلاصًا سيداوي أي ألم قد تشعرين به، وأوقات مرحة وسعيدة كثيرة تفتح ذراعيها لك، أرجوك يا ندى، لا تخذليها.

عودي مرة أخرى يا صديقتي..

أنا سأسافر، وسأعود من جديد، إليك، فأنا أريد حقًّا أن أصنع المزيد من الذكريات الجميلة معك، وأريد أيامًا جديدة تعبق برائحة عطرك.

هبة

22 يناير 2012

[تمــت]